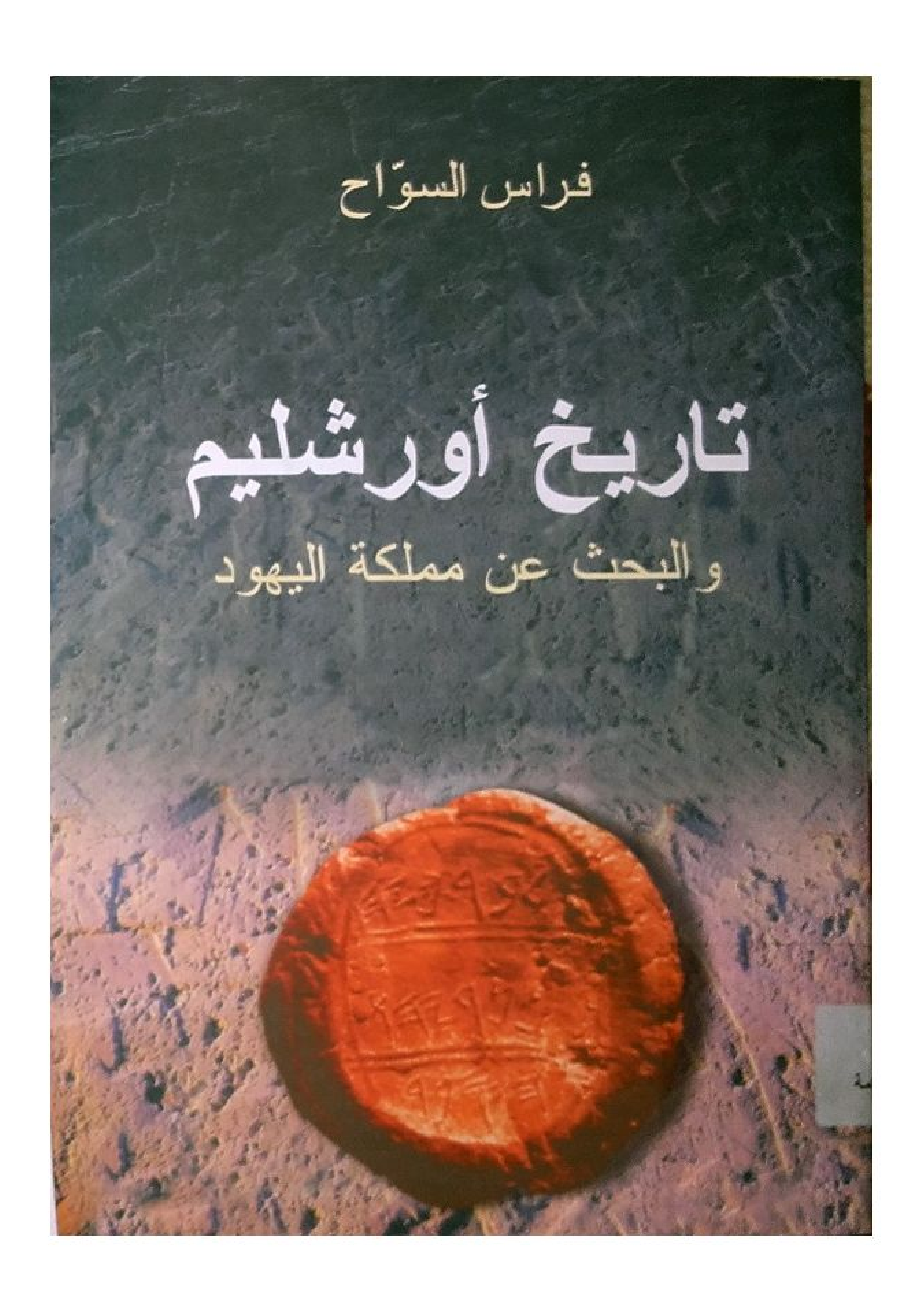
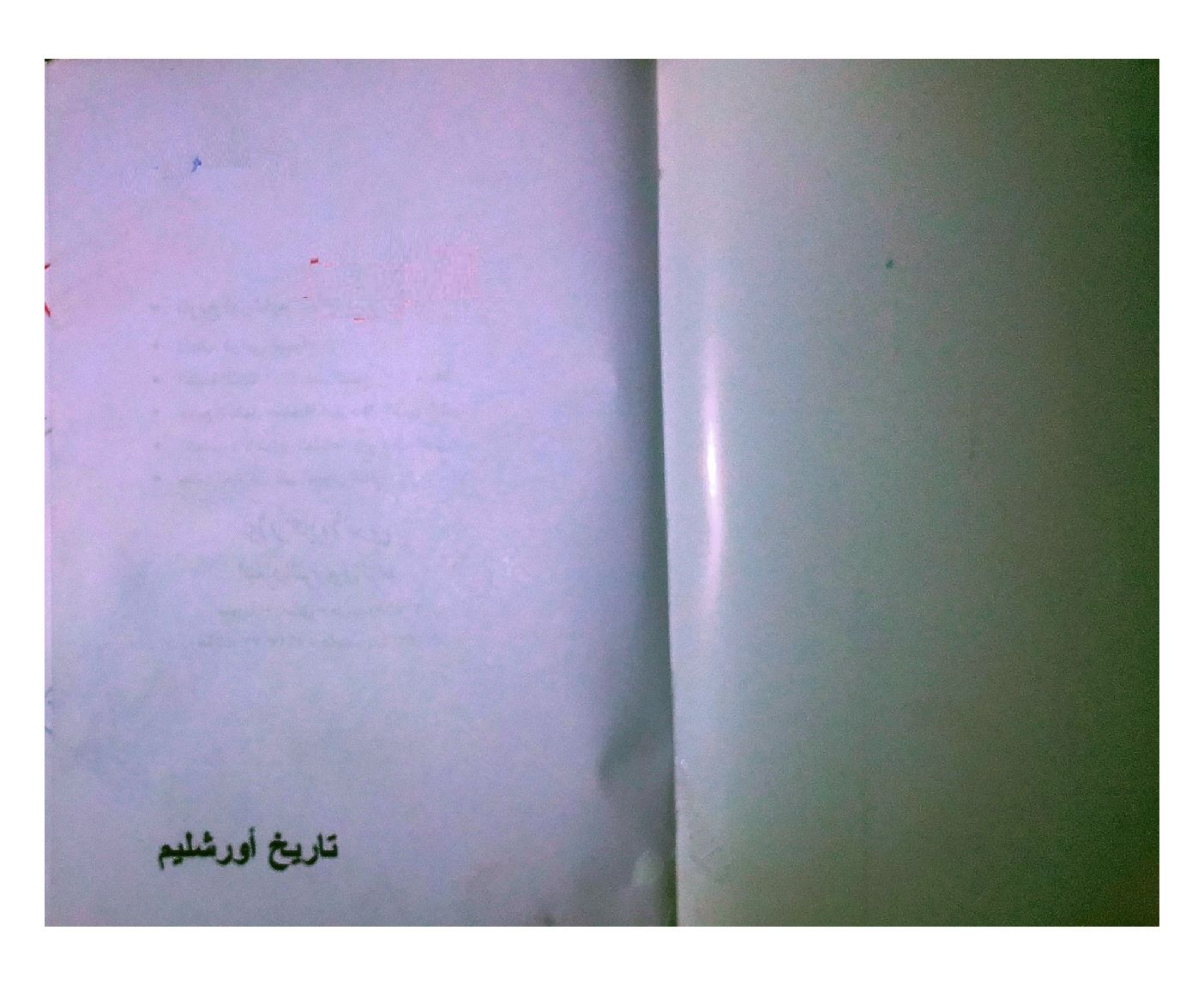
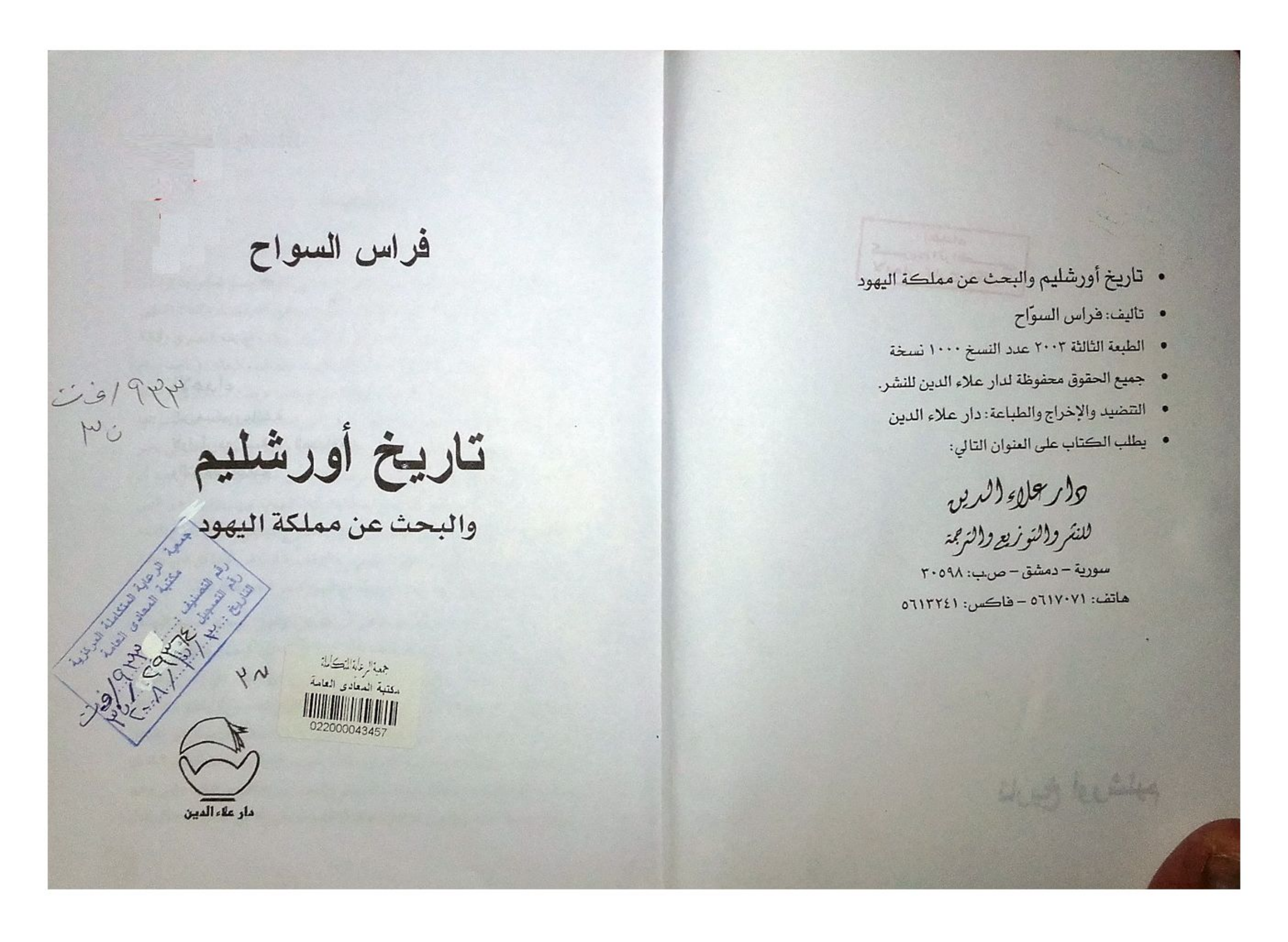

فراس السوّاح
تاريخ أورشليم
والبحث عن مملكة اليهود


تاريخ أورشليم



فراس السواح

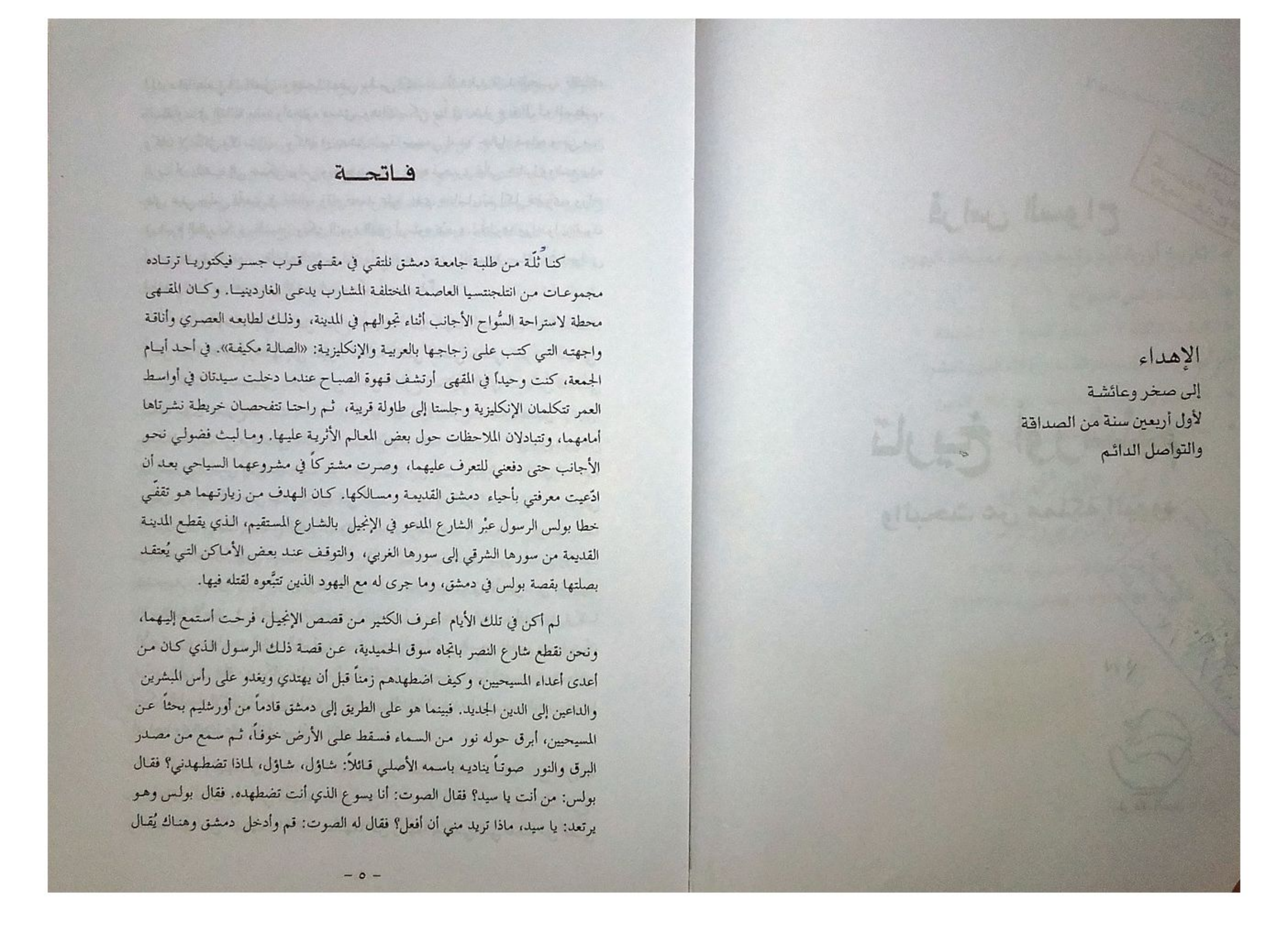
تاريخ أورشليم
والبحث عن مملكة اليهود

دار علاء الدين

• تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود
• تاليف: فراس السوّاح
• الطبعة الثالثة ٢٠٠٣ عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة

• التنضيد والإخراج والطباعة: دار علاء الدين
• يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والتوزيع والترجمة
سورية - دمشق - ص.ب: ٣٠٥٩٨
هاتف: ٥٦١٧٠٧١ - فاكس: ٥٦١٣٢٤١



الإهداء

إلى صخر وعائشة
لأول أربعين سنة من الصداقة
والتواصل الدائم

فاتحة

كنا ثُلّة من طلبة جامعة دمشق نلتقي في مقهى قرب جسر فيكتوريا ترتاده مجموعات من انتلجنتسيا العاصمة المختلفة المشارب يدعى الغاردينيا. وكان المقهى محطة لاستراحة السُّواح الأجانب أثناء تجوالهم في المدينة، وذلك لطابعه العصري وأناقة واجهته التي كتب على زجاجها بالعربية والإنكليزية: «الصالة مكيفة». في أحد أيام الجمعة، كنت وحيداً في المقهى أرتشف قهوة الصباح عندما دخلت سيدتان في أواسط العمر تتكلمان الإنكليزية وجلستا إلى طاولة قريبة، ثم راحتا تتفحصان خريطة نشرتاها أمامهما، وتتبادلان الملاحظات حول بعض المعالم الأثرية عليها. وما لبث فضولي نحو الأجانب حتى دفعني للتعرف عليهما، وصرت مشتركاً في مشروعهما السياحي بعد أن ادّعيت معرفتي بأحياء دمشق القديمة ومسالكها. كان الهدف من زيارتهما هو تقفّي خطا بولس الرسول عبْر الشارع المدعو في الإنجيل بالشارع المستقيم، الذي يقطع المدينة القديمة من سورها الشرقي إلى سورها الغربي، والتوقف عند بعض الأماكن التي يُعتقد بصلتها بقصة بولس في دمشق، وما جرى له مع اليهود الذين تتبّعوه لقتله فيها.

لم أكن في تلك الأيام أعرف الكثير من قصص الإنجيل، فرحت أستمع إليهما، ونحن نقطع شارع النصر باتجاه سوق الحميدية، عن قصة ذلك الرسول الذي كان من أعدى أعداء المسيحيين، وكيف اضطهدهم زمناً قبل أن يهتدي ويغدو على رأس المبشرين والداعين إلى الدين الجديد. فبينما هو على الطريق إلى دمشق قادماً من أورشليم بحثاً عن المسيحيين، أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض خوفاً، ثم سمع من مصدر البرق والنور صوتاً يناديه باسمه الأصلي قائلاً: شاؤل، شاؤل، لماذا تضطهدني؟ فقال بولس: من أنت يا سيد؟ فقال الصوت: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. فقال بولس وهو يرتعد: يا سيد، ماذا تريد مني أن أفعل؟ فقال له الصوت: قم وادخل دمشق وهناك يُقال

لك ماذا ينبغي أن تفعل. وعندما نهض بولس اكتشف أنه قد فقد البصر، فاقتاده المسافرون في القافلة معه، وأدخلوه دمشق، وهناك سكن بيتاً في شارع يقال له المستقيم، وكان لا يأكل ولا يشرب. وكان في دمشق تلميذ مسيحي اسمه حنانيا، فجاءه وحي من الرب أن يذهب إلى مسكن بولس ويضع يده على عينيه فيبصر، فأتى حنانيا ووضع يده على عيني بولس فأبصر في الحال، وقام فتعمد على يدي حنانيا، ثم أكل فتقوّى، وراح في اليوم التالي يكرز بالمسيح. ولكن اليهود الذين أرسلوه تتبّعوه ليقتلوه، وراحوا يراقبون أبواب المدينة ليل نهار، فأخذه التلاميذ ليلاً وأنزلوه عن سور المدينة في سلة، ونجا بولس ليغدو واحداً من أهم رسل الدعوة إن لم يكن أهمهم طُرّاً.

عندما وصلنا إلى مدخل شارع الحميدية، قلت لهما: أعتقد أننا بلغنا ضالتنا. ولكن نظرة عاجلة رفعتُها إلى العيون الناطقة بالنفي أقنعتني بفشلي كمرشد سياحي. قادتني السيدتان مستعينتين بالخريطة إلى مدخل الشارع المستقيم، الذي لم يكن لدهشتي البالغة سوى شارع مدحت باشا الذي أعرفه جيداً ولا أعرف صلته بقصص الإنجيل. وهكذا تحولت من مرشد إلى سائح، ورحت أتتبّعهما وهما تتفحصان كل زاوية وركن في الشارع الرئيسي وفروعه، حيث عثرنا على أكثر من بيت يشبه البيت الذي أقام فيه بولس، وتخيلنا أن بعض هذه الحجارة التي أعيد رصفها في الطرقات قد لامست قدمي الرسول. بعد ذلك قصدنا الجامع الأموي، حيث توقفنا عند بوّابة معبد جوبيتر، كما وصفتاها اعتماداً على كتيب مصور تحملانه، ثم درنا حول سور الجامع وراحتا تتفحصان حجارة الأساسات وتميزان الحجارة الرومانية الضخمة في الأسفل، من الحجارة الإسلامية الأصغر في الأعلى، وتخوضان في تفاصيل ومصطلحات لم أفهمها. تركنا الأموي وتوجهنا نحو الباب الشرقي، حيث تتبعنا أجزاءً من السور القديم متخيلين أن بولس يدلّى في سلة من مكان مناسب، ثم انتقلنا إلى كنيسة حنانيا التي بنيت في موقع سكن التلميذ الإنجيلي، على ما ترويه القصص المتداولة. عندما نال منا التعب عدنا أدراجنا وتواعدنا على اللقاء مساءً في المقهى.

عندما وافيتهما في المساء، كانتا تتناولان البيرة المثلجة وهما منكبتان على الخريطة مرة أخرى، فقلت في نفسي لعلهما تبحثان عن قبر آدم أو ربما عن حطام سفينة نوح. وعندما انتهينا من حديثهما الخافت سألتهما عن رأيهما بمدينتي التي قدمتا من أقصى

الأرض لزيارتها. قالت إحداهما بتهذيب أوروبي تقليدي: مدينة لطيفة وأهلها طيبون وودودون. ولكنك عندما تنسج في خيالك صورة عن مكان ما، ثم ترعى هذه الصورة سنيناً وتضيف عليها في كل يوم عنصراً جديداً، عليك ألا تزور ذلك المكان لكي تتلافى صدمة الواقع. قالت الثانية وهي تبتسم: صدمة الواقع التي تملكتنا في بغداد كانت أقوى. تصور، إننا لم نصادف هناك علاء الدين، ولم نعثر في الأسواق على مصباح يشبه مصباحه. ضحكتا معاً وضحكت معهما للنكتة. ثم تابعتْ: ما أريد قوله هو أن بغداد الحديثة كانت مختلفة عن درة الشرق التي جئنا لرؤيتها. أعتقد أنه من الأفضل لنا ونحن في طائرة العودة أن ننسى كل ما رأيناه على أرض الواقع، لكي نحافظ على حلم الشرق حياً في النفس. قلت: بل لماذا لا تعودان مرة أخرى بتصورات أكثر واقعية؟ قالت الأولى وهي تنظر إلي من وراء نظارتها السميكة نظرة ثابتة وحنونة: أيها الشاب، يبدو لي أن الحلم والخيال أكثر غذاءً للنفس من الواقع.

بعد ذلك علمتني التجارب صدق مقولة تلك السيدة. فالإنسان كائن محب للقصص والحكايا، وهو رغم عقلانيته التي يستخدمها بكفاءة عالية من أجل التعامل مع واقع الحياة اليومية، إلا أنه يسعى دوماً لمفارقة هذا الواقع نحو عالم من صنع الخيال، لا يقل صلابة وتأثيراً عن عالم الواقع. إنه منجذب عاطفياً إلى ما وراء المُعايَن والملموس أكثر منه إلى المُعاين والملموس. يتجلى هذا الانجذاب في التعبير الفني بكل ضروبه وأشكاله، كما يتجلى في أشكال التعبير الأدبي ابتداءً بالأسطورة وانتهاءً بالأجناس الأدبية الشبيهة بها؛ مثل الحكايا الشعبية والخرافات والملاحم والسِّير البطولية. ولكن إذا كان مضمون الأجناس الأدبية الشبيهة بالأسطورة لا يؤخذ دوماً على محمل الجد، ولا ينطوي على مؤيد ذاتي يُلزم الراوي والمستمع على حد سواء بتصديقه أو الإيمان برسالته، فإنَّ هالة القداسة التي تحيط بالأسطورة تسمو بأحداثها إلى مستوى الرمز، وتجعل من مضامينها رسالة سرمدية موجهة لبني البشر. هذا الوضع المتميز للأسطورة قد جعلها، من بين بقية الأجناس الأدبية، الأكثر تلبية لحاجة الإنسان القديم لفهم نفسه ككائن تاريخي يقع في نقطة الوسط بين البدايات والنهايات، ولفهم أصل الحاضر المتجذّر في الأحداث الماضية صعوداً نحو أزمان الخلق والتكوين الأولى. وبذلك تم عقد صلة لا تنفصم بين الأسطورة والتاريخ، وراحت كل ثقافة تبحث عن ماضيها وماضي الإنسانية من خلال

عملية قصّ تاريخي مشبع بالميثولوجيا، وولد جنس الكتابة التاريخية كناتج من نواتج القصّ الأسطوري.

أخذت الكتابة التاريخية تستقل عن الأسطورة عندما لم يعد الإنسان القديم يرى في الأحداث الماضية، أو الأحداث الحاضرة، نتاجاً لتدخل القوى الماورائية. عند ذلك أخذ التاريخ يتجرد من قدسيته، وراح الإنسان يبحث في الأسباب والنتائج من خلال روابطها وصلاتها الدنيوية الواقعية، وولد علم التاريخ الذي حل محل الأسطورة في تكوين الذاكرة الجمعية وعرّف الإنسان بدوره في صنع تاريخه، وبأهمية نشاطه الخلاق على الصيرورة التاريخية. ولكن هذا العلم بقي أميناً لأصوله الأولى كفن أدبي قصصي يستلهم الأسطورة ويتكئ عليها إلى هذا الحد أو ذاك. وإن من يقرأ اليوم رواد جنس الكتابة التاريخية في المشرق القديم مثل برغوشا (=بيروسوس) البابلي، ومانيتو المصري، يلاحظ إلى أي حد عمل هؤلاء الرواد على استلهام الأساطير وإعادة صياغتها على طريقتهم. ومن يقرأ هيرودوتس الإغريقي المدعو بأبي التاريخ، بعين مؤرخ عصري، يعرف إلى أي حد كان ذلك المؤرخ مفتوناً بقصص الشعوب التي ارتحل إلى بلادها وكتب عنها، وطريقته في اقتباس هذه القصص وإعادة صياغتها باعتبارها تاريخاً. ولم ينجُ علم التاريخ الحديث رغم مناهجه العلمية من هذه الآفة المتأصلة، فما زلنا إلى يوم الناس هذا نجد بعض المؤرخين يقتبسون قصصاً من الماضي ويتكئون عليها لمجرد أنها قصص قوية ومؤثرة، ومصاغة بطريقة تجعلها أقرب ما تكون إلى الحدث التاريخي.

تزداد العلاقة بين الأدب والتاريخ تعقيداً عندما يتم تجنيد الكتابة التاريخية لصالح الإيديولوجيات القومية أو الدينية. فهنا يغيب التفكير المنطقي والمنهج العلمي، وتفسح الحقائق التاريخية مكانها للقصص المزودة بسطوة الأسطورة، وما حصل فعلاً لصالح ما نود لو أنه حصل. فالإيديولوجيات القومية والدينية لا تكتفي بتفسير التاريخ، بل إنها تعمل في أحيان كثيرة على خلق التاريخ. «لأن ما يفوق الماضي أهمية هو تأثيره وعواقبه على المواقف ووجهات النظر الثقافية في الحاضر»[1]. وهنا تغدو استثارة الماضي من بين أكثر الاستراتيجيات شيوعاً في تأويل الحاضر لا في فهمه، «ويتحول الصراع على الماضي

١ – إدوار سعيد: الثقافة والإمبريالية ص٨٧.

صراع على الحاضر، من خلال ابتكارات خيالية لماض يعاد بناؤه بشكل تعسفي»[2]. وبما أن العالم لم يكن مهيئا في أي وقت من الأوقات لسيادة إيديولوجيا واحدة، قومية كانت أم دينية، فإن تاريخ الإنسانية، وخصوصا في أحقابه الأخيرة، كان على الدوام مسرحا لتجابه الإيديولوجيات التي تواجه كل منها الأخرى بسرديتها الخاصة المنطوية على رؤيتها لتاريخها ولتاريخ الآخر. ويستمر طغيان الأدب على التاريخ، وتعلو تهويمات القصص والحكايا فوق أحداث الماضي الهاجعة، وتتحول الكتابة التاريخية إلى صياغات عقائدية وبلاغية محملة بالعواطف والانفعالات.

لست هنا بصدد كتابة مقدمة في فلسفة التاريخ، ولكني بصدد التقديم لأخطر سردية تاريخية أنتجها هذا العوج في الفكر والسيكولوجيا الإنسانية، وهي السردية المتعلقة بما يدعى "تاريخ بني إسرائيل" والتاريخ اليهودي الملحق به. فهنا التقت الرؤية المنحرفة للإيديولوجيا القومية بالرؤية المنحرفة للإيديولوجيا الدينية، وتعاونتا على صياغة أكثر السرديات ضلالا وبعدا عن حقائق التاريخ ومنطق الرؤية التاريخية. وهنا برزت وتجلت القصة المشبعة بالأسطورة في أقوى أشكال سطوتها وتفوقها على الحدث والواقع، عندما تحولت سلسلة ألف ليلة وليلة التوراتية إلى تاريخ لفلسطين القديمة، وإلى مصدر موثوق من مصادر تاريخ الشرق القديم.

منذ مطالع القرن الخامس قبل الميلاد بدأ كهنة يهوذا العائدين من السبي البابلي إعداد سرديتهم عن أصول المجتمع الجديد، الذي بدأ بالتشكل في مقاطعة "يهود" التي أنشأتها الإدارة الفارسية على جزء من أراضي مملكة يهوذا السابقة. استخدم هؤلاء الكهنة ما وصلهم من أخبار متفرقة وغير مترابطة عن مملكتي إسرائيل ويهوذا الزائلتين، ثم راحوا يتوغلون في الماضي الأبعد دون مرشد ودليل سوى قصص وحكايا من الموروث المحلي، ومن موروث الشعوب الخليطة التي كان الآشوريون ثم البابليون من بعدهم قد أحلوها بدل الشعوب الفلسطينية المسبية والمهجرة. فانتقلوا من مملكتي إسرائيل ويهوذا إلى مملكة داود وسليمان المتخيلة، ثم صعودا في الزمن عبر بقية أحداث الرواية التوراتية نحو بدايات الإنسانية، فالخلق والتكوين. وقد بقيت هذه السردية في إطارها الديني اللاهوتي قرونا

٢ – إن فكرة الصراع على الماضي من أجل كسب الحاضر، هي إحدى الأفكار الناظمة لكتاب كيث وايتلام:
- Kaith Whitelam, The Invention of Ancient Israel.

طويلة، إلى أن جاء البحث الأكاديمي الحديث لينفض عنها الغبار منذ القرن التاسع عشر، ويكرسها كرواية تاريخية موثوقة. وراء هذا الموقف للبحث الأكاديمي الغربي سببان، نجد أولهما في النزعة الدينية المحافظة التي تنزرع جذورها في الأصولية المسيحية، وثانيهما في الظروف التي أحاطت بنشوء علم الآثار في فلسطين.

عندما بزغت الحضارة الغربية من ظلمة العصور الوسطى، راحت تصوغ سرديتها الخاصة عن أصولها التي وجدتها في الحضارة اليونانية الرومانية. وبما أن المسيحية، وهي الدين الرسمي للغرب، قد تبنت كتاب التوراة باعتباره عهداً قديماً سابقاً للعهد الجديد الذي هو الإنجيل، فقد راحت السردية الغربية تتابع أصولها في التاريخ الديني لبني إسرائيل، وصارت أسفار التوراة جزءاً من الموروث الديني الغربي، بما هي مقدمة لظهور المسيح ولتكوين المسيحية. ورغم عقلانية الفكر الغربي الذي يرفض كل ما هو "معجز" و"خارق" و"أسطوري"، فقد راح هذا الفكر يبحث في ركام الأساطير والخرافات التوراتية باعتبارها صياغات رمزية تنطوي على حقائق تاريخية، وتحولت الرواية التوراتية من رواية لاهوتية إلى سردية تاريخية، في الوقت الذي تم فيه صرف النظر عن بقية أساطير المنطقة المشرقية باعتبارها أدباً وخيالاً دينياً جامحاً. إن الكنيسة المسيحية التي شاءت بعد قرون من موت يسوع أن تتبنى التوراة العبرانية كنص مقدس، قد نفخت الروح في أسفار الكتاب البالية التي تعتبر بقية متحجرة من عالم قديم زال إلى الأبد، ودفعت بها في نسغ الحضارة الغربية الصاعدة. وهذا ما قاد إلى إحداث تغييرات عميقة في كيفية إدراك الغرب لنفسه وتحديده لهويته في مقابل الحضارات الأخرى، ذلك أن تأثير الإيديولوجيا التوراتية كان أعمق غوراً من مجرد الإيمان الساذج بالقصص الديني للعهد القديم، ورصد هذا التأثير يتطلب أبحاثاً طويلة مستفيضة. يكفي هنا الإشارة إلى أثر فكرة "الشعب المختار" التوراتية على نظرة الغرب لدوره في العالم كشعب مختار يحمل رسالة عالمية ظاهرها تحضير البرابرة وباطنها التسلط والنهب، وإلى ما لعبه النموذج التوراتي في احتلال أرض كنعان وإفناء أهلها بأمر الرب، من دور في حملات الإبادة الجماعية لسكان المستعمرات الأصليين، منذ غزو الأسبان والبرتغاليين أمريكا الوسطى والجنوبية وتدمير ثقافاتها الراقية، إلى غزو الصهاينة أرض فلسطين.

أما عن السبب الثاني، وهو المتعلق بظروف وملابسات نشوء علم الآثار في فلسطين، فإنَّ هذا العلم قد حُكم عليه منذ بداياته الأولى أن يكون علماً موجهاً لغاية واحدة، هي البحث عن أصول إسرائيل في الأرض المقدسة، وإثبات تاريخية الرواية التوراتية. فمن ناحية أولى كانت الجهات التي بادرت إلى تمويل الحملات التنقيبية المبكرة منذ أواسط القرن التاسع عشر، هي جهات لاهوتية أو يَغْلُب على متنفّذيها الفكر اللاهوتي التوراتي. وقد حددت هذه الجهات للحملات التنقيبية أهدافها واسْتَبَقَتْ نتائجها. ومن ناحية ثانية، فقد كانت الأركيولوجيا الناشئة في الحقل الفلسطيني بحاجة إلى مرشد ودليل قدمها لها كتاب التوراة، من خلال تحقيبه لتاريخ فلسطين إلى عدد من العصور هي: ١-العصر الكنعاني. ٢- التوطن الإسرائيلي. ٣- المملكة الموحّدة لكل إسرائيل. ٤- المملكة المنقسمة، أي إسرائيل ويهوذا. ٥- السقوط والسبي. ٦- العودة وبناء الهيكل الثاني. وبذلك كان على كل اكتشاف أثري أن يُصنَّف ضمن واحد من هذه العصور، بسبب جهل المنقبين جهلاً تاماً بتاريخ فلسطين المغيَّب من حيث الأساس.

وقد بقي علم الآثار في فلسطين أسيراً لمصادر تمويله، وكان عليه تبرير وجوده واستمراره كحقل معرفي من خلال إرضاء تلك المصادر، حتى بعد أن انتقلت رعاية الحملات التنقيبية إلى كبريات الجامعات في أوروبا وأمريكا، وذلك بسبب تأثير الحركة الصهيونية على توجهات البحث الأثري والتاريخي، وقوتها المتصاعدة في المجتمعات الغربية، وما رافق ذلك من تمهيد لإخلاء فلسطين وإنشاء الدولة الصهيونية فيها. لقد حولت الحركة الصهيونية، من خلال رجالاتها الموزعين في كل جامعة ومركز بحث، الجدل الأكاديمي حول تاريخ فلسطين من أروقة الجامعات إلى المجال الثقافي والإعلامي العام، وخرجت المسألة من حلقات البحث الضيقة لتشارك في التمهيد المدفعي الثقافي الذي رافق ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين استعداداً لإقامة دولة إسرائيل الحديثة. وبذلك تحول الجدل حول الماضي إلى صراع حول ذلك الماضي من أجل كسب الحاضر، وصار التوكيد على تاريخية إسرائيل القديمة توكيداً على حق إعادة بناء تلك الإسرائيل في العصر الحديث. وهذا ما أشار إليه بيان إعلان دولة إسرائيل، عندما استخدم مُعِدوه تعبير "إعادة تشكيل دولة إسرائيل".

حتى أواسط القرن العشرين، كان من السهل على الأكاديميين التوراتيين صياغة تفسيراتهم المتعسفة لنتائج التنقيب الأثري في فلسطين، وربطها بمجريات أحداث الرواية التوراتية، وذلك لقلة عدد المواقع التي تم الكشف عن مستوياتها الأثرية بشكل كامل، وبدائية أساليب التنقيب، والتركيز على المواقع المنعزلة عن بعضها من دون المسح الأثري الشامل لمناطق جغرافية واسعة. ولكن بعد تنقيبات عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينيون في مدينة القدس، خلال أواسط الستينات من القرن الماضي، وما خرجت به من نتائج ثورية بمعيار ذلك الزمن قدمتها على استحياء وبكل حذر، اتسعت حملات التنقيب بشكل محموم، وخصوصا في مناطق الهضاب الفلسطينية التي كانت بمثابة المناطق التقليدية لدولتي إسرائيل ويهوذا خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، والتي استولى عليها اليهود عقب حرب حزيران ١٩٦٧ (=الضفة الغربية). فلقد طالت التنقيبات التي استخدمت أسلوب المسح الميداني الشامل كل متر تقريبا من المناطق الهضبية، وقامت جامعات الكيان الصهيوني وعلى رأسها جامعة تل أبيب بتجهيز حملات تنقيبية مزودة بعلماء من شتى الاختصاصات المساعدة لعلم الآثار، عملت خلال العشرين سنة الماضية على جمع معلومات غزيرة أحدثت ثورة في أركيولوجيا فلسطين. وكلما كانت هذه المعلومات تتراكم ويتم الربط فيما بينها وسبر معناها، كلما تبين للمؤرخين والآثاريين صعوبة ملائمة هذه المعلومات مع الصورة القديمة المتوهمة عن تاريخ إسرائيل ويهوذا، وتاريخ فلسطين بشكل عام. وهنا ظهرت على جانبي الأطلسي في الحلقات الأكاديمية أصوات متفرقة عملت على إعادة نظر شاملة في الخارطة المعرفية، الآثارية والتاريخية، لمنطقة فلسطين. وما لبثت هذه الأصوات حتى شكلت تيارا أطلق عليه خصومه اسم تيار المراجعين أو الراديكاليين، انطلاقا من المراجعة الشاملة التي يقوم بها هؤلاء للنظريات والتفسيرات القديمة، وموقفهم الراديكالي المتحرر، إلى هذا الحد أو ذاك، من سطوة الفكر التوراتي.

أخذت ملامح الاتجاه الراديكالي بالتوضح على يد بحاثة متميزين مثل: J.. H Hays، وJ.M. Miller، وVan Seter، وN.B. Lemche، وG. Garbini، وG.W. Ahlstrom، وT.L. Thompson، وK. Whitelam، وآخرين. إن ما يجمع هؤلاء المؤرخين على اختلاف مشاربهم هو الموقف النقدي من الرواية التوراتية، والشروع في

استقراء الوثائق الآثارية والتاريخية بعيداً عن الأفكار المسبقة التي سيطرت على مجال البحث حتى الآن. ويذهب أكثرهم راديكالية إلى القول بصرف النظر نهائياً عن كتاب التوراة باعتباره وثيقة دينية غير تاريخية، دُونت بعد وقت طويل من الأحداث التي تتصدى لروايتها. فالباحث G. Garbini يرى أن الأسفار المدعوة بالتاريخية في التوراة(*)، قد دونت فيما بين أواخر العصر الفارسي وأوائل العصر الهيلنيستي، أي خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، من هنا فإنها لا تعتبر وثيقة معاصرة لأي حدث من أحداث الرواية التوراتية، ويجب صرف النظر عنها باعتبارها أُخيولة أدبية تجد دوافع إنتاجها في المناخ النفسي والاجتماعي للفترة المتأخرة التي أنتجتها (غاربيني ١٩٨٨).

ويرى ت. ل. تومبسون بأن المعلومات الآثارية الجديدة التي صارت متوفرة لدينا الآن تمكننا من صياغة تاريخ لإسرائيل مستقل عن البحث التوراتي، وأن مقدرتنا المتزايدة على بناء تاريخ مفصل لأصول إسرائيل القديمة تجعل من الضروري إهمال الرواية التوراتية كمصدر تاريخي، والتخلي بشكل جذري وواعٍ عن كل المسلمات التي فُرضت على المؤرخ من قبل النص التوراتي. يقول تومبسون في كتابه الجديد الذي صدر عام ١٩٩٩ في أوروبا تحت عنوان: The Bible in History، وفي أمريكا تحت عنوان The Mythic Past، ما يلي: «إن الرواية التوراتية التي تدور حول صعود وسقوط إسرائيل القديمة مازالت تتحكم بعملية إعادة بناء التاريخ لدى الحلقات الأكاديمية التوراتية. وهذه العملية، في الواقع، تبخس القصص التوراتية حقها كأدب ديني ذي قيمة فنية عالية، وذلك بالتركيز على وجهها الظاهري كأحداث ووقائع، وتحولها إلى تاريخ... إن أصحاب هذا الاتجاه، في عدم التزامهم الموقف النقدي التاريخي، ينتهكون القاعدة الأولى في علم التاريخ، ألا وهي تمييز الواقعة والحدث من الخرافة... لقد غدت الحاجة ماسة اليوم لكتابة تاريخ مستقل عن التوراة، نستطيع من خلال المقارنة معه التثبت من تاريخية أية مروية توراتية. وبدون تاريخ مستقل لفلسطين، ولإسرائيل القديمة ضمنه، فإنَّ مسألة تاريخية التوراة تبقى بدون حل»[1].

* تقسم الأسفار التوراتية إلى أربع مجموعات هي: ١- أسفار الشريعة المدعوة بأسفار موسى الخمسة. ٢- الأسفار التاريخية، مثل أسفار الملوك الأول والثاني وأخبار الأيام الأول والثاني. ٣- أسفار الحكمة، مثل سفر الجامعة وسفر الأمثال. ٤- أسفار الأنبياء، مثل سفر إرميا وسفر إشعيا.

1 - Th. L. Thompson: The Bible in History, P. 49.

هذا عن مستجدات البحث التاريخي في الغرب. أما عن مستجداته في ثقافتنا العربية الحديثة، فإن تاريخ فلسطين القديم لم يلق العناية اللازمة من قبل الباحثين العرب، ولم نكن طرفا أمام الفكر التوراتي في الصراع على الماضي، رغم حضورنا القوي في الصراع على الحاضر، والذي اتخذ بالنسبة لنا طابع صراع تكتيكي غير مزود بنظرية تاريخية. وفيما عدا كتابي الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٥ تحت عنوان: آرام دمشق وإسرائيل، فإن البحث التاريخي العربي بقي غير معني بالجدل الدائر في الغرب بخصوص تاريخ فلسطين. أما الأبحاث العربية التي راحت تبحث عن مصداقية الحدث التوراتي في بقاع جغرافية بعيدة عن فلسطين، فإنها تقع خارج مجال هذا الجدل، وهي على ثوريتها وجدية أصحابها تسير في طريق مسدود، من وجهة نظري. فالنظرية العلمية، أنى كان مجالها، هي النظرية التي تقدم في ثناياها أدوات دحضها أو إثباتها. ونظرية هؤلاء الزملاء تقوم على جدل لفظي لغوي لا يقدم لنا الحد الأدنى من أدوات الدحض أو الإثبات، وهي أقرب في منهجها إلى مدرسة النقد النصي للتوراة.

إن عمل المؤرخ الحديث ينحصر في استقراء وتفسير نوعين من البينات، الأول بينات مباشرة أركيولوجية، والثاني بينات كتابية نصية. وكلاهما يجب أن ينتميا إلى زمن الحدث الذي نؤرخ له أو قريبا من زمنه إلى درجة تسمح بإلقاء الضوء عليه. أما العكوف على تأمل وتفسير بينات نصية متأخرة، فليس من التاريخ في شيء، وهو أقرب ما يكون إلى العمل الأدبي الذي يعتمد الخيال، منه إلى الكتابة التاريخية. إن أقدم نص للتوراة موجود بين أيدينا هو نص مخطوطات البحر الميت، التي احتوت على أجزاء غير كاملة من جميع الأسفار التوراتية، عدا سفر أشعيا الذي وجد كاملا في أكثر من مخطوطة، إضافة إلى شذرات من نصوص أخرى اعتبرت فيما بعد غير قانونية. وهذا يعني أن أقدم أحداث الرواية التوراتية المروية في سفر التكوين منقطعة عن أقدم نص للتوراة بما يقارب الـ١٩٠٠ سنة، وأن قصص الخروج من مصر ودخول كنعان منقطعة بما يقارب الـ ١٣٠٠ سنة، وقصص مملكة داود وسليمان بما يقارب الـ ١١٠٠ سنة، وقصص مملكتي إسرائيل ويهوذا بما يتراوح بين ٩٠٠و٦٠٠سنة.

إن المشكلة التي تعاني منها نظرية التوراة التي جاءت من جزيرة العرب، هي نفس مشكلة البحث التاريخي التوراتي، فكلاهما ينظر إلى أسفار العهد القديم باعتبارها نصا

مطّرداً يروي أحداثاً مترابطة ومتسلسلة زمنياً، في الوقت الذي تكشف فيه هذه الأسفار، للباحث المتحرر من سُلطة الأفكار المتبعة، عن نفسها باعتبارها نوعاً من الجمع التراثي الذي يؤلف بين موروثات أدبية مختلفة الأزمنة والأصول، ويرتبها في تسلسل زمني مفروض عليها من خارجها، ووفق منظور إيديولوجي معين، هو منظور كهنة أورشليم من الفترة الفارسية والهلينستية المتأخرتين. من هنا، فإنني إذا سلّمت جدلاً مع هؤلاء الزملاء (الذين يقبلون بتاريخية الرواية التوراتية ولكنهم يغيرون جغرافيتها) بأن أحداث سفر التكوين، مثلاً، لم تجرِ بين الفرات السوري وفلسطين، أو أن الخروج لم يكن من مصر والدخول لم يكن إلى كنعان فلسطين، فإنني لا أسلّم معهم بأن هذه الأحداث المتفرقة تشكل فيما بينها تاريخاً متسلسلاً جرى في زمن ما ومكان ما.

إن قصة بني إسرائيل التوراتية لم تجرِ على أرض فلسطين، ولا في أي مكان جغرافي آخر، بل هي قصة أصول مفعمة بالإيديولوجيا الدينية، تهدف إلى ابتكار تاريخ للدين اليهودي الذي صاغه كهنة أورشليم خلال ثلاثة قرون من الفترة المدعوة بفترة ما بعد السبي أو فترة الهيكل الثاني، كما تهدف إلى تأصيل مجتمع أورشليم الجديد في أرضه الجديدة، وإسباغ الوحدة والتجانس على المجموعات الإثنية المختلفة التي ساقها الفرس إلى مقاطعة «يهود» التي خلقوها على جزء من أراضي مملكة يهوذا البائدة. من هنا، فإنَّ جُلَّ البحث التاريخي الذي دار حول مسألة أصول إسرائيل وتاريخها، قد دار حول أُحيولة لا تمتلك من الوجود الواقعي إلا أقله. وهذا القليل الذي يتوافق مع تاريخ المنطقة الفلسطينية، لا يتعدى مجموعة أخبار تنتمي إلى الهزيع الأخير من حياة مملكتي إسرائيل ويهوذا، وهي مرحلة قريبة زمنياً من فترة تدوين التوراة، وذكرياتها كانت حية ومتداولة حتى ذلك الوقت.

تاريخ أورشليم
والبحث عن مملكة اليهود

تقع أورشليم في بؤرة الرواية التوراتية، وحولها يدور التاريخ الديني والسياسي لليهود. فمع استيلاء الملك داود على أورشليم واتخاذها عاصمة له (والحديث هنا للمؤرخين التوراتيين)، تحول النظام القبلي البدائي للجماعات العبرانية إلى دولة منظمة

ومملكة مرهوبة الجانب. ومع بناء هيكل سليمان في المدينة، جرى تنميط الشعائر والعبادات في مركز روحي وحّدَ القبائل دينياً مثلما وحّدتها العاصمة سياسياً.

ولكن أورشليم، شأنها في ذلك شأن كل مكان تتخذ منه قصص الأصول مسرحاً لها، قد أخذت بالارتفاع من مستوى الواقع إلى مستوى الرمز والأسطورة. ومع تطوير الرواية التوراتية نحو نهاياتها، تحولت إلى موطن خيال وعواطف وانفعالات وآمال مسيانية مهدية، حتى تخلت عن طبيعتها الأرضية، وصارت قلب بلد فردوسي في مملكة الرب القادمة على الأرض، والمكان الذي تجري فيه الدينونة الأخيرة للأمم. ثم جاءت الكتابات المسيحية المبكرة لتنسج على هذا المنوال، فهنالك أورشليم سماوية ليست المدينة الأرضية إلا ظلاً باهتاً لها، ولسوف تهبط من السماء في آخر الزمن لتكون مسكناً لله مع الناس. نقرأ في سفر الرؤيا: «وأنا يوحنا، رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء، من عند الله، كعروس مزينة لرجلها، وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هو ذا مسكن الله مع الناس. وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً». ٢١: ٢-٣.

من هنا، تتخذ معالجاتي لتاريخ فلسطين القديمة، في هذا الكتاب، من أورشليم نقطة انطلاق ونهاية، ومحوراً يدور حوله البحث بكامله رغم تشعُّب موضوعاته وعدم اقتصاره على تاريخ أورشليم. وذلك في محاولة لنزع غلالات الخرافة عن هذه المدينة، والكشف عن تاريخها الحقيقي، وعن تاريخ فلسطين المدفون تحت ركامٍ من الحكايا التوراتية، وركام آخر من البحث التاريخي المصاب بعمى الألوان التوراتي. سوف يغطي البحث فترة تزيد عن ألفي سنة من تاريخ أورشليم، في السياق العام لتاريخ فلسطين. كما يغطي أيضاً ثلاثة آلاف عام من تاريخ فلسطين الكبرى، في السياق العام لتاريخ سورية والشرق القديم عامة. وهدفنا من ذلك كله هو الإجابة عن بضعة أسئلة محددة هي:

١. من هم اليهود؟ ومتى تشكلت الإثنية اليهودية في فلسطين؟
٢. متى نشأ الدين اليهودي، وأين، وكيف؟
٣. هل كان لليهود كيان سياسي في فلسطين؟ وما هو المدى الزمني والجغرافي لهذا الكيان في حال وجوده؟
٤. هل دانت فلسطين باليهودية في يوم من الأيام؟

٥. ما العلاقة بين التاريخ اليهودي، الذي ابتدأ في القرن الخامس قبل الميلاد، وتاريخ مملكتي إسرائيل ويهوذا خصوصاً، وتاريخ فلسطين الكبرى على وجه العموم؟

من المفترض أن يكون كتابي الجديد هذا، بمثابة استمرار وتكميل لكتاب سابقٍ لي صدر عام ١٩٩٤ تحت عنوان: آرام دمشق، وإسرائيل. إلا أن تطابق المساحة الجغرافية والتاريخية للكتابين، من شأنه أن يفرض بعض التداخل بينهما. ولكن هذا التداخل لن يظهر على شكل تكرار لمعلومات وأفكار سابقة، وإنما على شكل إضاءات جديدة تفرضها مستجدات البحث الأثري بشكل خاص، وهي المستجدات التي تابعتها في الدوريات المتخصصة والكتب الجديدة، وصولاً إلى مطلع عام ٢٠٠١، معتمداً قدر الإمكان على نتائج البحث الأركيولوجي الإسرائيلي الحديث في الأرض المحتلة، وتفسيرات ونظريات المنقبين الإسرائيليين أنفسهم، كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

ولكني أود لفت نظر القارئ منذ البداية إلى أن هذا الكتاب ليس تاريخاً شاملاً وافياً لفلسطين القديمة، لأن التزامه بالإجابة على الأسئلة المحددة التي سردتها أعلاه، من شأنه تضييق مجال البحث والتركيز على محاور بعينها على حساب محاور أخرى عديدة. يضاف إلى ذلك أن مشروعاً متكاملاً لتاريخ فلسطين، في الوقت الحاضر، يتجاوز إمكانية عدد وافر من الباحثين المتعددي الاختصاصات، والمزوّدين بكل الدعم المادي والمعنوي اللازم، فما بالك بالمحاولات الفردية التي لا يملك أصحابها من العدة والعدد سوى ما حصَّلوه بقدراتهم الذاتية، وما يدفعهم داخلياً للبحث عن الحق وعن الحقيقة.

كما أني أود البوح لقارئي بأمر يثقل كاهل كل من عانى الكتابة التاريخية، وهو أننا في كتابة التاريخ لا نطمح إلا إلى تقديم تصورات عامة عما حدث في الماضي، ولكننا غير قادرين بالفعل على إعادة بناء ذلك الجزء من الماضي الذي اخترنا استقصاءه، أو التحدث بيقين كامل عما وقع فعلاً. فالماضي قد تلاشى في عالم الغيب، ولم يترك لنا سوى شذرات من نصوص ولقى أثرية، علينا تفسيرها والربط المنطقي بينها، ولكن مع ترك هامش من الشك والاعتراف بالجهل. هذا الشك هو الذي يحول بيننا وبين العمل على ردم الفجوات في معرفتنا، ويجعلنا في منجاة من التحول إلى أدباء يصوغون قصة مطردة انطلاقاً من وثائق غير مطردة.

سوف أبدأ في الفصل الأول من هذا الكتاب بقصة اكتشاف أورشليم القديمة من قِبَل بعثات التنقيب البريطانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثم أتخِذُ من أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد، نقطة للانطلاق صعوداً نحو مطالع التاريخ الفلسطيني في الألف الثالث قبل الميلاد. ثم هبوطاً نحو القرن الثاني الميلادي.

إطلالة جغرافيّة وطبوغرافيّة

لكي نأخذ صورة واضحة عن جغرافية وطبوغرافية فلسطين، لابد من رؤيتها ضمن التكوين الجغرافي الأوسع للمنطقة السورية وخصوصاً في شريطه الغربي الذي تُشكل فلسطين وشرقي الأردن امتداده الجنوبي.

تتألف بلاد الشام من أربع مناطق جغرافية متجاورة ومتمايزة عن بعضها بحدة، تمتد من الشمال إلى الجنوب (انظر الخريطة في الشكل رقم ١). فلدينا أولاً شريط ساحلي ضيق محصور بين الجبال الغربية والبحر المتوسط، يأخذ بالاتساع تدريجياً في منطقة فلسطين. وراء هذا الشريط سلسلتان متوازيتان من الجبال، بينهما منخفض يدعى سورية المجوفة، وهو عبارة عن سهل خصيب يجري فيه نهران رئيسيان ينبعان من خط تقسيم مياه مركزي في البقاع، هما نهر الأردن الذي يتجه جنوباً ويصب في البحر الميت، ونهر العاصي الذي يتجه شمالاً عبر سهول حمص فحماة فسهل الغاب، ثم ينعطف مجتازاً السلسلة الغربية ليصب في البحر المتوسط. والسلسلتان تبلغان أقصى ارتفاع لهما في منطقة الوسط، حيث تشكلان سلسلة لبنان الغربية وسلسلة لبنان الشرقية، وتحصران فيما بينهما وادي البقاع. إلى الشمال والجنوب من قمم لبنان تنخفض السلسلتان وتتحولان إلى نجود واسعة، بحيث تشكل جبال النصيرية وما يليها من جبال اللكام الامتداد الشمالي للبنان الغربي، بينما تشكل مرتفعات الجليل وما يليها من منطقة الهضاب الفلسطينية الامتداد الجنوبي له. تتخلل سلسلة الجبال السورية الغربية ثلاث فجوات رئيسية؛ فلدينا في الشمال فجوة تقع بين الحد الشمالي لجبال النُصيرية وجبال الأمانوس، وفيها ينعطف نهر العاصي باتجاه البحر، وفجوة ثانية وسطى تقع بين الحد الجنوبي لجبال الجليل والهضاب الفلسطينية، وهي مرج ابن عامر المعروف في التاريخ القديم بوادي يزرعيل أو إسدريالون. أما امتدادات لبنان الشرقي باتجاه الشمال والجنوب

١- خريطة سورية الطبيعية

فأقل تحدراً، بحيث يتحول الامتداد الشمالي إلى منطقة تلّيّة غير منتظمة تستمر حتى ملاطية. وإلى الجنوب يندمج لبنان الشرقي بمرتفعات شرقي الأردن، المعروفة تاريخياً بمرتفعات جلعاد وعمون مؤاب. وراء شريط الجبال الساحلية باتجاه الشرق، يتجاور ويتداخل شريط الأراضي الخصبة مع الصحراء، فتصل أحياناً ألسنة الصحراء حتى نهر العاصي، بينما يمتد الشريط الخصب حتى نهر الفرات في المناطق الشمالية.

تبدو منطقة فلسطين صورة مصغرة عن منطقة الغرب السوري الذي تُشكل قسمه الجنوبي، وهي تتألف من المناطق الجغرافية التالية: (انظر مصور فلسطين في الشكل رقم٧ في القسم المصور آخر الكتاب).

١- شريط الموانئ الساحلية: وأهمها عكو (عكا)، ويوبا (يافا)، وأشقلون (عسقلان)، وغزة، لعبت هذه الموانئ، دوراً مهماً في التجارة الدولية عبر العصور، مع مصر وآسيا الصغرى وجزر بحر إيجه وغيرها من مناطق المتوسط.

٢- السهل الساحلي: وهو شريط خصيب من الأرض الموازية للبحر يتسع بعد رأس الناقورة ليشكل سهل شارون في الشمال، ثم سهل فليستيا في الجنوب(*).

٣- سهل شفلح أو منطقة التلال المنخفضة: ويُشكلها الانحدار التدريجي لمنطقة المرتفعات أو الهضاب الفلسطينية.

٤- الهضاب الفلسطينية: وهي الامتداد الجنوبي المنخفض للبنان الشرقي. وتتألف من أربعة أقسام هي: أ- مرتفعات الجليل في الشمال. ب - الهضاب المركزية (مرتفعات السامرة قديماً ومرتفعات نابلس حديثاً). جـ - مرتفعات يهوذا (جبال القدس حديثاً). تنحدر منطقة الهضاب الفلسطينية بشكل حاد نحو وادي الأردن، وخصوصاً عند مرتفعات يهوذا التي يتشكل وراءها منطقة صخرية وعرة تدعى بصحراء يهوذا. د- نجدة النقب، وهي بمثابة الامتداد الشمالي لصحراء سيناء.

٥- وادي الأردن: وهو غور عميق يمتد بين بحيرة طبريا والبحر الميت، ثم يستمر بعد ذلك في وادي عربة.

(*) سوف نستخدم فيما يلي الأسماء التاريخية للمواقع والهيئات الجغرافية، لا الأسماء المعاصرة وكذلك الأمر فيما يتعلق ببقية هذا الكتاب.

٦- وادي يزرعيل، أو اسدراليون: دعاه العرب مرج ابن عامر، وهو سهل واسع خصيب جداً يمتد في الفتحة الجنوبية بين مرتفعات الجليل والهضاب المركزية. وقد كان عبر العصور ممراً مهماً يصل منطقة الساحل، الفلسطيني ومصر بمناطق سورية الداخلية، كما كان ممراً تقليدياً لعبور الحملات العسكرية.

٧- إلى الشرق من وادي الأردن، وإلى الجنوب من جبل حوران وهضبة الجولان، تبرز على التوالي مرتفعات جلعاد، وعمون، ومؤاب، كاستمرار متدرج في الانخفاض للبنان الشرقي.

إن الصورة العامة التي تقدمها لنا جغرافية فلسطين، وجغرافية سورية الغربية بشكل عام، هي صورة منطقة متنوعة إلى حد كبير تتألف من بقع وبيئات معزولة عن بعضها. وقد انعكست هذه الجغرافية المتنوعة على الحياة السياسية، ففي منطقة ذات طبيعة كهذه، يصعب تحقيق الوحدة السياسية، لذا كانت بلاد الشام على الدوام مقسمة إلى عدد من الدويلات الصغيرة المستقلّة، الأمر الذي جعلها عرضة للسيطرة من قبل الإمبراطوريات الكبرى المجاورة. ولكن سورية قد أفادت في الوقت نفسه من كونها طريقاً تجارياً، فقد تخللتها منذ أقدم العصور طرق التجارة العابرة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، متحاشية النطاق الجبلي الوعر ومتبعة شريط الموانئ الساحلية، أو ما يليها من سهول، أو حافة الصحراء. ولما كان المسلك التجاري الساحلي بحاجة إلى الاتصال بالمسلك الداخلي الذي يتبع حافة الصحراء، فقد احتلت الفجوات في الحاجز الجبلي أهمية بالغة، وكانت السيطرة على هذه الفجوات في بعض الأحيان سبباً في نشوء منازعات عسكرية بين القوى الكبرى في المنطقة. فقد كان وادي يزرعيل، على سبيل المثال، منطقة تنازع كبرى بين مصر من جهة وحاتي وبابل وآشور من جهة ثانية. كما حاولت القوى الإقليمية الكبرى وضعه تحت سيطرتها، مثلما فعلت مملكة آرام دمشق خلال القرون الأولى من الألف الأول قبل الميلاد.

وبما أن التجارة تشجع حياة المدينة وتساعد على ازدهارها، فقد نشأ على طول الخطوط التجارية صفان من المدن؛ الأول صف من الموانئ البحرية على طول الساحل طورت تجارتها عبر المتوسط غرباً، والثاني صف من الموانئ الصحراوية على طول الحد الصحراوي طورت تجارتها شمالاً باتجاه آسيا الصغرى وشرقاً باتجاه وادي الرافدين. وفي

الممرات الجبلية التي تصل الطريق التجاري الساحلي بالطريق التجاري الداخلي نشأت صفوف من المدن التجارية تقوم بدور الوساطة بين صف الموانئ البحرية وصف الموانئ الصحراوية. أهم وأطول هذه الصفوف العرضانية هو صف مدن وادي يزرعيل الذي انتظمت عليه مدن فلسطينية هامة منذ مطالع التاريخ وهي: يزرعيل ومجدو وتعنك وبيت شان (بيسان الحالية).

الفصل الأول

بدايات التنقيب في فلسطين
واكتشاف أورشليم القديمة

بدأت قصة التنقيب الأثري في فلسطين عام ١٨٦٥، مع تشكيل هيئة بريطانية أُطلق عليها اسم صندوق التنقيب في فلسطين – Palestine Exploration Fund. تشكلت الهيئة برعاية الملكة فيكتوريا، ورئاسة أعلى مرجع ديني في المملكة وهو أسقف كانتربري، وعضوية ثمانية وسبعين من أبرز شخصيات المجتمع الدينية والاجتماعية في ذلك الوقت. وقد بلغ عدد المتبرعين الأوائل للصندوق ٢٧٢ متبرع، بينهم الملكة التي تبرعت بمبلغ مئة جنيه استرليني، وبلغت حصيلة التبرعات ٣٠٤٥ جنيه.

أما الهدف من إحداث هذا الصندوق، فهو السعي وراء معلومات أركيولوجية متزامنة مع سجلات الكتاب المقدس. وعلى حد تعبير بيان تأسيس الصندوق، فإنَّ أهدافه تتركز في: «التحري الدقيق والمنهجي لآثار وطبوغرافية وجيولوجية وعادات وتقاليد الأرض المقدسة، من أجل توضيح مسائل الكتاب المقدس»[1]. ولعل مما زاد في حماسة الجهات التي تنادت لتشكيل الهيئة، هو النجاحات التي حققتها الأركيولوجيا البريطانية في العراق، عندما اكتشف المنقب اللامع هنري لايارد أهم مواقع الحضارة الآشورية في نمرود ونينوى، وجلب إلى المتحف البريطاني عدداً من أهم روائع النحت الآشوري، بينها المسلة المعروفة باسم المسلة السوداء، وهي نصب نقش عليه الملك شلمنصر الثالث (٨٥٩–٨٢٤ ق.م) كتابات وصوراً تمجد انتصاراته في بلاد الشام، بينها صورة تمثل رجلاً في حلّة كنعانية ساجداً عند قدمي الملك الآشوري، وتحت الصورة كتابةٌ تقول:

---

١ – من أجل هذا المقتبس وما يليه من قصة اكتشاف أورشليم، راجع الفصل الأول من كتاب:
- Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, London 1974.

«جزية ياهو بن عمري». وكانت هذه الجملة بمثابة أول نص خارجي مكتشف يتقاطع مع أي حدث من أحداث الرواية التوراتية. ذلك أن ياهو المذكور هنا، هو الملك العاشر في سلسلة ملوك إسرائيل الذين حكموا في مدينة السامرة، على ما ورد في سفر الملوك الثاني من الكتاب.

بعد عامين من المسح التمهيدي ورسم الخرائط لقسم كبير من أراضي فلسطين، وصلت الحملة التنقيبية الأولى برئاسة الكابتن وارن R. E. Warren الضابط في الجيش البريطاني، وهدفها القدس. كانت القدس في ذلك الوقت محصورة ضمن سورها القديم الذي رممه وأعاد بناءه السلطان العثماني سليمان القانوني في القرن السادس عشر، مستفيداً من خط أساسات السور الروماني الذي بني في مطلع القرن الثاني الميلادي. عندما شيَّد الإمبراطور هادريان مدينة إيليا كابيتولينا فوق أنقاض مدينة أورشليم التي سواها بالتراب. وقد استخدم المنقب وارن الخريطة التي أعدها المسح التمهيدي لمدينة القدس من أجل تحديد مواقع التنقيب داخل السور، كما اعتمد على كتاب التوراة، وعلى كتابي المؤرخ اليهودي يوسيفوس من القرن الأول الميلادي وهما: «تاريخ اليهود»، و«الحروب اليهودية»، اللذان يحتويان على وصف لمعالم المدينة في القرن الأول، ولكن مشكلة هذه المراجع، أن التوراة يفتقر إلى الدقة في تحديد الملامح الطبوغرافية، أما مؤلَّفا يوسيفوس فلا يصلحان إلا لتحديد بعض المعالم المعاصرة له، لأنه اعتمد فيما يتعلق بالفترات الأقدم على القصص والروايات المتداولة أكثر من اعتماده على التحقيق التاريخي[1].

أجرى وارن عدداً من الأسبار في المواقع المشار إليها بأرقام داخل دوائر على الخريطة الموضحة في الشكل رقم٢، ولكن النتائج لم تكن مشجعة، لأن أقدم ما توصل إليه يعود إلى العصر البيزنطي. لذلك قرر التوجه إلى منطقة الحرم الشريف، التي يُعتقد بأنها موقع هيكل سليمان القديم. وهنا اصطدم برفض السلطات العثمانية التي لم تسمح له بالتنقيب داخل سور الحرم، رغم تقديرها للهيئة السامية التي تقف وراء مشروع التنقيب. ثم اتفق الطرفان على إجراء الأسبار حول الحرم وعلى بعد بضعة أمتار من السور الخارجي.

---

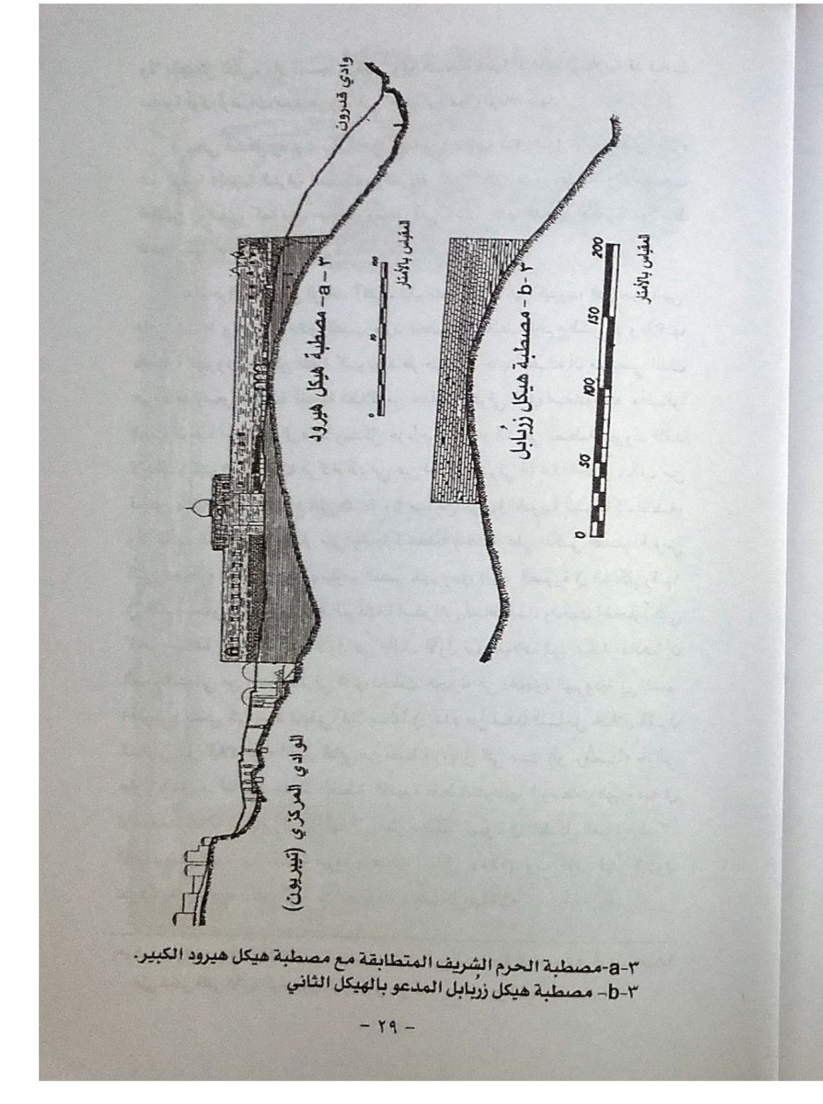
١ - مصدرنا الرئيسي عن قصة اكتشاف أورشليم هو كتاب المنقبة البريطانية كاثلين كينيون:

- Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, London 1974.

٢ - مدينة القدس في القرن ١٩ م

يقوم الحرم فوق مصطبة حجرية هائلة ترتكز على ذروة سلسلة تلال القدس الشرقية، وترتكز بجدارها الشرقي على أرضية وادي قدرون، وبجدارها الغربي على أرضية وادي تيريون كما دعاه يوسيفوس، وهو الوادي المركز الذي يقع بين سلسلة الهضاب الشرقية للقدس والهضاب الغربية (انظر المخطط في الشكل رقم٣ A). فلقد حلّت هذه التقنية المعمارية مشكلة تشييد معبد واسع على ذروة الهضبة الضيقة التي لا يتجاوز عرضها ثمانين متراً، وسهلت فرش أرضية فوق سطح المصطبة تتسع لباحات المعبد وبنائه الرئيسي وملحقاته. كانت خطة وارن تستهدف الوصول إلى الأساسات السفلية للمصطبة التي ترتكز على القاع الصخري للتل من أجل تحديد تاريخ بنائها. فمن المفترض أن هيكل أورشليم قد مرّ بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هي هيكل سليمان الذي يرجع إلى أواسط القرن العاشر قبل الميلاد، والذي تهدم مع بقية أورشليم في حملة نبوخذ نصر ملك بابل عام ٥٨٧ق.م. والمرحلة الثانية هي هيكل زرُبابل الذي بناه العائدون من السبي البابلي على أنقاض هيكل سليمان حوالي عام ٥١٦ ق.م، ويدعى أيضاً بالهيكل الثاني. أما المرحلة الثالثة فهي توسيعات هيرود الكبير، الملك الذي عينه الرومان لحكم أورشليم من عام ٣٧ إلى عام ٤ق.م. فقد كان هذا الملك ذو الأصل العربي محباً للعمران وتشييد المنشآت الضخمة في عاصمته وفي خارجها، وقام في سياق نشاطاته هذه بتوسيع هيكل زرُبابل وزاد مساحته إلى الضعف، وذلك بتوسيع المصطبة القديمة وترميم المعبد والإضافة عليه.

من أجل الوصول إلى الأساسات السفلية للمصطبة، عمد المنقب وارن إلى حفر أنفاق شاقولية موازية لجدار المصطبة، بعمق ثلاثين متراً أو أكثر، وصولاً إلى القاعدة الصخرية التي يرتكز عليها الأساس تحت ذلك الردم الهائل من الركام الترابي. وعند ملامسة القاع اتجه نحو الأساس بدهليز أفقي حتى كشف عن حجارته. وقد استطاع وارن باستخدام هذه الطريقة الشاقة والخطرة، الدوران حول جدران المصطبة الأربعة والكشف عن أساساتها. وتبين له أن الأقسام المطمورة في التراب هي استمرار للأقسام الظاهرة فوقه، وأن الأسلوب المتبع في بنائها وطريقة نحت ورصف حجارتها تنتمي إلى النمط المعماري لعصر هيرود الكبير. وبذلك تم التأكد منذ ذلك الوقت المبكر من أن البقية الباقية من هيكل أورشليم، وهي مصطبته الهائلة، لا علاقة لها بهيكل سليمان



٣-a-مصطبة الحرم الشريف المتطابقة مع مصطبة هيكل هيرود الكبير.
٣-b- مصطبة هيكل زرُبابل المدعو بالهيكل الثاني

ولا بالهيكل الثاني، وأن المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبقية المنشآت الإسلامية قد قامت مباشرة فوق أرضيات معبد هيرود، التي جرى ترميمها والإفادة منها.

يعطي الشكل رقم ٤ فكرة عن تقنية وارن، وفيه نرى النفق الأول الذي حفره عند الزاوية الجنوبية الشرقية للمصطبة، والطريقة التي كان يتم بواسطتها إنزال وسحب العاملين في النفق، كما نرى حجارة الأساس التي كشف عنها الدهليز الأفقي، ونلاحظ صلتها ببقية جدار المصطبة.

بعد حوالي قرن من الزمان، أكدت تنقيبات حملة كاثلين كينيون، التي جرت بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٧، نتائج المنقب وارن بخصوص مصطبة الحرم الشريف وعلاقتها بالعمارة الهيرودية. ولكن المنقبة كينيون قد طرحت رأياً جديداً مفاده أن مهندسي الملك هيرود قد وسعوا المصطبة القديمة انطلاقاً من جدارها الشرقي الذي استفادوا منه وأضافوا إليه، وأن هذا الجدار مازال قائماً ويشكل جزءاً من الجدار الشرقي لمصطبة هيرود. فلقد لاحظت كينيون بعد إزالة الركام الترابي عن الجدار الشرقي أن هذا الجدار يتألف من قسمين يلتقيان عند خط يقع على مسافة ٣٠ متراً من الزاوية الجنوبية الشرقية للمصطبة، وأن القسم الشمالي من الجدار مبني بحجارة محدبة وخشنة على عكس القسم الجنوبي المبني بحجارة ملساء منحوتة بأسلوب العصر الهيرودي (انظر الصورة في الشكل رقم١ في القسم المصور آخر الكتاب). ثم قادها استعراض أنماط البناء ونحت الحجارة التي كانت سائدة خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، إلى نتيجة مفادها أن القسم الشمالي من الجدار الشرقي الذي تختلف حجارته عن الحجارة الهيرودية في القسم الجنوبي، ينتمي إلى نمط فينيقي كان سائداً في عدد من مدن الساحل خلال القرن السادس قبل الميلاد، وأنه الجدار الباقي من مصطبة زرُبابل التي بنيت (أو رُمِّمَتْ) حوالي عام ٥١٦ق.م. أما بقية جدران المصطبة القديمة فقط استوعبتها التوسعات الهيرودية في الاتجاهات الثلاثة الباقية، ولم يبقَ لها أثر (انظر مخطط كينيون في الشكل السابق رقم٣، الذي يوضح الصلة بين مصطبة هيرود ومصطبة زربابل الأقدم). ومع ذلك فإنَّ كينيون تعترف بعدم وجود بيِّنات أثرية ستراتيغرافية(*) تدعم نظريتها هذه.

(*) الستراتيغرافيا – Stratigraphy، هي أسلوب حديث في تأريخ البنى المعمارية المطمورة في التراب، اعتماداً على فحص اللقى الأثرية الموجودة في الردم الترابي مثل كسرات الفخار وما إليها.



٤- أحد أسبار المنقب وارن الشاقولية
حول مصطبة الحرم الشريف

هذا وتلخص السيدة كينيون نتائجها بخصوص هيكل أورشليم بقولها: «إن المصطبة القائمة اليوم هي كل ما بقي لنا من هيكل هيرود الذي يعود إلى نهاية القرن الأول قبل الميلاد. فبعد تهديم المعبد من قبل الرومان في حملتهم على أورشليم عام ٧٠ ميلادية، تم استخدام حجارته في تشييد أبنية مدينة إيليا كابيتولينا الرومانية، وما بقي من الحجارة جرى الإفادة منه في الفترة البيزنطية والإسلامية. وحتى إذا سمحت الظروف بالتنقيب تحت الحرم الشريف وقبة الصخرة، والذي سيكون من نتيجته تخريب مكان على غاية من الجمال والقداسة، فإنَّ من المؤكد أن المنقبين لن يعثروا على شيء يُذكر، لأن أرضيات الحرم الشريف تقوم فوق القاعدة الصخرية للتل مباشرة. إن جزءاً من هذه القاعدة الصخرية يمكن رؤيته الآن تحت قبة الصخرة، ويدعى الصخرة المقدسة»[1].

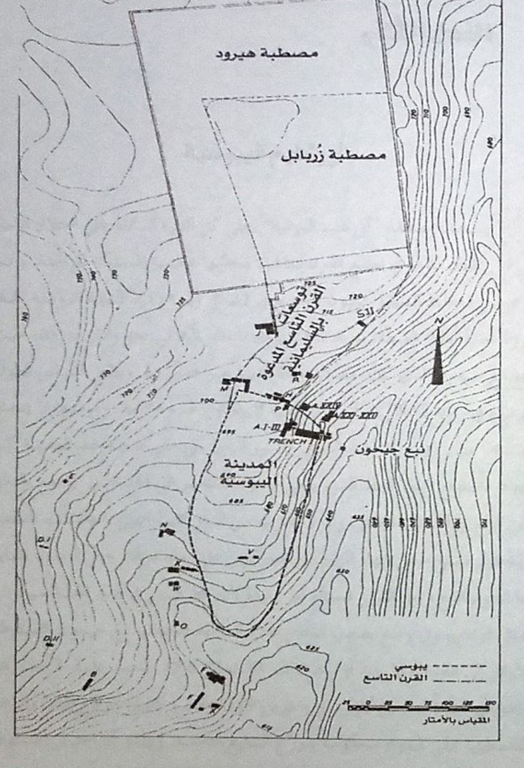
على أن أهم ما تركته لنا حملة وارن التنقيبية الأولى، هو اكتشاف جدار ضخم ينطلق من الزاوية الجنوبية الشرقية للمصطبة باتجاه الجنوب. وكانت ضخامة الجدار تؤكد كونه سور مدينة، فتابعه وارن بحفرياته مسافة قصيرة ثم توقف بعد أن تأكد لديه بأنه قد اكتشف سور مدينة أورشليم القديمة، وأن المدينة التي يبحث عنها ليست تحت مدينة القدس الحالية، بل تقع إلى الجنوب من جدار المصطبة الجنوبي وتمتد على شريط ضيق فوق هضبة أوفيل (انظر مخطط كينيون في الشكل رقم٥). بعد ذلك عملت الحملات التنقيبية التالية على كشف بقية أساسات السور الشرقي، ثم جاءت حملة كاثلين كينيون في مطلع ستينات القرن العشرين، لتكشف عن بقية الأساسات، وترسم المخطط التقريبي لأورشليم القرن العاشر قبل الميلاد، التي يفترض أنها كانت عاصمة مملكة داود وسليمان، ومقراً لإدارة ما يدعى بالمملكة الموحّدة لكل القبائل العبرانية. ولكن السيدة كينيون قد ميزت في الموقع بين مستويين أثريين، الأول هو أورشليم اليبوسية(*) التي ترجع إلى ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد وتقع على مسافة ٢٠٠متر من الجدار الجنوبي للمصطبة، والمستوى الثاني هو التوسعات التي عزتها للملك سليمان، وتقع بين الجدار الجنوبي للمصطبة والسور الشمالي للمدينة اليبوسية.

---

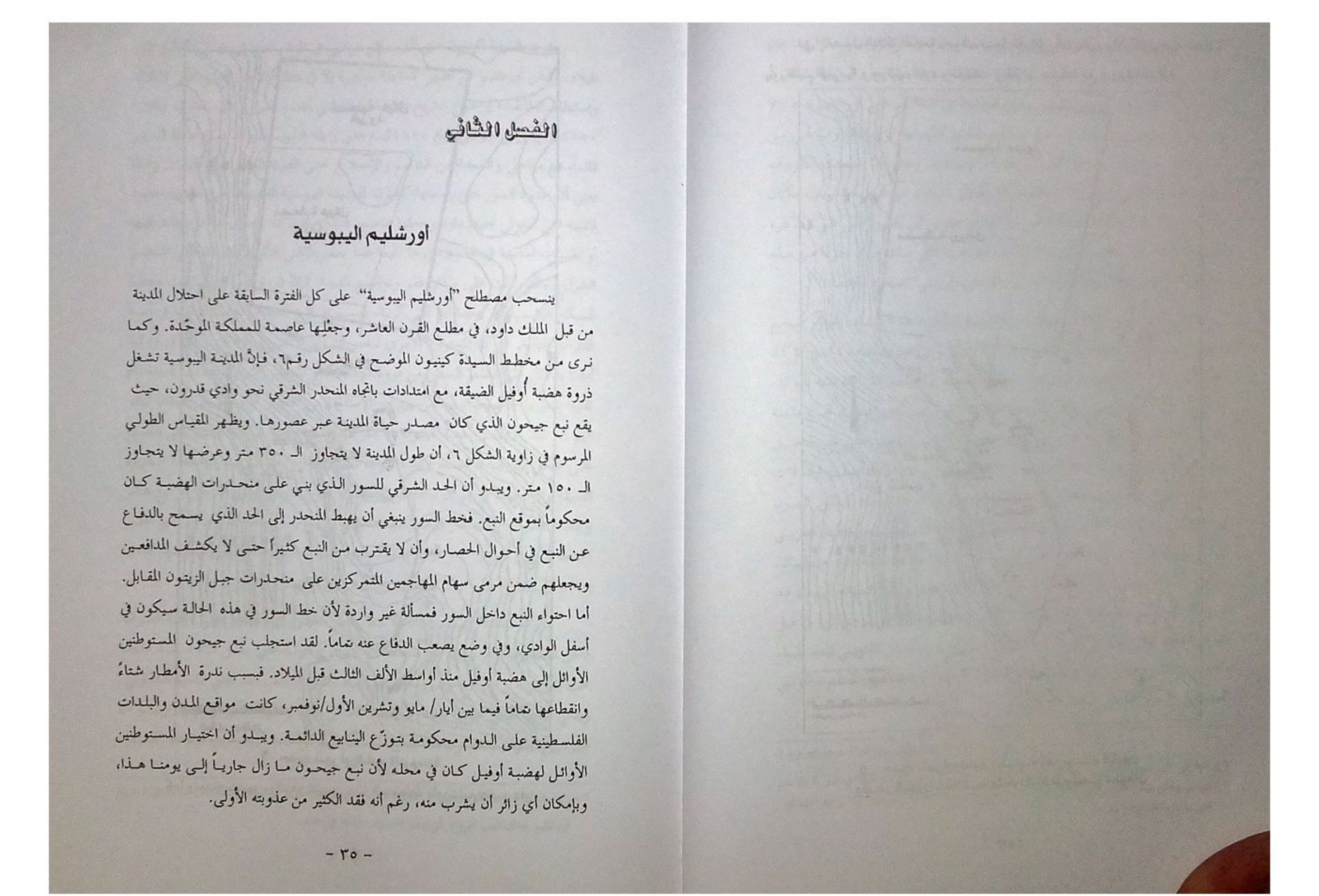
1 - Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem. P. 110.

(*) نسبة إلى اليبوسيين الكنعانيين من سكانها القدماء، وقد دعيت أورشليم مرات قليلة في التوراة بالاسم يبوس. ولكن ينبغي التنويه هنا إلى أن الاسم يبوس، غير وارد في السجلات الخارجية، ولا يوجد لدينا أي نص يذكره خارج التوراة.

في الفصول الثلاثة القادمة. سوف نبسط المسائل التاريخية والأركيولوجية المتعلقة بأورشليم اليبوسية وأورشليم داود وسليمان، ونقارن حصيلتنا مع الرواية التوراتية.



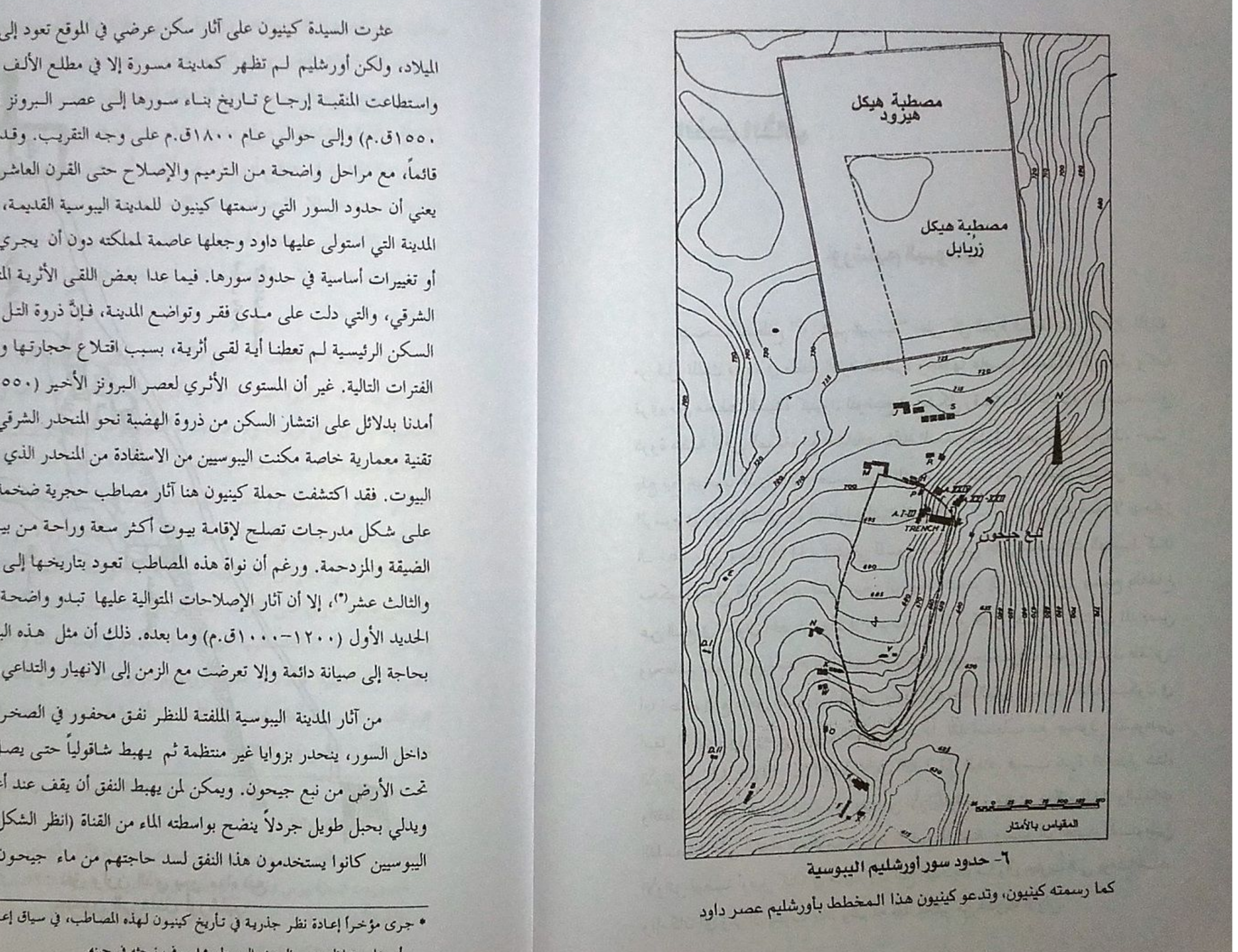
٥ - حدود سور أورشليم القديمة كما رسمته كينيون وتدعو كينيون هذا المخطط بأورشليم عصر سليمان



الفصل الثاني

أورشليم اليبوسية

ينسحب مصطلح "أورشليم اليبوسية" على كل الفترة السابقة على احتلال المدينة من قبل الملك داود، في مطلع القرن العاشر، وجعْلِها عاصمة للمملكة الموحّدة. وكما نرى من مخطط السيدة كينيون الموضح في الشكل رقم٦، فإنَّ المدينة اليبوسية تشغل ذروة هضبة أُوفيل الضيقة، مع امتدادات باتجاه المنحدر الشرقي نحو وادي قدرون، حيث يقع نبع جيحون الذي كان مصدر حياة المدينة عبر عصورها. ويظهر المقياس الطولي المرسوم في زاوية الشكل ٦، أن طول المدينة لا يتجاوز الـ ٣٥٠ متر وعرضها لا يتجاوز الـ ١٥٠ متر. ويبدو أن الحد الشرقي للسور الذي بني على منحدرات الهضبة كان محكوماً بموقع النبع. فخط السور ينبغي أن يهبط المنحدر إلى الحد الذي يسمح بالدفاع عن النبع في أحوال الحصار، وأن لا يقترب من النبع كثيراً حتى لا يكشف المدافعين ويجعلهم ضمن مرمى سهام المهاجمين المتمركزين على منحدرات جبل الزيتون المقابل. أما احتواء النبع داخل السور فمسألة غير واردة لأن خط السور في هذه الحالة سيكون في أسفل الوادي، وفي وضع يصعب الدفاع عنه تماماً. لقد استجلب نبع جيحون المستوطنين الأوائل إلى هضبة أوفيل منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. فبسبب ندرة الأمطار شتاءً وانقطاعها تماماً فيما بين أيار/ مايو وتشرين الأول/نوفمبر، كانت مواقع المدن والبلدات الفلسطينية على الدوام محكومة بتوزّع الينابيع الدائمة. ويبدو أن اختيار المستوطنين الأوائل لهضبة أوفيل كان في محله لأن نبع جيحون ما زال جارياً إلى يومنا هذا، وبإمكان أي زائر أن يشرب منه، رغم أنه فقد الكثير من عذوبته الأولى.

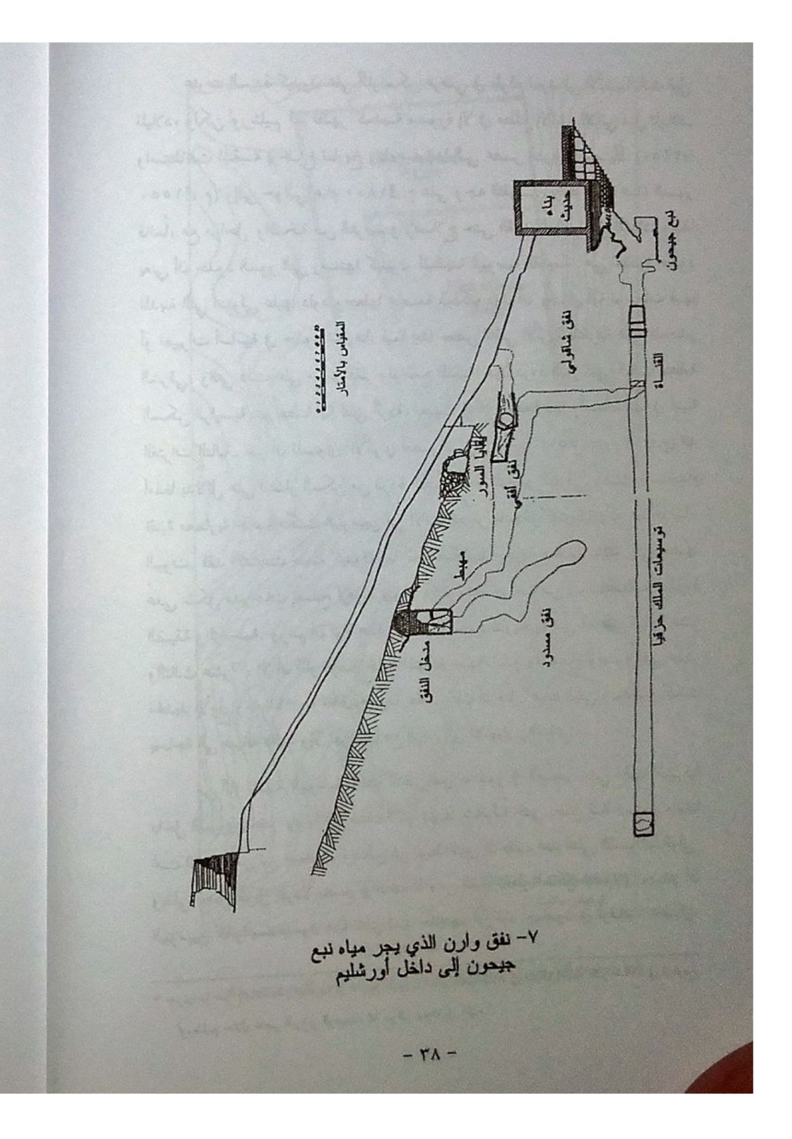


٦- حدود سور أورشليم اليبوسية
كما رسمته كينيون، وتدعو كينيون هذا المخطط بأورشليم عصر داود

عثرت السيدة كينيون على آثار سكن عرضي في الموقع تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن أورشليم لم تظهر كمدينة مسورة إلا في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. واستطاعت المنقبة إرجاع تاريخ بناء سورها إلى عصر البرونز الوسيط (١٩٥٠-١٥٥٠ق.م) وإلى حوالي عام ١٨٠٠ق.م على وجه التقريب. وقد بقي هذا السور قائماً، مع مراحل واضحة من الترميم والإصلاح حتى القرن العاشر قبل الميلاد. وهذا يعني أن حدود السور التي رسمتها كينيون للمدينة اليبوسية القديمة، هي نفسها حدود المدينة التي استولى عليها داود وجعلها عاصمة لمملكته دون أن يجري أية توسعات فيها أو تغييرات أساسية في حدود سورها. فيما عدا بعض اللقى الأثرية المتفرقة على المنحدر الشرقي، والتي دلت على مدى فقر وتواضع المدينة، فإنَّ ذروة التل التي كانت منطقة السكن الرئيسية لم تعطنا أية لقى أثرية، بسبب اقتلاع حجارتها واستخدامها في أبنية الفترات التالية. غير أن المستوى الأثري لعصر البرونز الأخير (١٥٥٠-١٢٠٠ق.م) قد أمدنا بدلائل على انتشار السكن من ذروة الهضبة نحو المنحدر الشرقي، وذلك باستخدام تقنية معمارية خاصة مكنت اليبوسيين من الاستفادة من المنحدر الذي لم يكن صالحاً لبناء البيوت. فقد اكتشفت حملة كينيون هنا آثار مصاطب حجرية ضخمة تستند إلى بعضها على شكل مدرجات تصلح لإقامة بيوت أكثر سعة وراحة من بيوت منطقة الذروة الضيقة والمزدحمة. ورغم أن نواة هذه المصاطب تعود بتاريخها إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر(*)، إلا أن آثار الإصلاحات المتوالية عليها تبدو واضحة، وصولاً إلى عصر الحديد الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م) وما بعده. ذلك أن مثل هذه البنى الهندسية كانت بحاجة إلى صيانة دائمة وإلا تعرضت مع الزمن إلى الانهيار والتداعي.

من آثار المدينة اليبوسية الملفتة للنظر نفق محفور في الصخر على الجهة الشرقية داخل السور، ينحدر بزوايا غير منتظمة ثم يهبط شاقولياً حتى يصل قناةً تستمد ماءها تحت الأرض من نبع جيحون. ويمكن لمن يهبط النفق أن يقف عند أعلى القسم الشاقولي ويدلي بحبل طويل جردلاً ينضح بواسطته الماء من القناة (انظر الشكل رقم٧). ويبدو أن اليبوسيين كانوا يستخدمون هذا النفق لسد حاجتهم من ماء جيحون في أوقات الحصار،

* جرى مؤخراً إعادة نظر جذرية في تأريخ كينيون لهذه المصاطب، في سياق إعادة نظر شاملة في تاريخ أورشليم خلال عصر البرونز الوسيط، مما سوف نبحثه في حينه.



٧- نفق وارن الذي يجر مياه نبع جيحون إلى داخل أورشليم

وذلك رغم الصعوبة الناجمة عن وعورة النفق، وقلة ما يمكن نضحه من الماء بواسطة الجرادل. لقد اعتقد المنقب وارن الذي اكتشف هذا النفق خلال حملته التنقيبية الأولى بأنه من صنع الإنسان، وساد هذا الاعتقاد لدى بقية المنقبين من بعده، خصوصاً بعد اكتشاف أنفاق مشابهة في موقع مدينة مجدّو ومواقع فلسطينية أخرى. ولكن الدراسات الجيولوجية الحديثة في موقع أورشليم قد أثبتت أن النفق هو من صنع الطبيعة، وأن يد الإنسان لم تتدخل إلا لإحداث بعض التحسينات التي تسهل سلوكه هبوطاً وصعوداً. ومن أهم الأدلة التي وجدها الجيولوجيون على قِدم النفق هو فقدان عنصر الكربون المشع وجدرانه الصخرية، الأمر الذي يدل على أنها قد تشكلت قبل حوالي ٤٠,٠٠٠ سنة من تاريخ بناء المدينة.(١)

إن خلاصة ما أفادنا به علم الآثار بخصوص أورشليم اليبوسية (*)، هو أنها لم تكن سوى بلدة صغيرة مُسوَّرة، ولم يكن لها من القدم والعراقة في التاريخ ما للمواقع فلسطينية أخرى مثل أريحا، ولا ضخامة وأهمية مواقع مثل مجدّو و حاصور. وقد بقيت أورشليم محصورة ضمن مساحتها الضيقة على ذروة أوفيل، منذ نشأتها كمدينة مُسوَّرة حوالي عام ١٨٠٠ق.م وحتى نهايات القرن التاسع قبل الميلاد. هذه الصورة الأركيولوجية للمدينة تؤكدها الصورة التاريخية. فبينما يرِدُ ذكر مدينة حاصور (في منطقة الجليل) في نصوص مدينة إيبلا السورية منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، وفي نصوص مدينة ماري على الفرات السوري الأوسط منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، ويتكرر ذكر المدن الفلسطينية المهمة مثل مجدّو و بيت شان و لخيش، في السجلات المصرية والرافدينية، فإنّ ذكر مدينة أورشليم لم يرد سوى مرتين فقط، وخلال فترة تنوف عن ألف وخمسمئة سنة، تمتد من تأسيس المدينة في بدايات عصر البرونز الوسيط إلى نهايات القرن الثامن قبل الميلاد.

١ - انظر بشكل خاص دراسة الجيولوجي Dan Gill المنشورة في مجلة علم الآثار التوراتي، عدد July_August 1994.

* استخدم هنا مصطلح يبوسي ويبوسيين بسبب شيوعه بين علماء الآثار والمؤرخين، رغم أنه مصطلح توراتي. فقد وردت تسمية يبوس تبادلياً مع أورشليم في موضعين من التوراة هما القضاة ١٩: ١٠-١١. وأخبار الأيام الأول ١١: ٤-٥. كما تكرر ذكر اليبوسيين باعتبارهم الشعب الساكن في أورشليم، ولا يوجد لدينا مصادر خارجية تؤكد هذه التسمية.

نعثر على أول ذكر لأورشليم في نصوص اللعنات المصرية، وهي عبارة عن كتابات تُنقش على جرار فخارية ثم تكسر في طقس سحري من شأنه جلب الأذى على الأعداء المذكورين في النقش. ففي أحد هذه النصوص ورد ذكر أورشليم وذكر حاكمها، ضمن لائحة مدن فلسطينية اعتُبرت من أعداء مصر في المنطقة، بينها شكيم و أشقلون و حاصور و بيت شميش. يعود النص إلى حوالي عام ١٧٥٠ق.م، أي إلى بدايات تحول أورشليم إلى مدينة مسوَّرة. وبما أن فراعنة مصر لم يكونوا في ذلك الوقت المبكر من عصر البرونز الوسيط قد مدوا سلطانهم الفعلي نحو مناطق بلاد الشام الجنوبية، ولم يكن لهم وجود عسكري فيها، فإنَّ عداء مصر للمدن الواردة في نصوص اللعنات، لابد أنه ناجم عن قيام حكام هذه المدن باعتراض طرق القوافل التجارية المصرية، وفرضهم عليها الأتاوات الباهظة.

ولقد قاد اهتمام مصر بسلامة الخطوط التجارية عبر فلسطين وشرقي الأردن، أخيراً، إلى وضع هذه المنطقة ومعظم مناطق سورية الجنوبية والوسطى، بما فيها جميع الثغور البحرية فيما بين رفح جنوباً و جبيل شمالاً. تحت السلطة المباشرة للتاج المصري. ففي حوالي عام ١٤٦٨ق.م، شنَّ الفرعون تحوتمس الثالث حملته الشهيرة على سورية الجنوبية، والتقى عند موقع مجدو بوادي يزرعيل جيوش تحالف سوري قوي وهزمه. وقد كانت هذه المعركة فاتحة لتأسيس الإمبراطورية المصرية. وللتواجد العسكري المصري في فلسطين الذي استمر قرابة أربعة قرون تلت معركة مجدو. وكان المصريون يمارسون نفوذهم هنا عن طريق حاميات عسكرية يحتفظون بها في عدد من المدن الاستراتيجية وخصوصاً مدن وادي يزرعيل، وذلك إضافة إلى المعاهدات التي كانوا يوقعونها مع حكام المدن.

خلال حكم الفرعون أمنحوتب الرابع (١٣٦٩-١٣٥٣ق.م)، الذي تسمَّى بإخناتون، تراخت قبضة مصر عن مناطق نفوذها في سورية الجنوبية، وتُركت الممالك الصغيرة لصراعاتها الداخلية، ولهجمات جماعات العابيرو المرتزقة التي كانت تؤجر خدماتها لمن يدفع من الأمراء المتنافسين. ومعلوماتنا عن هذه الفترة مستمدة من الأرشيف الملكي الذي تم العثور عليه في تل العمارنة موقع عاصمة إخناتون. يحتوي الأرشيف على

مراسلات بين البلاط المصري وملوك دول آسيا الغربية الكبرى، مثل بابل و ميتاني وآشور. إلا أن معظم مادته تخص المحميات المصرية الصغرى في سورية الجنوبية. وهنا يظهر اسم أورشليم للمرة الثانية بعد أربعمئة سنة من ظهوره في المرة الأولى، وذلك من خلال عدد من الرسائل المتبادلة بين أميرها المدعو عبدي هيبة و إخناتون. نقرأ في إحدى رسائل عبدي هيبة ما يلي:

«إلى مولاي الملك. هكذا يقول خادمك عبدي هيبة: عند قدمي الملك أسجد سبع مرات وسبعاً أُخر. انظر يا مولاي إلى ما فعله ميلك -إيلو أمير جازر و شواردانا (*) أمير حبرون في أراضي الملك مولاي. لقد دفعا بقوات من جازر ومن جت ومن كيلة، فاستولت على أراضي روبوتو، وبذلك حل العابيرو في أراضي مولاي. وهناك بلدة في أراضي أورشليم من أملاك مولاي هي بيت لحمي جرى ضمها إلى كيلة. فليصغ المليك إلى خادمه عبدي هيبة ويرسل قوات تعيد الأراضي الملكية إلى الملك. وإذا لم تصل القوات، فإنَّ أراضي مولاي سوف تغدو ملكاً للعابيرو». وفي رسالة أخرى نقرأ دفاعاً لعبدي هيبة في مواجهة التهم التي يلصقها به أعداؤه: «ما الذي اقترفته بحق مولاي الملك؟ إنهم يلومونني عند مولاي قائلين بأن عبدي هيبة قد تألب على سيده الملك. ولكني اقول بأن أبي لم يبوّئني هذا المنصب ولا أمي، بل أسلحة مولاي القوي هي التي فعلت. فلماذا أتمرد على مولاي الملك؟... ليعلم مولاي بأننا نفتقد إلى قوات حماية ترعى أراضيه، فهلاّ وجه المليك عنايته نحو أراضيه التي تمردت هنا بتحريض من إيلي – ميلكو »[1].

بعد رسائل تل العمارنة يختفي ذكر أورشليم من التاريخ حوالي ستة قرون، إلى أن تظهر كعاصمة لمملكة يهوذا في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، ونقرأ عنها في نصوص الملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ق.م)، وخلفه الملك سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ق.م). فمن نصوص تغلات فلاصر نعلم عن ملك ليهوذا اسمه آحاز، ومن

* نلاحظ من أسماء حكام الدويلات السورية في الألف الثاني قبل الميلاد، وجود حكام ساميين وآخرين هندو - أوروبيين. فالاسم عبدي هيبة سامي، وكذلك ميلك - إيلو، بينما يُظهر الاسم شواردانا أصلاً هندو - أورپياً واضحاً.

1- James Pritchard, edt, Ancient Near Eastern Text. PP487-489.

نصوص سنحاريب نعلم عن ملك آخر اسمه حزقيا. فأين كانت أورشليم خلال هذه الفترة، الطويلة من صمت الوثائق التاريخية، وخصوصاً وثائق آشور التي لم تترك مدينة مهمة في مناطق غربي الفرات إلا وذكرتها؟ سوف نجيب على هذا السؤال وبكل تفصيل عبر الفصول القادمة، معوضين نقص الوثائق التاريخية بتحليل واستقراء الوثائق الأركيولوجية. ولكن المؤرخين التقليديين من أصحاب الاتجاه التوراتي المحافظ، كانوا حتى وقت قريب يملأون الفراغ في تاريخ أورشليم اعتماداً على الرواية التوراتية، ويقتبسون منها ما يرونه مناسباً.

تقول الرواية التوراتية في خطوطها العامة بأن القبائل العبرانية المستعبدة في مصر قد خرجت منها بقيادة موسى حوالي عام ١٢٥٠ق.م (وفق حسابات المؤرخين التقليديين). وبعد تجوال في صحراء سيناء وإقامة طويلة في مناطقها الشمالية، تحرك موسى نحو مناطق شرقي الأردن واستولى عليها. وبعد وفاته تابع خليفته يشوع بن نون المسيرة نحو الأرض الموعودة، فعبر بقواته نهر الأردن واستولى في حروب صاعقة على معظم أراضي فلسطين ووزعها على القبائل الاثني عشر، مما يقصه علينا سفر يشوع الذي يفترض المؤرخون أن أحداثه قد جرت في زمن ما بين أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الثاني عشر. ولكن القبائل العبرانية لم تستطع المحافظة على مناطقها التي بقي معظمها بيد الكنعانيين من سكان فلسطين الأصليين، ولم تشكل فيما بينها كياناً سياسياً موحداً، بل عاشت كجماعات منعزلة عن بعضها تحت حكم قضاة يديرون شؤونها. ومن المفترض أن عصر القضاة قد دام من عام ١٢٠٠ إلى حوالي عام ١٠٠٠ق.م. بعد قرنين من الاستقرار في أرض كنعان تنادت القبائل الإسرائيلية إلى الاتحاد تحت لواء ملك واحد، بعد أن عانت من اضطهاد وتحكُّم جيرانها من الفلستيين، وتم عقد اللواء للملك شاؤل (والفلستيون هم من بقايا شعوب البحر التي غزت مناطق الغرب السوري في الفترة الانتقالية من القرن الثالث عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، واستقرت في السهل الساحلي الجنوبي من فلسطين). حكم شاؤل قرابة عشرين سنة (١٠٣٠-١٠٠٩ق.م)، وقد خاض خلال هذه الفترة حرب تحرير طويلة ضد الفلستيين، إلى أن قُتل مع أولاده الثلاثة في معركة جلبوع، فتم انتخاب داود ملكاً. كان أول عمل لداود هو استيلاءه على مدينة أورشليم وجعلها عاصمة للمملكة الموحّدة لجميع قبائل إسرائيل. بعد ذلك راح داود يوسع مملكته داخل

فلسطين حتى ضم إليه جميع المناطق الفلسطينية عدا منطقة فليستيا، ثم عبر النهر واستولى على كامل مناطق شرقي الأردن وسورية الجنوبية. حكم داود حوالي أربعين سنة (١٠٠٩-٩٦٩ق.م)، ثم وليه ابنه سليمان الذي كان أعظم ملوك المشرق، على حد تعبير محرر سفر الملوك الأول، وكان كل ملوك الأرض يلتمسون وجهه ويقدمون له الهدايا علامة الخضوع والطاعة. حكم سليمان ٣٨ سنة (٩٦٩-٩٣١ق.م). وبعد وفاته انقسمت مملكته إلى دولتين هما إسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة، و يهوذا في الجنوب وعاصمتها أورشليم. وقد حكمت سلالة داود في أورشليم حتى نهاية مملكة يهوذا ودمار أورشليم على يد نبوخذ نصر البابلي حوالي عام ٥٨٧ق.م.

لم يتخلص البحث الأثري والتاريخي الغربي من سيطرة هذه السردية التاريخية التوراتية. فعصر البرونز في فلسطين هو العصر الكنعاني، أما عصر الحديد فهو العصر الإسرائيلي. وأحداث سفر القضاة تغطي كامل فترة عصر الحديد الأول، بينما تغطي أحداث مملكتي السامرة ويهوذا كامل فترة عصر الحديد الثاني. وفيما يتعلق بأورشليم فإن الفترة السابقة على احتلال الملك داود للمدينة هي الفترة اليبوسية، أما فترة القرن العاشر وما تلاها فهي الفترة الإسرائيلية، وذلك رغم الاستمرارية الحضارية الواضحة في الطبقات الأركيولوجية، وعدم وجود بيِّنات مادية تدل على حصول تغير ثقافي أو سكاني. تقول كاثلين كينيون في كتابها حفريات أورشليم ما يلي:

«إن ذيوع شهرة داود كمحارب قوي كان وراء انتخابه ملكاً على القبائل الشمالية والجنوبية، فلقد تأكد للفريقين أنه لن يكن بمقدورهم مواجهة القدرة العسكرية للفلستيين إلا بخضوعهم لسلطة مركزية تسيِّر شؤونهم. كانت مدينة حبرون الواقعة ضمن أراضي قبائل الجنوب أول عاصمة لداود، ثم تبين له أن الوحدة الحقيقية بين الشمال والجنوب لن تتحقق فعلاً إلا بالتخلص من الوجود اليبوسي في أورشليم الواقعة في الوسط، فاستولى عليها حوالي عام ١٠٠٥ق.م وجعلها عاصمة له. لقد سهل الاستيلاء على أورشليم لداود توحيد شِقَّي مملكته، وزوده بموقع مثالي لعاصمته الثانية، لأن هذا الموقع لم يكن تابعاً للشماليين ولا للجنوبيين، فغدت أورشليم بمثابة مدينة خاصة له، وتركز همه على جعلها مقراً إدارياً للمملكة ومركزاً لعبادة يهوه وهي العبادة التي كانت بمثابة القوة الموحّدة للقبائل الإسرائيلية. ورغم أنه قد خطط لبناء هيكل للرب يؤوي فيه

تابوت العهد، إلا أنه قد ترك مهمة التنفيذ لخلفه سليمان، وذلك بسبب انشغاله بالحروب التوسعية التي شنها في كل الاتجاهات، وقادت إلى جعل مملكته تمتد من دمشق شمالاً إلى خليج العقبة جنوباً»[1].

وهكذا تنتقل بنا هذه العالمة الجليلة، المشهود لها بطول الباع في مجال تقنيات التنقيب الحديثة، من أورشليم اليبوسية إلى أورشليم الإسرائيلية، دون أية مستندات مادية، بعد أن أقرت صراحة بأن سور أورشليم بقي على حاله خلال عصر داود، وأن البيّنات المادية على تحصينات داود المذكورة في سفر صموئيل الثاني معدومة. وها هي تختتم عرضها لنتائج البحث عن مدينة داود بالقول: «إن أورشليم داود هي مفتاحنا للولوج إلى التاريخ الإسرائيلي، ولكن تنقيباتنا لم تكشف إلا القليل مما يمكن أن نعزوه لتلك الفترة، ولقد جَهِدنا من أجل توضيح هذا القليل. وإني لعلى ثقة بأن البينات الأركيولوجية على أي شيء آخر قد فُقدت تماماً»[2].

ويقول جون برايت الباحث الأمريكي في تاريخ إسرائيل، والأكثر تعصباً وحمية لصدق الرواية التوراتية: «إن الأزمة التي قادت إلى إنهاء النظام القبلي الإسرائيلي، قد حدثت في أواخر القرن الحادي عشر، عندما تتابعت سلسلة من الأحداث كان من شأنها تغيير إسرائيل بشكل كامل، وتحويلها خلال أقل من قرن إلى واحدة من القوى العظمى في عالمها المعاصر. هذه الفترة القصيرة يجب أن تشغل اهتمامنا مطولاً، لأنها واحدة من أهم الفترات في تاريخ إسرائيل»[3].

ونحن بدورنا سوف نتوقف مطولاً عند هذه الفترة في الفصلين القادمين، ونعمل على تمحيص الرواية التوراتية ومقارنتها مع الوثائق التاريخية وآخر المستجدات الأركيولوجية، من أجل استهلال بحثنا عن مملكة اليهود في فلسطين.

1- Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, P.43.

2- Ibid, P.110.

3- John Bright, A History of Israel, London 1972, P.179- cited in: K. Whitelame, The Invention of Ancient Israel, P.125.

الفصل الثالث

أورشليم القرن العاشر (١)
البحث عن شبح داود

في سفر صموئيل الثاني المخصص لأخبار الملك داود، تتابع سلسلة من القصص التي تدور حول السلطة، وغراميات البلاط الملكي، والدسائس السياسية، والصراع على العرش، وما إلى ذلك من حكايا قصور الملوك والأمراء المعروفة في جميع آداب الشعوب. فكما هو الحال في سلسلة ألف ليلة وليلة، فإننا نجد داود يتمشى على سطح بيته ليلا عندما تقع عينه على امرأة تستحم في بيتها القريب، دون أن تدري بوجود أحد على السطح يتلصص عليها، فيقع في غرامها ولا يجد وسيلة للحصول عليها سوى قتل زوجها، الجندي المخلص في جيشه، وإحضارها عنوة إلى قصره... أحد أولاد داود المدعو أمنون يغتصب أخته غير الشقيقة المدعوة تامار... شقيق تامار المدعو أبشالوم يتربص بأمنون لقتله، فيدعو إخوته أبناء داود إلى وليمة عامرة، وعندما تلعب الخمرة برأس أمنون ينقض عليه عبيد أبشالوم ويقتلونه... أبشالوم يطمع بعرش أبيه داود، ويدعو القبائل الشمالية إلى مبايعته ثم يدخل أورشليم ظافرا، بينما يهرب داود وأتباعه منها ويعبرون نهر الأردن... أبشالوم يطلب قتل أبيه ويلحق به بجيش جرار، ولكنه ينهزم ويلقى حتفه على يد قائد الجيش المدعو يوآب... المتمردون يتراجعون ويبايعون المدعو شبع بن بكري ملكا بدل أبشالوم القتيل... قائد الجيش يوآب يحارب المتمردين ثم يحاصرهم في مدينة آبل بيت معكة، ويعود معه برأس شبع بن بكري القتيل... داود يتدفأ من داء البرداء الذي أصابه، في حضن مراهقة صغيرة يجري تعيينها كحاضنة للملك... ابنا داود المدعوان

أدونيا و سليمان يتنازعان وراثة العرش بينما أبوهما على فراش الموت... سليمان يُفلح في انتزاع وراثة العرش من أخيه الأكبر أدونيا، ويطارده فيقتله.

في خضم هذه القصص والمغامرات، هناك خبران مقتضبان عن أعمال داود العمرانية، وذلك في سفر صموئيل الثاني ٥: ٩ و١١، حيث نقرأ عن تحصينه وترميمه للأسوار وعن بناء بيت له. وهنالك أيضاً بضعة أخبار قصيرة وشديدة الغموض عن حروب داود السورية (كما يدعوها المؤرخون) التي قادت إلى تشكيل إمبراطورية واسعة. فبعد أن حارب داود الفلستيين وأمِن تكرار تعدياتهم على حدوده، عَبَرَ نهر الأردن فأخضع المؤابيين، الأعداء التقليديين لبني إسرائيل. بعد ذلك يخبرنا المحرر التوراتي أن داود قد خرج لقتال هدد عزر بن رحوب ملك صوبة، من غير أن نعرف شيئاً عن هوية هذا الملك وموقع مملكته، والأسباب التي دعت داود لقتاله. نقرأ في سفر صموئيل الثاني: «وضرب داود هدد عزر بن رحوب ملك صوبة، حين ذهب - أي هدد عزر - ليرد سلطته عند نهر الفرات. فأخذ منه داود ألفاً وسبعمئة فارس وعشرين ألف راجل. وعرقب داود جميع خيل المركبات، وأبقى منها مئة مركبة. فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة، فضرب داود من آرام اثنين وعشرين ألف رجل. وجعل داود محافظين في آرام دمشق، وصار الآراميون له عبيداً يقدمون الهدايا». صموئيل الثاني ٨ : ٣-٦.

ولكن هذه المعركة لم تكن الأخيرة بين الطرفين. فعندما نشب النزاع بين داود ومملكة عمون في شرقي الأردن، استعان العمونيون ببعض الإمارات الآرامية الصغيرة في جنوب سورية للوقوف بوجه داود، كما أرسل إليهم هدد عزر نجدة من قواته ومن قواتٍ آرامية من وراء نهر الفرات، برئاسة قائده المدعو شوبك. نقرأ في سفر صموئيل الثاني مرة أخرى: «أرسل بنو عمون واستأجروا آرام بيت رحوب وآرام صوبة عشرين ألف راجلٍ، ومن ملك معكة ألف رجل، ورجال طوب اثني عشر ألف رجل... فتقدم يوآب، قائد جيش داود، والشعب الذين معه لمحاربة آرام، فهربوا من أمامه. ولما رأى بنو عمون أنه قد هرب آرام، هربوا أيضاً ودخلوا المدينة، فرجع يوآب عن بني عمون وأتى إلى أورشليم. ولما رأى آرام أنهم قد انكسروا أمام إسرائيل اجتمعوا معاً. وأرسل هدد عزر فأبرز آرام الذي في عبر النهر، فأتوا إلى موقع حيلام وأمامهم شوبك رئيس جيش هدد عزر ولما أُخبر داود، جمع كل إسرائيل وعبر الأردن وجاء إلى حيلام، فاصطف آرام للقاء داود

وحاربوه. وهرب آرام من أمام إسرائيل، وقتل داود من آرام سبعمئة مركبة وأربعين ألف فارس، وضرب شوبك رئيس جيش آرام فمات هناك. ولما رأى جميع الملوك عبيد هدد عزر أنهم انكسروا أمام إسرائيل صالحوا إسرائيل، واستُعبدوا لهم» - صموئيل ١٠: ٦-١٩.

هذه كل أخبار حروب داود السورية، في سفر صموئيل الثاني المخصص لأخبار الملك داود. واعتماداً على هذه النتف الغامضة قام المؤرخون التوراتيون بإعادة بناء تاريخ المملكة الموحّدة لكل إسرائيل، وتصويرها كإمبراطورية شملت كامل فلسطين وسورية الجنوبية وصولاً إلى نهر الفرات، وارتفعت إلى مصاف القوى العظمى في المنطقة (انظر الخريطة في الشكل رقم٨). لقد سكب هؤلاء حتى الآن أطناناً من الحبر من أجل إعادة ترتيب أخبار حروب داود السورية، ووضعها في إطار تاريخي مقبول، وتحميلها أكثر مما تحتمل وتتضمن سعياً وراء توكيد عظمة داود واتساع مُلكه. وبما أن الممالك والإمارات التي حاربها داود وتوسع على حسابها غير موثقة تاريخياً وآثارياً خارج النص التوراتي (عدا دمشق وعمون بالطبع)، فقد جهد المؤرخون في تحديد مواقعها دون سند تاريخي أو أركيولوجي، وعزوا إليها الأهمية والقوة من أجل إسباغ الأهمية على حروب داود ونتائجها.

فيما يتعلق بمملكة صوبة، وهي الخصم الأكبر لداود في سورية، لا يعطينا نص سفر صموئيل الثاني أية إشارة جغرافية تساعد على تحديد مكانها، ولا يذكر اسم عاصمتها أو اسم أية مدينة معروفة من مدنها. من هنا فقد اكتفى بعض الباحثين بالقول بأنها كانت أهم وأقوى دولة في وسط وجنوب سورية، بينما اتفق بعضهم الآخر مع الباحث هاليفي الذي استنتج بشكل تعسفي أن كلمة صوبة هي تحريف لكلمة صهوبة التي تعني بريق الذهب أو النحاس، وبما أن سلسلة لبنان الشرقية غنية بالنحاس فقد رجَّح أن تكون صوبة هذه قد اشتملت على أراضي البقاع، وامتدت إلى الشمال من أراضي دمشق، من البقاع إلى الفرات عبر البادية السورية[1]. ولم تنج بعض الدراسات الحديثة من آثار هذا الدّجل التاريخي، فنقرأ في كتاب صادر عام ١٩٨٧ للمؤرخ الأمريكي واين بيتارد حول تاريخ دمشق القديمة ما يلي: «في أيام داود كانت مملكة صوبة أقوى وأهم دولة في وسط وجنوب سورية، وخصماً عنيداً للملكة الإسرائيلية الحديثة العهد. أما عن

١ - د. علي أبو عساف: الآراميون، دار أماني، طرطوس، سورية ١٩٨٢، ص٧٣.

٨ - المناطق المفترضة لتوسعات داود في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد

موقع هذه الدولة وحدودها، فإنَّ معظم الباحثين يضعها في البقاع الشمالي مع امتدادات نحو الشرق تصل إلى سهول حمص وتتجاوزها حتى البادية»[١].

وفيما يتعلق بالدويلات الآرامية التي حالفت مملكة صوبة، وهي بيت رحوب و معكة و طوب، فإنَّ نص صموئيل الثاني لم يزودنا أيضاً بإشارات تساعد على تعيين مواقعها ورسم حدودها، ولكن المؤرخين قد وصفوها بأنها دويلات هامة، ورسموا حدودها التقريبية اعتماداً على استنتاجات واهية. فبيت رحوب تشغل منطقة البقاع الجنوبي، أما معكة فتشغل منطقة في جنوب جبل الحرمون مع امتدادات تصل إلى بحيرة الحولة، و طوب تشغل منطقة حوران الجنوبية.[٢]

وفيما يتعلق بدمشق، فإنَّهم يستنتجون من قول نص صموئيل الثاني، بأن آرام دمشق قد جاء لنجدة هدد عزر، بأن مدينة دمشق في ذلك الوقت كانت خاضعة لهدد عزر ملك صوبة، وأن داود قد استبدل إدارة هددعزر، وعين عليها محافظين تابعين له مباشرة. ولكن هذا الاستنتاج يتعارض مع الخبر الوارد في سفر الملوك الأول، والذي نفهم منه أن دمشق كانت مستقلة عن كل من هدد عزر و داود، وأن أحد قادة هدد عزر قد انشقّ عنه بعد خسارته الحرب مع داود، وجاء إلى دمشق فملك فيها: «وأقام الرب لسليمان خصماً آخر هو رزون بن اليداع، الذي هرب من عند سيده هدد عزر فجمع إليه رجالاً فصار رئيس غزاة عند حرب داود إياهم. فانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا في دمشق. وكان خصماً لإسرائيل كل أيام سليمان».

وفي الحقيقة، فإنَّه لم يتوفر لدينا حتى الآن وثائق أثرية في البقاع تشير إلى وجود مملكة صوبة، وكذلك الأمر بخصوص بيت رحوب و طوب و معكة. كما أن الوثائق الكتابية الآرامية والآشورية تخلو من أي ذكر لهذه الدويلات، الأمر الذي يشير إلى أنها، في حال وجودها، لم تكن سوى مشيخات قبلية قريبة زمنياً من فترة تدوين التوراة، وأن المحور التوراتي ربما وصلته أخبار غامضة عن حروب أحد ملوك السامرة أو أورشليم المتأخرين مع هذه المشيخات، فاستعان بها وأدمجها في أخبار حروب داود. ثم ماذا عن "آرام الذي في عبر النهر" الذين أتوا لمساعدة هدد عزر، وعن ملوكهم الذين وُصفوا

1- Wayne Pitard, Ancient Damascus, P.89.

2- Ibid, P89.

بأنهم عبيد ملك صوبة، أي أتباع له؟ هل هم من الممالك الآرامية التي كانت قائمة على حوض الفرات ورافده نهر الخابور خلال القرن العاشر، كما يزعم المؤرخون التوراتيون؟ للإجابة عن هذا السؤال، علينا أن نتفحص الخارطة السياسية لمنطقة الفرات والجزيرة السورية خلال عصر الملك داود (انظر الخريطة في الشكل رقم٩).

في القرن العاشر قبل الميلاد، كانت الممالك الآرامية في حوض الفرات وحوض الخابور قد ازدهرت وبلغت دور النضج السياسي والإداري، وشكلت مع بقية الممالك الممتدة من الفرات شرقا إلى البحر المتوسط غربا حزاما آراميا ثقافيا يشتمل على كامل مناطق الشمال السوري. فقد أقامت قبيلة بيت لاقي عند ضفاف الخابور الأسفل منذ القرن الحادي عشر، وجعلت لنفسها عاصمة في دور كتليمو، وكانت دولة قوية ومستقلة ذاتيا خلال القرن العاشر، رغم خضوعها للنفوذ الآشوري. وجاورتها على الخابور أيضا مملكة بيت بحياني التي أسسها الشيخ بحياني، وبنى عاصمتها جوزانا في موقع تل حلف الذي أمدنا بروائع النحت الآرامي، كما أعطانا عددا لابأس به من النقوش الكتابية التي عرفنا منها عددا من أسماء الملوك الذين حكموا في جوزانا. إلى الغرب من مملكة جوزانا قامت ملكة بيت عديني، التي شغلت المناطق الممتدة بين رافد البليخ ونهر الفرات، وكانت أقوى وأهم الممالك الآرامية الشمالية. اكتشفت عاصمتها برسيب في موقع تل أحمر على الضفة الشرقية للفرات، وعثر في الموقع على كتابات تذكر ملكها المدعو آخوني، الموثق في السجلات الحربية الآشورية. وفي منطقة الفرات السوري الأعلى قامت مملكة كركميش التي تحمل عاصمتها الاسم نفسه. وإلى الشمال الشرقي من كركميش قامت مملكة حداتو التي تحمل عاصمتها الاسم نفسه، والتي تم اكتشافها بموقع أرسلان طاش. وفي مناطق غربي الفرات قامت مملكة بيت جوش وعاصمتها أرفاد، وجاورتها غربا مملكة شمأل التي امتدت حتى شواطئ المتوسط.

فأي من هذه الممالك الآرامية القوية والموثقة تاريخيا وأركيولوجيا قد هب لنجدة هدد عزر ملك صوبة المجهول، وحارب إلى جانبه في موقع حيلام الذي لا نعرف عنه سوى الاسم؟ وأي من ملوك هذه الدول الفراتية التي كانت تقارع القوة الآشورية العظمى قد صالح داود واستعبد له، على حد تعبير النص التوراتي؟ كيف تحط جيوش داود علىشواطئ الفرات ولا تصطدم بآشور التي اعتبرت الفرات حدا شرقيا لنفوذها

٩- خريطة سورية السياسية في مطلع عصر الحديد الثاني.

الفعلي في بلاد الشام آنذاك؟ لماذا لم يرد ذكر لداود في السجلات الآشورية التي أعطتنا صورة شبه كاملة عن الخارطة السياسية لمناطق الفرات وشمال ووسط سورية؟ ولماذا خلت بالمقابل أخبار سفر صموئيل الثاني من أية إشارة إلى آشور؟ إن الجواب على هذه التساؤلات بسيط جداً. فمحرر سفر صموئيل الثاني لم يكن بين يديه معلومات البتّة عن فترة القرن العاشر قبل الميلاد، كما أنه لم يقصد إلى جمع مثل هذه المعلومات، لأنه لم يكن بصدد كتابة نص تاريخي عن حروب داود، بل كان يعمل على تزيين سيرة ملك ملحمي بأخبارٍ وأحداثٍ جمعها من الذاكرة الشعبية للمنطقة، وصاغها بتعابير عامة لا تقصد إلى تقديم معلومات تاريخية محددة. إن المشكلة ليست في النص التوراتي، بل في عقول ومقاصد المؤرخين التوراتيين الذين مازالوا إلى يوم الناس هذا يبحثون عن شبح تاريخي اسمه داود، متعامين عن كل الحقائق التاريخية والأركيولوجية.

يتجلى عمى الألوان التاريخي هذا بشكل خاص، في أبحاث ودراسات تلاميذ و. ف. أولبرايت، عالم الآثار واللغات السامية، واليهودي الذي خصص عبقريته الفذة وحياته العلمية لخدمة التوراة. فداود لم ينشئ مملكة عادية مثل بقية الممالك المحيطة به، بل كان صانع إمبراطورية حقيقية، حلت محل القوى التقليدية العظمى في المنطقة. يقول جون برايت في كتابه عن تاريخ إسرائيل الصادر عام ١٩٧٢، بأن داود قد أفلح في بناء إمبراطورية امتدت من وادي العريش في الجنوب إلى جبال لبنان ومملكة قادش في وسط سورية، وأنه قد ورث الأملاك الآسيوية لمصر الفرعونية في فترة ضعفها، وجعل من إسرائيل قوة تقف في مصاف القوى العظمى لذلك العصر(1).

ويقول الباحث م. نوث، في كتابه عن تاريخ إسرائيل، الصادر عام ١٩٦٠ ما يلي: «مع صعود داود، غدت المنطقة بكاملها بُنيةً سياسية مُركَّبة، وفاقت مجرد كونها دولة إسرائيلية داخل حدودها المرسومة. لقد تحولت دولة داود إلى إمبراطورية فلسطينية – سورية يوحدها شخص الملك، وتنضوي تحتها شعوب شتى. كما عمل داود على خلق أول تنظيم سياسي كبير وموحد ومستقل عرفته هذه المنطقة، اشتمل بشكل مباشر أو غير مباشر على معظم فلسطين وسورية. وإنها لظاهرة فائقة الأهمية من وجهة نظر التاريخ العالمي، وهي من إنجاز شخص ذكي وفالح بشكل غير اعتيادي. في ذلك الوقت كانت الظروف السياسية العامة في المنطقة المشرقية في صالح داود، لأن كلاً من

1- John Bright, A History of Israel, PP.200,207-210. cited in: K. Whitelam, Inventing Ancient Israel, P.126.

مصر ووادي الرافدين كان في حالة ضعف لا تمكّنه من إدّعاء السيادة على مناطق غربي الفرات وتحريك قواته باتجاهها»(1).

ويقول س. هيرمان في كتابه عن تاريخ إسرائيل، الصادر عام ١٩٧٥، بأن داود قد نجح في ما أخفق به سلفه شاؤل، فاتخذ الخطوة الحاسمة التي نقلت إسرائيل من كيان قبلي لا يفرض سلطته على مساحة واضحة ومحددة من الأرض، إلى مملكة جغرافية كانت بمثابة نقطة علام بارزة في تاريخ المنطقة. ولقد ضمت هذه المملكة تحت لوائها عدداً من الشعوب والمناطق الجغرافية الأخرى، وتحولت في وقت وجيز إلى إمبراطورية تتركز حول شخصية الملك القوية. ورغم أنها كانت بمثابة خلق فريد من نوعه، إلا أنها كانت في الوقت نفسه خاضعة للتيارات الداخلية والخارجية المتعارضة، وللأخطار المهدِّدة الخارجية(2). والباحث هيرمان، إذ يؤكد على تفرد إمبراطورية داود في السياق التاريخي للمنطقة، فإنّه لا يفعل من أجل إثبات هذا التفرد سوى إعادة صياغة الأخبار التوراتية، التي يعتقد بأن موظفي البلاط الملكي كانوا أول من بدأ بتسجيلها.

ويقدم فون راد في كتابه الصادر عام ١٩٦٥، هذه الخطبة العصماء بخصوص سجلات البلاط الداودي: «لقد أنتج العصر الذهبي للمملكة الموحّدة كتابات تاريخية أصيلة، بينما لم تستطع الحضارات الأخرى للشرق القديم تحقيق ذلك. وكذلك الحضارة الإغريقية التي لم تنتج كتابات تاريخية إلا في ذروة تاريخها، أي في القرن الخامس قبل الميلاد، ثم ذوى نتاجها بسرعة. أما هنا، وعلى العكس، فإنّنا أمام أمة قد تحضرت لتوها. ورغم أن عوامل هذا التحضر قد استمدت من الذخيرة السكانية الأصلية، بما فيها أسلوب الكتابة السهل التعلم، فإنّ ذلك لم يؤد إلا إلى جعل نتاجها أكثر الكل إبهاراً وإدهاشاً... وبفضل إنجازاتها في مجال الكتابة التاريخية التي تحققت بشكل مستقل، واتخذت شكلاً ناضجاً منذ البداية، يجب أن تُعدُّ حضارة إسرائيل في مستوى ما تم إنجازه في اليونان بشكل أوسع بعد بضعة قرون»(3).

1 - M. Noth, A History of Israel, London 1960. Cited in: K. Whitelam opcit, p.138.

2 - S. Herrmann, A History of Israel, London 1975. cited in: K. Whitelam. op. cit, PP.143-145.

3 - G. Von Rad, The Problem of Hexateuch, Edinburgh 1965. cited in: K. Whitelam, op. cit, P144.

يتناسى فون راد في ثنائه على السجلات التاريخية الداودية، التي اقتبسناها كاملة منذ قليل وبنصها الحرفي، أن أقدم نص لها متوفر بين أيدينا يعود إلى القرن الأول الميلادي. وهو في ذلك إنَّما يتخلى عن صفة المؤرخ، ويضع نفسه في زمرة الخطباء والمبشرين الدينيين الذين يتحدثون عن عصمة النص المقدس، وحماية العناية الإلهية له من يد العابثين، عبر سلسلة طويلة من التداول الشفهي أو التداول بالنسخ اليدوي. إن ألف سنة تفصل بين العصر المفترض لداود وأول نص عبري مدون للتوراة، لا تعني شيئاً بالنسبة لهذا الخطيب المفوه، الذي لا يصلح إلا لإلقاء خطبه في حديقة هايد بارك بلندن، حيث يُسمح لمن يشاء بالقول ما يشاء.

أما عن قول فون راد، أعلاه، بأن الحضارة المشرقية قد فشلت في إنتاج كتابات تاريخية، فإنِّي أحيله إلى أي سجل من سجلات الحضارة المصرية أو الحضارة الرافدينية، لكي يرى الفرق بين قول المحرر التوراتي: «فضرب داود هدد عزر بن رحوب حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات...إلخ». والخبر الموثق المحقق المعاصر للحدث الذي يروي عنه. نقرأ في حوليات الملك آشور ناصر الثاني التفاصيل التالية عن حملته على بلاد الشام:

«غادرت بلاد بيت عديني وعبرت الفرات في ذروة فيضانه إلى كركيمش على قوارب مصنوعة من الجلود، حيث تلقيت جزية ملك الحثيين...إلخ. ملوك البلاد المجاورة جميعاً أتوا إلي فأمسكوا قدمي، فأخذت منهم رهائن مشوا معي إلى جبل لبنان مشكلين طليعة جيشي. غادرت كركيمش متحركاً على الطريق الذي يعبر بين جبال منزيغاني وهامورجا، تاركاً مملكة أهانو على يساري. تقدمت نحو مدينة حزازو التابعة للوبارنو ملك حطينة، حيث تلقيت الذهب وعباءات الكتان، ثم تابعت فاجتزت نهر عَبري حيث قضيت الليل. غادرت شاطئ نهر عبري نحو مدينة كونوللو المقر الملكي للوبارنا ملك حطينة الذي سجد عند قدمي لإنقاذ حياته، فأخذت منه جزية مقدارها...إلخ. غادرت كونوللو واجتزت نهر العاصي حيث قضيت الليل، ثم تحركت آخذاً الطريق بين جبل ياراكي وجبل يعتوري. ثم تجاوزت جبل... لقضاء الليل عند نهر سنجارا...إلخ»[1].

1 - Leo Oppenheim, Assyrian and Babylonian Historical Texts. in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, P.275.

على أن الكلمة الأخيرة بشأن داود وإمبراطوريته هي لعلم الآثار. لقد قالت لنا كاثلين كينيون، بعد قيامها بتأريخ دقيق لسور أورشليم اليبوسية، بأن داود قد اتخذ من مدينة اليبوسيين عاصمة له في مطلع القرن العاشر، وأنه ما من بيّنات أركيولوجية على قيامه بتوسيع المدينة والإضافة إليها أو ترميم أسوارها (راجع ما أوردناه سابقاً بهذا الخصوص). فإذا علمنا أن مساحة أورشليم اليبوسية - الداودية هذه لا تزيد عن ٤,٥ هكتاراً[1]، لتأكد لدينا أننا أمام قرية مسوّرة لا أمام عاصمةٍ لإمبراطورية ضخمة. كما أن مثل هذه المساحة الصغيرة، على ما يقوله لنا الباحثون الديمغرافيون، لا يمكن أن تكون قد استوعبت عدداً من السكان يزيد عن الألفين في أفضل الأحوال. وهذا الرقم معقول جداً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدراسات الديمغرافية لفلسطين في العصور القديمة، تقدر عدد سكان فلسطين الكبرى خلال القرن العاشر بمئة ألف نسمة[2]. وهذا يعني أن القاعدة السكانية المطلوبة لقيام مملكة موحدة، مفقودة بالمعنى الدقيق للكلمة، ناهيك عن إمبراطورية كبرى، كما أن القرى لم تكن في يوم من الأيام عواصم لممالك وإمبراطوريات.

ولكي نعطي فكرة عن مدى ضآلة عاصمة داود هذه، بالنسبة لبقية المواقع الفلسطينية والسورية، نقول بأن مساحة موقع أريحا في مطلع العصر الحجري الحديث، حوالي عام ٨٠٠٠ق.م، قد بلغت ٤ هكتارات. وأن مساحة موقع تل المريبط في مطلع العصر الحجري الحديث، حوالي عام ٧٥٠٠ق.م، قد بلغت ثلاثة هكتارات، وأن مساحة أشباه المدن في حوض الفرات والخابور، خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، قد تراوحت بين ١٨ هكتاراً في موقع حبوبة الصغرى، و٤٣ هكتاراً في موقع تل براك. أما المراكز الحضرية الكبرى في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، مثل ماري على الفرات الأوسط وإيبلا في الشمال قرب حلب، فقد تراوحت مساحتها بين ٦٠ و٧٠هكتاراً. وفي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، بلغت مساحة مدينة قطنة في أواسط سورية قرب حمص ١٠٠ هكتار، وبلغت مساحة حاصور الفلسطينية في جبال الجليل ٧٥ هكتاراً. ومن المفارقات الطريفة التي يمكن إيرادها هنا، أن مساحة القصر الملكي في مدينة ماري والذي

1 - K. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, P.237.

2 - Th. L- Thompson, Early History of The Israelit People, end note P.58.

يحتوي على ثلاثمئة غرفة، قد بلغت مساحته ٢,٥ هكتاراً، أي ما يعادل نصف مساحة عاصمة داود الإمبراطورية[1].

لقد وقفت السيدة كينيون على ذروة هضبة أوفيل الضيقة، تنظر ذات اليمين وذات الشمال، وهي تفكر في طريقة للتوفيق بين الأخبار التوراتية بخصوص نشاطات داود الدفاعية والإنشائية في عاصمته، وبين واقع المدينة التي كشفت عن حدودها وحجمها وأبعادها. فمحرر سفر صموئيل الثاني يخبرنا أن داود قد حصن المدينة، وبنى لنفسه فيها قصراً كبيراً أشاده له بناؤون فينيقيون من صور، وأنه قد تزوج عدداً من النساء واتخذ لنفسه عدداً آخر من السراري، ولدن له بنين وبنات (صموئيل الثاني ٥ :٦ و١١-١٣). ولكن الدراسة الأثرية الميدانية لم تثبت للمنقبة كينيون حصول أي تغيير على السور اليبوسي، أو وجود أثر لترميم أو إصلاح أو إضافة عليه خلال القرن العاشر. أما القصر الكبير الذي استجلب داود لبنائه خشباً وبنائين من فينيقيا، فإنَّ ذروة الهضبة التي يُفترض أنها كانت مزدحمة ببيوت العامة، لا تترك متسعاً لتشييد مثله.

هنا، وبدلاً من أن تصرف كينيون النظر نهائياً عن كون أورشليم القرن العاشر هذه عاصمة لإمبراطورية موحدة كبيرة (كما هو متوقع من قبل عالم متحرر من سلطة الرواية التوراتية)، فقد راحت تسوق التعليلات الواهية، وتقول بأن داود كان مشغولاً عن تحصين مدينته بالحروب الخارجية في المناطق البعيدة. أما عن قصره الكبير، فتقول إنه كان موجوداً في مكان ما على ذروة الهضبة، ولكنه لم يكن بالضخامة التي يوحي بها النص التوراتي. لأن بناء مثل هذا القصر الكبير كان يتطلب إزاحة عدد كبير من البيوت السكنية، لذا فقد قنع داود بقصر متواضع. وهذا ما دفع فيما بعد ابنه سليمان إلى ترك قصر أبيه وبناء قصر ملكي حقيقي خارج سور المدينة اليبوسية. ثم تختم كينيون تعليلاتها الواهية بقولها: إن الوضع البائس للعاصمة من الناحية العمرانية يعزى إلى طموح داود لبناء مملكة واسعة، وانشغاله بالسياسة عن الإعمار[2].

١ – من أجل أرقام المساحة المدونة هنا انظر المراجع التالية:
أ– مساحة حبوبة الصغرى وتل براك وإيبلا وماري وقصر ماري وقطنة: H. Weiss, 1985، الصفحات ٨٥-٨٩ و١٣٢ و١٣٤ و١٩٣ و١٩٥.
ب – مساحة أريحا K. Kenyon 1985، ص٢٨.
جـ– مساحة حاصور K. Kenyon، ص٥٥.

2 - K. Kenyon, Digging up Jerusalem, PP.99-104.

ورغم أن الشواهد الآثارية تدل على أن الوضع البائس لم يكن مقتصراً على العاصمة وحدها، بل سائداً في كل مواقع يهوذا وإسرائيل اللتين كانتا نواة المملكة الموحدة خلال القرن العاشر، فإن ذلك لم يُثن السيدة كينيون عن متابعة تبريراتها، وبكل عناد، بعيداً عن المنهجية العلمية، عندما تقول في مكان آخر: «لم تكشف التنقيبات عن مخلفات مادية مهمة خارج أورشليم تعود إلى عصر داود. والسبب في ذلك راجع إلى أن داود لم يشتهر بتشييد الأبنية بسبب انشغاله بتوسيع مناطق نفوذه. فبعد أن جمع القبائل الإسرائيلية في مملكة موحدة، وأوجد قاعدة قوية له، قام بضم مساحات واسعة من المناطق المجاورة. فكانت إسرائيل في عهده تعادل بقية ممالك آسيا الغربية في قوتها ومساحتها». [1]

على أن كل هذا الحذر الذي ميز تفسيرات كينيون لم يجعلها في منجاة من غضب السلطات الصهيونية في فلسطين. فبعد أن استولى الكيان الصهيوني على القدس والضفة الغربية بكاملها، مُنعت السيدة كينيون من العودة إلى الأرض المحتلة بسبب نتائجها التي أعلنتها بخصوص هيكل سليمان، ونصيحتها للبعثات القادمة بعدم إضاعة المال والوقت والجهد من أجل التنقيب عن الهيكل، لأنهم لن يجدوا تحت أرضيات الحرم الشريف سوى قمة الهضبة الصخرية، والردميات الترابية التي أهيلت من أجل ملء المصطبة الضخمة التي بناها هيرود الكبير. ومنذ عام ١٩٦٧ قامت عدة بعثات أثرية إسرائيلية وغربية بالتنقيب على هضبة أوفيل ومحيطها، ولكنها لم تضف شيئاً إلى ما خرجت به كاثلين كينيون.

يلخص عالم الآثار الإسرائيلي ب. مازار نتائج التنقيب في موقع أورشليم حتى أواخر الثمانينات بقوله: «رغم أن حكم داود قد استمر في أورشليم قرابة ٤٠ سنة، إلا أننا لم نعثر إلا على القليل جداً من اللقى الأثرية التي تعود إلى العصر الداودي، سواء في موقع أورشليم أم خارجها. فما من بنية معمارية ضخمة أو منشأة هامة يمكن لنا بيقين وصفها بالداودية»[2]. ثم يصف لنا مازار البقايا المادية في أرض إسرائيل بأنها فقيرة

1 - K Kenyon, The Bible and Recent Archaeology. P.52.

2 - B. Mazar, The Bull Site, 1984. cited in: K. Whitelam, Inventing Ancient Israel PP.164-165.

ومتواضعة إلى أبعد الحدود إذا ما قورنت بما أنتجته الحضارات الآرامية والفينيقية والمصرية والحثية والبابلية. ثم يتساءل بعد ذلك عما إذا كانت إسرائيل قد أبدعت فعلاً في مجال الحضارة المادية مثلما أبدعت في المجال الروحي والديني.

إن الجواب على تساؤلات مازار يقدمه اليوم الباحثون الراديكاليون، الذين يضعون أخبار سفر صموئيل الثاني تحت مجهر البحث العلمي الموضوعي المتحرر من سلطة النص التوراتي. يقول المؤرخ والآثاري المعروف توماس ل. تومبسون في كتابه الجديد الصادر عام ١٩٩٩ تحت عنوان The Bible in History:

«لقد تم تقديم القرن العاشر إلينا، تقليدياً، باعتباره العصر الذهبي لإسرائيل القديمة وعاصمتها أورشليم، كما جرى التحدث عن مملكة موحدة تحت قيادة شاؤل فداود فسليمان، بسطت سلطتها على مساحة جغرافية واسعة امتدت من النيل إلى الفرات. ولكن مثل هذه التصورات لا مكان لها من الواقع، عندما نأتي لدراسة ووصف حقيقة ما جرى في الماضي، لأنها غير موجودة خارج السياق القصصي التوراتي. وما نعرفه عن القصص التوراتي لا يشجعنا البتة على التعامل معها باعتبارها تاريخاً. إننا لا نملك بينة على قيام مملكة موحدة، ولا على عاصمة في أورشليم، ولا على وجود تنظيم سياسي قوي تحكَّم في مناطق فلسطين الغربية، ناهيك عن إمبراطورية كتلك التي تصفها لنا الملاحم التوراتية. كما أننا لا نملك بيِّنة على وجود الملوك الثلاثة شاؤل وداود وسليمان، ولا على هيكل ديني كبير في أورشليم خلال تلك الفترة، ومن ناحية أخرى، فإنَّ ما نعرفه عن يهوذا وإسرائيل خلال القرن العاشر قبل الميلاد، لا يترك مجالاً لتلك التصورات، ولا يبرر لنا أن نفسر نقص البيّنات والشواهد باعتباره فجوة يمكن ردمها في معلوماتنا عن الماضي، أو باعتباره نتاجاً للصدفة في تحرياتنا الأثرية. إننا لا نستطيع التحدث عن دولة بدون سكان ولا عن عاصمة بدون مدينة»[1].

فإذا كان داود ليس إلا شبحاً تاريخياً لم يعد يؤرق سوى بعض الحلقات الأكاديمية المحافظة، فإنَّ أورشليم داود هي شبح أركيولوجي، لا يجرؤ اليوم أي آثاري مرموق التحدث عنها كعاصمة لمملكة مترامية الأطراف، دون أن يغامر بسمعته العلمية.

1 - Thomas. L. Thompson, The Bible in History, P.164.

الفصل الرابع

أورشليم القرن العاشر (٢)
البحث عن عفريت سليمان

بعد أن لفظ داود الروح وهو يتدفأ من داء البرداء في حضن الفتاة المراهقة المدعوة أبيشج الشمونية، يفتتح سفر الملوك الأول أخبار الملك سليمان الذي انتزعت له أمه وراثة العرش من أخيه أدونيا، أكبر أولاد داود الأحياء، مستغلة مرض داود وضعفه وعدم قدرته على التمييز واتخاذ القرارات.

كان أول عمل استهل به سليمان عهده هو قتل أخيه أدونيا، ليتأكد من عدم منازعته له السلطة في المستقبل، وقتل قائد جيش داود المدعو يوآب الذي كان يساند أدونيا. وبعد أن يقول لنا محرر سفر الملوك الأول بأن الملك قد تثبت بيد سليمان، يطالعنا فجأة وبدون مقدمات بقوله إن سليمان قد تزوج من ابنة فرعون مصر: «وصاهر سليمان فرعون ملك مصر، وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود، إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها» - الملوك الأول ٣: ١. بعد ذلك تراءى الرب لسليمان في الحلم وقال له أن يسأله فيعطيه، فلم يسأل سليمان ربه سوى أن يعطيه قلبا حكيما يميز به الخير من الشر، فأجابه ربه لمطلبه وزاد عليه بأن أعطاه غنى في المال وجاها بين ملوك الأرض لم يكن لغيره من قبل: «هو ذا أعطيتك قلبا حكيما ومميزا، حتى أنه لم يكن مثلك قبلك، ولا يقوم بعدك نظير. وقد أعطيتك ما لم تسأله غنى وكرامة، حتى أنه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل أيامك». الملوك الأول ٣: ١٢-١٣.

«وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق، وكل حكمة مصر، وكان أحكم من جميع الناس، وكان صيته في جميع الأمم حواليه... وكانوا يأتون من جميع

الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان، من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته» ٤: ٣٠-٣٤. ولكن محرر سفر الملوك الأول لا يقدم لنا إلا مثالاً واحداً عن حكمة سليمان، وهو عبارة عن قصة ساذجة يغلب عليها طابع الأدب الشعبي. فقد احتكمت لديه امرأتان زانيتان بخصوص طفل رضيع تدَّعي كل منهما أمومته. فحكم سليمان بأن يُشطر الطفل إلى شطرين وتعطى كل امرأة حصتها منه. قبلت إحدى المرأتين الحكم، بينما صاحت الأخرى بلهفة على الطفل وتنازلت عن حقها فيه للأخرى، فعرف سليمان أنها أمه الحقيقية وأعطاها إياه. (٣: ١٦-٢٧).

أما عن قوة سليمان وتسلطه على جميع الممالك من حوله، فإنَّ محرر السفر يصفها لنا بكلمات طنانة وتعابير عامة: «وكان سليمان متسلطاً على جميع الممالك من النهر (أي الفرات) إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر. كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان، لأنه كان متسلطاً على كل ما عبر النهر من تفسح(*) إلى غزة، على كل ملوك عبر النهر... وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخيل مركباته واثنا عشر ألف فارس» ٤: ٢٠-٢٦. ولكن المحرر التوراتي يقع بعد ذلك في تناقض يُظهر الطابع الخيالي لنفوذ سليمان الذي وصل الفرات، ولكنه كان عاجزاً عن ضم مدن الساحل الفلستي وبعض مدن سهل شفلح، مما يلي مرتفعات يهوذا غرباً. فقد صعد فرعون مصر بجيش جرار على مناطق فلسطين الجنوبية فاستولى على مدينة جازر، إحدى أهم مدن سهل شفلح، وأحرقها بالنار، وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة، وأعطاها مهراً لابنته امرأة سليمان، فأخذها سليمان وأعاد بناءها (٩: ١٦-١٧). و جازر هذه لا تبعد أكثر من ٧٠ كم عن أورشليم (انظر الخريطة في الشكل رقم ١٤ص٩٦ لاحقاً).

وعن ثروة سليمان وغناه نقرأ: «وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ست مئة وستاً وستين وزنة ذهب(*)، ما عدا الذي أتاه من عند التجار وتجارة

(*) يقول دارسو النص التوراتي بأنَّ تفسح هذه هي بلدة تقع في آخر حدود مُلك سليمان في اتجاه الفرات، وهي بذاتها بلدة تبنكس فوق مصب البليخ، والمعروفة في العصر الهيلنستي كمكان لعبور النهر من قبل القوات العسكرية، نظراً لوجود مخاضة قليلة العمق عندها.

(*) أي ما يعادل ٣٣٠٠٠ كيلو غراماً. لأن وزنة الذهب الفلسطينية في ذلك العصر كانت تعادل خمسين كيلوغراماً تقريباً.

التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض. وعمِلَ سليمان مئتي ترسٍ من ذهب مطرق، وثلاث مئة مِجنّ من ذهب مطرّق، وجعلها سليمان في بيته المعروف باسم بيت وعر لبنان... وجميع آنية شرب الملك سليمان من ذهب، وجميع آنية بيت وعر لبنان من ذهب خالص، لا فضة، لأن الفضة لم تحسب شيئاً في أيام سليمان. وكان للملك في البحر سفن تدعى سفن ترشيش (=إسبانيا)، وكانت تبحر مع سفن حيرام ملك صور، وتأتي مرة في كل ثلاث سنوات، حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس. فتعاظم سليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والحكمة، وكانت كل الأرض ملتمسة وجه سليمان. وكانوا يأتون كل واحد بهديته، بآنية فضة وآنية ذهب، وحلل وسلاح وأطياب وخيل وبغال، سنة فسنة. وجعل الملك الفضة في أورشليم مثل الحجارة، وجعل الأرْز مثل الجميز الذي في السهل في الكثرة» - الملوك الأول ١٠: ١٤-٢٥. على أن كل هذه الأكداس المكدسة من الذهب تبدو متواضعة جداً إذا عرفنا أن سليمان قد بنى بيتاً لابنة الفرعون مستخدماً في أساساته وجدرانه الأحجار الكريمة التي كانت تنشر بمنشار مثل أحجار البناء (٧: ١٠-١١).

من كل هؤلاء الملوك الذين كانوا يلتمسون وجه سليمان ويأتون إليه بهداياهم، لا يذكر لنا محرر السفر إلا ملكة مجهولة تاريخياً يدعوها النص ملكة سبأ، ومن دون أن يحدد موطنها ومقر مُلكها أو يذكر اسمها. وبما أن مملكة سبأ المعروفة في جنوب شبه الجزيرة العربية لم تقم إلا في القرن الرابع قبل الميلاد، فإنَّ المطابقة بين ملكة سبأ الواردة في سفر الملوك الأول، وإحدى ملكات مملكة سبأ التاريخية، لاتقوم على سند علمي. والتفسير الوحيد لهذه المفارقة التاريخية، هي أن المحرر التوراتي الذي كان يكتب قصته، في زمن ما من القرن الرابع قبل الميلاد، عن أحداث يُفترض أنها جرت في القرن العاشر قبل الميلاد، كان على دراية بمملكة سبأ التاريخية المعاصرة له، وكان يرى قوافل السبئيين تعبر وهي محملة بأغلى وأثمن البضائع، فاستخدم هذا الانطباع المؤثر لصياغة قصته المعروفة حول زيارة ملكة سبأ لسليمان وتقديمها له الهدايا. نقرأ في سفر الملوك الأول:

«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً، بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان... فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف

خدامه وملابسهم وسُقاته، لم يبقَ فيها روح. فقالت للملك: صحيح كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرتْ عيناي... وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة... وأعطى سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت، عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك، فانصرفت وذهبت إلى أرضها، هي وعبيدها» ١٠: ١-١٣.

وكان سليمان محباً للبناء والعمران، فقد بنى قصراً له في أورشليم، وقصراً آخر لاستراحته يدعى بيت وعر لبنان، وبنى بيتاً لزوجته ابنة الفرعون، وحصن مدينته وبنى أسوارها، كما أعاد بناء ثلاث مدن هي: حاصور في الجليل، و مجدو في وادي يزرعيل، و جازر في سهل شفلح. كما أعاد بناء مدن يدعوها النص بمدن المخازن، ومدن أخرى يدعوها بمدن المركبات، ومدن يدعوها بمدن الفرسان. ولكن أهم إنجازاته المعمارية كانت بناءه لبيت الرب في أورشليم. وبما أن رعاياه كانوا يفتقرون إلى الخبرة المعمارية والصنعة الفنية، فقد لجأ إلى حيرام ملك مدينة صور الفينيقية ليسعفه بمواد البناء والمعماريين الفينيقيين المشهود لهم بالخبرة والمهارة. نقرأ في الإصحاح الخامس من سفر الملوك الأول:

«وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان، لأنه قد سمع أنهم مسحوه ملكاً مكان أبيه، لأن حيرام كان محباً لداود كل الأيام. فأرسل سليمان إلى حيرام يقول: أنت تعلم أن داود أبي لم يستطع أن يبني بيتاً لاسم الرب إلهه بسبب الحروب التي أحاطت به، حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه. أما الآن فقد أراحني الرب إلهي من كل الجهات، فلا يوجد خصم ولا حادثة شرٍ. وهأنذا قائلٌ على بناء بيت لاسم الرب إلهي... والآن فأمُرْ أن يقطعوا لي أرزاً من لبنان، ويكون عبيدي مع عبيدك، وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول. لأنك تعلم أنه ليس أحد بيننا يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين... وأرسل حيرام إلى سليمان قائلاً: قد سمعت كل ما أرسلت به إليَّ. أنا أفعل كل مسرتك في خشب الأرز وخشب السرو» ٥: ١ -٨. شرع سليمان ببناء الهيكل وسخر لذلك آلافاً مؤلفة من الشعب. فثلاثون ألفاً يروحون ويجيئون إلى لبنان بالتناوب، وسبعون ألفاً يحملون أحمالاً، وثمانون ألفاً يقطعون في الجبل، وذلك عدا المشرفين الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف. وعندما اكتمل البناء الخارجي، شرع يزينه بالذهب الخالص من الداخل والخارج:

«وغشّى سليمان البيت من داخلٍ بذهب خالص، وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب وغشاه بذهب. وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت، وكل المذبح الذي للمحراب غشاه بذهب... وغشى أرض البيت بذهب من داخل ومن خارج» ٦: ١٤-٣٠. «وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب من ذهب، والمائدة التي عليها خبز الوجوه من ذهب، والمنائر، خمساً عن اليمين وخمساً عن اليسار أمام المحراب، من ذهب خالص، والأزهار والسُّرُج والملاقط من ذهب، والطسوس والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص، والوصل لمصاريع البيت الداخلي أي لقدس الأقداس، ولأبواب البيت أي الهيكل من ذهب» ٧: ٤٨-٥١.

أما عن أحوال أهل المملكة في عهده فكانت أشبه ما يكون بأحوال أهل الجنة، فقد: «كانت الفضة في أورشليم مثل الحجارة، والأرز مثل الجميز الذي في السهل لكثرته» ١٠: ٢٧. «وكان يهوذا وإسرائيل كثيرين كالرمل الذي على البحر في الكثرة» ٤: ٢٠. «وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين، كل واحد تحت كرمته، وكل واحد تحت تينته، من دان إلى بئر السبع» ٤: ٢٥.

رغم بنائه لبيت الرب في أورشليم، فقد كان سليمان منذ البداية يمارس طقوس الخصب الكنعانية، ويذبح ويوقد على المرتفعات على عادة الكنعانيين (٣: ٢). وعندما تزوج من سبعمئة سيدة وتسرى بثلاثمئة، ومعظمهن من الشعوب الأجنبية، ازداد ميله إلى دين هؤلاء وترك عبادة الرب: «وأحب الملك سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون، نساءً مؤابيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات... وكانت له سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من السراري. فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين، وملكوم إله العمونيين، وعمل الشر في عيني الرب... فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل... فقال الرب لسليمان: من أجل أنك لم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها، فإنّي أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك. إلا أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أمزقها» ١١: ١-١٢.

وكان هناك رجل جبار ذو بأس اسمه يربعام بن نابـاط، أقامه سليمان والياً على القبائل الشمالية التي يدعوها النص التوراتي ببيت يوسف أو بيت إسرائيل، أو منسي وأفرايم نسبة إلى ولدي يوسف اللذين تناسلت منهما أكبر قبيلتين شماليتين. وفيما كان يربعام خارجاً من أورشليم لاقاه النبي أخيا الشيلوني، وهما وحدهما في الحقل، فأمسك به ونزع عنه رداءه الجديد ومزقه اثنتي عشرة قطعة، وقال ليربعام: «خذ لنفسك عشر قطع، لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل، هأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط، ويكون له سبط واحد، لأنهم تركوني ولم يسلكوا في طرقي. وآخذُ المملكة من يد ابنه وأعطيك إياها – أي الأسباط العشرة – وأعطي ابنه سبطاً واحداً، ليكون سراجاً لداود عبدي كل الأيام» ١١: ٢٦-٣٦.

مات سليمان حوالي عام ٩٣١ق.م، فاستقل يربعام بمناطق القبائل الإسرائيلية العشرة في الهضاب المركزية، واتخذ من مدينة شكيم (نابلس) عاصمة له، أما ابن سليمان المدعو رحبعام، فقد حكم في أورشليم على يهوذا وبنيامين، ولكي يكرس يربعام الاستقلال الديني عن أورشليم مثلما كرس الاستقلال السياسي، فقد بنى لأسباط إسرائيل معبدين لينافس بهما معبد أورشليم، واحد في دان والآخر في بيت إيل، ووضع في كل معبد تمثالاً للعجل الذي يمثل ألوهة الخصب الكنعانية، وجعل عليهما كهنة لا ينتمون إلى اللاويين من كهنوت أورشليم التقليديين، كما جعل للعبادة والطقوس أعياداً مستقلة في مواعيدها عن أعياد هيكل أورشليم. وبذلك تمت ولادة دولتي إسرائيل الشمالية ويهوذا الجنوبية، ودخلت هاتان الدولتان في صراعات وحروب دائمة حتى نهاية مملكة إسرائيل ٧٢١ق.م على يد الآشوريين الذين دمروا عاصمتها وسبوا أهلها.

هذه هي الخطوط العامة لقصة سليمان في سفر الملوك الأول، ولعصر سليمان الذي يعتبر بمثابة العصر الذهبي في الرواية التوراتية، ومنه يبتدئ احتساب الزمن رجوعاً نحو الخلق والتكوين، ونزولاً نحو السقوط والانهيار الأخير للمملكتين العاصيتين اللتين نشأتا عن المملكة الموحّدة.

تفتقر هذه القصة إلى أي مقوم من مقومات الكتابة التاريخية، فهي مجموعة من الأخبار المتناثرة في الموروث الشعبي تم جمعها والإضافة إليها، من أجل رسم سيرة حياةٍ شخصيةٍ ضائعةٍ في ضباب الأيام السالفة، لا يملك المحرر التوراتي أية معلومات موثقة

بخصوصها، أو بخصوص الفترة التاريخية التي عاشت فيها. ويتجلى جهل المحرر التوراتي، وافتقاده للوثائق الكتابية، أو حتى الأخبار المتداولة الموثوقة، في عدم ذكره اسم اي ملك معروف لدينا من القرن العاشر قبل الميلاد، أو اسم أية مملكة من الممالك التي كانت خاضعة لسليمان. ومن الغريب أن لا يذكر لنا المحرر اسم فرعون مصر صهر الملك سليمان، أو يذكر لنا اسم الشخصية الوحيدة التي يحكى عن قصة زيارتها لسليمان وتقديمها له الهدايا، وهي ملكة سبأ.

كما ويعلن أسلوب القص الشعبي عن نفسه في كل تلك المبالغات حول ثراء سليمان، وأطنان الذهب التي تم استخدامها في طلاء جدران الهيكل وصنع معظم آنيته وديكوراته الداخلية، وكتل الحجارة الكريمة الضخمة التي كانت تنشر بمنشار لتستخدم بدل الأحجار الصخرية في بناء الأساسات والجدران. فكل شيء مباح للقاص عندما يأتي لوصف العصر الذهبي، لأنه عصر بعيد زمنياً ولا يمكن لنا محاكمته بمعايير عصرنا الراهن، وهو لا يتردد في إيراد أكثر الأخبار بعداً عن التصديق، مثل قوله أن الفضة كانت في أورشليم مثل الحجارة لكثرتها وانعدام قيمتها، أو أن فرعون مصر، أقوى ملوك الأرض، قد أعطى ابنته زوجة لسليمان.

لقد قال لنا الباحثون التوراتيون بأن كتبة القصر الملكي هم من سجل أخبار المملكة الموحّدة في عصر داود و سليمان. ولكننا نعجب من جهل أولئك الكَتَبَة، المتخصصين والمطلعين على الشؤون العالمية في زمنهم، بعادات وتقاليد القصور الملكية في الدول المجاورة، وخصوصاً البلاط المصري وبروتوكولاته المشهورة في العالم القديم. فعندما زوج محرر سفر الملوك الأول مَلِكَهُ سليمان من ابنة فرعون مصر، كان يجهل التقاليد الفرعونية التي تمنع زواج الأميرات المصريات من ملوك الدول الأجنبية. فمن المعروف والمؤكد تاريخياً أن الأسر الملكية المصرية، وعبر جميع عصورها، لم تزوج واحدة من أميراتها إلى أي ملك أجنبي بالغاً ما بلغت قوته وعظمته واتساع مُلكه. ولدينا عن ذلك بضعة أخبار موثقة نسوق منها اثنين. فعندما بلغت العلاقات الديلوماسية أحسن أحوالها بين فراعنة الأسرة الثامنة عشر وملوك بابل الكاشيين، أرسل أحدهم يطلب يد أميرة مصرية، ولكن البلاط المصري تعلل بحجج كثيرة لم تثن الملك البابلي عن تكرار الطلب. وأخيراً أرسلت إليه فتاة جميلة من الحاشية الملكية على أنها ابنة الفرعون(١).

1 - C. H. Gordon, The Ancient Near East, PP.90-91.

وحدث الشيء نفسه بين البلاط المصري و قمبيز ابن قورش الفارسي الذي كان ملك العالم في زمنه، وأرسلت له أميرة زائفة على أنها ابنة الفرعون. وعندما اكتشف قمبيز الخدعة، اتخذها ذريعة لغزو مصر، على ما يرويه لنا المؤرخ الإغريقي هيرودوتس[1].

إن محرر سفر الملوك الأول لم يكن موظفاً في بلاط سليمان خلال أواسط القرن العاشر، وإنّما كان من كهنة أورشليم في القرن الثالث قبل الميلاد. أي في عصر الأسرة البطلمية التي حكمت مصر، بعد أن سقطت آخر أسرة حاكمة مصرية عقب فتوح الإسكندر، وضاعت تقاليد البلاط العريقة. وهذا هو سبب جهله بالأحوال الماضية.

على أن المؤرخين التوراتيين، في قناعتهم الراسخة، أو بالأحرى إيمانهم الراسخ، بصدق الرواية التوراتية وتاريخيتها، راحوا يبحثون وراء تلك المعجزات والخوارق والتهويلات عن العناصر التاريخية الهاجعة تحت ركام الأخيلة والتهويمات، واعتقدوا أن بإمكانهم عزل الميثولوجي والخرافي من أجل الكشف عن الحقيقي في سيرة سليمان. وهم في ذلك لا يعون مسألة على غاية من الأهمية في فهم النص التوراتي، سواء في هذه السيرة أم في غيرها، وهي أن العناصر الميثولوجية والخرافية هي جزء لا يتجزأ من القصة، بل إنها هي المقصودة بالدرجة الأولى، وبدونها لم يكن لقصص داود و سليمان أن تستمر حية في الخيال الشعبي، لا في ذهن اليهود فقط وإنّما في ذهن بقية الثقافات التي احتكت بالأدب التوراتي وتأثرت به. ولا أدل على ذلك من امتلاء حكايات ألف ليلة وليلة العربية بأخبار لا تُحصى عن كنوز سليمان، وخاتم سليمان، وعفاريت سليمان التي كان يحبسها في قماقم ويرميها إلى البحر لخروجها عن طاعته. ومن ناحية أخرى، فإنَّ هؤلاء المؤرخين لا يقدمون لنا معياراً موضوعياً واضحاً استخدموه في عملية فصل الخرافي عن الواقعي. فلماذا نستطيع صرف النظر عن أن الفضة كانت في أورشليم مثل الحجارة، ونصدق أن سليمان قد تزوج من ابنة فرعون مصر؟ أو لماذا نصدق أن سليمان قد بنى ذلك الهيكل الضخم، ونصرف النظر عن أطنان الذهب التي استخدمت في تزيينه، وعن الحجارة الكريمة التي نشرت لصنع أساساته؟ أو لماذا نصرف النظر عن أن «طعام سليمان لليوم الواحد كان ثلاثين كيساً من السميد، وستين كيساً من الدقيق، وعشرة ثيران مسمنة، وعشرين ثوراً من المراعي، ومئة خروف، ما عدا الأيائل والظباء واليحامير والأوز

١ – تاريخ هيرودوتس، الصفحات ١٩٤-١٩٥.

المسمن» ونصدق أنه كان متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر؟ ألا تقف هذه الأخبار على قدم المساواة شكلاً ومضموناً، باعتبارها عناصر أدبية روائية لا غنى عنها في الملاحم والقصص البطولية لدى جميع الشعوب؟

إن ما نحتاجه من أجل فرز الحقيقة عن الخيال في أية رواية عن أحداث الماضي، هو نوعان من البيّنات؛ الأول وثائق نصية معاصرة للحدث أو قريبة منه زمنياً، والثاني وثائق أثرية مادية تدل عليه. وكلا النوعين مفقود تماماً بخصوص أحداث سفر الملوك الأول. من هنا، فإنَّ موضوع النقاش حول المملكة الموحّدة ليس دقة الرواية التوراتية، أو مبالغاتها، بل عدم تاريخيتها من حيث الأساس. فالنصوص الآرامية، وسجلات مصر وآشور، خلال القرن العاشر الذي يعتبر من العصور الموثقة جيداً، لم تلحظ قيام "إمبراطورية" كبرى بين ظهرانيها، ولم تعبأ بذكر واحد من ملوكها الذين حطت جيوشهم على شواطئ الفرات وأطراف النيل، عند نقاط التماس مع مناطق نفوذ القوى العظمى، وفي عقر دار الممالك الآرامية القوية على الفرات والخابور. وبشكل خاص، فإنَّ سجلات الفرعون سيامون (آخر ملوك الأسرة الواحدة والعشرين)، الذي يفترض المؤرخون التوراتيون أنه الفرعون الذي زوج ابنته لسليمان، تخلو من أية إشارة إلى الأحوال السائدة في فلسطين، أو إلى قيام أي نوع من العلاقات الديلوماسية بين البلاط المصري والممالك الفلسطينية. أما سجلات الفرعون شوشانق (أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين)، فتحتوي على خبر حملة عسكرية واحدة شنها شوشانق على فلسطين وسورية الجنوبية، ولكن الجداول الطبوغرافية لهذه الحملة لا تذكر أورشليم، ولا نستشف منها بأن الفرعون المصري كان يواجه مملكة موحدة تحت سلطان "إمبراطور" واحد.

وفي مقابل صمت الوثائق الكتابية للثقافات المجاورة، عن سليمان ومملكته، فإنَّ النص التوراتي في سفر الملوك الأول يصمت عن ذكر الممالك المعاصرة لمملكة سليمان، ولا يعطينا صورة عما كان يجري في المنطقة خلال عصر المملكة الموحّدة. فمحرر سفر الملوك الأول، مثله مثل محرر سفر صموئيل الثاني، لم يسمع بمملكة آشور التي كانت سيدة المشرق في ذلك الوقت، ولا بالممالك الآرامية القوية في حوض الفرات والخابور ومناطق الشمال السوري، ولا بمملكة سيميرا أقوى مملكة في مناطق سورية الوسطى. كما أنه لم يكن يعرف شيئاً عن مدى النفوذ المصري في فلسطين وسورية الجنوبية، والعلاقات بين مصر والدويلات الفلسطينية.

إننا لا نناقش المؤرخين التوراتيين في مدى دقة رواية سفر الملوك الأول، أو في مبالغاتها، بل في عدم تاريخيتها من حيث الأساس. ونحن لا نشكك في قيام المملكة الموحّدة لكل إسرائيل خلال القرن العاشر، بل نقول إنه من المستحيل أن تكون قد قامت. وقولنا هذا يستند إلى نتائج التنقيبات الأثرية منذ أوائل الستينيات وحتى أواخر التسعينيات من القرن العشرين.

عندما رسمت كاثلين كينيون حدود مدينة أورشليم على ذروة هضبة أوفيل، في القرن العاشر قبل الميلاد، قسمتها إلى قسمين، الأول هو المدينة اليبوسية الداودية (انظر المخطط في الشكل رقم ٥ الصفحة ٣٦ سابقاً) والثاني هو التوسعات السليمانية المحصورة بين السور الشمالي للمدينة اليبوسية والجدار الجنوبي لمصطبة الحرم الشريف. فقد تبين لها من دراسة المستويات الستراتيغرافية للردم الترابي حول السور، أن سور التوسعات الشمالية يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد، بينما يرجع سور بقية المدينة إلى ماقبل الألف الأول قبل الميلاد. أما كيف تكون هذه التوسعات سليمانية رغم أن سورها يرجع إلى ما بعد عصر سليمان بقرنين، فإليك تفسير المنقبة كما ورد بحرفيته في كتابها حفريات أورشليم:

«إن تاريخ هذا السور، اعتماداً على دراسة محتويات الردم الترابي المحيط به، وعلى التقدير الميداني لعمر الكسرات الفخارية، يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد، أو أبكر قليلاً. على أن المسألة المثيرة للانتباه هي أن بناة السور قد استخدموا حجارة مستخدمة سابقاً، وهي من النمط الفينيقي الذي بنيت به قصور مدينة السامرة في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد. وبما أن استعانة الملك سليمان بمعماريين فينيقيين هي أمر مؤكد، فإنّ من المنطقي أن نستنتج بأن بناة سور القرن الثامن كان لديهم سور يعود إلى عصر الملك سليمان استمدوا منه حجارتهم». وبما أن الشك لا يخامر كينيون بأن هيكل سليمان كان قائماً في أواسط القرن العاشر قبل الميلاد، فإنّها تتابع القول: «إن الدلائل المستمدة من نقاط التنقيب (على هذا الخط)، تشير إلى أن سليمان قد وصل المدينة القديمة بجدار مصطبة الهيكل الجنوبية من خلال سور يصعد بمحاذاة الذروة الشرقية لسلسلة هضاب القدس الشرقية»[1].

---

1 - Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, PP.115-116.

لا يوجد في هذا المقطع الذي اقتبسته عن كينيون أي تحريف للوثائق الأثرية، فالسيدة كينيون مشهود لها بالدقة العلمية وطول الباع في تقنيات التنقيب الحديث، ناهيك عن أن التحريف والمغالطة في الوقائع الأثرية ليس مستبعداً بل مستحيلاً في علم الآثار الحديث. إن المشكلة تكمن في التفسير القائم على الأفكار المسبقة. ففي أواسط الستينيات لم يكن أحد من المؤرخين أو الآثاريين يشكك في تاريخية سليمان وتاريخية المملكة الموحّدة. ومثل هذه المملكة وهذا الملك يحتاجان إلى عاصمة تتفق إلى حد ما مع الوصف التوراتي، وهذا ما قاد كينيون إلى إرجاع حجارة السور الفينيقي الأسبق لمنطقة التوسعات إلى عصر سليمان، ومن دون أن يخطر لها بأن السور ربما بني في زمن ما خلال القرن التاسع قبل الميلاد، من قبل أحد أمراء أورشليم. إن الأقرب إلى الصواب، واستناداً إلى نتائج كينيون الستراتيغرافية، هو الاستنتاج بأن القرية اليبوسية المسوّرة التي يقولون بأن داود لم يتفرغ لتوسيعها، قد بقيت على حالها خلال الفترة المفترضة لحكم سليمان، أي إلى أواخر القرن العاشر، وأن التوسعات قد جرت عليها في زمن ما خلال القرن التاسع قبل الميلاد، لأن قصور مدينة السامرة، التي أُخذت كمعيار للتعرف على نمط الحجارة الفينيقية، قد بنيت خلال العقود الأولى من القرن التاسع.

على أننا إذا سلمنا جدلاً مع كينيون بأن هذه التوسعات الشمالية للمدينة القديمة هي من الفترة السليمانية، فهل تكفي هذه المساحة الإضافية لرفع أورشليم القرن العاشر قبل الميلاد إلى مصاف عواصم الشرق الكبرى؟ إن نظرة سريعة إلى مخطط كينيون في الشكل رقم٦، تُبيّن لنا أن مساحة التوسعات الشمالية لا تزيد عن الهكتارين، وأن مساحة المدينة بقسميها لا تزيد عن ستة هكتارات ونصف الهكتار. وهذا يعني أن مساحة بعض المدن الفلسطينية الكبرى، مثل حاصور في الجليل، ومجدو في وادي يزرعيل، قد فاقت أورشليم السليمانية عشرة أضعاف، وأن مساحة بعض المدن السورية الكبرى، مثل قطنة، قد فاقتها عشرين ضعفاً. ونحن هنا نستبعد المقارنة مع العواصم الإمبراطورية الحقيقية، مثل بابل و نينوى، لأن مثل هذه المقارنة ستكون ظالمة إلى حد بعيد.

لقد رأينا في الفصل السابق، كيف أن السيدة كينيون لم توفق في المطابقة بين نشاطات داود العمرانية وأركيولوجيا المدينة اليبوسية. فالبيّنات الأركيولوجية على إعادة بناء، أو ترميم السور، معدومة تقريباً، يضاف إلى ذلك أن ضيق المدينة لا يسمح ببناء

قصر كبير للملك على ذروة الهضبة. غير أن منطقة التوسعات الجديدة التي عزتها لسليمان قد سمحت لها ببعض المرونة في المطابقة بين نشاطات سليمان العمرانية وأركيولوجيا المدينة السليمانية. فهذه المنطقة كانت قطاعاً ملكياً ضم قصور سليمان وأبنيته الإدارية، تقول كينيون في كتابها حفريات أورشليم: «يبدو لي أن من المنطقي الافتراض بأن المنطقة المستحدثة بين السور الشمالي للمدينة اليبوسية ومصطبة هيكل سليمان كانت قطاعاً ملكياً، احتوى على الأبنية الإدارية التي تتطلبها العناية بشؤون المملكة، مثلما احتوى أيضاً على قصر لسليمان، وآخر لابنة الفرعون، وعلى مساكن لزوجاته السبعمئة وجواريه الثلاثمئة... وإني أعتقد بأنه قد بنى قصره في المنطقة الملاصقة لجدار الهيكل، أما قصر ابنة الفرعون فقد كان بالتأكيد متصلاً بقصره، يليهما أبنية موظفي الإدارة الملكية، ومساكن الحريم»[1]. هذه الاستنتاجات التي لا تقوم على أية بينة أركيولوجية، تسوقها كينيون بعد أن أخبرتنا بأن: «أي محاولة لتحديد التوسعات السليمانية الشمالية، تتضمن الكثير من الافتراضات... وذلك بسبب عمليات اقتلاع الحجارة المتوالية واستخدامها في المستويات اللاحقة، وخصوصاً خلال العصر الروماني... إن كل المستويات السابقة على العصر البيزنطي قد مُحيَت وأعيد استخدام حجارتها»[2].

وهنا يحق لأي طالب جامعي في قسم التاريخ أو الآثار، درسَ الحواضر السورية ومخططات أبنيتها وقصورها أن يتساءل: كيف يمكن لهكتارين من الأرض أن تتسع لقطاع ملكي وإداري يحتوي على قصرين ملكيين، وأبنية للبيروقراطية، ومساكن لإيواء حريم سليمان، إضافة إلى الوجائب والطرقات والباحات الداخلية؟ لقد بلغت مساحة قصر الملك زمري ليم في مدينة ماري القرن الثامن عشر هكتارين ونصف، ومع ذلك لم يحتو إلا على ثلاثمئة غرفة لا تكفي لإسكان حريم سليمان اللواتي بلغ عددهن الألف.

ثم تتابع كينيون افتراضاتها، في ظل غياب الشواهد الأثرية، وتربط العمائر السليمانية بأنماط العمارة السورية المعروفة خارج فلسطين وخصوصاً في المنطقة الفينيقية، لأن الفينيقيين هم الذين بنوا الروائع المعمارية في أورشليم: «إن ما يستطيع علم الآثار القيام به، هو ربط النشاطات العمرانية السليمانية بما نعرفه عن حضارة آسيا الغربية

1 - Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, P128.

2 - Ibid, P.116.

المعاصرة لها. ومفتاحنا هنا هو ما ورد في سفر الملوك الأول عن استعانة سليمان بحيرام ملك صور الفينيقي، ليمده بخشب أرز وبنائين مهرة، لتعمير بيت الرب وغيره من المنشآت الضخمة في أورشليم. وكذلك ما ورد في سفر صموئيل الثاني عن استعانة داود بحيرام ليمده بنجارين وبنائين. هذان المقطعان في النص التوراتي هما الأساس الذي يقوم عليه أي تصور لما كانت عليه الأبنية العامة السليمانية، بما فيها القصور وهيكل الرب. فالقبائل الإسرائيلية لم تكن تملك خبرة ومهارة في البناء، والشواهد الأثرية تدل على أنهم لم يكتسبوا قط مثل هذه المهارات، من هنا، لم يجد سليمان، الذي كان يطمح لبناء عاصمة لا تقل عن عواصم معاصريه، إلا الاستعانة بالمهارات الخارجية، متوسلاً إلى ذلك بثروته وغناه»[1].

المسألة غير المفهومة لدينا هنا، هي لماذا كان على سليمان أن يذهب بعيداً إلى فينيقيا من أجل استيراد المهارات الخارجية في البناء، رغم توفر هذه المهارات لدى أهل المدن الفلسطينية القديمة الكبرى، مثل مجدو و بيت شان في وادي يزرعيل، و حاصور في الجليل، و لخيش و جازر في سهل شفلح؟ وإذا كان نفوذ سليمان قد تجاوز المناطق التقليدية للتواجد الإسرائيلي في منطقة الهضاب، وصارت هذه المدن ضمن ممتلكاته، لماذا لم يلجأ للاستعانة برعاياه في هذه المدن؟ ثم لماذا لم يكن لدى الإسرائيليين مهارة في أعمال البناء رغم مضي ثلاثة قرون تقريباً على تواجدهم في فلسطين واحتكاكهم بسكانها المتحضرين؟ الجواب على هذا السؤال، هو أنه لم يكن هناك قط قبائل إسرائيلية وفدت إلى فلسطين من خارجها. وهذه القبائل لم تتنادَ إلى تشكيل مملكة موحدة تحت قيادة شاؤل وخلفائه، بعد أن عاشت حياة بدائية في المناطق الهضبية طيلة قرنين خلال عصر القضاة. سوف نستمع إلى شهادات علم الآثار الإسرائيلي الحديث وهو يعترف بهذه الحقائق في الفصول القادمة. أما الآن فسوف نتابع افتراضات كاثلين كينيون، التي تعاود الانتقال من الواقعة الأركيولوجية إلى تفسيرها القائم على الأفكار المسيطرة:

«إذا كان على المرء أن يعتمد على البيّنات الأثرية في موقع أورشليم، من المستحيل عليه أن يخرج بنتيجة عن نشاطات سليمان العمرانية»[2]. بعد هذا الطرح العلمي، تنتقل

1 - Ibid, P.121.

2 - Kathleen Kenyon, Ibid, P.110.

كينيون إلى القول مباشرة: «ولكن موقع الهيكل ليس موضع شك، فلقد تم تدمير هيكل سليمان خلال الحملة البابلية على أورشليم عام ٥٨٧ ق.م. في عام ٥٣٨ق.م، سمح الفرس بعد دخولهم بابل بعودة طلائع يهوذا إلى أورشليم. وكان هَمّ العائدين بالدرجة الأولى هو إعادة بناء الهيكل، فأتموا عملهم حوالي عام ٥١٥ق.م. ومنذ ذلك الوقت، وإلى قيام هيرود الكبير بإعادة بناء المعبد، لا يوجد لدينا فجوة في تاريخ هذا البناء»[١]. ونحن أمام توكيدات كينيون هنا وعدم شكها بالمراحل التي مرَّ بها هيكل سليمان، لا نملك إلا أن نحيلها إلى ما قالته بخصوص هيكل سليمان الذي ضاع إلى الأبد ولا يوجد في حوزتنا حجر واحد من حجارته، وأن نحيلها أيضاً إلى بيِّنتها الواهية عن الهيكل الثاني، وهي ملاحظتها لوجود قسم في الجدار الشرقي لمصطبة الحرم الشريف مبني بحجارة تنتمي إلى النمط الفينيقي المعروف من مواقع ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد. إن الاستمرارية التي تتحدث عنها في مراحل تاريخ الهيكل لا سند لها خارج النص التوراتي. فالهيكل الأول غير موثق تاريخياً وأركيولوجياً، ودمار هذا الهيكل غير مذكور في السجلات البابلية، والهيكل الثاني غير موثق تاريخياً وأركيولوجياً. إن كل ما نعرفه عن هيكل أورشليم هو المصطبة الباقية من عصر هيرود الكبير ولا شيء آخر. هذه الحقائق لا تمنع من طرح الافتراضات، شريطة أن نبقى في حيز التكهنات، ولا نقدم افتراضاتنا في حلّة الوقائع التاريخية.

وعندما راحت كاثلين كينيون تبحث عن آثار المملكة الموحّدة خارج أورشليم، وبشكل خاص في منطقة مرتفعات يهوذا التي كانت بمثابة القاعدة الرئيسية للمملكة، لم تعثر سوى على بُنية تحتية لمجتمع متواضع وفقير إلى أبعد الحدود. ولكن هذه الحقيقة لا تُدخل الشك إلى نفسها بغنى المملكة وثرائها عندما تقول: «لم تقدم لنا البيِّنات الأثرية سوى معلومات غير مباشرة وقليلة عن عظمة بلاط سليمان. فخارج العاصمة لا يبدو أن المنطقة كانت على جانب من التقدم والازدهار، بل يسودها الطابع الفلاحي المتواضع، رغم السمة الحضارية الكوزموبوليتانية للبلاط الملكي»[٢]. أما تفسير هذه الواقعة الأركيولوجية، فحاضر لدى كينيون، وعلى طريقتها في صياغة الافتراضات: «لقد تمّ

1 - Ibid, P.110.

2 - Kathleen Kenyon, Archaeology in The Holy Land, P.254.

تسخير موارد سليمان، ولا شك، في تجميل وإعادة بناء أورشليم، الأمر الذي قاد إلى إفقار بقية البلاد التي تم تحويل مواردها لخدمة رفاهية العاصمة»[١]. وأيضاً: «من الواضح ان عظمة سليمان المادية كانت متمركزة في أورشليم، حيث من المستبعد أن نجد أية آثار من تلك الفترة تدل عليها. أما في بقية المناطق فقد استمرت البساطة القديمة على حالها»[٢]. وهنا نلاحظ كيف اضطرت كينيون لأن تدير ظهرها لوصف أحوال رعايا مملكة سليمان في سفر الملوك الأول، حيث قرأنا سابقاً: «وكان يهوذا وإسرائيل كثيرين كالرمل الذي على البحر في الكثرة، يأكلون ويشربون ويفرحون».. «وسكن كل واحد تحت كرمته وتحت تينته، من دان إلى بئر السبع».

إن تقييمي الأخير لجهود السيدة كاثلين كينيون، الذي تلخصه مؤلفاتها الرئيسية الأربعة في أركيولوجيا أورشليم وفلسطين الكبرى، هو أن هذه العالمة الجليلة كانت ضحية الأفكار المسيطرة على البحث الأثري والتاريخي حتى أواسط الستينيات. ولو قُيِّض لمنقبة لامعة مثلها أن تعيد كتابة مؤلفاتها على ضوء المعلومات الجديدة، لأسقطت كل فرضياتها وتفسيراتها التي لا تقوم على أساس، وتحررت من عبء محاولات التوفيق الفاشلة بين ما يتكشف أمام العين في البحث الميداني، وبين الرواية التوراتية.

لم يوفق البحث الأثري بعد الستينيات إلى إضافة الكثير على ما خرجت به كينيون بخصوص القرن العاشر، سواء في أورشليم أم في بقية مناطق الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا، وهي المناطق التقليدية للتواجد الإسرائيلي في فلسطين، والقاعدة الأساسية للمملكة الموحّدة. من هنا، فقد تحولت أنظار الباحثين إلى المناطق الأخرى في وادي يزرعيل ومرتفعات الجليل و سهل شفلح، التي يفترضون اعتماداً على النص التوراتي، أن نفوذ داود و سليمان قد امتد إليها. وكان لمدن حاصور في الجليل، و مجدو في وادي يزرعيل، و جازر في سهل شفلح، أهمية خاصة في البحث عن آثار المملكة الموحّدة. فهذه المدن قد لقيت عناية خاصة من الملك سليمان، على ما أورده سفر الملوك الأول ٩: ١٥ حيث نقرأ: «وهذا هو سبب التسخير الذي جعله الملك سليمان لبناء بيت الرب وبيته والقلعة وسور أورشليم، وحاصور ومجدو وجازر... إلخ». وهذا المقطع يفيد

1 - Ibid, P.244.

2 - Ibid, P.256.

بأن سليمان قد أنفق على هذه المدن الثلاث من نفس المصادر المالية وسخرة اليد العاملة المفرزة لنشاطاته في العاصمة أورشليم (انظر مواقع هذه المدن في الخريطة الموضحة في الشكل ١٤ صفحة ٩٦ لاحقاً).

قبل الدخول في مسألة آثار المملكة الموحّدة في هذه المدن الثلاث، سوف نعطي فكرة عن كل منها. فقد كانت مجدو أكبر مدن وادي يزرعيل، وهي تسيطر على مدخل خط المواصلات الدولي الذي يصل منطقة الساحل بسورية الداخلية. وقد كانت على الدوام مقراً لقيادة القوات المصرية المتواجدة في الوادي لحماية خط القوافل التجارية، وتربطها مع فراعنة مصر معاهدات تبعية وتعاون. أما جازر فقد كانت، إلى جانب لخيش، أهم مدن سهل شفلح (=التلال المنخفضة) ومركزاً مهماً لتسويق منتجات شفلح الزراعية والسهل الساحلي. وأما حاصور فقد كانت أكبر وأقوى وأمنع المدن الفلسطينية طرّاً، وكانت علاقاتها التجارية منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، ذات طابع كوزموبوليتاني، وورد ذكرها في السجلات المصرية لفراعنة المملكة المتوسطة والحديثة، كما ذكرتها وثائق مدينة ماري كإحدى أهم المراكز التجارية في بلاد الشام. ونعرف من بعض هذه الوثائق التي تعود إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أن بابل قد عيّنت قنصلين تجاريين لها في مدينة حاصور. وقد جاءت التنقيبات الأثرية في موقع حاصور، منذ أواسط الخمسينيات، لتؤيد هذه الصورة التاريخية لها، فقد بلغت مساحتها ٧٥ هكتاراً وأحاط بها سور يُعَدُّ من أمنع أسوار مدن الوسط والجنوب السوري. من هنا فنحن نَعْجَبُ، ابتداءً، من خضوع هذه المدينة لأورشليم التي لم تزد مساحتها خلال القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد عن ستة هكتارات ونصف، والتي لم يرد ذكرها في الوثائق السورية والرافدينية حتى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد.

كان عالم الآثار الإسرائيلي إيجال يادين Yigal Yadin أول من اعتقد بوجود صلة تجمع هذه المدن الثلاث، المدعوة بالمدن الملكية. فخلال إشرافه على أول حملة تنقيبية شاملة في موقع حاصور، اكتشف يادين بوّابة رئيسية في سور المدينة المزدوج (Casemate Wall)، ذات نمط خاص. فهي عبارة عن ممر عريض تحف به ست غرف، ثلاث عن اليمين وثلاث عن اليسار (انظر مخطط البوّابة في الشكل رقم ١٠). وقد أرجع المنقب السور والبوّابة إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وعزا بناءهما للملك سليمان. وبما أن

بوابتين مشابهتين كانتا قد اكتشفتا بشكل جزئي في كل من مجدو و جازر، فقد انتقل يادين مباشرة إلى مجدو وأعاد التنقيب في موقعها، فكشف عن بقية أجزاء البوّابة، التي تبيّن له تطابقها من حيث التصميم مع بوّابة حاصور. وبما أن الظروف لم تسمح له بإعادة التنقيب في جازر، فقد عمد إلى وضع رسم تخطيطي للجزء غير المكتشف من بوابتها، وجاء التصميم هنا أيضاً مشابهاً لتصميم البوابتين الأخريين. وقد أرجع يادين تاريخ بوابتي مجدو و جازر إلى القرن العاشر أيضاً واعتبرهما من بناء سليمان. وبذلك وُلد لأول مرة مفهوم "أركيولوجيا المملكة الموحّدة" (انظر المخططات في الشكل رقم١٠).

على أن الجيل الثاني من المنقبين الإسرائيليين، الذي يتميز بمواقف أكثر نقدية من الرواية التوراتية، قد تحدى تأريخ يادين. يقول المنقب أمنون بن تور، الذي يشرف منذ أواخر التسعينيات على حملة تنقيبية شاملة في موقع حاصور، في دراسة مطوّلة نشرت على حلقتين في مجلة علم الآثار التوراتي. خلال عام ١٩٩٩ ما يلي:

«لسنوات طويلة كان تأريخ يادين للبوّابات الثلاث موضع جدل وأخذٍ ورد. ولكن تأريخ يادين يواجه اليوم نقداً قوياً لعدد متنوع من الأسباب، وخصوصاً من قبل المنقبين العاملين في موقع مجدو الذين يقفون على رأس معارضي أساليب يادين في التأريخ. ومعظم هؤلاء يُرجعون تاريخ البوّابات إلى القرن التاسع قبل الميلاد. تتخذ هذه المعارضة الآن أهمية خاصة، لأنها تأتي في سياق الجدل الدائر في الحلقات الأكاديمية (في إسرائيل وخارجها) حول تاريخية عصر المملكة الموحّدة. ذلك أن فريقاً من الباحثين اليوم لا يكتفي بوصف إنجازات داود و سليمان على أنها نوع من المبالغات النصية في كتاب التوراة، بل يذهب إلى القول بأن أولئك الملوك كانوا شخصيات خيالية، أو على أحسن تقدير مشايخ قبليين محليين». وبعد أن ينتهي المنقب من تلخيص نتائج حفرياته في موقع حاصور، يقول بخصوص البوّابة الشهيرة ما يلي: «ولكن هل نستطيع أن نعزو البوّابة والسور المزدوج إلى الملك سليمان؟ لسوء الحظ فإنَّ البيّنة الآثارية لا تسمح لنا بتقرير تاريخ على هذه الدرجة من الدقة. هذا كل ما أستطيع الإدلاء به كعالم آثار، من غير أن أدّعي طول الباع في التاريخ أو في الدراسات التوراتية. من الممكن أن يكون سليمان مسؤولاً عن بناء البوّابة والتحصينات، ولكن هذا القول ليس بالنسبة لي نتيجة مبنية على

١٠- البوابات المدعوة بالملكية
في مجدو وحاصور وجازر

علم الآثار. فمن الممكن من الناحية الآثارية أن نعزو هذه النشاطات العمرانية إلى عهد الملك يربعام الذي استقل بحكم المملكة الشمالية بعد موت سليمان»[1].

ولكن ما لم يقله لنا أمنون بن تور هنا، هو أن حملات تنقيبية إسرائيلية أخرى قد بدأت تكتشف بوّابات مشابهة خارج المدن الثلاث المدعوة بالملكية، وأن تاريخ هذه البوّابات أظهر أنها قد بنيت بعد قرن أو أكثر من البوّابات الملكية. وهذا يعني أن نمطاً معمارياً للبوّابات كان شائعاً في فلسطين، وهذا النمط لا علاقة له بأركيولوجيا المملكة الموحّدة. يقول توماس ل. تومبسون، الذي شارك في عمليات التنقيب بموقع جازر في أواخر الستينيات، عندما كان في طور التدريب الميداني ما يلي:

«إن الخبر المقتضب الوارد في سفر الملوك الأول ٩: ١٥، عن بناء سليمان لتحصينات أورشليم وحاصور ومجدو، قد تم ربطه بتحصينات وطراز بوّابة اكتشفت في موقع حاصور، وهناك بوّابة معاصرة لبوّابة حاصور تم التعرف عليها في موقع مجدو القريب وأظهرت شبهاً مدهشاً بها، لا من حيث الطراز المعماري بل من حيث قطع الحجارة المستخدمة في بنائها والتي نحتت بالأسلوب نفسه. وفي الوقت الذي لم يتم العثور فيه على شيء مشابه في أورشليم، فإنّ البعثة البريطانية التي نقبت في موقع جازر في مطلع القرن العشرين، قد أزاحت التراب عن نصف بوابتها التي تم بناؤها بنفس الأبعاد والنمط المعماري. ولكن هذا الاكتشاف قد مرّ دون أن يلاحظه أحد، بسبب خطأ في تأريخ البوّابة أرجعها إلى الفترة الهيلينستية. وفي عام ١٩٦٦ تقرر الكشف عن النصف الثاني المطمور من البوّابة (بعد أن أظهر يادين صلتها ببوابتي حاصور و مجدو)، وقد كنت وقتها مساعداً ثانوياً في فريق التنقيب. رغم أن همّ البعثة كان الكشف عن البوّابة ومقارنتها ببوابتي حاصور و مجدو، إلا أنه كان من الواضح للجميع والمقرر سلفاً بأنها بوّابة سليمانية، ومعاصرة لمثيلاتها، حتى قبل أن نضرب معولاً واحداً في الأرض. ثم جاءت أبعاد البوّابة وعمارتها لتؤيد ذلك. وهكذا تم وضع هذه المدن المتعالقة، والتأريخ الستراتيغرافي للمواقع الثلاثة، بسرعة وبطريقة كارثية في خدمة مصداقية الخبر التوراتي.

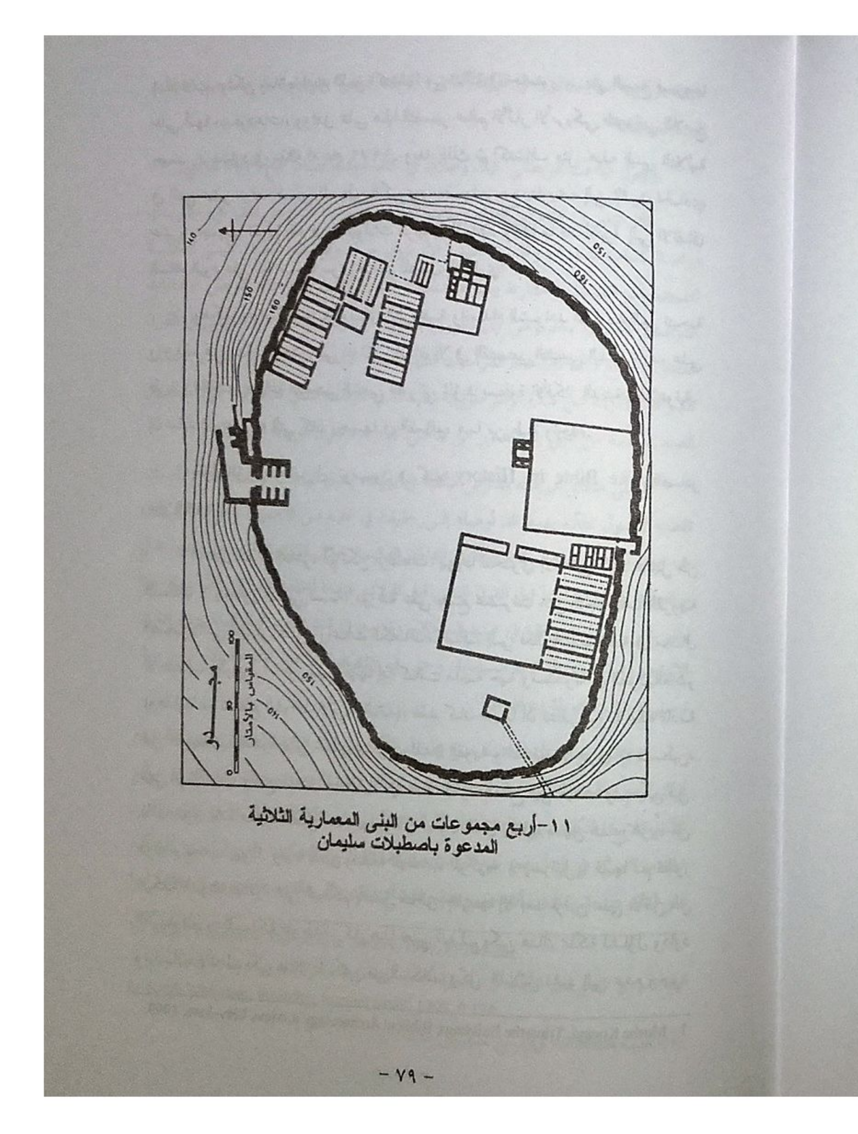
1 - Amnon Ben Tor, Exlavating Hazor, in: Biblical Archaeology Review, March-April, 1999.

«إن هذا الإثبات المفترض لتاريخية أخبار نشاطات سليمان العمرانية، لم يؤثر فقط على فهمنا وتأريخنا لهذه المواقع، وإنما سمح لكثير من المؤرخين والآثاريين الاستمرار في توكيد العظمة الثقافية والمادية والسياسية للمملكة الموحّدة. غير أن هذه الفبركة قد بدأت تتهاوى عندما أخذت حملات تنقيبية إسرائيلية تكتشف بوّابات مشابهة في مواقع غير إسرائيلية مثل موقع أشدود في السهل الفيليستي، وموقع لخيش في سهل شفلح، وتبيّن أنها قد بنيت بعد قرن من بوّابات المدن الثلاث، وأنها تنتمي إلى فترة أركيولوجية مختلفة تماماً عن تلك. وهكذا، وخلال سنوات قليلة، صارت "البوّابات السليمانية" تدعى في الكتابات الأكاديمية "بالبوّابات المدعوة بالسليمانية"[1].

إضافة إلى بوّابات المدن الثلاث هذه، فقد وجد الباحثون عن آثار المملكة الموحّدة، خارج مناطق إسرائيل ويهوذا في الهضاب الفلسطينية، ضالتهم الثانية في بُنى معمارية غير مألوفة الشكل، تم العثور عليها في موقع مدينة مجدو. فالبنية الواحدة تتألف من قاعة مستطيلة يقسمها طولانياً صفّان من الأعمدة إلى ثلاثة أقسام. ويتم الدخول إليها من باب في مقدمة القسم الأوسط (انظر المخطط في الشكل رقم ١١). وقد فسرت الحملات التنقيبية الأولى هذه البنى المعمارية على أنها إسطبلات الملك سليمان، وأن مجدو كانت إحدى مدن الفرسان والمركبات التي يشير إليها نص سفر الملوك الأول ٩: ١٩، حيث قرأنا سابقاً: «وبنى سليمان... إلخ، وجميع مدن المخازن ومدن المركبات ومدن الفرسان». ولكن هذا التفسير قد تم تحديه من قبل العديد من علماء الآثار لاحقاً. فقد قام فريق التنقيب في موقع مدينة السامرة، بربط هذه البنى (التي صارت تدعى بالبنى الثلاثية) من الناحية المعمارية بأبنية مدينة السامرة التي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد. كما أن الدراسات الستراتيغرافية الجديدة لموقع مجدو قد أشارت بدقة إلى انتماء البنى الثلاثية إلى النّصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد[2]. وهذا ما يجعلها خارج مجال أركيولوجيا المملكة الموحّدة.

ولكن ماذا عن وظيفة هذه المباني؟ إن حجمها الضخم وسماكة جدرانها يدل على أنها كانت أبنية عامة. ولكن لأي شأن عام أُحدثت؟ لقد بقي المنقب الإسرائيلي إيجاد يادين مُصِراً، حتى أواسط السبعينيات، على أن البنى الثلاثية في مجدو كانت

1 - Th. L. Thompson, The Bible in History, 1999, PP.202-203.
2 - Kathleen Kenyon, Archaeology in The Holy Land, P.247.



١١-أربع مجموعات من البنى المعمارية الثلاثية المدعوة باصطبلات سليمان

إسطبلات. ولكن زملاء يادين الذين اكتشفوا بنى مماثلة في حاصور و بئر السبع فسروها على أنها مستودعات، ووافق على هذا التفسير عالم الآثار الأمريكي التوراتي اللامع جيمس بريتشارد في مقالة له عام ١٩٧٦. وبعد ذلك تم اكتشاف مثل هذه البنى الثلاثية في اثني عشر موقعاً ضمن فلسطين الكبرى، بعضها يرجع بتاريخه إلى القرن الحادي عشر، وجميعها تقريباً يقع قرب البوّابات الرئيسية للمدن. وهذا ما قاد أخيراً إلى الاتفاق السائد اليوم على أنها ليست سوى مراكز للتبادل التجاري[1].

وهكذا يقودنا صمت الوثائق التاريخية وانعدام الشواهد الآثارية إلى نتيجة واحدة، هي أننا لن نعثر على الملك سليمان إلا في القصص الشعبي الذي يعيد، على طريقته الخاصة، صياغة القصص الشعبي التوراتي المؤيد بسطوة الأفكار الدينية واللاهوتية. إن سليمان وعفاريته التي كان يحبسها في القماقم، هما من طينة واحدة.

يقول المؤرخ توماس ل. تومبسون في كتابه The Bible in History، الصادر عام ١٩٩٩:

«خلال القرن العاشر، لم تكن مرتفعات يهوذا لتحتوي إلا على عدد ضئيل من السكان لا يتجاوز الألفي نسمة، موزعة على بضع عشرات من التجمعات القروية الصغيرة التي تعيش على زراعات الكفاف، إضافة إلى فعاليات ضعيفة في مجال الاحتطاب والرعي. أما أورشليم، فإنَّها إذا كانت مدينة حية ومسكونة في القرن العاشر (وهذا ما لم تستطع الشواهد الأثرية إثباته)، فقد كان عليها أن تنتظر قروناً عدة قادمة قبل أن تمتلك المقدرة على تحدي عشرات المدن القوية والمستقلّة الأخرى في فلسطين، فهي لم تكتسب وضع المدينة الحقيقية إلا في سياق القرن السابع قبل الميلاد، ولم تكن قبل ذلك سوى بلدة صغيرة تتصل مصالحها بوادي أيالون الذي يصلها بسهل شفلح غرباً، من دون مرتفعات يهوذا. وفيما يتعلق بمنطقة الهضاب المركزية (=إسرائيل)، فإنَّها لم تطور هيكلية الدويلة القادرة على التحكم بأفضل مناطق إقليمها إلا بعد قرنين على الأقل من التاريخ المعزو للمملكة الموحّدة. كل هذا يعني أنه لم يكن هناك مملكة لشاؤل وداود وسليمان، لأنه لم يكن هناك ما يكفي من السكان. وكل الدلائل تشير إلى عدم وجود

1 - Moshe Kocavi, Tripartite Buildings, Biblical Archaeology Review, May-June, 1999.

سلطة مركزية سياسية قوية في القرن العاشر، كانت قادرة على توحيد عدد من الأقاليم تحت قيادتها»[1].

ويقول الباحث البريطاني كيث وايتلام، في كتابه الجديد الصادر عام ١٩٩٩ ما يلي:

«إن التغير في عدد من العناصر ذات الصلة بموضوعنا هنا (مثل التغير في مقاربات دراسة كتاب التوراة، وفقدان البيّنة الأركيولوجية، وتوضح ضعف البنى التحتية للمجتمعات الفلسطينية مقارنة ببقية مجتمعات الشرق القديم) من شأنه تقويض ادعاءات الدراسات التوراتية بخصوص إمبراطورية لداود و سليمان كانت قوة عظمى في القرن العاشر... ومع ذلك فإنَّ هذه الدراسات تظهر تحفظاً غريباً عندما تأتي إلى تفسير صمت الشواهد الأثرية عن هذه الإمبراطورية المجيدة، في الوقت الذي تلجأ فيه إلى استغلال الصمت نفسه من أجل بناء تصور عن الماضي لا يؤيده سوى الرواية التوراتية»[2].

وعلى هامش دراسته لمدارس الكتبة في يهوذا، يقول الباحث D. Jamieson، بأن تقصيه لأصول مملكة يهوذا قد أوصله إلى حقيقة في غاية من الأهمية، وهي أن البيّنات شبه معدومة على قيام هيكلية دولة في المناطق الهضبية خلال القرن العاشر، وأن الدولة في مرتفعات يهوذا لم تنشأ قبل القرن الثامن قبل الميلاد، عندما أخذت الدلائل الأركيولوجية تشير إلى زيادة ملحوظة في عدد السكان، وتوسع في النشاطات العمرانية، وزيادة في الإنتاج، وميل نحو المركزية السياسية. وحتى في ذلك الوقت، فإنَّ الشواهد الأركيولوجية ترسم لنا صورة دويلة متواضعة[3].

وقد قام الجيل الجديد من علماء الآثار في إسرائيل بالإجهاز على مفهوم أركيولوجيا المملكة الموحّدة، إجهازاً تاماً، وبكل علمية وموضوعية. فقد خرج عالم الآثار اللامع فنكلشتاين Israel Finkelstein وزميله D. Ussishkin (وكلاهما من الجامعة العبرية في تل أبيب) من دراستهما الميدانية للبُنى المعمارية المعزوة لعصر المملكة الموحّدة، بنتيجة مفادها أن جميع هذه المنشآت تعود إلى القرن التاسع، ولا علاقة لها

1 - Th. L. Thompson, The Bible in History, 1999, PP206-207.
وقد قمت في المقطع الذي اقتبسته عن تومبسون، أعلاه، بإعادة ترتيب فقراته، لغرض توضيح مؤداه.

2 - Keith Whitelam, Inventing Ancient Israel, 1999, P.174.

٣ - اقتبسه Whitelam في المرجع نفسه، ص ١٦٥.

بسليمان أو المملكة الموحّدة[1]. وفي مداخلة له أمام الندوة الدولية لعلماء الآثار في الولايات المتحدة، أعلن زميلهما الآخر Nadav Na'aman (وهو من جامعة تل أبيب أيضاً) أن قصة الملك سليمان في سفر الملوك الأول هي قصة غير تاريخية في معظم تفاصيلها. وهو رغم عدم إنكاره لتاريخية شخصية سليمان، إلا أنه يوجه نقده للمبالغات الواضحة في النص التوراتي، ولا يرى في مملكة سليمان أكثر من مشيخة صغيرة. أما هيكل أورشليم فلم يكن سوى معبد متواضع تم توسيعه فيما بعد من قبل ملوك يهوذا إبان فترة ازدهارها لاحقاً[2].

ولكن هل كانت هذه المشيخة الصغيرة في أورشليم يهودية؟ وهل كان لليهودية أثر في الهضاب الفلسطينية خلال القرن العاشر قبل الميلاد؟ هذا ما سنجيب عليه في الفصل المقبل.

1 - Israel Finkelistein and D. Ussishkin, Back to Megido, Biblical Archaeology Review, Jan-Feb. 1994.

٢ - انظر وقائع هذه الندوة كما عرضها هيرشل شانكس في مجلة:

Biblical Archaeology Review, March-April 2000.

الفصل الثامن

ثقافة فلسطين في القرن العاشر

تقول كاثلين كينيون في كتابها أركيولوجيا الأرض المقدسة: «لقد عاشت المملكة الموحدة لإسرائيل حوالي قرن من الزمان، وكانت هذه هي الفترة الوحيدة التي كان لليهود فيها كيان سياسي قوي في آسيا الغربية. لقد وصفت أسفار التوراة، وبشكل احتفالي، مجد المملكة الوحدة، وبقيت ذكراها مؤثرة على الأفكار والتطلعات اليهودية عبر العصور، ومع ذلك فإن الشواهد الأركيولوجية عن هذه المملكة ضئيلة إلى حد كبير»[47].

إن تعبير "يهود" الذي تستخدمه كينيون في وصف شعب العهد القديم، في تلك الفترة من مراحل الرواية التوراتية، هو تعبير خاطئ. فاليهود هم حصرا بقية سبي يهوذا الذين عادوا إلى أورشليم في أواخر القرن السادس ق.م، وشكلوا القاعدة السكانية للمقاطعة الصغيرة التي أنشأها الفرس على مساحة ضئيلة من أراضي مملكة يهوذا البائدة، ودعوها بمقاطعة "يهود"، اشتقاقا من الاسم القديم للمملكة. في هذه المقاطعة، تحديدا، والتي تضم مدينة أورشليم ومساحة صغيرة حولها، قام كهنوت أورشليم بتدوين أسفار التوراة خلال الفترة الواقعة بين القرن الخامس والقرن الثاني قبل الميلاد، وهنا نشأت وتطورت الديانة المدعوة بالديانة اليهودية. فتعبير يهود أو يهودي هو صفة إثنية مثلما هو صفة دينية أيضا، ويدل على فرد أو جماعة من سكان مقاطعة يهود، أو من أهل الديانة اليهودية. ولقد كان محررو أسفار التوراة مدركين لهذه الحقيقة، ولم يستخدموا سوى

47 - Kathleen Kenyon, Archaeology in The Holy Land, P.233.

صفة إسرائيلي وإسرائيليين، أو عبراني وعبرانيين، في سردهم للأخبار السابقة على السبي الآشوري لأهل مملكة إسرائيل – السامرة، والسبي البابلي لمملكة يهوذا.

إن أي معتقد ديني، بالغاً ما بلغت بدائيته، يترك آثاراً تدل عليه. ونحن الآن نستطيع تلمس الخطوط العامة لمعتقدات وطقوس إنسان العصور الحجرية، اعتماداً على ما تركه من بقايا مدافن ومن تماثيل صغيرة وأمكنة عبادة بسيطة. أما معتقدات الثقافات العليا فتعلن عن نفسها في ما تركته لنا من أناشيد دينية وصلوات، إضافة إلى الآثار المادية المتجسدة في الفنون التشكيلية وفي المعابد والهياكل والمقامات الدينية. ولكننا حتى الآن لا نستطيع تلمس أي أثر للمعتقد التوراتي خلال الفترة المفترضة لتوطن العبرانيين في المناطق الهضبية الفلسطينية (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م)، وخلال الفترة المفترضة للمملكة الموحّدة (القرن العاشر ق.م). فالنصوص الكتابية مفقودة تماماً، وكذلك الشواهد الأركيولوجية. فهل يُعقل أن شعباً كثير العدد قد حل في الهضاب الفلسطينية مدة قرنين من الزمان وبنى لنفسه مملكة كبرى بعد ذلك دامت حوالي قرن تقريباً، وضمت إليها معظم المناطق الفلسطينية، لم يترك لنا أثراً واحداً يدل على ثقافته الدينية؟

تجيب السيدة كينيون على هذا التساؤل بطريقة غير مباشرة، عندما تصف لنا معابد الخصب الكنعانية في مختلف المواقع التي يُفترض انضواؤها تحت سلطة المملكة الموحّدة، وعن رموز آلهة الخصب التقليدية التي تم العثور عليها في كل مكان في المستويات الأركيولوجية العائدة إلى القرن العاشر قبل الميلاد. وهي تختتم وصفها لمعابد موقعي لخيش (في سهل شفلح) و بيت شان (في وادي يزرعيل) بقولها: «إن استمرار هذه المعابد مستخدمة في القرن العاشر وما بعده يشكل واحداً من أهم المظاهر الشاذة في مملكة يُفترض أن دينها يتركز حول عبادة الإله يهوه وحده»[1]. وتقول بعد وصفها لمعابد كنعانية في مواقع أخرى بأن الديانة القومية للمملكة كانت تلقى منافسة من قبل عبادات الخصب القديمة والمتأصلة، والتي كان يشجعها ولا شك قبول البلاط الملكي لعبادات الثقافة الكنعانية[2].

1 - K. Kenyon, Royal Cities of The Old Testament, P.70.

2 - K. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, P.254.

ويقول الأركيولوجي الهولندي H. Franken، في مسألة غياب الشواهد الآثارية على وجود الجماعات الإسرائيلية التي شكلت المملكة الموحّدة ما يلي: «إذا وضعنا النص التوراتي جانباً، فإنَّ علم الآثار لم يتوفر لديه سبب واحد يدفعه إلى القول بوصول شعب جديد إلى فلسطين، تحول إلى أمةٍ مع نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد... إنه لمن المتعذر على تقنيات علم الآثار أن تكتشف الشواهد على وصول جماعات إثنية جديدة إلى مكان جغرافي ما، إذا لم تترك هذه الجماعات مخلفات مادية تدل عليها، متميزة عن المخلفات المادية للجماعات الأصلية التي حلّت بين ظهرانيها أو حلّت محلها. وهذا ما لم نستطع التوصل إليه فيما يتعلق بالجماعات العبرانية... إن العنصر الثقافي الوحيد الذي يمكن أن نعزوه، بأية درجة من الثقة، للجماعات العبرانية، هو ديانتها المتميّزة، ولكن هذا العنصر قد بقي حتى الآن غير واضح من الناحية الأركيولوجية، ولا يوجد ما يدل عليه»[٥٠].

أما بخصوص هيكل سليمان، فقد قدمنا في الفصل السابق كل الدلائل التي تنفي أن يكون قد بُني في القرن العاشر قبل الميلاد، ورجحنا أن هيكلاً في أورشليم قد بُني في عصر مملكة يهوذا، ربما فيما بين القرن الثامن والقرن السابع قبل الميلاد، عندما تحولت أورشليم إلى عاصمة إقليمية قوية لأول مرة في تاريخها. وعلى أية حال فسواء بُني هيكل أورشليم في القرن العاشر أم في القرن الثامن، فإنَّ إعادة تصوره على الورق اعتماداً على وصفه الوارد في سفر الملوك الأول وبعض مقاطع من سفر حزقيال، تضع أمامنا مخططاً لمعبد سوري تقليدي، من المعابد المكرّسة لألوهة الخصب، والتي شاع بناؤها في بلاد الشام فيما بين أواسط الألف الثاني وأواسط الألف الأول قبل الميلاد. يُعرف هذا المخطط لدى بعض علماء الآثار بنمط المعبد السوري التناظري Syrian Symetrical Temple Type[٥١] (انظر المخطط في الشكل رقم ١٢). وهو يتألف من:

٥٠ – انظر مساهمة فرانكن في موسوعة كامبريدج للتاريخ القديم:
The Cambridge Ancient History, Part2, Vol.2, PP.331-337

٥١ – انظر مقالة الأركيولوجي فولكمار فريتز:
Volkman Frits, What Archaeology Tells Us About Soloman's Temple, in: Biblical Archaeology Review, July-August 1987.



١٢ – مخطط معبد سليمان ونظائره في حاصور وتل الطعينات

١. باحة سماوية.

٢. مدخل مفتوح على الباحة، عن يمينه ويساره عمودان يحملان سقف المدخل.

٣. القاعة الرئيسية. وقد تسبقها قاعة خارجية تلي المدخل المفتوح مباشرة.

٤. المحراب، أو قدس الأقداس، وهو عبارة عن قاعة داخلية ترتفع قليلاً عن الأرضية، ويفصلها عن القاعة الرئيسية حجاب. في جدارها الجبهي ينتصب تمثال الإله.

وقد كشفت التنقيبات في بلاد الشام حتى الآن عن أكثر من عشرين معبداً بني وفق هذا المخطط، في مواقع مثل: تل الطعينات و ألالاخ في حوض العاصي الشمالي، و عين دارا إلى الشمال الغربي من حلب، و كركميش على الفرات الأعلى، و مجدو و حاصور و شكيم و بيت شان في فلسطين.

يبدي موقع تل الطعينات بشكل خاص شبهاً واضحاً بهيكل سليمان، كما هو واضح من المخططين في الشكل رقم ١٢. وكذلك معبد عين دارا(*)، الذي قاد مخططه الموضح في الشكل رقم ١٣، إلى حل بعض الألغاز في وصف هيكل سليمان، وخصوصاً الرواق الخارجي المحيط به، والذي يتألف قسمه الأعلى من طابق أو أكثر يحتوي على غرف علوية جانبية. فقد ورد في سفر الملوك الأول ٦: ٥ المقطع التالي: «وبنى مع حائط البيت طباقاً حواليه، مع حيطان البيت، حول الهيكل والمحراب، وعمل غرفات في مستديرها». لقد بقي مدلول هذا المقطع غامضاً حتى اكتشاف معبد عين دارا المكرس للإله بعل هدد. فالطباق المذكور هنا والغرف التي في مستديره، هو نفس الرواق الخارجي لمعبد عين دارا، والذي تدل سماكة جداره الخارجي على أنه كان يحمل طابقاً علوياً أو أكثر يحتوي على غرف لا نستطيع سوى التكهن بوظيفتها. إضافة إلى هذه السمة المشتركة بين المعبدين، فإنَّ الباحث John Manson، بعد دراسته التفصيلية لمعبد عين دارا، يقول بأن ٣٣ تفصيلاً من أصل ٦٥ تفصيلاً مذكوراً في وصف هيكل سليمان تتطابق مع مخطط وديكورات ومنحوتات معبد عين دارا[1].

(*) يقع معبد عين دارا على مسافة ٥٠ كم إلى الشمال الغربي من مدينة حلب، ويمكن للسائح الوصول إليه بسهولة بعد زيارته لقلعة سمعان المعروفة.

1 - John Manson, Ain Dara Temple. in: Biblical Archaeology Review, May-June 2000.

١٣ – معبد عين دارا في الشمال السوري

إن المعلومات الأركيولوجية من القرن العاشر واضحة الرسالة. وهي تقول لنا بأن ثقافة فلسطين خلال القرن العاشر وما بعده، لم تكن إلا امتداداً طبيعياً للثقافة السورية، وان ديانة فلسطين بما فيها المناطق الهضبية لم تكن إلا ديانة سورية تقليدية لا أثر فيها للمعتقد التوراتي الذي صاغه كهنة يهوذا بعد السبي، وخلال الفترة المعروفة بفترة الهيكل الثاني. أما الثقافة المدعوة بالإسرائيلية، والتي يُفترض أن القبائل العبرانية قد جاءت بها من الخارج، فلا يوجد في أرض فلسطين ما يدل عليها على كل صعيد. وفي الحقيقة فإننا لا نستطيع إطلاق الاسم إسرائيل، ولا صفة الإسرائيلي، إلا على الدويلة الصغيرة التي قامت في منطقة الهضاب المركزية منذ مطلع القرن التاسع قبل الميلاد، عقب بناء مدينة السامرة على يد الملك عُمري، مؤسس مملكة السامرة، أو مملكة إسرائيل.

يقول أبرز علماء الآثار في الكيان الصهيوني اليوم، وهو إ. فنكلشتاين، في بحث قدمه أمام ندوة عقدتها جامعة بن غوريون عام ١٩٩٨ حول أصول إسرائيل، بأن كتاب التوراة قد فقد اليوم أهميته كمصدر تاريخي، وخصوصاً فيما يتعلق بأصول إسرائيل ومسألة المملكة الموحّدة. فهذا الكتاب هو وثيقة متأخرة جداً كُتبت فصولها الأولى في القرن السابع وفق أبكر التقديرات، ومن خلال منظور لاهوتي وإيديولوجي وسياسي. من هنا، فإنّ البحث عن الأساس التاريخي الكامن وراء الرواية التوراتية هو مهمة صعبة للغاية، هذا إذا كانت عملية ممكنة من حيث الأساس. إن البحث عن أصول إسرائيل في المناطق الهضبية الفلسطينية يجب أن يعتمد على المعلومات الأركيولوجية وحدها، وهذه المعلومات تجعل من الصعب علينا التحدث عن "إسرائيل" إلا عندما نأتي إلى ما بعد الفترة المفترضة للمملكة الموحّدة، عندما ظهرت مملكتا إسرائيل ويهوذا إلى الوجود، فمملكة داود و سليمان ربما لم يكن لها وجود، وإذا وجدت فقد كانت أبعد ما تكون عن هيكلية المملكة الحقيقية(١).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو؛ إذا لم تكن المناطق الهضبية في فلسطين قد شهدت خلال القرن العاشر قيام مملكة موحدة، كانت من القوة بحيث استطاعت أن

١ – انظر وقائع الندوة كما عرضها هيرشل شانكس:
- Hershel Shanks, No History in The Bible? in: Biblical Archaeology Review, May-June, 2000.

تضم إليها معظم مناطق فلسطين الكبرى، فما الذي كان يجري على مسرح التاريخ خلال حقبة القرن العاشر، وكيف نشأت مملكتا إسرائيل ويهوذا المعروفتان لنا تاريخياً؟

لكي نجيب على هذا السؤال سوف نعود القهقرى في الزمن إلى بدايات التاريخ الفلسطيني في عصر البرونز المبكر (الألف الثالث قبل الميلاد)، ثم نهبط تدريجياً إلى عصر البرونز الوسيط (١٩٥٠-١٥٥٠ق.م)، فعصر البرونز الأخير (١٥٥٠-١٢٠٠ق.م)، فعصر الحديد الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م) وهو الفترة التي يُفترض أن القبائل العبرانية قد توطنت خلالها في المناطق الهضبية الفلسطينية قبل تشكيل المملكة الموحّدة في القرن العاشر.

ونحن ما زلنا نبحث عن مملكة اليهود في فلسطين.

الفصل السادس

عودة إلى الوراء (١)
فلسطين في عصر البرونز

١- عصر البرونز المبكر

تشير الشواهد الأركيولوجية واللغوية اليوم، إلى أن المنطقة السورية الواقعة بين الفرات شرقاً والبحر المتوسط غرباً، وبين جبال طوروس شمالاً وأطراف الصحراء العربية جنوباً، كانت مسكونة بشعوب تتكلم اللغة السامية منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. إن أقدم المدن التي تعود مستوياتها الأركيولوجية الأولى إلى هذه الفترة، تحمل أسماءً سامية موثّقة في نصوص تعود إلى مطالع الألف الثاني قبل الميلاد، مثل أريحا و بيت شان و بيت يارح و مجدو و عكا و صيدون و سيميرا و أوغاريت وغيرها. وبما أن التاريخ قد علمنا أن أسماء المدن تنحو إلى الثبات والاستقرار عبر عشرات القرون، فإننا نعتقد شبه جازمين بأن مدن بلاد الشام التي حملت أسماءً سامية في مطالع الألف الثاني قبل الميلاد، كانت تحمل الأسماء ذاتها في الألف الرابع قبل الميلاد، على أقل تقدير، وأن من أسّسها وأطلق عليها أسماءها هم أقوام تتكلم لهجات سامية متقاربة. فسكان هذه المنطقة، والحالة هذه، هم أصيلون في مواطنهم الشامية ولم يَفِدوا إليها من خارجها، على ما تقول به نظرية الهجرات السامية من جزيرة العرب. كما أن لغتهم التي ندعوها اليوم بالسامية الغربية قد تطورت في المنطقة السورية ولم يجرِ استيرادها من الخارج.

أطلق المؤرخون المحدثون اسم الكنعانيين على سكان بلاد الشام خلال الألف الثالث قبل الميلاد، واقتصرت التسمية لديهم على سكان المناطق الساحلية مما يلي أوغاريت جنوباً، مع بعض الامتدادات الداخلية كما هو الحال في فلسطين، خلال الألف الثاني قبل الميلاد. أما في الألف الأول فقد اقتصرت التسمية على سكان الساحل اللبناني من أرواد إلى رأس الناقورة، واستُخدمت تبادلياً مع اسم الفينيقيين. وفي الحقيقة فإنّ الاسم كنعان غير موثق لدينا في نصوص الألف الثالث قبل الميلاد للدلالة على سكان بلاد الشام، ولكن اعتباراً من أواسط الألف الثاني قبل الميلاد تبدأ النصوص المصرية بإطلاق الاسم على مناطق فلسطين والساحل السوري الجنوبي مستخدمة صيغة بي-كنعان. ولدينا نصوص قليلة سورية تشير إلى بعض مناطق الساحل السوري بالاسم كنعان، مثل نص إدريمي ملك ألالاخ في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وفي كتاب التوراة أطلق المحررون الاسم على سكان فلسطين تمييزاً لهم عن العبرانيين الذين حلّوا بين ظهرانيهم. وفي العصر الهلينستي ترد التسمية على النقود المصكوكة في بعض مدن الساحل الفينيقي. وفي إنجيل متى يطلق المؤلف صفة كنعاني على سكان مناطق فينيقيا التقليدية في صيدا وصور (متى ١٥: ٢١-٢٢).

شهدت الفترة الانتقالية من الألف الرابع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، في كل من سورية ومصر وبلاد الرافدين الجنوبي، نشوء ثقافة المدينة التي قامت على الخلفية العامة للعصر الحجري الحديث (=النيوليتي)، وظهرت أولى المدن الحقيقية في تاريخ الحضارة الإنسانية. كما تشكلت في هذه المناطق كيانات سياسية مُركّبة ومتطورة، تراوحت في التعقيد من دولة المدينة في كل من سورية ووادي الرافدين الجنوبي، إلى المملكة الكبرى التي تشتمل على بيئة طبيعية بأكملها كما هو الحال في مصر.

لقد ساعد المناخ الرطب والمطير، الذي ميّز الألف الرابع قبل الميلاد، المنطقة السورية على تطوير اقتصاد زراعي متقدم يتجاوز الاقتصاد البدائي للعصر النيوليتي، وأدى فيض المحاصيل إلى نشوء حاجة إلى الإدارة المركزية التي تنظم وترشّد عمليات تسويق المنتجات الوفيرة في السهول الداخلية الواسعة، مثل سهول حلب والجزيرة، الأمر الذي قاد إلى نشوء سلسلة من المدن الأولى في منطقة الجزيرة وحوض الخابور، بدأت التنقيبات الحديثة بالكشف عن طلائعها منذ وقت قريب. ففي عام ١٩٩٩ أعلنت البعثة

الأوروبية المشتركة العاملة في موقع تل حموكار بمنطقة الحسكة، عن اكتشاف مدينة تعود إلى أواسط الألف الرابع قبل الميلاد، تبلغ مساحتها ٢٥ هكتاراً ويحيط بها سور متراسي هائل. وقد أحدث هذا الاكتشاف ثورة في معلوماتنا الأركيولوجية، وأرجع تاريخ الثورة المدينية إلى الألف الرابع قبل الميلاد، بعد أن اعتقدنا لفترة من الزمن بأن المدن الأولى قد ظهرت لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية في وادي الرافدين الجنوبي (منطقة سومر) مع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. وبما أن هذه المدينة لا يمكن أن تكون قد نشأت منفردة، وإنما في سياق نهضة مدينية شاملة في المنطقة السورية، فإنني أعتقد جازماً بأن سلسلة من المدن المعاصرة لها سوف تخرج من تحت مئات التلال الأثرية التي ما زالت تنتظر معاول التنقيب في منطقة الجزيرة وحوض الفرات.

لم يعطنا موقع تل حموكار رُقماً طينية، ولكن مثل هذه الرُّقم قد بدأت بالظهور منذ مطلع الألف الثالث في كل من وادي الرافدين ووادي النيل، وصار بإمكان علم التاريخ الاعتماد على هذه الوثائق الخطية في عملية استقصاء أحداث ماضي هذه المنطقة. ثم ما لبثت الوثائق الخطية حتى ظهرت في موقع مدينة إيبلا في الشمال السوري، عندما تم في أواسط سبعينيات القرن العشرين اكتشاف مكتبة في القصر الملكي تحتوي على ٧٠,٠٠٠ رقيم فخاري نقشت عليه بالمسمارية، المعروفة في وادي الرافدين، موضوعات تجارية وسياسية ودينية وطقسية شتى.

أما في فلسطين، التي كانت منطقة رائدة من مناطق ثقافة العصر الحجري الحديث، فقد تأخر ظهور المدن حتى الفترة الانتقالية بين الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد. ولكن هذه المدن قد بقيت طيلة الألف الثاني أقرب إلى القرى المسوّرة منها إلى المدن الحقيقية، ولم تبلغ في أي وقت من الأوقات مستوى المدن السورية، إضافة إلى بقائها في وضع متلقي التأثيرات الحضارية لا في وضع المشع لها. ولعل السبب راجع بالدرجة الأولى إلى تنوع البيئات الطبيعية هنا، وانعزالها عن بعضها بعضاً. وهذا ما لا يشجع ظهور مراكز حضرية كبيرة تعمل على تنظيم الشؤون الاقتصادية والاجتماعية لبيئة واحدة متجانسة تضم أعداداً كبيرة من القرى والبلدات الصغيرة التي تشعر بالحاجة إلى التقارب والتعاون. ففي الوقت الذي شهد فيه الألف الثالث قيام ممالك كبرى في المناطق المجاورة، بقيت فلسطين مؤلفة من قرى صغيرة يتراوح عدد سكانها من بضع عشرات إلى

بضع مئات، وربما تطور بعض هذه القرى لتصبح بلدات مسوّرة تضم الواحدة منها ألفين أو أكثر. ورغم أن هذه المواقع الأولى قد طورت ما ندعوه الآن بالاقتصاد المتوسطي، الذي يقوم على زراعة الكرمة والزيتون والأشجار المثمرة، إلا أن وسائل تحصيل المعاش لديها كان متنوعاً بتنوع بيئاتها ومناطقها الجغرافية، وقربها من مصادر المياه، والمعدلات السنوية لهطول المطر فيها. بلغت كثافة السكان أعلى نسبة لها في وادي يزرعيل الخصيب، يليه مناطق السهل الساحلي (سهل شارون وسهل فلستيا)، فمنطقة الهضاب الحساسة للجفاف بسبب انخفاض معدلاتها المطرية، فصحراء النقب.

ورغم أن الكتابة قد ظهرت في كل من سومر و مصر منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وفي سورية الشمالية (إيبلا) منذ أواسط الألف الثالث، إلا أن ظهورها في فلسطين قد تأخر، على ما يبدو، حتى أواسط الألف الثاني، ولم يُكتشف منها إلا وثائق قليلة ومبعثرة إلى درجة يرثى لها. من هنا، فإنّنا مضطرون في كتابة تاريخ فلسطين إلى الاعتماد على علم الآثار ونتائجه الصامتة، وعلى دراسة الوثائق المكتوبة للحضارات المجاورة. فقد بدأ اهتمام مصر جدياً بمنطقة فلسطين منذ عصر الأسرة الحديثة، عندما بسط فراعنة الأسرة الثامنة عشر سلطتهم على طرق التجارة في فلسطين وسورية الجنوبية، منذ عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م)، وأخذوا بتوثيق حملاتهم العسكرية في نصوص مفصلة وطويلة. كما بدأ الآشوريون من جانبهم بالتوثيق الدقيق لحملاتهم على مناطق غربي الفرات منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، وأعطتنا السجلات الآشورية معلومات تفصيلية عن فلسطين وأوضاعها السياسية.

انعكست حياة الاستقرار التي عاشها سكان فلسطين في بيئاتهم المنعزلة على التكوين السياسي للمنطقة. فقد كانت فلسطين خلال عصر البرونز المبكر (الألف الثالث قبل الميلاد) تتألف من قرى صغيرة وبلدات مسوّرة ذات تنظيم مدني بسيط، وكانت كل بلدة تبسط حمايتها على عدد صغير من القرى المحيطة بها. أما السلطة في هذه البلدات فكانت بيد حكام محليين هم بمثابة مشايخ يتوارثون الحكم بسبب ثرواتهم العائلية وملكياتهم للأراضي وقطعان الماشية. في ظل مثل هذا النظام السياسي البدائي، الذي يفتقر إلى مراكز حضرية كبرى ذات تنظيم مدني وسياسي متطور، وإلى بيروقراطية متعلمة ومتفرغة لشؤون الحكم والإدارة، كان من الصعب على أية مدينة فلسطينية فرض سلطتها

على مدن أخرى، وخلق أي شكل من أشكال الوحدة المحلية أو الإقليمية، وذلك رغم وجود مراتبية معترف بها ضمن شبكة المشيخات الحاكمة، لم تترجم أبدا إلى واقع سياسي على الأرض.

على أن تنوع البيئات وعزلتها عن بعضها لم يكن يعني الاكتفاء الذاتي لكل بيئة، بل لقد عملت التجارة المحلية على ربط البيئات وتواصلها. ففي الوقت الذي يدعو التنوع البيئي إلى تنوع في الإنتاج الزراعي والحرفي، فإنه يدعو أيضا إلى طلب التكامل الاقتصادي عبر التبادل التجاري. فلقد بادل مربو الماشية منتجاتهم مع مزارعي الحبوب، وبادل مزارعو الحبوب منتجاتهم مع أهل البستنة، وبادل حرفيو المدن بضائعهم مع البقية. وهكذا راجت بضائع التبادل النقدي، وعلى رأسها الصوف ومنتجات الحليب والزيت والخمور.

ورغم أن التجارة الدولية لم تكن قد نشطت على نطاق واسع خلال عصر البرونز المبكر، إلا أن طرق التجارة كانت قد شقت طريقها على المناطق الحدودية من فلسطين والممرات الطبيعية الدولية، متفادية مناطق الهضاب الوعرة، واتخذت لها مسالك ثابتة بقيت على حالها حتى نهاية العصور القديمة. وكانت الحركة تنشط على هذه المسالك أو تهدأ تبعا للأحوال المناخية والاقتصادية والأمنية. ورغم وجود شبكة طرق تجارية محلية ربطت البيئات الطبيعية في فلسطين، إلا أن التجارة الدولية قد اقتصرت على ثلاثة طرق رئيسية (انظر الخريطة في الشكل رقم ١٤). وهذه الطرق هي:

١- الطريق الساحلي: ويدعوه المصريون بطريق حوروس. وهو ينطلق من منطقة الدلتا الشرقية، فيقطع الزاوية الشمالية الغربية من سيناء إلى غزة على البحر المتوسط. ثم يصعد بمحاذاة الساحل ليمر بأشقلون (عسقلان) وأشدود. وعند يافا يتجه غربا نحو أفيق، ثم يتابع مسيرته الساحلية شمالا نحو مجدو عند مدخل وادي يزرعيل، ليتفرع بعد ذلك إلى ثلاثة فروع؛ ففرع يتابع مسيرته الساحلية شمالا نحو مدن فينيقيا ومنها إلى سيميرا فأوغاريت فالمناطق الساحلية لآسيا الصغرى، وفرع يعبر وادي يزعيل بين هضاب السامرة ومرتفات الجليل نحو الضفة الشرقية للأردن حيث يتصل بطريق الملوك وصولا إلى دمشق، وفرع يصعد مرتفعات الجليل نحو حاصور ومن هناك ينقسم إلى فرعين: واحد يتجه شرقا ليصل دمشق والثاني يتابع طريقه شمالا عبر وادي البقاع باتجاه حلب وما رواءها.

١٤ – طرق التجارة الدولية
طريق البحر وطريق الملوك

٢- طريق الملوك: ينطلق من وادي النيل قبل تفرع النهر متجهاً شرقاً عبر صحراء سيناء، فيمر من وادي فيران إلى منطقة دير القديسة كاترينا، ومنه إلى خليج العقبة. بعد العقبة يتجه شمالاً فيعبر آدوم وموآب وعمون، فالجولان وصولاً إلى دمشق التي كانت عقدة مواصلات المنطقة السورية. وبذلك يؤمن هذا الطريق لمصر صلتها مع مناجم النحاس في سيناء، ومع تجارة شبه الجزيرة التي تأتي في طريق يصعد من اليمن ويمر بمكة ويثرب قبل أن يلتقي بطريق الملوك.

٣- الطريق الصحراوي: ينطلق من الدلتا الشرقية لينقطع شمال سيناء ليصل إلى واحة قادش برنيع، ومنها إلى أرد، ثم يأخذ مسيرته شمالاً في وادي الأردن نحو بيت شان حيث يتصل بالشبكة الرئيسية.

إن المناخ الرطب والمطير الذي ساد منطقة شرقي المتوسط خلال الألف الرابع ومطلع الثالث، قد ساعد على تطوير اقتصاد تميَّز بوفرة المحاصيل الزراعية التي راحت تُدفع على طرق التجارة المحلية والدولية. وقد وصلت حركة التبادل التجاري أوجها في منتصف الألف الثالث، فارتبطت الشبكة التجارية المحلية لفلسطين بالشبكة الدولية، وصارت زيوت وخمور فلسطين تصل بانتظام إلى مصر ووادي الرافدين. خلال هذه الفترة المزدهرة ظهرت معظم المدن الفلسطينية المعروفة لنا من الفترات اللاحقة، وانتقلت من مستوى القرية إلى مستوى البلدة المسوَّرة. من هذه المدن التي نشأت في عصر البرونز المبكر والوسيط:

١- على الساحل والسهل الساحلي: غزة، وأشقلون، وأشدود، وجت، وعقرون، ويافا، ودور، وعكا.

٢- في سهل شفلح (التلال المنخفضة): جرار، ولخيش، وبيت شميش، وجازر، وأفيق، وعجلون.

٣- الهضاب المركزية: شكيم، وشلوة، وترصة.

٤- مرتفعات يهوذا: أورشليم، وبيت لحم، وجبعون، وحبرون، وبئر السبع.

٥- مرتفعات الكرمل: حاصور

٦- غور الأردن: أريحا، وعين جدي، وعاي.

٧- وادي يزعيل: مجدو، ويزرعيل، وتعنك، وبيت شان.

الفترة الانتقالية وظهور الأموريين

منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، أخذ المناخ في منطقة شرقي المتوسط يميل تدريجيا نحو الجفاف، وبدأت الأوضاع المزدهرة للبيئات السورية بالتدهور، وخصوصا في فلسطين التي تقل معدلات أمطارها، من حيث الأصل، عن بقية معدلات البيئات السورية. وقد بلغ الجفاف أوجه خلال القرنين الأخيرين من الألف الثالث، وأدى إلى انهيار الحياة الاقتصادية، وزعزعة البنى الاجتماعية والسياسية، وذلك من وادي النيل إلى وادي الرافدين. ففي مصر انخفض منسوب مياه نهر النيل بشكل حاد، مما أدى إلى تدمير الحياة الزراعية، وفوضى اجتماعية، وثورات، وانقسامات سياسية، قادت في النهاية إلى سقوط الأسرة السادسة وانهيار المملكة القديمة، وحلول الفترة التي يدعوها المؤرخون بالفترة المعترضة الأولى في التاريخ المصري. وقد تزامن انهيار المملكة القديمة في مصر مع انهيار المملكة الأكادية في بلاد الرافدين، فسقطت بابل بيد البرابرة الغوتيين المنحدرين من الجبال الشرقية. وفي بلاد الشام انهارت الحاضرة السورية الكبرى إيبلا، ثم تبعتها بقية حواضر الألف الثالث التي وقعت تحت سلطة القبائل السامية الآمورية التي أسست لأسر حاكمة قوية في ماري وحلب وقطنة، وغيرها.

أما في فلسطين، فإن الشواهد الأثرية من الفترة الانتقالية تشير إلى حصول نقص متسارع في عدد السكان بلغ حده الأدنى حوالي عام ٢٠٠٠ق.م. فقد تم هجر المناطق الحساسة للجفاف أولا، مثل الهضاب المركزية والجليل ومرتفعات يهوذا، ثم طالت الكارثة المناطق الخصبة المطيرة مثل وادي يزرعيل والسهول الساحلية، وتحول القسم الأعظم من سكان المناطق الزراعية إلى حياة الرعي المتنقل. كما ترافق هذا الفراغ السكاني مع دمار للمدن الرئيسية وانقطاع في السكن دام أكثر من قرن. وفي نفس الوقت كانت وثائق وادي الرافدين تعطينا معلومات عن تواجد مكثف للقبائل الرعوية الجائعة على ضفاف الفرات، أشير إليها باسم الآموريين، أي أهل الغرب.

وقد قامت السيدة كاثلين كينيون بدراسة آثار الدمار في عدد كبير من المدن الفلسطينية خلال هذه الفترة الانتقالية، ولاحظت وجود آثار مادية على أطراف المدن المدمرة، لجماعات رعوية لا تنتمي إلى ثقافة عصر البرونز المبكر على ما تدل عليه مخلفاتهم المادية، مثل الأدوات الفخارية والأسلحة وبقايا المدافن وغيرها. فجميع هذه

المخلفات تشير إلى نمط حياة رعوي وتنظيم سياسي بسيط يقوم على الزعامات القبلية. وقد عاش هؤلاء في مخيمات في محيط المدن المهجورة والمهدمة، مدة طويلة قبل أن يبدأوا ببناء بيوت بسيطة تختلف جذرياً عن عمارة عصر البرونز المبكر، كما بقيت مواقعهم المبنية تلك بدون أسوار أو تحصينات، خلال كامل الفترة الانتقالية وصولاً إلى مطالع عصر البرونز الوسيط. ثم ما لبث هؤلاء حتى ذابوا في ثقافة عصر البرونز الوسيط دون أن يتركوا أثراً يذكر. وقد استنتجت كينيون (اعتماداً على نظرية الهجرة الآمورية من شبه الجزيرة العربية، التي تعزو نهاية ثقافة عصر البرونز إلى غزوات الآموريين) بأن هذه الجماعات هي شرائح آمورية دمرت المدن الفلسطينية ثم عاشت على أطرافها زمناً طويلاً وفق نمط حياتها القديم، قبل أن تتحول إلى الزراعة وبناء البيوت وإعادة إحياء المدن.

على أن النظرية التي تُحمِّل الآموريين مسؤولية تدمير ثقافة عصر البرونز المبكر في بلاد الشام، لم تعد تلقى تأييد معظم المؤرخين اليوم، وخصوصاً بعد تزايد معلوماتنا حول التبدلات المناخية العالمية، والتي بدأت تتخذ طابعاً أكثر دقة بخصوص مناخ العصور القديمة وتبدلاته، وذلك منذ ستينيات القرن العشرين. ففي عام ١٩٥٢ عُقد في مقر الأكاديمية الأميركية مؤتمر ضمَّ نخبة من علماء المناخ في الولايات المتحدة، وطُبعت نتائجه في مجلد يحمل عنوان: التبدل المناخي. وفي عام ١٩٦١ دعت منظمة اليونسكو والمنظمة العالمية للأرصاد الجوية إلى ندوة دولية في مدينة روما، لبحث التبدلات المناخية، وطُبعت نتائجها في مجلد تحت عنوان: تبدلات المناخ. وفي عام ١٩٦٦ عقد في الكلية الإمبراطورية بلندن مؤتمر حول الموضوع نفسه، وطبعت وقائعه في مجلد تحت عنوان: التبدل المناخي من الألف الثامن قبل الميلاد إلى العام الميلادي الأول. وقد تميَّز هذا المجلد باحتوائه على عدد من الأبحاث المهمة حول صلة التبدل المناخي بتاريخ وحضارة الشرق الأوسط. إضافة إلى هذه الندوات والمؤتمرات المهمة، وما تلاها، فقد قام عدد من علماء المناخ بنشر مساهمات فردية متميزة ألقت الضوء على كثير من ألغاز التاريخ والأركيولوجيا في الحضارات القديمة، منهم H. C. Willet و R. H. Carpentar وR. L. Raikes.[1]

١- حول هذه المعلومات بخصوص تبدلات المناخ في العصور القديمة أنظر:

- ألفريد هالور: الآموريون، ترجمة شوقي شعث.

إن ما يمكن لنا استنتاجه من مقارنة التبدلات المناخية في العصور القديمة بالأحداث والمفاصل المهمة في تاريخ الشرق القديم، هو أن حضارة عصر البرونز المبكر قد انتهت بتأثير كارثة مناخية شاملة، وأن تحركات الآموريين لم تكن إلا نتيجة من نواتج تلك الكارثة. وقد بدأ بعض المؤرخين الجدد يعتقد بأن المدعوين بالآموريين ليسوا جماعات غريبة وَفَدَتْ إلى بلاد الشام من الجزيرة العربية، بل هم أهل المناطق المنكوبة الذين أجبرهم الجفاف على هجر أراضيهم الزراعية، وحوَّلهم إلى حياة الرعي المتنقل، وخصوصاً في فلسطين وسورية الجنوبية التي تلقت أقوى ضربات الكارثة المناخية. ومن هؤلاء فريق من الشرائح المعدمة تماماً راحت ترتحل إما باتجاه الدلتا المصرية أو باتجاه نهر الفرات. يقول توماس ل. تومبسون في كتابه The Bible in History:

«حتى أواسط السبعينيات من القرن العشرين، كان البحث الأركيولوجي والتاريخي يعالج أحداث الفترة الانتقالية من خلال نظرية الهجرات البدوية من شبه الجزيرة العربية. كما ربط العديد من الباحثين هذه النظرية بالنصوص المسمارية التي تتحدث عن جماعات الأمورو، وبالنصوص الهيروغليفية التي تتحدث عن جماعات العامو، وبذلك تم اختراع تاريخ لهجرة الآموريين. فتحْتَ الاسم عامو جُعلوا أحد العناصر الرئيسية وراء الأحداث التي قادت إلى نهاية المملكة القديمة في مصر، وتحت اسم الآموريين جُعلوا مسؤولين عن تدمير ثقافة عصر البرونز المبكر في كل من بلاد الرافدين وبلاد الشام، قبل سيطرتهم المنظمة على الهلال الخصيب وتشكيل ممالكهم الآمورية... إن القبول اليوم، وعلى نطاق واسع بين الباحثين، بنظرية اللغة الأفرو- آسيوية باعتبارها أم اللغات السامية، قد قاد إلى التخلي عن النظرية الرومانسية القديمة بخصوص اللغة السامية الأم، التي نشأت في شبه الجزيرة العربية، كما قاد أيضاً إلى التخلي عن نظرية الهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية. إن الأفكار البالية عن الغزو والاجتياح قد جعلت من السهل على المؤرخين استخدام جحافل البدو من أجل مسح الحضارات القديمة واستهلال حضارات جديدة، وبذلك انتقلوا بنا من حضارة البرونز المبكر إلى حضارة البرونز الوسيط، ومن عالم الكنعانيين الفلسطينيين في عصر البرونز الوسيط إلى عالم الإسرائيليين في عصر الحديد. ولكن، ألا تبدو لنا هذه الانتقالات مفهومة أكثر إذا تخلينا عن تفسيرها باجتياحات القبائل السامية الدخيلة؟ وألا تبدو لنا هذه الانتقالات مفهومة أكثر، إذا

تخلينا عن تفسيرها باجتياحات القبائل السامية الدخيلة؟ وألا تبدو لنا الاستمرارية الثقافية، بما تحتويه من تنويعات، أكثر وضوحاً باعتبارها من نواتج التغيرات الداخلية والتحولات الاقتصادية؟»[1]. وبعد شرح الأحوال العامة في سورية الجنوبية خلال الفترة الانتقالية، والتبدلات التي أحدثتها الأحوال المناخية التي سادت أواخر الألف الثالث، ينتهي تومبسون إلى القول:

«في محاولة للتلاؤم مع حالة الجفاف المتزايدة، وما أدت إليه من مجاعات عبر السنوات العجاف المتوالية إلى ما لانهاية، تحولت شرائح واسعة من سكان فلسطين، مجبرة إلى حياة الرعي التي كانت أقل عرضة للآثار المباشرة للجفاف من حياة الزراعة المستقرة. وأخذ هؤلاء ينتشرون في جماعات صغيرة عبر سهول أوسع فأوسع، حتى غدت الحياة الرعوية وزراعة الرقع الصغيرة المتناثرة من الأرض من الأرض، طريقة دائمة في تحصيل المعاش خلال الهزيع الأخير من الألف الثالث. كما أجبرت شرائح واسعة من العائلات المقتلعة من مواطنها على مغادرة فلسطين، والنزوح على شكل جماعات متجهة أبعد فأبعد، وصولاً إلى جبل بشري على الطرق الأقصى من البادية السورية (وهو المكان الذي نعرف من وثائق تلك الفترة عن التواجد المكتشف للجماعات الآمورية فيه). كما توجهت جماعات مهاجرة أخرى جنوباً حتى دخلت الصحراء العربية واستقرت في واحاتها. وهؤلاء هم الذين ورد ذكرهم بعد ألف عام في السجلات الآشورية باعتبارهم قبائل عربية.

٢- عصر البرونز الوسيط (١٩٥٠ -١٥٥٠ ق.م)

في مطالع الألفية الثانية قبل الميلاد، تراجعت موجة الجفاف وعاد المناخ الرطب والمطير إلى شرقي المتوسط، وهذا ما شجع السكان الذين اقتُلِعوا من أراضيهم الزراعية على العودة إلى حياة الزراعة والاستقرار، فظهرت القرى في كل مكان من السهول الخصيبة، وحتى في المناطق شبه الجافة التي أخذت تتلقى معدلات عالية من الأمطار جعلت الزراعة فيها مجدية. كما انتعشت الحياة في المراكز الحضرية الكبيرة على يد العناصر الآمورية، وأُعيد بناء المدن المهدمة أو المهجورة. وسواء كان هؤلاء الآموريون من

1- Thomas L. Thompson, The Bible in History, P. 130.

اصل محلي أم من اصل خارجي، فإنهم قد استقروا في الأرض وبسطوا سلطانهم السياسي على معظم المدن السورية. كما أفلحت العناصر الآمورية، التي اجتازت الفرات خلال الفترة الانتقالية، في تأسيس مملكة قوية لها في بابل، وقام ملوك الأسرة البابلية – الآمورية الأولى في عهد حمورابي بتوحيد كامل مناطق وادي الرافدين تحت سلطة مركزية قوية. وفي مصر ارتفع منسوب فيضان النيل، وعادت الحياة الزراعية سيرتها الأولى تحت إدارة فراعنة الأسرة الثانية عشر، وابتدأت الفترة التي يدعوها المؤرخون بعصر المملكة المتوسطة (١٩٩٠-١٧٣٠ق.م).

لم يكن الآموريون هم الجماعة الوحيدة التي استقبلتها بلاد الشام خلال الفترة الانتقالية من البرونز المبكر إلى البرونز الوسيط. فخلال الفترة نفسها بدأت جماعات الحوريين بالتسرب تدريجياً من مناطق الشمال والشمال الشرقي، والاستقرار في أراضي الجزيرة العليا. وقد زرع هؤلاء الأرض وسكنوا القرى وأسسوا عدداً من المدن التي أخذ علم الآثار بالكشف عنها حديثاً، وأهمها مدينة أوركيش. ثم وقع هؤلاء الحوريين تحت سيطرة موجة بشرية آرية انتشرت في أراضيهم نفسها، وشكلت عدة ممالك أهمها مملكة ميتاني التي ارتقت إلى مصاف القوى العظمى في عصر البرونز الوسيط، إلى جانب كل من مملكة بابل، ومملكة حاتي في الأناضول.

كما شهد عصر البرونز الوسيط تحركات لجماعات معروفة باسم الخابيرو. وعلى عكس الحوريين والآريين، فإنَّ هؤلاء الخابيرو لم يكونوا جماعة عرقية متميزة، بل كانوا اخلاطاً من أجناس شتى لم تجد لها مكاناً في الهيكل الاجتماعي والسياسي لدويلات وممالك عصر البرونز الوسيط، تجمعت تحت زعامات مؤقتة ومتبدلة، وراحت تعيش في حالة اضطراب وحركة دائمة. بعض هؤلاء قد وَفَدَ إلى المنطقة من خارجها، وبعضهم قد جاء من البوادي الداخلية، وبعضهم من شذاذ الآفاق والمغامرين الذين يبحثون عن حظوظ جديدة وفرص للثراء. في أوقات انعدام الأمن، كان الخابيرو يلجأون إلى السلب والنهب وقطع طرق القوافل التجارية، وفي أوقات استتباب الأمن كانوا يؤجرون خدماتهم في حقول الزراعة أو نقل البضائع، وفي أوقات الحرب كانوا يشكلون جماعات محاربة مرتزقة تؤجر خدماتها لمن يدفع أكثر.

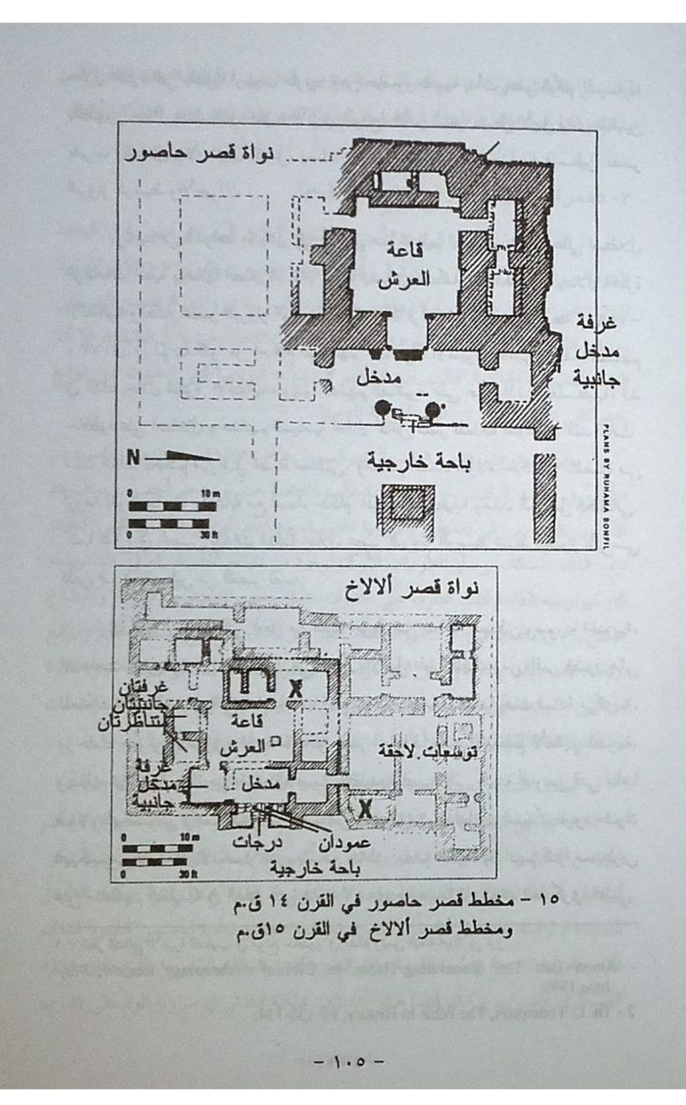
وكما هو الحال في بقية بلاد الشام، فقد شهدت بدايات الألف الثاني في فلسطين ظهور القرى الزراعية الجديدة في المناطق الخصيبة أولاً، مثل وادي يزرعيل والسهول الساحلية، ثم في المناطق الهضبية، فالبوادي الجنوبية. ومع ازدياد غلة الزراعة ارتفع عدد السكان إلى معدلات غير مألوفة سابقاً، ونشطت طرق التجارة المحلية والدولية التي هُجرت خلال الفترة الانتقالية، وانتعشت المدن القليلة التي عبرت المحنة بصعوبة، كما أعيد بناء المدن المهدمة والمهجورة، وظهرت مدن جديدة غير معروفة مثل أورشليم. ورغم أن المؤرخين التقليديين يتحدثون عن هذه المدن باعتبارها دويلات مدن بالمفهوم الرافديني والسوري، إلا أن الوقائع الأركيولوجية تشير إلى أنها لم تكن سوى بلدات صغيرة مسوَّرة، وذلك باستثناء حاصور في الجليل الأعلى التي كانت على الدوام أكثر انتماءً إلى العالم السوري المديني منها إلى فلسطين الريفية.

وصلت المدن الفلسطينية أوج ازدهارها حوالي عام ١٨٠٠ ق.م، وجرى تحصين معظمها بالأسوار المتراسية – Rampart Fortification. والسور المتراسي هو تقنية معمارية رخيصة الكلفة ولا تتطلب خبرة هندسية عالية، ويتألف من جدار حر يُحاط من داخله وخارجه بردم ترابي هائل يعطيه شكل المنحدر الجبلي خصوصاً على محيطه الخارجي، ويزوّده بمناعة ضد تقديم أدوات الحصار. ورغم الضخامة والمنعة التي يوحي بها السور المتراسي، إلا أن وظيفته الدفاعية كانت سيكولوجية بالدرجة الأولى، لما يوحيه من استعصاء على الاقتحام. وكان صالحاً فقط لصد هجمات جيوش صغيرة غير محترفة، ولكنه غير مُجْدٍ أمام الجيوش الإمبراطورية الحسنة التدريب، والقادرة على شق طريقها عبره بعد فترة حصار قصيرة. وهذا يعني أن أساليب الدفاع في فلسطين عصر البرونز الوسيط، لم تكن مُعدة للحماية من جيوش خارجية ضخمة بمقدار ما هي معدة للدفاع أمام تعديات البلدات المنافسة الصغيرة الأخرى، وأن النظام السياسي هنا قد بقي على حاله منذ عصر البرونز المبكر، في ظل استمرارية استقلال المدن وانعدام السلطة المركزية القادرة على توحيدها.

خلال عصر البرونز الوسيط، وأكثر من أي وقت مضى، تظهر في جميع المواقع الفلسطينية المكتشفة، تلك الصلة الثقافية العضوية التي تجمع فلسطين إلى مناطق الغرب السوري. فالآثار المادية مثل الفخاريات والأدوات والأسلحة وعادات الدفن والطرز

المعمارية، تشير إلى وحدة الثقافة الفلسطينية مع ثقافة الغرب السوري من أوغاريت شمالاً إلى المنطقة الصحراوية جنوباً، حيث سادت حضارة واحدة بقيت مستمرة هنا دون فجوة أو انقطاع هبوطاً إلى عصر الحديد الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م)، رغم التقلبات السياسية في المنطقة، والغزوات، والحروب التي أدت إلى دمار متكرر لمدن كان يعاد بناؤها وفق الاستمرارية الثقافية نفسها. وسوف أكتفي هنا بالإشارة إلى وحدة الأساليب المعمارية في فلسطين وسورية الغربية، من خلال مقارنة مخطط القصر الملكي في حاصور بمخطط القصر الملكي في آلالاخ الواقعة في حوض العاصي الشمالي. ويمكن للقارئ ملاحظة التطابق التام بين مخططي هذين القصرين في الشكل رقم ١٥.

لم يتم العثور في جميع المواقع الفلسطينية المهمة على وثائق كتابية ذات شأن، يمكن الاعتماد عليها في إلقاء الضوء على الوثائق الأركيولوجية. أما الوثائق الكتابية للحضارات المجاورة التي يمكن أن نستشف منها بعض المعلومات عن فلسطين، فقليلة ولا تعطي صورة متكاملة عن تاريخ عصر البرونز الوسيط فيها. فقد وصلتنا من ذروة عصر البرونز الوسيط، حوالي عام ١٨٠٠ ق.م، ثلاث مجموعات من النصوص المصرية معروفة باسم نصوص اللعنات (وقد أشرنا إليها وإلى وظيفتها سابقاً)، وفيها تظهر أسماء عدد من المدن الفلسطينية وأسماء حكامها. ومن الملفت للنظر في هذه النصوص أنها تذكر اسم حاكم للمدينة أو حاكمين أو أكثر، وربما أشارت إلى شعب المدينة بشكل عام، كقولها «قبيلة جبيل» أو «قبيلة عرقاتا». وهذا يدل على أن النظام الملكي الوراثي لم يكن قد ترسخ بعد، وأننا ما زلنا نواجه في فلسطين نظام زعامات قبليةوأسر حاكمة متنفذة غير مستقرة السلطة، وأحياناً نظام تمثيلٍ بدائي مما تشير إليه النصوص بقولها قبيلة كذا أو قبيلة كذا. ويشذُّ عن هذه القاعدة مدينة حاصور في الجليل، التي كانت في ذلك الوقت قد حققت درجة متقدمة من التنظيم السياسي والمدني المتطور. فقد ورد اسم حاصور في أكثر من عشرين رقيماً اكتشفت ضمن أرشيف مدينة ماري العريقة على الفرات الأوسط (قرب دير الزور الحالية). ونعرف من هذه الرُّقم عن القناصل والسفراء الأجانب الذين كانوا يَفِدون إلى حاصور من الممالك الكبرى، وعن شحنات البضائع التي كانت ترسل إليها من ماري بأنواعها المفصلة وكمياتها الدقيقة. كما نعرف عن اسم أشهر ملوكها المدعو ابني هدو أي بن هدد، وعن الدَّور الذي لعبه في السياسة السورية



١٥ - مخطط قصر حاصور في القرن ١٤ ق.م
ومخطط قصر ألالاخ في القرن ١٥ق.م

خلال الفترة التي يغطيها أرشيف ماري. ومن حاصور نفسها بدأت بعض الرُّقُم المسمارية بالظهور خلال التنقيبات الجارية الآن في الموقع، الأمر الذي يشعل الأمل لدى المنقبين بقرب اكتشافهم لأرشيف كامل، يساعد على ردم الفجوات في تاريخ فلسطين عصر البرونز الوسيط والأخير[1].

ولدينا من الشواهد ما يشير إلى أن مثل هذا التنظيم السياسي القائم على استقلال الزعامات المحلية ببلداتها الصغيرة، كان سائداً أيضاً في منطقة الدلتا المصرية خلال الفترة الانتقالية ومطلع عصر البرونز الوسيط. ويبدو أن فراعنة المملكة المتوسطة (١٩٩٠-١٧٣٠ق.م) لم يتمكنوا من إحكام سيطرتهم هنا، وأن الآسيويين الذين وطدوا أنفسهم في الدلتا خلال الفترة الانتقالية، وبنوا مدنهم الصغيرة على غرار المدن الفلسطينية، قد حافظوا على استقلال وحداتهم السياسية خلال كامل عصر المملكة المتوسطة. فقد كانت مدن الدلتا تُحكم من قبل قضاة محليين، ومعظم أسماء هؤلاء الحكام - القضاة من أرومة لغوية سامية، وتتشابه مع أسماء حكام المدن الفلسطينية ومدن الساحل الكنعاني. كما شاع في تحصين بلدات الدلتا خلال عصر البرونز الوسيط نمط السور الترابي المعروف في فلسطين من العصر نفسه.

إن هذه الشواهد التي تجعل من الدلتا جزءاً من منطقة فلسطين وسورية الجنوبية، قد دفعت بعض الباحثين المحدثين[2] إلى القول بالأصل المحلي للهكسوس الذين قضوا على المملكة المتوسطة. فحوالي عام ١٧٣٠ق.م تم توحيد مدن الدلتا تحت قيادة مركزية، وزحفت جيوش الآسيويين المتحدة نحو مصر العليا فأخضعت معظم الأقاليم المصرية، وبذلك انتقلت السلطة من طيبة، العاصمة التقليدية لمصر، إلى مدينة أفاريس التي بناها هؤلاء الهكسوس (كما تدعوهم النصوص المصرية) في الدلتا. ورغم أن نفوذ ملوك الهكسوس قد أخذ بالانحسار تدريجياً عن مناطق مصر العليا، إلا أنهم بقوا مسيطرين على مناطقهم التقليدية في الدلتا حتى عام ١٥٧٠ق.م، عندما قام القائد العسكري الطيبي

١ - انظر النتائج الأخيرة للتنقيب في موقع حاصور في مقالة رئيس البعثة آمون بن تور:

- Amon Ben Tor, Excavating Hazor. in: Biblical Archaeology Review, May-June,1999.

2 - Th. L. Thompson, The Bible in History, PP.138-154.

احموس بالقضاء على آخر أسرة هيكسوسية وتدمير أفاريس. وبذلك انتهت الفترة التي يدعوها المؤرخون بالفترة المعترضة الثانية في التاريخ المصري، وابتدأ عصر المملكة الحديثة.

٣- عصر البرونز الأخير (١٥٥٠-١٢٠٠ ق.م)

ترافقت بدايات عصر البرونز الأخير مع صعود ثلاث قوى إمبراطورية في المنطقة المشرقية هي: ١- الإمبراطورية الحثية في آسيا الصغرى (وتدعى حاتي). ٢- الإمبراطورية الميتانية التي ضمت إمارات تحكمها أسر حورية وآمورية في وادي الرافدين الشمالي ومنطقة الجزيرة. ورغم أن الشرائح الشعبية لمملكة ميتاني كانت حورية في غالبيتها، إلا أن الطبقة العسكرية الحاكمة كانت من العناصر الهندو - أوروبية التي اتخذت من موقع واشوكاني عاصمة لها. ٣- الإمبراطورية المصرية.

بعد القضاء على القوة الرئيسية للهيكسوس عام ١٥٧٠ق.م، وتدمير عاصمتهم افاريس في منطقة الدلتا، قام أول فراعنة الأسرة الثامنة عشرة المدعو أحموس بمطاردة الآسيويين المنسحبين إلى فلسطين وسورية الجنوبية، وهاجم المواطن الأصلية التي كانت تزوِّد الدلتا بالسكان. وتدلّ المعلومات الأركيولوجية من المواقع الفلسطينية، في المستويات الأركيولوجية العائدة لتلك الفترة، على حدوث دمار واسع للعديد من المدن، وانقطاع سكني دام في بعضها قرابة قرن من الزمان، كما هو الحال في موقع بيت مرسيم وموقع أريحا. بعد ذلك جاء تحوتمس الأول واستعرض قوته عند المناطق القريبة من نفوذ الميتانيين ونفوذ الحثيين، وبذلك أعلنت مصر عن دخولها حلبة السياسة الدولية، وأعطت رسالة واضحة للقوتين الأخريين بأنها مستعدة للدفاع عن مصالحها في آسيا الغربية.

توقف اهتمام مصر بالسياسة الدولية إبان حكم الملكة حتشبسوت (١٤٩٠-١٤٦٩ق.م) التي انشغلت بالمسائل الداخلية. وعندما خلفها زوجها وشريكها في الحكم تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م)، بدأ سلسلة حملات عسكرية متوالية، جنوباً نحو أفريقيا وشمالاً نحو آسيا الغربية، بلغت اثنتي عشرة حملة خلال فترة حكمه الطويل الذي دام قرابة خمسين عاماً. وكانت معركة مجدو فاتحة لتأسيس النفوذ الدائم للإمبراطورية المصرية في آسيا الغربية. فقد التقت كلمة الممالك السورية على مقاومة المد العسكري المصري، وكان قطبا هذا التحالف مملكة قادش في سورية الوسطى (قرب

حمص الحالية)، ومملكة ميتاني الشمالية، إضافة إلى الدويلات الفلسطينية التي سارت على ما يبدو تحت لواء مجدو التي اجتمعت إليها الجيوش المتحالفة في انتظار وصول تحوتمس الثالث. ولكن تحوتمس قد كسب المعركة على ما يصفه لنا في نص طويل محفور على جدار معبد الكرنك.

لم يشارك الحثيون في معركة قادش، لأن خصمهم المباشر في ذلك الوقت لم يكن مصر بل مملكة ميتاني، التي كانوا ينتهزون كل فرصة ممكنة للتوسع على حسابها في المناطق السورية الشمالية. وعندما أفلحت حاتي في سحق ميتاني حوالي عام ١٣٥٠ق.م، انفتحت أمامها بوّابة سورية، وأخذت تبسط حمايتها على الممالك السورية وصولاً إلى حدود مناطق النفوذ المصري. ولدينا وثيقة حثية مهمة تم العثور عليها ضمن الأرشيف الملكي في حاتوسس عاصمة مملكة حاتي في الأناضول، تحتوي على نص معاهدة بين الملك الحثي شوبي لوليماس و عازيراس (أو عازيرو على ما تدعوه نصوص تل العمارنة) عاهل مملكة آمورو. وكانت آمورو في ذلك الوقت واحدة من أهم الممالك السورية، وتسيطر على السهول الساحلية السورية الوسطى عند منطقة طرطوس، حيث كانت تقوم عاصمتها سيميرا، مع امتدادات نحو الداخل تصل إلى حدود مملكة قادش قرب حمص. وهذه المعاهدة نموذج عن المعاهدات التي كان الملوك الحثيون يفرضونها على الدويلات السورية. نقرأ في مقدمة المعاهدة على لسان الملك الحثي ما يلي:

«أنا الملك الشمس، جعلتك يا عازيراس تابعي. فإنْ صنت أرض ملك حاتي، سيدك، فإنّ سيدك ملك حاتي سيقدم لك بالمقابل حمايته. عليك أن تحمي روح مليكك وشخصه وجسمه وأرضه كما تحمي روحك وشخصك وجسمك وأرضك، وملك حاتي سيفعل الشيء نفسه وكذلك أولاده وأحفاده. يتوجب عليك أن تدفع ٣٠٠ شيكل من الذهب الخالص، جزية لملك حاتي في كل سنة، يجري احتسابها بموازين بلاد حاتي، وعليك أن تأتي إلى الملك الشمس في عاصمته مرة كل سنة... لقد ترك عازيراس ملك آمورو بوّابة مصر وغدا تابعاً للشمس ملك حاتي، وهاهو الملك الشمس العظيم راضياً بسجود عازيراس عند قدميه. أنا الشمس، الملك الكبير، قبلت تبعية عازيراس، وجعلته في زمرة إخوتي»[1].

1 - A. Goetze, Egyptian and Hitite Treaties. in: Ancient Near Eastern Texts, P.529.

وفي الحقيقة، فإنّ عازيراس هذا قد ورث تبعية حاتي عن أبيه من قبله المدعو عبدي عشيرته، ولعب الاثنان دوراً مهماً في أحداث أواسط القرن الرابع عشر، التي أدت إلى فقدان مصر لسيطرتها على مناطق فلسطين وسورية الجنوبية، إبان فترة حكم الفرعون أخناتون، الذي انشغل بمشاكله الداخلية وإصلاحه الديني عن هموم الإمبراطورية، وترك الدويلات الفلسطينية والكنعانية الساحلية للحروب والمنازعات، وتدخل الحثيين عن طريق عملائهم في المنطقة، حتى آلت الأمور إلى فوضى تامة، فانقطع حبل الأمن، وتعطلت طرق التجارة، وراحت عصابات العابيرو المأجورة تعيث فساداً في كل مكان. على أن تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية في فلسطين خلال هذه الفترة، يجد أسبابه البعيدة في عوامل كانت تفعل ببطء منذ مطلع عصر البرونز الأخير.

لقد لاحظ علماء الآثار منذ وقت مبكر، حدوث تدهور تدريجي في الحضارة الكنعانية على الساحل السوري وفي فلسطين وسورية الجنوبية، ابتداءً من ذروة حضارة عصر البرونز في القرن السادس عشر. وقد استمر هذا التدهور بخطا متسارعة حتى وصلت حضارة عصر البرونز إلى نقطة الحضيض في القرن الثالث عشر. فقد أخذ عدد السكان بالتناقص، وتراجعت الثقافة في كل مجال تقريباً، على ما تبديه المخلفات المادية من فخاريات وفنون تشكيلية وعمارة وتحصينات وما إليها. ولكن أسباب هذا التدهور بقيت خافية على المؤرخين حتى وقت قريب، ولم نستطع فهمها إلا من خلال المعلومات التي قدمها علم تحول المناخ العالمي، الذي نشأ في الستينيات من القرن العشرين ونضج في الثمانينيات. وهذه المعلومات تشير إلى حدوث موجة جفاف بطيئة وطويلة مشابهة للموجة التي قضت على ثقافة عصر البرونز المبكر، وابتدأت آثارها غير الملحوظة منذ مطلع عصر البرونز الأخير، ثم أخذت تتزايد تدريجياً عبر ثلاثة قرون متوالية. وكانت منطقة فلسطين وسورية الجنوبية أول من تلقى هذه الموجة، بسبب حساسية معظم مناطقها للجفاف، وقلة معدلاتها المطرية مقارنة ببقية مناطق بلاد الشام. فانهارت الزراعة أولاً في المناطق الهضبية الأكثر حساسية للجفاف، وأخذ المزارعون ينزحون عن أراضيهم منذ مطلع القرن الرابع عشر، ولم يصمد طويلاً أمام نُذر الكارثة إلا قرى الأودية الخصيبة. وفي بحثهم عن استراتيجيات جديدة في تحصيل المعاش، لجأ فريق من النازحين إلى المدن الرئيسية التي كان الوجود المصري فيها يؤمن الاستقرار والأمن ويؤجل آثار الكارثة عليها، وتحول فريق ثانٍ إلى حياة الرعي المتنقل، بينما وقعت أفقر الشرائح في حياة التشرد، حيث تجمع بعضهم في جماعات تعيش في الكهوف على طول طرق التجارة

والمواصلات الرئيسية. مشكلين عصابات سلب ونهب، أو فصائل مرتزقة تؤجر خدماتها الحربية لحكام المدن التي ثارت بينها المنازعات والحروب، في ظل ضعف السلطة المصرية ولا مبالاة البلاط الفرعوني. وهكذا ظهرت مجدداً جماعات الخابيرو التي واجهناها خلال الفترة الانتقالية بين البرونز المبكر والوسيط، ولكن تحت اسم العابيرو الذي يتكرر في رسائل تل العمارنة.

يعطي الأرشيف الملكي الذي عُثر عليه في موقع عاصمة أخناتون بتل العمارنة، صورة واضحة عن أحوال سورية الجنوبية وفلسطين والساحل الكنعاني اللبناني خلال أواسط القرن الرابع عشر. فقد شغلت الرسائل المتبادلة بين البلاط المصري وحكام المدن في هذه المناطق حيزاً كبيراً من الأرشيف، فهنالك مراسلات مع حكام صور وجُبيل وعكا ومجدو وشكيم وجازر وأورشليم وبيت شان وغزة. وسأقدم فيما يلي نماذج معبرة عن هذه المراسلات[1].

يقول الأمير شواردتا حاكم مدينة حبرون في مرتفعات يهوذا في رسالته ما يلي: «إلى مولاي الملك الشمس. هكذا يقول شواردتا، خادمك، والتراب الذي تحت قدميك: عند قدمي الملك أسجد سبع مرات، وسبعاً أُخر، منبطحاً بلا حراك. ليعلم مولاي أن زعيم العابيرو قد هاجم الأراضي التي أعطاها لي إله مولاي الملك، ولكني تغلبت عليه. وليعلم مولاي أن كل أخوتي (من أمراء المدن) قد تخلوا عني، ولم يقف معي في مواجهة العابيرو إلا عبدو[*] هيبة (أمير أورشليم). لقد هب لمساعدتي أولاً زوراتا أمير عكا، وإنداروتا أمير أكشف، بخمسين عربة، بعد أن تعرَّضْتُ لنهب العابيرو، ولكنهم انقلبوا بعد ذلك ضدي. أتمنى على مولاي الملك أن يوعز للقائد ينهامو بالوقوف في صفي لنشن معاً حملة تسترجع أراضي الملك إلى حدودها السابقة»[†].

ويكتب أمير مدينة جبيل المدعو رب عدي، من منفاه في مدينة بيريتو (بيروت) التي لجأ إليها بعد انقلاب داخلي، يشكو تعديات عازيرو (عازيراس النص الحثي) وأخوته الذين يدعوهم بأبناء عبدي عشيرته: «من رب عدي إلى مولاه الملك الشمس. عند قدمي

1 – المنتخبات التي أقدمها هنا من رسائل تل العمارنة نقلتها إلى العربية عن أولبرايت:
- W. F. Allbright, Accadian Letters. In: J. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, P.483 FF.

(*) وتُقرأ أيضاً عبدي هيبة.

(†) نلاحظ من هذا النص، وغيره من رسائل تل العمارنة، أن حكام المدن السورية في ذلك الوقت كانوا من أصول عرقية سامية وهندو أوروبية. فالاسم عبدي هيبة سامي، أما شواردتا وزوراتا وانداروتا فهندو – أوروبية. ولعل أمثال هؤلاء الحكام قد جاؤوا مع الموجة الآرية التي انشأت مملكة ميتاني.

الملك أسجد سبع مرات، وسبعاً أُخر. لقد كتبت مراراً في طلب المساعدة ولم أحصل عليها، فالملك لا يصغي لكلمات خادمه، ورسولي قد عاد من عند المقام السامي خالي الوفاض وبلا قوات دعم، وعندما رأى أهل بيتي وأخوتي أن الفضة التي طلبْتُها لم تصل إليّ، هزئوا بي واحتقروني. لقد كان أخي يؤلّب المدينة ضدي لتصبح تحت سيطرة أبناء عبدي عشيرته، وعندما تأكد أن رسولي قد عاد بدون فضة وقوات دعم، ازدراني وطردني من مدينتي، فلجأت إلى هامونيري (أمير بيروت). أتمنى على الملك ألا يقف مكتوف الأيدي أمام فعال ذلك الكلب... إن المتمرّدين لقلةٌ، ومعظم أهل المدينة يقف إلى جانبي، وعندما يسمعون بوصول القوات ستعود جبيل إلى مولاي... إن في مدينتنا ثروات كبيرة للملك مولاي، جاءت من أسلافنا، فإذا لم يتدخل الملك من أجل المدينة، فإنّه سيفقد كل مدن كنعان».

ويقول ملك صور المُحاصَر في رسالته: «إنني أحمي صور المدينة العظيمة لحساب مولاي الملك، إلى أن تصلني قواته فتهبني حطباً للدفء وماءً للشرب. وإني أحيطكم علماً بأن زيميريدا ملك صيدون، قد كتب مراراً إلى المجرم عازيرو ابن عبدي عشيرته بخصوص كل ما سمعه من لدنكم في مصر. وها أنا قد كتبت إليكم بكل ما يتوجب عليكم معرفته».

ولدينا ست رسائل من حاكم أورشليم المدعو عبدي هيبة (أو عبدو هيبة كما يقرؤه أولبرايت هنا)، يقول في إحداها: «إلى الملك مولاي. هكذا يقول عبدو هيبة، خادمك: عند قدمي الملك، مولاي، أسجد سبع مرات، وسبعاً أُخر. أُنظر إلى ما فعله ملكيلو، وشواردتا، بأراضي مولاي الملك. لقد دفعا بقوات من جازر، ومن جَت، ومن كيلة، واستولوا على أراضي روبوتو، وصارت أملاك مولاي بيد العابيرو، كما أن بلدة بيت لحمي[*] الواقعة في أراضي أورشليم قد أعطيت إلى كيلة. فليصغ مليكي إلى خادمه

(*) لقد ساورني الشك بقراءة أولبرايت لكلمة بيت لحم التي أوْرَدَها هنا بصيغة بيت لحمي – Bet Lahmi، منذ أن استشهدت بهذه الرسالة في كتابي الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، الصادر عام ١٩٨٩. ثم ساورني الشك مجدداً عندما هممت بالاستشهاد بها ثانية هنا، وتبين لي بعد التفتيش في سجلات مصر ووادي الرافدين وغيرها من نصوص الشرق القديم، أن الاسم بيت لحم أو بيت لحمي لم يرد خارج ترجمة أولبرايت لرسالة عبدي هيبة والمعروفة بالرمز EA, No290. إن المعلومات التي تجمعت لدي الآن تثبت أن بيت لحم الواقعة قرب القدس لم تكن موجودة في عصور ما قبل الميلاد. وأولبرايت نفسه قد كتب الشطر الثاني من الكلمة بالحرف المائل (*Lahmi*) وقال في الهامش ما يلي: ترد هنا إشارة شبه مؤكدة إلى مدينة بيت لحم التي يرد ذكرها لأول مرة في النصوص التاريخية(!)
وإني إذ أعتذر لقارئي عن أخذي بقراءة أولبرايت دون تمحيص، فإني أرجو منه إغفال ما أوردته في كتابي الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم بخصوص بيت لحم، وذلك في الصفحات من ٥٧ إلى ٥٩.

عبدو هيبة، ويرسل قوات تعيد الأراضي المسلوبة إلى مولاي الملك. وإذ لم تنجدني قواتكم، فإنّ أملاك مولاي هنا ستصير كلها تحت سيطرة العابيرو».

في رسائل تل العمارنة، يرد ذكر أورشليم للمرة الثانية في السجلات التاريخية، وذلك بعد قرابة أربعة قرون من ذكرها لأول مرة في نصوص اللعنات المصرية، التي يرجع تاريخها إلى حوالي عام ١٨٠٠ ق.م. ولكن المشكلة أن هذه الرسائل لا تحتوي على معلومات تدلنا على القوة النسبية لأورشليم وحجمها ومدى اتساع نفوذها، في الوقت الذي تشح فيه المعلومات الأركيولوجية من موقع أورشليم في المستويات العائدة للقرن الرابع عشر قبل الميلاد. وهذا ما دفع بعض الآثاريين إلى الشك بأن المدينة كانت مسكونة خلال عصر العمارنة. وتناقش عالمة تأريخ اللقى الأثرية السيدة مارغريت شتاينر (التي عهد إليها المعهد البريطاني للآثار في القدس، مع زميلها هـ. فرانكن، بإعادة النظر في تأريخ اللقى الأثرية من موقع أورشليم وجواره) بأن غياب اللقى الأثرية العائدة إلى القرن الرابع عشر، وخصوصاً الكسرات الفخارية، من محيط أورشليم ومنحدرات هضبة أوفيل، لا يمكن تفسيره إلا بأن المدينة كانت مهجورة تقريباً. أما بخصوص عبدي هيبة ورسائله، فتقول بأن الرسائل لم تشر إلى أورشليم باعتبارها مدينة، بل استخدمت على الدوام تعبير أراضي أورشليم. وهي ترجح أن يكون عبدي هيبة مجرد راع للمصالح المصرية في منطقة أورشليم، وأنه قد أقام في قصر محصن عند وادي قدرون[١].

بعد سقوط أخناتون، عملت مصر جادة على استعادة نفوذها المفقود في فلسطين وسورية الجنوبية، خصوصاً إبان حكم سيتي الأول (١٣٠٢-١٢٩٠ق.م) ثاني فراعنة الأسرة التاسعة عشرة. فقد شنّ هذا الملك عدة حملات استردت إلى السلطة المصرية كامل مناطق نفوذها التقليدية، وصولاً إلى مدينة قادش في الوسط السوري. حيث تم العثور على بقايا نصب تذكاري له. كما تابع سيتي الأول تقدمه شمالاً حتى اصطدم بقوات الحثيين في أكثر من معركة. وقد ترك لنا هذا الفرعون نصباً تذكارياً آخر، عُثر عليه في موقع بيت شان بوادي يزرعيل، نقش عليه بالهيروغليفية أخبار انتصاره على تحالف سوري جنوبي تجمعت جيوشه عند بيت شان[٢]. ثم تابع ابنه رمسيس الثاني

١ – انظر تحليل شتاينر الوافي في بحثها المنشور في مجلة علم الآثار التوراتي، عدد July-August 1998.

٢ – انظر ترجمتي للنص في مؤلفي: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم ص٦٢.

(١٢٩٠-١٢٢٤ق.م) حماية المنطقة من الحثيين، واصطدم معهم في عدة معارك كان أهمها معركة قادش المشهورة، والتي زج كل من الطرفين إليها بكل قوة ممكنة سعيا وراء الحسم الأخير. ولكن المعركة لم تنجل لصالح أحد، وتبعتها مناوشات حدودية استمرت ستة عشر عاما، انتهت بتوقيع معاهدة بين مصر وحاتي تعتبر من أشهر معاهدات العالم القديم. وفيها تم اعتراف مصر بسيادة الحثيين على مناطق الشمال السوري، واعترف الحثيون بسيادة مصر على مناطق الجنوب السوري. وقد تم العثور على نص حثي للمعاهدة في موقع حاتوسس بالأناضول، وعلى نص لها باللغة المصرية منقوشا على جدار معبد آمون بالعاصمة طيبة.

على أن الأوضاع الاقتصادية المتردية في المنطقة كانت تدفع كلا القوتين العظميين إلى الانسحاب من بلاد الشام وترك المنطقة لمصيرها، خصوصا وأن الكارثة المناخية الجديدة قد طرقت أبواب مملكة حاتي وعصفت باقتصادها وحياتها السياسية والاجتماعية. وما لبثت حتى ظهرت في الأفق طلائع جموع جائعة يدفعها القحط والجفاف الذي ضرب مناطق اليونان وبحر إيجة، تبحث في المشرق عن لقمة يفتقد إليها أهله.

الجفاف الميسيني
والانهيار العام لثقافة عصر البرونز

بلغت موجة الجفاف التي كانت تتصاعد خلال عصر البرونز الأخير أوجها في القرن الثالث عشر، وتحولت إلى كارثة مناخية امتدت من اليونان وجزر بحر إيجة غربا إلى بلاد الشام شرقا، فيما يعرف بفترة الجفاف الميسيني، نسبة إلى منطقة ميسينا في جنوب اليونان، التي كانت بؤرة الكارثة وأكثر المناطق تضررا بسببها. فمع مطلع القرن الثالث عشر امتدت آثار الجفاف إلى كل مكان من المناطق الشرقية لحوض المتوسط (عدا مصر التي نجت منها بسبب انتظام فيضان النيل)، فارتفعت الحرارة بمعدلات عالية مترافقة مع هبوط حاد في معدلات الأمطار. ضربت الكارثة المناخية أولا مناطق آسيا الصغرى، وبدأت عوامل التحلل في الإمبراطورية الحثية تبدو واضحة منذ عام ١٢٥٠ق.م، فانتشرت المجاعة، وتراخت قبضة السلطة المركزية، وسادت الفوضى في كل مكان، وراح الملك الحثي يستجدي القمح من مدينة أوغاريت التي لبت طلبه بعد توسط

البلاط المصري، رغم أن مناطق بلاد الشام لم تكن أحسن حالا بكثير. كما بدأت آسيا الصغرى تستقبل أعدادا من المهاجرين الذين دفعهم الجفاف الميسيني شرقا، وما لبث هؤلاء حتى أخذوا يتجمعون في وحدات أكبر فأكبر تحت قيادات عسكرية، ويتحركون مع أطفالهم ونسائهم ومتاعهم الخفيف عبر مناطق مملكة حاتي المنكوبة والممزقة، بعد انهيار السلطة تماما في العاصمة حاتوسس، وسقوط آخر أسرة مالكة حثية في الأناضول. ثم انحدرت هذه الجماعات نحو بلاد الشام وأطلقت رصاصة الرحمة على مدنها التي كانت تحتضر، ثم شقت طريقها جنوبا حيث تجمعت في فلسطين استعدادا للانقضاض على مصر، أسمن الطرائد في ذلك العصر.

دعا المؤرخون هذه الجماعات التي ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر بشعوب البحر، نسبة إلى مواطنها الرئيسية في كريت وجزر بحر إيجة، وعزوا إليها تدمير ثقافة عصر البرونز الأخير في مناطق حاتي وبلاد الشام، مثلما عزوا سابقا تدمير ثقافة عصر البرونز المبكر إلى القبائل الآمورية في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. ولكن النظرية المرجحة اليوم، هي أن هذه الجماعات كانت تتحرك عبر أرض محروقة خلت من سكانها تقريبا، وأن المدن التي مرت بها كانت شبه مهجورة في معظمها. ولكن هذا لا يمنع أنهم كانوا مسؤولين عن تدمير بعضها وإحراقه.

في الوقت الذي كان فيه فريق من شعوب البحر يشق طريقه برا باتجاه مصر، كان فريق آخر قد ركب البحر، وحطت مراكبه القادمة من بحر إيجة على سواحل أفريقيا الشمالية القريبة من الحدود المصرية. ثم تحرك هؤلاء مع فريق من الليبيين باتجاه منطقة الدلتا، في محاولة للاستقرار وإيجاد سبل العيش فيها. ولكن الفرعون مرنفتاح تصدى لهم وهزمهم في معركة فاصلة حوالي عام ١٢٢٠ق.م. ثم قام خليفته رمسيس الثالث بالتصدي للجماعات الأخرى التي كانت تحاول الانطلاق من فلسطين للاستقرار في الدلتا الشرقية، فهزمها وقضى عليها كمجموعة عسكرية موحدة. إلا أن فريقا منهم ويدعى البيليست أو الفليست قد توطن في السهل الساحلي الجنوبي من فلسطين بموافقة السلطات المصرية، وهي المنطقة التي صارت تدعى فليستيا في نصوص الشرق القديم، ويدعى أهلها فلسطينيون في الرواية التوراتية. ورغم أن هذه المنطقة قد حافظت على اسمها عندما صارت ولاية فارسية ثم هيلنستية فرومانية، إلا أن الاسم فليستيا (أوفلسطين)

صار يستخدم تدريجيا للدلالة على كامل المنطقة الواقعة إلى الجنوب من لبنان، بين ساحل المتوسط ونهر الأردن.

لم يحافظ الفلستيون على تكوينهم الاثني والثقافي مدة طويلة، وما لبثوا طويلا حتى ذابوا في محيطهم الكنعاني، على ما تدل عليه مخلفاته المادية. فمع مطلع القرن الثاني عشر تظهر في منطقة فلستيا، وبعض الاستطالات الجغرافية لها داخل فلسطين الكبرى، خزفيات تنتمي إلى الأنماط الفنية لبحر إيجة مصنوعة محليا. ثم تبدأ هذه الخزفيات بالاختفاء خلال قرن من الزمان لتحل محلها خزفيات كنعانية. وخلال الفترة نفسها تظهر على الأختام كتابات كريتية تأخذ بالاختفاء تدريجيا لتحل محلها كتابات كنعانية. وعلى مستوى الثقافة التجريدية، يبدو أن القادمين الجدد قد طابقوا آلهتهم القديمة مع آلهة كنعان وأعطوها أسماء محلية مثل داجان و عشتروت. ثم قادتهم هذه المطابقة بعد ذلك إلى نسيان ديانتهم التقليدية وتبني ديانة الأقوام الكنعانية التي حلوا بين ظهرانيها. وعندما بدأت المدن الفلستية الخمس تظهر في النصوص الآشورية (وهي غزة و جت وأشدود و أشقلون و عقرون)، اعتبارا من القرن الثامن قبل الميلاد، لم تكن عندها إلا مدنا كنعانية قلبا وقالبا.

تلقت فلسطين النصيب الأوفر من فواجع الجفاف الميسيني. فبعد أن هجرت معظم مناطقها الزراعية خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر، جاءت ذروة موجة الجفاف، خلال الفترة الانتقالية إلى عصر الحديد، لتطال المدن التي قاومت الموت وراحت تعيش في حالة فقر مدقع ونقص في السكان، فهجر بعضها وتهدم البعض الآخر، واستمرت قلة منها مستفيدة من وجود الحاميات المصرية فيها. ولقد حاولت السلطات المصرية من ناحيتها مواجهة الأوضاع المتردية للمجتمعات الفسلطينية بوسائل شتى. فلقد كانت مسؤولية حفظ الأمن والنظام تقع على عاتق القوات المصرية وحدها تقريبا، وهي مسؤولية لم تكن قادرة على القيام بها على الوجه الأمثل. كما حاول المصريون إعادة توطين المزارعين النازحين في مناطق جديدة، وأرسلوا إليها شحنات قمح تعينهم على استصلاح الأراضي وزراعتها، كما عملوا لفترة طويلة على حماية طرق التجارة وإبقائها مفتوحة، من خلال التواجد المكثف للحاميات المصرية على طول هذه الطرق. ولكن مصر اضطرت أخيرا إلى سحب معظم حامياتها وترك الطبيعة لتسترد عافيتها بأساليبها الخاصة.

هذه الفترة الانتقالية من عصر البرونز الأخير إلى عصر الحديد، بين أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر، هي الفترة التي يفترض المؤرخون أنها شهدت ظهور القبائل العبرانية في فلسطين واستقرارهم فيها. فالخروج من مصر، كما هو متفق عليه، قد جرى في زمنٍ ما بين عام ١٢٦٠ و١٢٤٠ ق.م، خلال حكم الفرعون رمسيس الثاني. وفي زمنٍ ما بين عام ١٢٢٠ و١٢٠٠ اجتاز يشوع بن نون نهر الأردن واستولى على الأرض الموعودة في فترة قصيرة. وتبع ذلك فترة طويلة غطت كامل عصر الحديد الأول، كان العبرانيون خلالها يوطدون أنفسهم في المناطق الهضبية الفلسطينية، قبل أن يتداعوا لتشكيل مملكة لهم في أواخر القرن الحادي عشر، أي بعد مرور حوالي قرنين على دخولهم كنعان.

الفصل السابع

عـــودة إلـى الـــوراء (٢)

عصر الحديد والبحث عن العبرانيين

بلغ الجفاف الميسني ذروته فيما بين ١٢٥٠ و١٢٠٠ق.م. ثم بدأ المناخ يميل ببطء نحو البرودة والرطوبة، بعد أن طُويت صفحة ثقافة عصر البرونز، وأخذت ملامح خارطة بشرية وحضارية بالتشكل في المنطقة مع تقدمنا في عصر الحديد الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م). فقد استقرت القبائل الآرامية التي ظهرت خلال الفترة الانتقالية، وأخذت ببناء القرى الزراعية في مناطق الجزيرة وحوضي الفرات والخابور، وعلى طول السهول الشمالية وصولاً إلى سهل العمق، وتعاونت مع الشرائح الاجتماعية المدينية القديمة على إعادة سكن وترميم المدن، كما بنت لنفسها مدناً جديدة لم تكن موجودة في عصر البرونز الأخير. ولم ينتهِ القرن الحادي عشر، حتى كان الآراميون قد أسسوا ممالك قوية، ومنظمة على النمط السوري المعروف، في مناطق الشمال أولاً ثم هبوطاً نحو حماه فدمشق. وفي مقابل الضغط العسكري الآشوري الذي جاء من وادي الرافدين الشمالي، فقد مارس الآراميون ضغطاً سلمياً على وادي الرافدين الجنوبي، حتى استطاع الفرع الكلداني من القبائل الآرامية السيطرة تماماً على منطقة لارسا و بابل، وأسس المدعو نابو بولاصر (٦٢٥-٦٠٥ق.م) لأول سلالة كلدانية في بابل.

دعيت الممالك الآرامية الشمالية، المتوضعة على طول خط الحدود الفاصل اليوم بين سورية وتركيا، بالممالك الحثية الجديدة. وذلك مثل جوزانا (تل حلف)، و حداتو (أرسلان طاش)، و أرفاد، و شمأل (تل زنجرلي). إن تسمية هذه الممالك بالحثية الجديدة لها ملابسات تاريخية وأخرى تتعلق بزمن وطبيعة الاكتشافات الأركيولوجية الأولى في

سورية. فقد استمر الآشوريون يدعون هذه المنطقة حاتي بعد زوال المملكة الحثية في الأناضول بزمن طويل. وعندما قام المنقب الألماني فون أوبنهايم باكتشاف أول عاصمة آرامية في موقع تل حلف (جوزانا) حوالي عام ١٨٩٩، حافظ على التسمية الآشورية المضللة ودعا الثقافة التي تكشفت له في الموقع بالثقافة الحثية الجديدة، تفريقاً لها عن ثقافة حاتي القديمة. ونظراً لقلة المواقع السورية القديمة المكتشفة في ذلك الوقت المبكر، فقد تمت مقارنة آيات النحت العظيم التي أفاض بها موقع تل حلف مع الفن الحثي والفن الآشوري، ولم يتم الانتباه إلى طبيعته الخاصة كفنٍ آرامي أصيل، ولكنه متأثر بالفن الحثي والفن الآشوري. وهكذا ساد مصطلح الفن الحثي الجديد والممالك الحثية الجديدة واستمر دون مساءلة. ولكن الدارسين المحدثين للفن السوري الشمالي خلال القرون الأولى للألف الأول قبل الميلاد، أخذوا يكتشفون فيه عناصر سورية محلية، رغم تأثره بالفن الحثي بسبب الجاليات الحثية الكبيرة التي وَفَدت إلى هذه المناطق عقب انهيار المملكة في الأناضول واختلطت بالآراميين. يقول باولو ماتييه، المؤرخ وعالم الآثار الإيطالي المعروف حول هذا الموضوع الكلمة المعبرة التالية: «إن مصطلح الحثي الجديد هو من أكثر المصطلحات التي نحتها الباحثون المبكرون دوغمائية وخطأ، وهو يحرم الفن السوري من كل أصالة وإبداع»[1].

وبخصوص أصل الآراميين، فقد جعلهم البحث التاريخي التقليدي قبائل نزحت من شبه الجزيرة العربية لترسخ أقدامها في بلاد الشام، مستفيدة من فترة الفراغ وحالة الفوضى السياسية والاجتماعية التي ميزت الفترة الانتقالية من عصر البرونز إلى عصر الحديد. كما رأى بعض الباحثين المحدثين أن الآراميين هم قبائل رعوية كانت متواجدة منذ زمن طويل في البادية السورية وعلى أطراف المناطق الزراعية، ثم ساعدتها ظروف الفترة الانتقالية على إيجاد موطئ قدم لها في الخارطة السياسية والاجتماعية الجديدة لبلاد الشام.

ولكني أتقدم هنا برأي حول أصل الآراميين يستند إلى ما وجدناه في العصور السابقة من حركة طاردة تدفع السكان المستقرين إلى النزوح والتحول إلى حياة الرعي، إبان فترة الجفاف، وحركة أخرى جاذبة تدفعهم إلى التجمع من جديد والعودة إلى نمط حياتهم السابق، سواء في أراضيهم نفسها أم في أراضي مناسبة أخرى. فالآراميون، والحالة

1- Paolo Matthiae, Ebla, Hodder, London 1980, P19.

هذه، ليسوا جماعات قدمت إلى بلاد الشام من خارجها، بل هم جماعات رعوية تشكلت من أشتات المزارعين وسكان المدن المهجورة، خلال فترة الجدب الطويلة التي توجت بكارثة الجفاف الميسيني. وقد تجمع هؤلاء في كيانات سياسية قبلية متماسكة، وتبنوا استراتيجيات جديدة في تحصيل المعاش. وعندما عاد المناخ البارد والرطب إلى المنطقة أخذت بعض القبائل الآرامية بالاستقرار في مناطق تجوالها السابقة، بينما شقت قبائل أخرى طريقها نحو المدن التي بدأت بالانتعاش فساهمت في إحيائها واستلمت زمام الحكم فيها. إن اللغة المدعوة بالآرامية، التي بدأت نقوشها بالظهور في المستويات الآثارية العائدة لعصر الحديد الثاني مستخدمة القلم الأبجدي الفينيقي، ما هي إلا لغة سامية غربية قريبة من كنعانية الساحل ومن آمورية الداخل، وإلى درجة تبدو كأنها لهجة ثالثة من لهجات هذه اللغة. وإني لأرجح بأنها ذات الكنعانية الساحلية – الفلسطينية، بعد أن طرأ عليها التبدل الطبيعي خلال أكثر من قرنين، وما جرى فيهما من تغيير البيئة وأنماط تحصيل المعاش.

في فلسطين، التي شهدت أوسع عمليات النزوح الجماعي والهجرة خلال فترة الجفاف الميسيني، تتكرر خلال فترة الانتقال من عصر البرونز إلى عصر الحديد، دورة الاقتلاع والعودة التي ميزت الفترة الانتقالية من البرونز المبكر إلى البرونز الوسيط. ففي سياق القرن الثاني عشر، كانت تجري في منطقة فلسطين الكبرى عملية استيطان للأراضي الزراعية المهجورة. وقد ابتدأت هذه العملية أولا في المناطق الساحلية، ثم انتقلت إلى المناطق الهضبية بأقسامها الثلاثة، أي مرتفعات الجليل، والهضاب المركزية، ومرتفعات يهوذا. وسوف نركز فيما يلي على مجريات الأحداث في الهضاب المركزية ومرتفعات يهوذا، نظرا للصلة المعقودة بين ماجرى هنا خلال عصر الحديد الأول، والظهور المفترض للقبائل العبرانية واستيطانها في هذه المنطقة، وما تلا ذلك من تشكيل المملكة الموحدة.

خلال الفترة الانتقالية من عصر البرونز إلى عصر الحديد الأول، كانت منطقة الهضاب المركزية شبه خالية من السكان، والمدن القليلة فيها إما خاوية ومهدمة، مثل مدينة شكيم التي انقطع الاستيطان فيها حتى القرن العاشر، وإما مسكونة بشكل جزئي وضمن بنى معمارية على غاية من التخلف والبؤس، مثل مدينة بيت إيل. وفي المناطق الزراعية شبه المهجورة خلال الفترة الانتقالية، بين المسح الأركيولوجي الشامل الذي

أجراه عالما الآثار الإسرائيليان آدم زرتال و موشى كوشافي خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، أن المنطقة قد شهدت تزايدا تدريجيا في عدد القرى الصغيرة، حتى بلغت حوالي ٢٠٠ قرية في أواخر القرن الحادي عشر، واسكنت ما لايزيد عن بضعة آلاف نسمة. ويظهر من المخلفات المادية لأولئك المزارعين أنهم قد قدموا من مناطق فلسطين الكبرى لا من خارجها، وأنهم من أصول فلاحية لا رعوية بدوية. غير أن عملية الاستيطان لم تصل ذروتها إلا في سياق عصر الحديد الثاني (١٠٠٠-٧٠٠ق.م) ومع مطلع القرن التاسع تقريبا، عندما بنيت مدينة السامرة كعاصمة لدولة السامرة المعروفة تاريخيا بدولة إسرائيل، والتي تحولت في سياق عصر الحديد الثاني إلى إحدى الممالك المهمة في فلسطين.

أما في مرتفعات يهوذا، فإن عملية إعادة الاستيطان قد سارت بشكل غير متواز مع عودة الاستيطان إلى منطقة الهضاب المركزية (إسرائيل – السامرة)، سواء من حيث الجدول الزمني لهذا الاستيطان، أم من حيث أصول المستوطنين الجدد، والبنية السياسية التي جمعت القرى الجديدة في النهاية ضمن هيكلية دولة. فخلال الفترة الانتقالية، كانت مرتفعات يهوذا فيما بين أورشليم شمالا و حبرون جنوبا خالية من السكان عدا موقعين هما خربة رابوض و بيت زور. وفي عصر الحديد الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م)، ظهرت قرى قليلة ومبعثرة إلى جانب هذين الموقعين، توضعت قرب مصادر المياه الدائمة. وتظهر الفخاريات التي تم العثور عليها في هذه القرى الجديدة صلة عضوية بثقافة عصر البرونز الأخير، الأمر الذي يدل على وفود أهل هذه القرى من مناطق فلسطين الكبرى لا من خارجها. أما أورشليم و حبرون، وهما المدينتان الرئيسيتان في مرتفعات يهوذا، فمن المرجح أنهما لم تكونا مسكونتين خلال الفترة الانتقالية. ويبدو أن أورشليم قد بقيت مدينة مهجورة خلال كامل عصر الحديد الأول.

مع التقدم في عصر الحديد الثاني (١٠٠٠-٧٠٠ق.م)، يأخذ عدد القرى الزراعية الجديدة بالتزايد، ويبلغ منحى الاستيطان أعلى نقطة له خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وتدل المخلفات المادية التي تم العثور عليها في هذه القرى على انتماء أهلها إلى ثقافة عصر الحديد الأول وثقافة عصر البرونز الأخير، الأمر الذي يدل مرة أخرى على الأصل المحلي لهؤلاء. فمن جهة أولى هناك التزايد السريع لسكان عصر الحديد الأول، بسبب

الأحوال المناخية المواتية وانتعاش الزراعة، ومن جهة ثانية فقد استمرت المنطقة تتلقى أعداداً متزايدة من السكان الزراعيين المقتلعين من أراضيهم في مناطق فلسطين الكبرى. وكانت شرائح واسعة من هؤلاء قد تحولت إلى حياة الرعي المتنقل. إلا أن هذه القرى الزراعية لم تتجه نحو المركزية الإدارية والسياسية، على غرار ما حدث في منطقة الهضاب المركزية، إلا خلال القسم الثاني من عصر الحديد الثاني، وفيما بين القرن الثامن والقرن السابع تحديداً[1].

عصر الحديد الأول وأصول إسرائيل

خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، نجح النقد النصي والأركيولوجي والتاريخي للمرويات التوراتية، في إخراج ثلاث حلقات حساسة من حلقات القصة التوراتية، من مجال التاريخ إلى مجال القصص الديني اللاهوتي. وهذه الحلقات هي:

١) قصص الآباء في سفر التكوين، ابتداءً من الأب الأول إبراهيم وانتهاءً بيوسف بن يعقوب، الذي جعل المحرر التوراتي قصته من مصر صلة وصل بين قصص الآباء وقصة العبرانيين في مصر وخروجه منها.

٢) قصة خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى وتجوالهم في الصحراء أربعين سنة، قبل استيلائهم على مناطق شرقي الأردن.

٣) قصة اقتحام القبائل الإسرائيلية أرض كنعان في عدة حملات عسكرية صاعقة وتدميرهم لمعظم مدنها الرئيسية، وقيام يشوع بن نون، خليفة موسى، بتوزيع الأراضي المكتسبة حرباً على القبائل الاثني عشر.

وبما أنني قد تطرقت بالتفصيل إلى حلقات الرواية التوراتية هذه، وسقت الدلائل الكافية على عدم اتفاقها مع الوقائع التاريخية والأركيولوجية، وذلك في كتابي «آرام دمشق وإسرائيل»، فإنني سأكتفي هنا بإيراد آراء أهم الباحثين الأركيولوجيين والتاريخيين بهذا الخصوص.

---

١ - من أجل معالجة أكثر تفصيلاً لمجريات الفترة الانتقالية وعصر الحديد الأول، راجع توماس ل. تومبسون في مؤلفه: التاريخ المبكر للإسرائيليين.

يقول الباحث G. Van Seter بعد دراسته لعصر الآباء في كتابه المميز: Abraham in History and Tradition، «بأن قصص الآباء لم تكن في أصلها مرويات شفهية من عصر البرونز الوسيط تواترت إلى محرري التوراة، ولا مدونات وصلت إليهم عن طريق النسخ، بل هي قصص مكتوبة ومصاغة لأول مرة خلال فترة السبي البابلي وما بعده. وإنها في خطوطها العامة، وما تتضمنه من تفاصيل وعادات وأسماء أعلام وعلاقات اجتماعية، لتعكس الأوضاع السائدة في عصر تدوينها حوالي منتصف الألف الأول قبل الميلاد»[1].

ويقول الباحث N. M. Sarna في دراسته لقصة خروج بني إسرائيل من مصر، وذلك في بحث له منشور ضمن كتاب حديث ساهم في تحريره نخبة من الباحثين في تاريخ إسرائيل القديم، ما يلي: «إن خلاصة البحث الأكاديمي حول مسألة تاريخية قصة الخروج، تشير إلى أن الرواية التوراتية تقف وحيدة دون سندٍ من شاهد خارجي. كما أنها مليئة بالتعقيدات الداخلية التي يصعب حلها. كل هذا لا يساعدنا على وضع أحداث قصة الخروج ضمن إطار تاريخي. يضاف إلى ذلك أن النص التوراتي يحتوي مُحدِّداتٍ داخلية ذاتية ناشئة عن مقاصد وأهداف المؤلفين التوراتيين. فهؤلاء لم يكونوا يكتبون تاريخاً، وإنّما يعملون على إيراد تفسيرات لاهوتية لحوادث تاريخية منتقاة. وقد تمت صياغة الروايات التوراتية بشكل يتلاءم مع هذه المقاصد والأهداف. من هنا فإنّنا يجب أن نقرأها ونستخدمها تبعاً لذلك. إننا نفتقد إلى المصادر الخارجية التي تذكر عن تجربة الإسرائيليين في مصر أو تشير إليها بشكل مباشر، والشواهد الموضوعية الواضحة على تاريخية النص التوراتي مفقودة تماماً، بما في ذلك نتائج التنقيب الأثري»[2].

ويقول الآثاري جوزيف كالووي J. Callaway في دراسة جديدة له حول قصة اقتحام القبائل الإسرائيلية لكنعان ما يلي: «بعد استعراض جميع الوثائق الأركيولوجية من المواقع الفلسطينية التي أوردها سفر يشوع، لا أعتقد بأننا نستطيع القول بأن الغزاة الإسرائيليين قد استولوا على المناطق الهضبية والجليل بعد معارك عسكرية خاطفة، على ما يروية لنا سفر يشوع. إن الشواهد الأركيولوجية غير مقنعة وتتعارض في معظمها مع

1 - cited in: Th. L. Thompson, The Early History of The Israelite People, PP.92-93.

2 - N. M. Sarna, Israel in Egypt. in: Hershel Shank, edt, Ancient Israel, P.91.

الرواية التوراتية، إلى درجة لا يستطيع معها أنصار نظرية الفتح العسكري إقناعنا بها إلا بواسطة الإيمان الأعمى... إن النص التوراتي عن الفتح العسكري قد اتخذ شكله الأدبي الذي وصل إلينا، بعد فترة طويلة من استقرار الإسرائيليين في الأرض، وهذا الشكل الأدبي يمكن وصفه بالتاريخ الوعظي أو التبشيري، مما يلائم القائمين على الصياغة خلال عصر مملكة يهوذا. ولتحقيق هذه الغاية، فلقد عمد المحررون إلى اختيار مقتطفات متفرقة من مصادر وصلت إليهم، وصاغوا منها قصة عن بدايات إسرائيل من وجهة نظر لاهوتية»[1].

ويقول وليم ديفر، الأركيولوجي الأميركي الذي يتزعم الآن جناح الآثاريين المحافظين، في ندوة جمعته مع اثنين من الباحثين الراديكاليين وهما تومبسون وليمكه، عام ١٩٩٧، بأننا لا نستطيع اليوم أن نبحث عن التاريخ في روايات الآباء والخروج ويشوع. وبصورة خاصة، فإنَّ إثبات الفتح العسكري لأرض كنعان قد غدا مجهوداً لا طائل من ورائه، بعد أن جاءت كل الشواهد الأركيولوجية مناقضة له. ولكنه بالمقابل يؤكد على أن عصر القضاة هو الفترة التي يتوجب علينا أن نبحث فيها عن أصول إسرائيل في كنعان، لأن ما يسرده سفر القضاة في التوراة يتوافق إلى حد بعيد مع الوقائع الأركيولوجية[2].

وهكذا، وبعد أن تمّ التخلي عن كل النظريات التي تأتي بالعبرانيين من خارج فلسطين، صار لابد من البحث عن أصول إسرائيل في كنعان نفسها لا في خارجها. وقد وجد أصحاب هذا الاتجاه (وهم القسم الأعظم من البحاثة في تاريخ إسرائيل اليوم) في سفر القضاة ضالتهم، لأن هذا السفر يقدم روايته الخاصة عن دخول العبرانيين أرض كنعان، مختلفة عن رواية الفتح العسكري، وتقوم على التسلل السلمي للعبرانيين وتشاطرهم أماكن السكن مع الكنعانيين أو مجاورتهم لهم. وبما أن سفر القضاة يشغل كامل الفترة المعروفة بعصر الحديد الأول (١٢٠٠-١٠٠٠ق.م)، فقد صار هذا العصر بؤرة البحث التاريخي فيما يتعلق بأصول إسرائيل. أما ما سبقه من عصور الرواية التوراتية

1 - Joseph Callaway, The Settlement in Canaan. in: H. Shanks, Ibid, PP.64-65.

٢ - انظر وقائع هذه الندوة في:

Biblical Archaeology Review, July - August 1997.

ويمكن الاطلاع على ما اقتبسته عن ديفر في الصفحة ٢٩ من المرجع أعلاه.

فقد تحول إلى «ما قبل تاريخ»، وتوقف البحث الأكاديمي الجدي عن التعامل معه من موقف علمي.

وفي الحقيقة، فإنّ جذور هذه النظرة الجديدة تعود إلى العقود الأولى من القرن العشرين، عندما نشر الباحث الألماني البريخت آلت بحثاً قصيراً ومكثفاً (عام ١٩٢٥) بعنوان «توطن الإسرائيليين في فلسطين»، وذلك ضمن كتاب موسوعي أشرف على تحريره، وساهم فيه نخبة من الباحثين في تاريخ وديانة العهد القديم[1]. ولقد بسط آلت في ذلك البحث نظرية في أصول إسرائيل تتناقض مع الرواية التوراتية، وكان لها تأثير على توجهات البحث التاريخي والأركيولوجي.

نظريات الأصل المحلي للإسرائيليين

١- نظرية آلت في التسرب السلمي

يبتدئ آلت دراسته لأصول إسرائيل اعتباراً من عصر القضاة، لأن ما قبل ذلك في رأيه ليس إلا من قبيل الأدب الخيالي الذي صاغه محررو التوراة إبان الفترات المتأخرة، من أجل ابتكار جذور لإسرائيل وديانتها في الماضي البعيد. ولقد وجد آلت من دراسته المدققة لسفر القضاة أن أسماء المواقع التي تعزو الرواية التوراتية سكنها للإسرائيليين، تقع في المناطق الهضبية البعيدة عن المدن الكنعانية المهمة في الجليل و وادي يزرعيل و سهل شفلح و فليستيا. كما لاحظ هذا الباحث الثاقب البصيرة، من مقاطعته للعديد من المعلومات النصية، وخصوصاً معلومات رسائل تل العمارنة، أن المناطق الهضبية من فلسطين، وخصوصاً الهضاب المركزية، كانت شبه خالية من السكان منذ عصر تل العمارنة، ولم تحتوِ إلا على عدد قليل جداً من القرى الصغيرة والمتباعدة، وكانت مدينة شكيم في شمال الهضاب المركزية هي المدينة الوحيدة المهمة فيما بين وادي يزرعيل شمالاً و أورشليم جنوباً. وهذه المعلومات لم تتأكد لدينا ميدانياً إلا خلال العقدين الماضيين.

---

١ – هناك طبعة إنكليزية أحدث لكتاب آلت:

Albrecht Alt. Essays on Old Testament History and Religion, New York 1968, PP175-221.

ويرى آلت بأن هذا الوضع قد بقي على حاله في الهضاب المركزية، حتى عام ١٢٥٠ق.م، عندما بدأ مسرح الحدث التوراتي بالتوضح في هذه المنطقة. فقد بدأت عشائر رعوية بالتسلل التدريجي تسوق قطعانها الصغيرة عبر نهر الأردن باحثة عن مراع جديدة في كنعان. وشيئا فشيئا وجد بعض العشائر أماكن مناسبة لإقامتهم في المناطق الخالية الفاصلة بين دويلات المدن الكنعانية، والبعيدة عن نفوذ المراكز السياسية الهامة وعن النفوذ المصري في وادي يزرعيل، فأخذت بالتوطن والاستقرار وزراعة الأرض دون أن تسبب تهديدا أو مخاوف لأحد. ثم أخذت هذه العشائر بالتقارب بعد فترة من الاستقرار، والإحساس بنوع من الرابطة بينها. ومن المرجح أن عبادة واحدة قد نشأت بينها تدريجيا، وتركزت طقوسها حول مقام مقدس أو مذبح مشترك، الأمر الذي زاد من ترابطها وإحساسها بالتمايز عما حولها. ثم تنادت هذه الجماعات بعد أن أحست بوحدة مصالحها إلى إقامة المملكة الموحدة التي ابتدأت بحكم الملك شاؤل.

يلجأ آلت إلى إبراز أصول إسرائيل من خلال تضادها وتناقضها مع محيطها، وذلك بتركيزه على ثنائية إسرائيل – كنعان. فهو يستخدم مصطلح كنعان، وصفة كنعاني، للدلالة على ما يدعوه بدويلات المدن الفلسطينية خلال عصر البرونز الأخير، وهي التي نعرفها من رسائل تل العمارنة وبقية وثائق الإمبراطورية المصرية من عصر البرونز الأخير. وهو يصف هذه الدويلات بأنها دويلات زراعية يحكمها ملوك متسلطون، مرتبطة ثقافيا بالعالم السوري – المسماري، وتدين بالديانات السورية التقليدية. كما يستخدم آلت مصطلح إسرائيل، وصفة إسرائيلي، اعتمادا على نفي كل ما هو كنعاني. فالمصطلح والحالة هذه يدل على ثقافة قبلية رعوية، ومعتقد ديني توحيدي، ونظام حكم بدائي شبه ديمقراطي. وثنائية كنعان – إسرائيل عند آلت ليست فقط ثنائية تضاد ثقافي، وإنما تتضمن أيضا التتابع الزمني؛ فعصر البرونز الأخير هو عصر كنعاني، أما عصر الحديد فإسرائيلي. وقد صار هذا التمييز سنة متبعة في البحث التاريخي بعد آلت، وصار هم الباحثين البحث عن أصول إسرائيل في الفترة الانتقالية من عصر البرونز إلى عصر الحديد، كما صارت نظريته في التسرب السلمي أساسا للنظريات اللاحقة في الأصل المحلي للإسرائيليين، خصوصا وأن علم الآثار يؤكد باستمرار الاستمرارية الثقافية بين عصر البرونز وعصر الحديد، الأمر الذي ينفي دخول جماعات جديدة إلى فلسطين

حاملة معها ثقافتها الخاصة المتميزة عن الثقافة المحلية. وعلى حد قول السيدة كاثلين كينيون، فإنّه لا يوجد وقت فيما بين عصر البرونز الأخير وعصر الحديد، نستطيع أن نلاحظ فيه تغييراً حضارياً يشير إلى حلول أقوام جديدة في فلسطين، سواء في المناطق الهضبية أم في غيرها[١].

٢- نظرية الانتفاضة الداخلية

إذا لم يكن الإسرائيليون قد وَفَدوا من خارج كنعان، فلا بد أنهم شريحة محلية فرزتها ظروف معينة عن المجتمع الكنعاني الأوسع. وهذا ما تقول به نظرية ظهرت في الستينيات من القرن العشرين، على يد الباحث ماندنهول Mendenhall[٢]، وطورها بعده الباحث غوتوالد Gottwald[٣].

يرى مندنهول أن الجماعات التي تسربت إلى المناطق الهضبية خلال الفترة الانتقالية، لم تكن من أصل رعوي وإنّما هي شرائح فلاحية كنعانية، لجأت إلى الثورة في وجه حكام المدن الطغاة. وكانت خميرة هذه الحركة جماعة آبقة من العبودية في مصر، جاءت معها بعبادة يهوه التي تبنتها الشرائح الثائرة كرمز لاستقلالها وانفصالها عن النظام الفاسد لدويلات المدن الكنعانية المتسلطة على الفلاحين. من هنا، فإنَّ إسرائيل في نشأتها كانت تلاحماً دينياً لجماعات محلية من حيث أصلها، وإن القرى الزراعية الكنعانية قد صارت إسرائيلية بتبنيها لديانة يهوه، ورفضها للنظام السياسي الكنعاني في المدن الكبرى، وعبادة الأبعال السورية.

وقد تبنى الباحث غوتوالد نظرية مندنهول هذه، ولكنه أعطى الانتفاضة الداخلية طابعاً طبقياً بالمعنى السياسي الحديث للكلمة. فالجماعات الإسرائيلية الأولى (أو بالمعنى الأدق التي صارت إسرائيل فيما بعد) كانت شرائح مضطهدة من الفلاحين والمزارعين والرعاة، ومن الجماعات الهامشية التي تقع خارج الإطار الاجتماعي والسياسي لدويلات المدن الكنعانية. وقد ثار هؤلاء ضد النظم الإقطاعية التي تديرها أرستقراطية

1 - K. Kenyon, Archaeology in The Holy Land, P.200.

2 - G. A. Mendenhall, The Hebrw Conquest, Biblical Archaeologist, 25, 1962 PP.66-68.

3- N. K. Gottwald, The Tribes of Yahwe, Orbis Books N. Y. 1979.

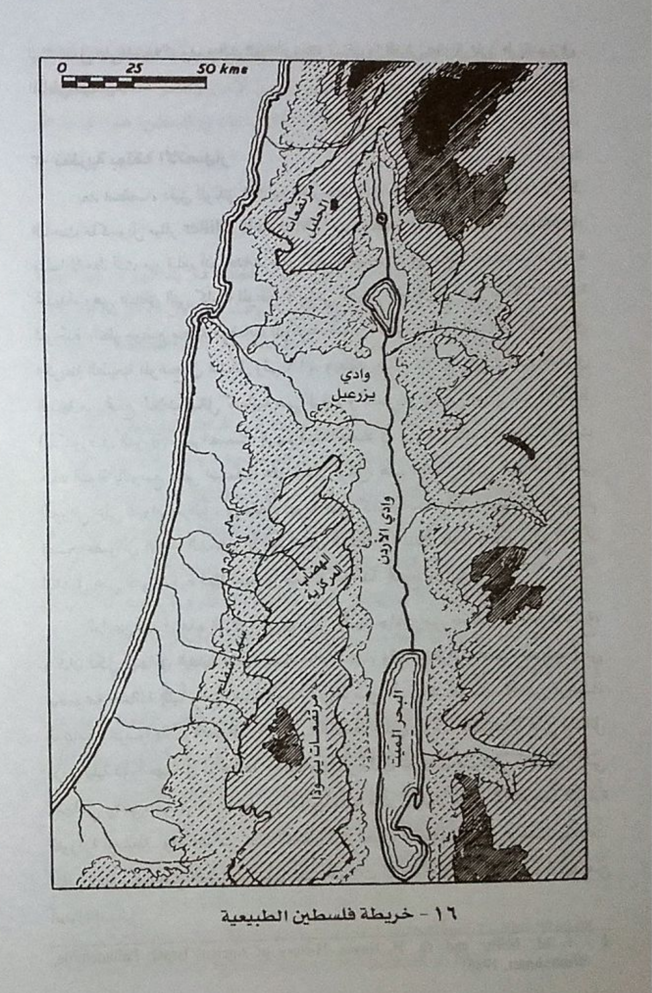
نبيلة تعمل على استغلال وقمع الشرائح المحرومة، ثم قرروا العيش بحرية على طريقتهم في المناطق الهضبية.

٣- نظرية بوتقة الانصهار

بعد استقصاء دقيق للوثائق الكتابية الخارجية، ودراسة مدققة لسفر القضاة، لاحظ الباحث ماكسويل ميللر Maxwell Miller[١] من جامعة Emory بالولايات المتحدة، مثلما لاحظ آلت من قبله، أن أحداث سفر القضاة قد جرت في مناطق الهضاب المركزية تحديداً، وهي المناطق التي كانت الموطن الأساسي للقبائل الإسرائيلية حتى تشكيل المملكة الموحّدة (انظر موضع منطقة الهضاب المركزية ضمن التكوين العام للمناطق الهضبية في الخريطة الطبيعية الموضح في الشكل رقم ١٦). ويعتقد ميللر بأن إسرائيل قد تشكلت في البداية من تجمع ثلاث قبائل كنعانية هي أفرايم و منسي و بنيامين (وهي من الأسباط المذكورة في التوراة)، ثم انضمت إليهم قبيلة جلعاد في عبر الأردن. وتدريجياً أخذت هذه النواة بالتوسع حتى اشتملت على عشر قبائل، هي القبائل التي يدعوها النص التوراتي على الدوام إسرائيل، في مقابل يهوذا التي كانت مستقرة في الجنوب، والتي لم تصبح عضواً في الاتحاد الشمالي إلا بعد انتقال السلطة إلى الملك داود الذي وسع الاتحاد ليشتمل على اثنتي عشرة قبيلة جمعتها المملكة الموحّدة لجميع إسرائيل.

أما عن أصول هذه القبائل، فيرى ميللر بأنها جاءت من مصادر داخلية متنوعة، وكان لكل منها في البداية عبادة دينية خاصة بها، وقد استغرقت عملية تحويلها إلى مجموعة متماثلة إثنياً ودينياً مدة طويلة من الزمن، تحت قيادة سلسلة من الزعماء الديناميين عرفوا باسم القضاة. وقد لعب الضغط الذي مارسه الفلستيون على القبائل الإسرائيلية دوراً مهماً في توحيدها واندماجها. وبذلك خرجت إسرائيل، كمفهوم اثني وسياسي وديني، من بوتقة انصهار، وكناتج لعملية أكثر تعقيداً بكثير مما تعرضه الرواية التوراتية البسيطة. وقد ابتدأت هذه العملية قبل الفترة الانتقالية بكثير. وبذلك يخالف ميللر معظم الباحثين الذين يركزون على تحولات الفترة الانتقالية ويبحثون فيها عن أصول إسرائيل.

1 - J. M. Miller and D. H. Hayes, History of Ancient Israel, Philadelphia, Westminster, 1986.



١٦ - خريطة فلسطين الطبيعية

٤- نظرية التطور الديني المحلي

لقد طور كاتب هذه السطور منذ عقدين من الزمن، نظرية في الأصل المحلي لإسرائيل، تتفق مع ماندينهول وغوتوالد من حيث تركيزها على التمايز الديني لسكان المناطق الهضبية عن الوسط الكنعاني (وما أدى إليه من تمايز اجتماعي وثقافي لاحق، قاد في النهاية إلى تكوين الاثنية المستقلة)، ولكنها تختلف معها باسقاطها لعنصر الانتفاضة الداخلية. بدأت ملامح النظرية بالتوضح خلال سنوات انكبابي على كتابة مؤلفي: لغز عشتار (فيما بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٤)[١]، حيث شرحت في الفصل المعنون بين إيل وبعل – نشوء الديانة اليهودية، كيفية استقلال المعتقد التوراتي عن المعتقد الكنعاني. ثم عمدت إلى بلورة النظرية في دراسة موسعة نشرتها في مجلة الفكر الديمقراطي التي كانت تصدر في قبرص[٢]. ولعل المقطع التالي، الذي اقتبسته من الخلاصات الأخيرة للدراسة، يعبر عن جوهر نظريتي القديمة التي أدخلت عليها فيما بعد تعديلات أساسية أوضحتها في ثنايا هذا الكتاب، وفي مؤلفي الأسبق: "آرام دمشق وإسرائيل":

«لقد أوصلتنا دراسة المخلفات المادية للثقافة الإسرائيلية، إلى القول بأن أرض فلسطين لم تعرف شعباً متميزاً اسمه الشعب الإسرائيلي، ولا ثقافة خاصة يمكن وصفها بالثقافة الإسرائيلية. ذلك أن كل ما كشف عنه علم الآثار يدل على ثقافة سورية كنعانية في تطورها الذاتي الطبيعي. ثم جاءت دراستنا للتراث اللغوي والأدبي والديني لما يدعى بالثقافة الإسرائيلية، لتدعم نتائجنا المبدئية. فاللغة التي نطق بها الإسرائيليون كانت كنعانية، والخط الذي كتبوا به كان كنعانياً، وآدابهم تجد جذورها في الأدب الكنعاني على ما تدل عليه المقارنة مع الأدب الأوغاريتي، ومعتقدهم التوراتي الذي وجدوا فيه مصدر تميزهم قد نشأ وتطور نتيجةً لجدليات المؤسسة الدينية الكنعانية. ولا ينجم عن ذلك كله إلا القول بأن الشعب الذي أنتج ما يدعى بالثقافة الإسرائيلية، هو فئة كنعانية لم تغادر فلسطين قط، مع بقاء الاحتمال قائماً في أنها ربما استقبلت فئة قليلة من النازحين من مصر. وعندما بدأ كهنة يهوذا في المنفى بتحرير أسفار التوراة، كتبوا تاريخ بني إسرائيل من وجهة نظرهم، فجعلوا منهم فئة متميزة منذ البداية، سعياً وراء ترسيخ

١ – فراس السواح: لغز عشتار – الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار سومر نيقوسيا ١٩٨٥.

٢ – فراس السواح: أركيولوجيا فلسطين والتوراة السورية، مجلة الفكر الديمقراطي، العدد الأول، نيقوسيا ١٩٨٨.

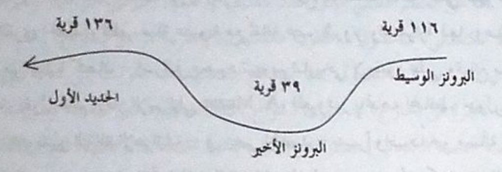
الصيغة الأخيرة للدين اليهودي الذي صار مصدر تماسكهم وأملهم في الوقوف في وجه الفناء. لقد ميَّز كهنة يهوه أنفسهم وبقية سبي يهوذا عن كنعان تمييزاً مطلقاً، وجعلوا من الفارق الديني الذي يفصلهم عن بقية الكنعانيين، فارقاً في كل شيء».

النظرية الأركيولوجية الحديثة

ولدت هذه النظرية حديثاً، وهي تفسر نتائج المسح الأركيولوجي الشامل الذي قام به الأركيولوجيون الإسرائيليون المحدثون في منطقة الهضاب المركزية، وتعتبر بمثابة الصياغة العلمية لنظرية التسرب السلمي ونظرية بوتقة الانصهار. ففيما بين ١٩٨٠ و١٩٩٠ قام المنقب الإسرائيلي آدم زرتال، مستعيناً بفريق عمل موسع من الاختصاصيين في العلوم المساعدة لعلم الآثار، بعملية مسحٍ شاملة لمنطقة منسي التوراتية في الهضاب المركزية، والتي تبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠٠كم٢، وتؤلف مع منطقة أفرايم ٨٠٪ من مساحة الهضاب المركزية. وقد طال المسح، الذي جرى سيراً على الأقدام، كل متر مربع تقريباً من المنطقة، وتم خلاله جمع عدد هائل من المعلومات الأركيولوجية، والمعلومات الأخرى التي تساعد على تفسيرها، وذلك مثل ارتفاع الموقع المكتشف عن سطح البحر وعن المنطقة المحيطة به، والوضع الطبوغرافي والجيولوجي للموقع، ونوعية التربة، والمحاصيل التي تزرع حوله الآن، وقرب الموقع من مصادر المياه ومن الطرق العامة، وإطلالة الموقع على بقية المواقع المجاورة...إلخ. ثم جرى الاستعانة بالحاسوب من أجل تحليل هذه الكمية الهائلة من المعلومات.

لقد عثر فريق زرتال على ١١٦ قرية تعود إلى النصف الثاني من عصر البرونز الوسيط، وعلى ٣٩ قرية تعود إلى عصر البرونز الأخير، وعلى ١٣٦ قرية تعود إلى عصر الحديد الأول. وهذا يعني أنه بعد الهبوط الحاد في منحى الاستيطان خلال عصر البرونز الأخير بسبب الجفاف العام، عاد المنحنى إلى الصعود خلال عصر الحديد الأول بعد عودة المناخ الرطب والمطير إلى المنطقة. وقد لاحظ زرتال أن أولى المواقع التي ظهرت خلال عصر الحديد قد توضعت في وادي الأردن والمنحدرات الشرقية للهضاب، ومع التقدم زمنياً أخذت المواقع بالزحف تدريجياً باتجاه الغرب، معتمدة في زراعتها على القمح والشعير، وفي آخر مراحل الاستيطان بدأ القرويون باستصلاح المنحدرات وتسوية

المدرجات التي تصلح للزراعات المتوسطية كالكرمة والزيتون. وبما أن زرتال يفترض مسبقاً بأن القرى الجديدة هي قرى إسرائيلية، فإنه يفسر ظهور القرى أولاً على المنحدرات الشرقية للهضاب ثم زحفها التدريجي نحو الأعلى، بأن القادمين الجدد قد جاؤوا من المناطق الرعوية في شرقي الأردن، وأنهم يمثلون طلائع الإسرائيليين الذين دخلوا أرض كنعان مع بدايات عصر الحديد الأول[1].



وقد قام زميل آدم زرتال المنقب كوشاني، من ناحيته بمسح شامل على طريقة زرتال، لمنطقة أفرايم التوراتية في الهضاب المركزية، واكتشف حوالي ١٢٠ قرية جديدة ظهرت تباعاً في عصر الحديد الأول. وبذلك يصل عدد القرى التي قامت في الهضاب المركزية بين ١٢٠٠ و١٠٠٠ ق.م إلى حوالي ٢٥٦ قرية، بعد فترة الفراغ السكاني السابقة. ويتفق كوشاني مع زرتال في الخطوط العامة للتفسير، معتبراً أن القرى الجديدة هي قرى إسرائيلية، وأن الجماعات التي شكلتها هي جماعات رعوية وَفَدت إليها من المناطق الشرقية.

من هم؟

نقد نظريات الأصل المحلي

إن ثنائية كنعان – إسرائيل التي رسختها نظرية آلت، لم تنشأ عند صاحب النظرية (وعند من تبنى هذه الثنائية بعده) نتيجة لوصف مباشر لمجموعتين إثنيّتين متعاصرتين ومعروفتين تاريخياً هما الإسرائيليون والكنعانيون، بل جاءت نتيجة وصف تخيلي يعتمد

1- Adam Zertal, Israel Inters Canaan, Biblical Archaeology Review, September-October 1991.

التوفيق بين الرواية التوراتية والمصادر التاريخية. فصورة الكنعانيين عند آلت مستمدة من تفسير النصوص المصرية لعصر البرونز، وتدعيمها بالصورة العرقية الشوفينية التي رسمتها لهم الرواية التوراتية المتأخرة، والتي لا تعكس أحوال الكنعانيين القديمة، وإنّما صورة جماعة السبي البابلي عند نفسها وأصولها. وفي الحقيقة، فإنّنا لا نستطيع التمييز بين ما هو كنعاني وما هو إسرائيلي اعتماداً على المكتشفات الأثرية في كل مواقع وقرى المناطق الهضبية، لا خلال عصر الحديد الأول ولا بعده. فجميع المخلفات المادية التي ظهرت في مواقع القرى الجديدة، تُظهر صلة عضوية مع ثقافة عصر البرونز واستمراراً لها. وهذا ما يجعل من ثنائية كنعان – إسرائيل مجرد تهويم تاريخي لا يقوم على وقائع مادية ملموسة. يقول عالم الآثار الإسرائيلي A. Mazar، المعروف باتجاهه المحافظ، حول هذه المسألة: «إن تمييز الثقافة الإسرائيلية – في عصر الحديد – تمييزاً واضحاً هو مسألة على غاية من الصعوبة. من هنا، فإنّ نقطة انطلاقنا لمثل هذا التمييز، ينبغي أن تكون من المواقع التي نعرف من النص التوراتي أنها كانت إسرائيلية خلال عصر القضاة، مثل شلوة و المصفاة، و دان، و بئر السبع. وإذا ظهرت في مواقع قريبة من هذه مخلفات مادية مشابهة، يمكننا أيضاً اعتبارها إسرائيلية»[1]. أي أن مازار هنا لا يملك سوى الاعتراف بعدم وجود آثار مادية تدل على الإسرائيليين التوراتيين، ولكنه في الوقت نفسه يتخلص من المأزق بأن يحيلنا إلى كتاب التوراة.

فإذا جئنا إلى نظرية الانتفاضة الداخلية، وجدنا أنها تقوم على تجريدات ذهنية لا أساس لها في الواقع الاجتماعي والسياسي لفلسطين عصر الحديد الأول. إن مفهوم دولة المدينة في فلسطين، باعتبارها قوة كبرى يديرها من بلاطه الواسع ملك مستبد، يجمع حوله حاشيةً وأمراء ونبلاء وبيروقراطيين، ويتحكم بجيش عرمرم، هو مفهوم مغلوط تَشَكَّل انطلاقاً من سوء فهمٍ لرسائل تل العمارنة، ومن المطابقة بين إمارات فلسطين الصغيرة والممالك السورية ذات البنية السياسية القوية والقاعدة السكانية العريضة، وهذه مطابقة عشوائية لا تأخذ بعين الاعتبار كل ما صرنا نعرفه عن المدن الفلسطينية في عصر البرونز، مما أشرنا إليه في حينه سابقاً. ومن ناحية أخرى، فإنّ أوضاع

1 - A. Mazar, Archaeology of The Land of The Bible, Doubleday, London 1990, P.353.

هذه المدن في عصر الحديد كانت أسوأ بكثير من وضعها خلال عصر تل العمارنة، وذلك بسبب تناقص السكان الناجم عن الجفاف الميسيني، وتعطل التجارة الدولية، والانهيار الاقتصادي العام، والفوضى الاجتماعية. من هنا، فإن صورة الملك الكنعاني باعتباره طاغية يتحكم مع طبقة النبلاء في ثروة البلاد، ويمارس الظلم والاضطهاد على طبقة الفلاحين، هي صورة لا تتوافق مع واقع الحال في المنطقة وظروفها التاريخية.

أما عن العنصر الديني الذي كان السبب في نشوء إسرائيل التوراتية وتميزها عن الوسط الكنعاني، مما تقول به نظرية ماندنهول، ونظرية فراس السواح، رغم الخلاف الجذري بينهما (يرى ماندنهول بأن الشرائح المضطهدة قد تحولت إلى ديانة يهوه التي جاءت ناجزة من الخارج، بينما يرى السواح بأن ديانة يهوه التوراتية قد تطورت ضمن المؤسسة الدينية الكنعانية)، فإن علم الآثار، لسوء الحظ، لا يوافقهما الرأي. ذلك أن البحث الأثري لم يستطع متابعة نشوء الديانة التوراتية في فلسطين، ولا يوجد ما يدل عليها فيما بين عصر الحديد الأول وبداية العصر الفارسي في أواخر القرن السادس قبل الميلاد. وإذا كان السواح قد أفسح مدة زمنية طويلة لانسلاخ المعتقد التوراتي عن المعتقدات الكنعانية، ولم يجعل التمايز التام بينهما واضحا إلا خلال السبي البابلي وما بعده، متفاديا بذلك (بالصدفة) التناقض مع معطيات علم الآثار، فإن نظرية ماندنهول، التي جاءت بعبادة يهوه التوراتي ناجزة من الخارج خلال الفترة الانتقالية وعصر الحديد الأول، تقع لفورها في مأزق أركيولوجي، لأن المخلفات المادية لمواقع عصر الحديد الأول في الهضاب المركزية، تظهر بوضوح أن أهلها كانوا على الديانة الكنعانية التقليدية، وأن معابدهم المتواضعة التي تم اكتشافها كانت مكرسة للآلهة الكنعانية، وما من أثر يدل بشكل مباشر أو غير مباشر على وجود بذور للمعتقد التوراتي ولو بشكله الجنيني. من هذه المعابد ما اكتشفه A. Mazar في منطقة منسي التوراتية، وما اكتشفه Adam Zertal في جبل عيبال، وما اكتشفه I. Finkelstein في منطقة شلوة العاصمة الأولى للمملكة الموحدة. (انظر بعض تمثيلات الآلهة الفلسطينية في الصورة رقم ٨ القسم المصور).

ويمكن للقارئ المتخصص الاطلاع على نتائج التنقيبات في هذه المواقع وغيرها من مواقع الهضاب المركزية، وصلتها بمعتقدات سكانها ممن يفترض أنهم عبرانيون

موسويّون، في دراسة شاملة نشرها الآثاري الإسرائيلي B. A. Nakhai عام ١٩٩٤. (انظر الهامش رقم١ أدناه).

نأتي الآن إلى النظرية الأركيولوجية الحديثة، ونقول بأن عودة الاستيطان إلى المناطق الهضبية الفلسطينية، ابتداءً من الهضاب المركزية، هو واقعة أركيولوجية لا جدال فيها. ولكن لماذا يجب أن تكون هذه المواقع إسرائيلية، رغم أن المنقبين الإسرائيليين وغيرهم يقولون لنا بأن التعرف على مظاهر الحضارة المادية للإسرائيليين هو أمر على غاية من الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً؟ للإجابة على هذا السؤال المهم والمشروع، سوف أعرض للقارئ رأيين؛ الأول للأركيولوجي الأميركي وليم ديفر .Dever W الذي يترأس الاتجاه المحافظ في علم آثار فلسطين، والثاني للأركيولوجي الإسرائيلي إ. فنكلشتاين الذي يقود الآن الاتجاه الراديكالي في علم آثار فلسطين المتحرر من سلطة التوراة في تفسير اللقى الآثرية.

يقول وليم ديفر في حوار له مع رئيس تحرير مجلة علم الآثار التوراتي (أيلول ١٩٩٦): «إنني أفضل استخدام تعبير أشباه الإسرائيليين في الإشارة إلى سكان المناطق الهضبية خلال عصر الحديد الأول، لأن تعبير إسرائيل وإسرائيلي لا يحمل الكثير من المعنى قبل ولادة الدولة الموحّدة في القرن العاشر قبل الميلاد. فمع تشكيل الدولة فقط، نستطيع أن نعرف ما الذي تعنيه الكلمة بالنسبة للموصوفين بها في التوراة. إنها تعني كونهم مواطنين في هذه الدولة. أما في القرن الحادي عشر والثاني عشر قبل الميلاد، فإنَّ من المرجح أن وصف الإسرائيلي لم يكن واضحاً في ذهن أحد، لأن إسرائيل كانت عندها أخلاطاً من الجماعات لا تربطها وحدة سياسية. من هنا، فإنَّ تعبير أشباه الإسرائيليين، عندي، هو من قبيل القول بأن مستوطني عصر الحديد الأول هم أسلاف المستوطنين الإسرائيليين الحقيقيين في القرن العاشر (مطلع عصر الحديد الثاني) وما بعده. إن مسألة الإثنية، برمتها، في السجلات الأركيولوجية، هي موضع جدلٍ قوي لدى علماء الآثار اليوم، والعديد منهم ينظر بعين الشك إلى أي مصطلح إثني»[٢].

أما إ. فنكلشتاين Finkelsteine .I، فيقول في مقدمات كتابه المشهور «أركيولوجيا المواقع الإسرائيلية» الصادر عام ١٩٨٨، بأن الفروق بين الجماعات الإثنية

1 - B. Nakhai, What is Bamah? in: Biblical Archaeology Review, May-June1994.
2 - Biblical Archaeology Review, Sept-Nov. 1996.

في المناطق الهضبية خلال عصر الحديد الأول كانت فروقاً غامضة، ومن المشكوك به أن يكون أهل المواقع التي نعرف من التوراة كونها إسرائيلية، قد أدركوا أنفسهم كإسرائيليين. فالإسرائيليون هم تلك الجماعات التي كانت في سياق عملية الاستقرار في الأراضي التي قامت عليها مملكة شاؤل. من هنا، فإنَّ تعبير إسرائيل وإسرائيلي (بالنسبة إليه) هو مجرد مصطلح فني للدلالة على سكان المناطق الهضبية خلال عصر الحديد الأول. إلا أن فنكلشتاين يسير بعد ذلك خطوة أكثر راديكالية في التعامل مع مصطلح إسرائيل وصفة إسرائيلي، عندما يقول في بحث له منشور عام ١٩٩١، بأنه قد تخلى عن المصطلح ذاته، ويفضل الآن استخدام مصطلح "سكان المناطق الهضبية"، في الإشارة إلى مزارعي عصر الحديد الأول قبل قيام مملكة شاؤل.[١]

ثم يفاجئنا فنكلشتاين عام ١٩٩٨ بتخليه عن مملكة شاؤل و داود و سليمان، وذلك في مداخلة طويلة له أمام ندوة علمية عقدت في جامعة بن غوريون. يقول فلنكلشتاين في مداخلته التي شغلت ٢٨ صفحة من وقائع الندوة المطبوعة[١]، بأن المصدر التوراتي الذي تحكَّم بماضي البحث في أصول إسرائيل. قد تراجعت أهميته إلى حد بعيد في الوقت الحاضر، ولم يعد من المصادر الرئيسية المباشرة. فأسفار التوراة قد دُوّنت في القرن السابع على أبكر تقدير، وفي الوقت نفسه فإنَّها تحمل طابعاً لاهوتياً إيديولوجياً يجعلها منحازة. من هنا، فإنَّ البحث عن بذور تاريخية في روايتها لأصول إسرائيل، هو عملية سيزيفية (نسبة إلى سيزيف الإغريقي) مرهقة، هذا إذا كانت ممكنة من حيث الأساس. من هنا، يرى فنكلشتاين ضرورة استبعاد النص التوراتي قبل استقراء الوقائع الأركيولوجية بشكل موضوعي وحر. وهذا الاستقراء قد قاده إلى نتيجة بخصوص أصول إسرائيل في عصر الحديد، وهي أننا لا نستطيع التحدث عن إسرائيل قبل قيام دولة السامرة (=إسرائيل التاريخية لا التوراتية) في القرن التاسع قبل الميلاد، ودولة يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد.

وبعد تقديمه معلومات موثقة عن منحى الاستيطان في منطقة الهضاب المركزية، بين أعلى ذروة له في عصر البرونز الوسيط، وأعلى ذروة له في سياق عصر الحديد بعد الهبوط الحاد فيما بينهما، يقول لنا بأن عودة الاستيطان إلى الهضاب المركزية لا علاقة له

1 - cited in: Keith Whitelam, The Invention of Ancient Israel, PP.197-198.

بالقصة التوراتية عن دخول القبائل العبرانية، وأن هذه الظاهرة، كما راقبناها عبر تاريخ المنطقة، هي ظاهرة دورية ومتكررة منذ العصر النحاسي، وليست ظاهرة فريدة تواجهنا لأول مرة في عصر الحديد الأول، لأنها نتاج للدورات المناخية التي صرنا نعرف اليوم عنها أكثر من أي وقت مضى. أما عن بعض المؤشرات الآثارية التي اعتُبرت أحياناً من خصائص المواقع الإسرائيلية خلال عصر الحديد، مثل الجرار ذات الطوق، والبيت ذي الغرف الأربعة، وغيرها، فقد درسها واحدة إثر أخرى وخرج من ذلك بنتيجة مفادها أنها جميعاً ليست وقفاً على مواقع عصر الحديد الأول في الهضاب المركزية، وإنَّما وجدت في مواقع أخرى بفلسطين الكبرى قبل عصر الحديد الأول وبعده[1].

خلاصة

إن كل ما سقناه آنفاً يوصلنا إلى نتيجة واحدة، وهي أن الفترة الانتقالية وعصر الحديد الأول، لم تشهد وصول جماعات معروفة بالعبرانية أو الإسرائيلية إلى المناطق الهضبية، ولم تشهد تَشَكُّل مجموعة إثنية وعت نفسها كأمة في نهاية عصر الحديد الأول، وعملت على تكوين مملكة موحدة لها في مطلع عصر الحديد الثاني (القرن العاشر قبل الميلاد). فكل ما حدث خلال هذه الفترة، هو أن جماعات متفرقة من السكان المقتلعين من مواطنهم خلال فترة الجفاف الميسيني، كانت تعود إلى حياة الزراعة والاستقرار، سواء في المناطق الهضبية أم في بقية مناطق فلسطين الكبرى التي طالتها الكارثة المناخية. من هنا، فما من سبب يدعونا إلى إطلاق صفة الإسرائيليين، بالمعنى الإثني للكلمة، على سكان الهضاب المركزية، وصفة الكنعانيين على بقية مناطق فلسطين الكبرى. وبما أن الاستيطان لم يبلغ ذروته في الهضاب المركزية إلا في نهاية عصر الحديد الأول ومطلع عصر الحديد الثاني، وفي الوقت الذي كانت فيه مرتفعات يهوذا خالية تقريباً من السكان، فإنَّ القاعدة السكانية اللازمة لقيام مملكة داود و سليمان لم تكن متوفرة. وقيام تلك المملكة لم يكن مستبعداً فقط بل كان مستحيلاً.

1 - I. Finkelstien, The Ris of Early Israel in: S. Ahinuv and E.D.Oren, eds, The Origin of Early Israel, Ben Gurion University 1998.

أما بخصوص أورشليم عصر الحديد الأول، فإنَّ الوثائق النصية بخصوصها معدومة تماماً، والوثائق الأركيولوجية قليلة وغامضة إلى درجة دعت فريقاً من العلماء إلى القول بأنها لم تكن مدينة مسكونة خلال كامل عصر الحديد الأول، ومطلع عصر الحديد الثاني أي فترة المملكة الموحّدة. وهذا ما سنعالجه ببعض التفصيل في الفصل القادم، الذي يعود بنا إلى القرن العاشر الذي ابتدأنا به البحث في الفصول الأولى من هذا الكتاب.

الفصل الثامن

المملكة الموحّدة مرة أخرى
أين القرن العاشر؟

في مداخلة له أمام ندوة دعت إليها جامعة Northwestern – شيكاغو في مطلع عام ٢٠٠٠، وموضوعها أصول الشعب اليهودي، قال وليام ديفر (الأركيولوجي الأميركي المعروف في الحقل الفلسطيني، وأحد قلة العلماء الذين يتحصنون بآخر معقل للاتجاه المحافظ) بأن كل نتائج المسح الأثري الشامل، الذي قام به الأركيولوجيون الإسرائيليون، تؤكد على ظهور جماعات جديدة سكنت مناطق كنعان المركزية منذ حوالي ١٢٠٠ ق.م. ولكن ديفر يؤكد هنا مرة أخرى (راجع ما اقتبسنا منه في الفصل السابق) أنه لا يستطيع إطلاق صفة الإسرائيليين على تلك الجماعات، بل يفضل تسميتهم بأشباه الإسرائيليين. وهذا المصطلح يعني بالنسبة له الجماعات التي صارت إسرائيل فيما بعد. ثم يسير خطوة أبعد من ذلك فيقول بأن الجماعات الجديدة في المناطق الهضبية لم تأت من مصر ولا من أي مكان خارج كنعان، لأن معظم ما تركوه لنا من بقايا مادية، وخصوصاً ما تعلق منها بالفخاريات، يدل على أنهم ابتدأوا هنا ككنعانيين لا كغرباء. وإذا كانت فئة منهم قد جاءت من مصر، فإنَّ الدلائل الأثرية التي يمكن أن تؤكد هجرتهم معدومة تماماً، شأنها في ذلك شأن الدلائل على الخروج من مصر، والدلائل على فتح بلاد كنعان[1].

إن النتيجة الوحيدة التي يقودنا إليها قول ديفر، وفي شروط انعدام البيّنات على تميّز الجماعات الجديدة من الناحية الدينية عن محيطها الكنعاني، هو أن هؤلاء الكنعانيين

---

١ – راجع وقائع الندوة في: Biblical Archaeology Review, May-June 2000.

الفلسطينيين هم الذين شكلوا المملكة الموحّدة في القرن العاشر قبل الميلاد، وأن شاؤل وداود و سليمان هم ملوك كنعانيون حكموا على شعب كنعاني. فأي خلط للأوراق أوصلنا إليه تعنت الاتجاه المحافظ في النهاية؟ وما هو الفرق بين إسرائيل وكنعان؟ وكيف ذابت تلك الثنائية المكرّسة منذ مطلع القرن العشرين؟ الجواب على ذلك يكمن في قوة وسلطان الحقيقة.والحقائق تقودنا إلى أبعد مما يشتهي أصحاب الاتجاه المحافظ، لنقول بأن المملكة الموحّدة لم تكن إسرائيلية ولا كنعانية، لأنها مجرد اختراع توراتي. فأورشليم لم تكن مدينة حية ومسكونة خلال القرن العاشر، وجميع الأوابد المعمارية التي عُزيت إلى المملكة الموحّدة خارج أورشليم، قد تبيّن الآن انتماؤها إلى القرن التاسع وما بعده. وهذا يعني أننا نواجه فراغاً مطلقاً في فترة القرن العاشر، فلا مملكة ولا ملوك ولا سلطة مركزية، والقرن برمته لم يكن إلا استمراراً لعصر الحديد الأول. وإليكم القصة المذهلة كما بدأت تتكشف منذ مطلع الثمانينيات.

بعد أن توفيت السيدة كاثلين كينيون بشكل مفاجئ عام ١٩٧٨، وقبل أن تنهي نشر تقارير حملتها التنقيبية في موقع أورشليم، قام معهد الآثار البريطاني في القدس بتشكيل لجنة مؤلفة من اختصاصيين اثنين في علم تأريخ اللقى الأثرية، هما هـ. ج. فرانكن H. J. Franken، ومساعدته السيدة مارغريت شتاينر M. Steiner، وكلاهما من جامعة ليدن بهولندة، وعهدت إليهما بإعادة النظر في تواريخ اللقى الأثرية من موقع أورشليم، وتحديد تواريخ اللقى التي لم يجرِ تأريخها بعد، سواء ما عاد منها إلى تنقيبات كينيون، أم إلى التنقيبات اللاحقة. وقد نشر الاثنان نتائج عملهما المخبري في عدد من التقارير والمؤلفات الاختصاصية، وكانت النتائج مدهشة إلى أبعد الحدود.

تقول مارغريت شتاينر في بحث منشور في مجلة علم الآثار التوراتي عام ١٩٩٨[1] بأن الدراسة الستراتيغرافية والتحليلية للقى الأثرية من موقع أورشليم، وخصوصاً الفخارية منها، منذ مطلع عصر البرونز الوسيط وحتى مطلع عصر الحديد الثاني في القرن العاشر قبل الميلاد قد قادت إلى النتائج التالية:

١- مما لا شك فيه أن مدينة أورشليم اليبوسية (وفق مصطلح كينيون) قد نشأت على هضبة أوفيل في مطلع عصر البرونز الوسيط حوالي ١٨٠٠ق.م، وإلى ذلك التاريخ

1 - Margreet Steiner, It's Not Their, In: Biblical Archaeology Review, July-August,1998.

يرجع بناء سورها الأول. ولكنها لم تكن في ذلك الوقت أكثر من بلدة مسوّرة تتحكم بمساحة صغيرة حولها. وربما كانت من البلدات التابعة لسلطة مدينةٍ أكبر منها.

٢- في عصر البرونز الأخير (١٥٥٠-١٢٠٠ق.م)، وخصوصاً في قسمه الثاني كانت المدينة مهجورة وخالية من السكان. يدلنا على ذلك فقدان الكسرات الفخارية واللقى الأثرية الصغيرة التي نستدل منها عادة على وجود الحياة السكنية. وبما أن مثل هذه اللقى قد وُجدت بكثرة في مستويات عصر البرونز الوسيط، فإنّ القول بأن لقى عصر البرونز الأخير قد انجرفت لسبب ما، لا يقوم على أساس علمي.

٣- لا يوجد ما يشير إلى أن الوضع قد تغير خلال عصر الحديد الأول. فاللقى الأثرية التي نستدل منها على وجود حياة سكنية نشطة معدوماً تقريباً، ولا تبدأ في الظهور إلا في سياق القرن العاشر.

٤- بين أواخر القرن العاشر ومطلع القرن التاسع، هنالك دلائل على حدوث نشاط إنساني على هضبة أوفيل، ولكن البيوت السكنية لم يكن لها وجود، وما من بيّنات تدل على أن عدداً كبيراً من الناس قد عاش هنا. لذا فإنّه من المرجح أن الموقع كان عبارة عن مقر إداري لسلطة سياسية متواضعة، وأننا أمام بدايات ولادة مدينة جديدة لم يكن لها وجود خلال بضعة قرون ماضية.

٥- إن المسح الأركيولوجي الشامل الذي قام به الأركيولوجي الإسرائيلي آفي أوفير Avi Ofer لمرتفعات يهوذا، مستخدماً أحدث تقنيات التنقيب والتاريخ، قد أثبت هذه الوقائع بخصوص أورشليم. فقد أظهرت نتائج المسح أن الاستيطان البشري الذي توقف منذ عصر البرونز الأخير في المناطق المحيطة بأورشليم، لم يعد إليها إلا في الفترة الانتقالية بين القرن العاشر والقرن التاسع قبل الميلاد، وأن هذا الاستيطان هو من النوع المتكامل الذي يعتمد في إدارة شؤونه على مركز حضري هو بلا شك أورشليم.

٦- من كل ما سبق، تستنتج مارغريت شتاينر وزميلها فرانكن، بأن الملك داود لم يكن لديه مدينة ليقهرها في مطلع القرن العاشر، ويجعلها عاصمة لمملكته الموحّدة، لأن مثل هذه المدينة لم تكن موجودة في ذلك الزمن. كما أن الوصف الذي نجده في أسفار التوراة لمدينة أورشليم (من سفر يشوع إلى سفر الملوك الأول) لا ينطبق إلا على مدينة القرن السابع.

٧- تدل اللقى الأثرية الغزيرة التي تم إرجاع تاريخها إلى القرن السابع، على أن أورشليم قد تحولت إلى عاصمة إقليمية في زمن ما بين أواخر القرن الثامن ومطلع القرن السابع. وقد ترافق صعود أورشليم مع تدمير الآشوريين لمدينة السامرة عاصمة مملكة إسرائيل التاريخية عام ٧٢١ق.م، وتدميرهم لبعض المدن القوية المنافسة لأورشليم مثل مدينة لخيش في سهل شفلح عام ٧٠١ ق.م.

في الوقت الذي كان يتم فيه الإجهاز على مفهوم المملكة الموحّدة في موقع أورشليم، كان فريق من علماء الآثار الإسرائيليين يجهز على مفهوم أركيولوجيا المملكة الموحّدة خارج أورشليم، وبشكل خاص في موقع مجدو الذي ولد فيه هذا المفهوم، بعد اكتشاف بوابتها الشهيرة المتصلة بسور مزدوج، وعدد من البنى المعمارية الضخمة، وبُنى ذات طراز معماري خاص فُسِّرت على أنها إسطبلات سليمان. فبعد اكتشاف بوّابة مجدو تم الكشف عن بوابتين مطابقتين لها في التصميم وأسلوب العمارة في كل من موقع حاصور وموقع جازر، وعُزِّيت هذه البوّابات الضخمة إلى نشاطات الملك سليمان العمرانية، اعتماداً على ما ورد في سفر الملوك الأول ٩: ١٥ من قيام سليمان بتحصين أورشليم و مجدو و جازر. وبما أن المنقب الإسرائيلي إيجال يادين، الذي أشرف على التنقيب في موقع مجدو و حاصور خلال ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، قد أرجع تاريخ البوّابات إلى القرن العاشر، فقد صار هذا التاريخ مُسلّمةً أركيولوجية، واستُخدم كبيّنة على قيام سلطة مركزية في أورشليم، وهيكلية دولةٍ قادرة على تنفيذ مثل هذه المشاريع الضخمة. (راجع التفاصيل التي أوردتها في الفصل الرابع، الصفحات ٧٣-٨٠).

اضطر إيجال يادين، بعد فترة ليست بالطويلة، إلى التراجع عن تأريخه للبنى المعمارية المدعوة بإسطبلات سليمان، وأعلن أنها لا تنتمي إلى القرن العاشر بل إلى أواسط القرن التاسع. ثم أخذت صورة مجدو السليمانية تتداعى تدريجياً، عندما بدأت البعثة التنقيبية لجامعة تل أبيب، برئاسة إ. فنكلشتاين و دافيد أوسيشكين D. Ussishkin، بنشر نتائج حفرياتها في مجدو منذ أواسط التسعينيات. فقد أعلن أوسيشكين أولاً بأن بوّابة مجدو وسورها المزدوج لا ينتميان إلى القرن العاشر بل إلى القرن التاسع. ثم تبع ذلك إعلان فينكلشتاين أن كل الطّبقة الآثارية المعروفة بالطّبقة السليمانية في موقع مجدو، بجميع مظاهرها الفخمة، ليست سليمانية، ولا تنتمي إلى القرن العاشر بل إلى القرن

التاسع أيضاً. أما طبقة القرن العاشر فهي الطّبقة التي كانت تُعزّى وفق التاريخ السابق إلى القرن الحادي عشر، وهي طبقة فقيرة وعادية ولا تحتوي على ما يلفت الانتباه. فإذا كان ملوك مجدو نفسها ليسوا هم المسؤولين عن تحصين مجدو وبناء قصورها، فإنّ المرشّح لهذه المهمة ليس سليمان وإنّما عُمري ملك السامرة.

عرض فنكلشتاين و أوسيشكين نتائج دراستهما لموقع مجدو، أمام مؤتمرٍ لجمعية علم الآثار التوراتي Biblical Archaeology Society، عُقد بسان فرانسيسكو أواخر عام ١٩٩٧، شارك فيه نخبة من علماء الآثار من أميركا وإسرائيل، وكان محوره الأساسي تحت عنوان «أين القرن العاشر؟»[1]. وقد أثارت نتائج هذين الآثاريين اللامعين ضجّة عالية في أروقة المؤتمر وفي خارجه، إلى درجة أنّ صحيفة وول ستريت جورنال، التي لم تهتم عبر تاريخها بغير الشؤون المالية والاقتصادية، قد نشرت على غلافها صورة لفنكلشتاين، وقدّمت في صفحاتها الدّاخليّة عرضاً لمداخلته أمام المؤتمر بخصوص القرن العاشر في موقع مجدو، واختتمت مقالتها بآخر جملة قالها زميله أوسيشكين في نهاية مداخلته أمام المؤتمر: «إنّه ليصعب على روحي الرومانسية أن تقبل بهذه الوقائع. أرجو من الملك سليمان أن يسامحني».

هذه الضجّة التي قامت داخل المؤتمر وخارجه لها ما يبررها، لأنّ التاريخ الجديد للمستوى المدعو بالسُّليماني في مجدو ينعكس على بقيّة المدن المدعوّة بالملكية في حاصور وجازر، ويرمي ببوّاباتها المدعوّة بالسّليمانية إلى القرن التاسع أيضاً. ونحن إذا أضفنا هذه المعلومات الجديدة إلى المعلومات المستمدّة من موقع أورشليم، لم يبقَ لدينا ما ينقذ تاريخية المملكة الموحّدة وملوكها. إنّ أبنية مجدو وتحصيناتها، وكذلك تحصينات حاصور و جازر لم تنفذها سلطة مركزية قوية في فلسطين خلال القرن العاشر. كما أنّه لا مبرر لافتراض وجود مثل هذه السلطة المركزية في القرن التاسع، لأن القرن التاسع كان بمثابة الفترة التي ازدهرت خلالها دويلات المدن الفلسطينية المستقلّة، ولا يوجد بين أيدينا من الوثائق النصية والأركيولوجية ما يشير إلى قيام وحدة من أي نوع في فلسطين الكبرى. أمّا عن تشابه البوّابات والتحصينات في المدن الثلاث خلال القرن التاسع، فليس إلاّ من قبيل تكرار الأنماط المعمارية في مُتّحدٍ ثقافي واحد.

١ - من أجل عرضٍ وافٍ لوقائع هذا المؤتمر والأبحاث المقدمة إليه، راجع:
Biblical Archaeology Review, March-April 1998.

على أنّنا يجب أن لا نعتقد لوهلة بأن جُلَّ علماء الآثـار الإسرائيليين قد بدأ يباشر عمله بمعزل عن سطوة الرواية التوراتية. فما زالت هنالك أصوات قوية في علم الآثار، سواء في إسرائيل أم في خارجها، تكافح ضدّ التيّار ويعمل أصحابها بجدّ ودأب على إنتاج حجج علمية مقابلة. ولا أدلّ على ذلك من عنوان المقالة التي نشرها في آذار من العام ٢٠٠٠ الأركيولوجي الإسرائيلي المحافظ A. Mazar وزميله John Camp، بخصوص النتائج الأولية لحفرياتهما في موقع تل رحوب في المنطقة الشمالية من غور الأردن إلى الجنوب من موقع بيت شان (بيسان الحالية). لقد اختار المنقّبان لمقالتهما عنوان: «هل ينقذ موقع رحوب المملكة الموحّدة»[1]. إنّ هذا العنوان المثير، إذ يدلّ على تصميم الاتجاه التوراتي في المضي قدماً بحثاً عن بيّنات تدعم موقفه، إلاّ أنّه يدلّ في الوقت نفسه على عمق الأزمة التي يمرّ بها علم الآثار التوراتي. وهي الأزمة التي عبّر عنها بمرارة الأركيولوجي زائيف هيرتزوغ الأستاذ في جامعة تل أبيب في مقالة نشرتها صحيفة هاآرتس بتاريخ ١٩٩٩/١١/٢٨.

يقول هيرتسوغ بأنّ الحفريات المكثّفة في أرض إسرائيل خلال القرن العشرين قد أوصلتنا إلى نتائج محبطة. كل شيء مُختلق، ونحن لم نعثر على شيء يتفق والرواية التوراتية. إن قصص الآباء في سفر التكوين هي مجرّد أساطير، ونحن لم نهبط إلى مصر ولم نخرج منها. لم نتُه في صحراء سيناء، ولم ندخل إلى فلسطين بحملة عسكرية صاعقة احتلّت الأرض ووزعتها على الأسباط. وأصعب هذه الأمور أنّ المملكة الموحّدة لداود و سليمان، التي توصف في التوراة بأنّها دولة عظمة، كانت في أفضل الأحوال مملكة قبلية صغيرة. وعلاوة على ذلك فإنّ القلق سينتاب كل من سيضطر إلى التعايش مع فكرة أن يهوه إله إسرائيل كان لديه زوجة (هي الإلهة الكنعانية الكبرى عشيرة)، وأن إسرائيل لم تتبنَّ عقيدة التوحيد على جبل سيناء، وإنّما في أواخر عهد ملوك يهوذا. إنّني أدرك باعتباري واحداً من أبناء الشعب اليهودي، وتلميذاً للمدرسة التوراتية، مدى الإحباط الناجم عن الهوة بين آمالنا في إثبات تاريخية التوراة وبين الحقائق التي تتكشّف على أرض الواقع. إنّني أحسّ بثقل هذا الاعتراف على عاتقي، ولكنّني ملتزم بتدقيق ونقد

1 - A. Mazar And J. Camp, Will Tell Rehov Save The United Manarchy. in: Biblical Archaeology Review, March-April2000.

وتعديل تفسيراتي ونتائجي السابقة، والأخذ بعين الاعتبار ما توصّل إليه زملائي من نقد وتفسير جديد للوقائع.[٨٥]

والآن، إذا كان سكان المناطق الهضبية (التي قامت عليها مملكتا إسرائيل ويهوذا التاريخيّتان ابتداءً من القرن التاسع قبل الميلاد) هم من الذّخيرة السّكانية الكنعانية كما قال الأركيولوجي الأميركي المحافظ وليم ديفر في مداخلته أمام ندوة جامعة Northwestern بشيكاغو (مما اقتبسناه في مطلع هذا الفصل)، وكما بيّن المسح الأركيولوجي الشّامل للمنطقة. وإذا كانت المملكة الموحّدة في القرن العاشر وملوكها الثلاثة، ليست أكثر من اختراع توراتي تنفيه كلّ الوقائع الأركيولوجية والتاريخية. أفلا ينجم عن ذلك القول بأن مملكتي إسرائيل – السامرة، ويهوذا، هما مملكتان كنعانيتان نشأتا على الخلفية الثقافية العامة لعصر الحديد الكنعاني وما سبقه؟

للإجابة على هذا التساؤل، سوف نخصص الفصلين القادمين لتقصي نشوء مملكة إسرائيل – السامرة، ومملكة يهوذا، في المناطق الهضبية الفلسطينية إبان عصر الحديد الثاني، الذي شهد ازدهار ممالك آرام في سورية، مثلما شهد نشوء الإمبراطورية الآشورية وتوسعها غرباً حتى تجاوز نفوذها الساحل السوري باتجاه قبرص وبحر إيجه.

نحن ما زلنا بصدد البحث عن مملكة اليهود في فلسطين فهل كانت إسرائيل ويهوذا يهوديتين؟

٨٥ – مقاطع ملخصة من المقالة التي يمكن مراجعتها كاملة في مجلة العصور الجديدة عدد إبريل ٢٠٠٠، ترجمة فيصل خيري. وفي جريدة السفير عدد ١ تشرين الثاني ١٩٩٩، ترجمة حلمي موسى.

الفصل التاسع

مملكة السامرة الكنعانية
٨٨٠ - ٧٢١ ق.م

لقد أوصلنا القسم الأول من هذه الدراسة إلى أن الحديث عن إسرائيل ككيان سياسي أو إثني، خلال عصر الحديد الأول ومطلع عصر الحديد الثاني في القرن العاشر، قد غدا من ماضي البحث الأكاديمي الرصين. فالاسم إسرائيل لا يمكن إطلاقه على أي إقليم في فلسطين قبل حلول القرن التاسع قبل الميلاد. وحتى هنا، فإنّ الاسم لا يدلّ إلاّ على الدولة الإقليمية المعروفة بمملكة السامرة، والتي أسّسها الملك عُمري باني عاصمتها المدعوّة بالسامرة حوالي عام ٨٨٠ق.م، قرب مدينة نابلس الحالية. إلى جانب الاسم السامرة فقد دُعيت هذه المملكة في النصوص الحربية الآشورية ببلاد عُمري أو أرض عُمري، نسبة إلى المؤسس الأول للمملكة. أما الاسم إسرائيل فلم يرد بتاتاً في النصوص الآشورية، رغم أن أحد ملوكها، وهو آخاب ابن الملك عُمري. قد وصف بالإسرائيلي في نص للملك شلمنصر الثالث عام ٨٥٤ق.م. بينما ورد الاسم مرة واحدة في نص عُثر عليه في منطقة مؤاب بشرقي الأردن يعود بتاريخه إلى القرن التاسع. وقد دوّن عليه ملك مؤاب المدعو ميشع أخبار احتلال عُمري، الذي وصفه بملك إسرائيل، لبلاد مؤاب، وكيف استطاع ميشع أخيراً تحرير بلاده في عهد ابن عُمري، الذي لا يذكره النص بالاسم.

فالاسم إسرائيل والحالة هذه، هو على الأغلب اسم لمنطقة جغرافية هي منطقة الهضاب المركزية بالمصطلح التاريخي والجغرافي الحديث، وتشتمل على الأراضي الهضبية الواقعة بين أورشليم و وادي يزرعيل. ومنطقة الهضاب هذه، تنحدر بشكل حاد نحو

غور وادي الأردن، بينما تنحدر بشكل تدريجي نحو السهول الساحلية لتشكّل سهل شفلح، أو ما يدعى بمنطقة التّلال المنخفضة (انظر الخارطة في الشكل رقم ١٦، الصفحة ١٢٨سابقاً). من هنا، فإنّ الصّلة التي تعقدها الرواية التوراتية بين هذه الأرض والأسباط العشرة المدعوّة ببني إسرائيل، هو من قبيل الإيتيولوجيا التي لا تقوم على أساس واقعي. وإسرائيل، التي نعرفها تاريخياً، هي مملكة فلسطينية محلية، وسكانها من الذخيرة الكنعانية لفلسطين الكبرى. ولا يوجد أي أساس تاريخي أو أركيولوجي يدفعنا لعقد صلة بين ملوك السامرة، المعروفين لنا جيداً من النصوص الآشورية والمحلية، والملوك المزعومين للمملكة الموحّدة، أو الافتراض تماشياً مع الرواية التوراتية، بأن المملكة الموحّدة هي السلف المباشر لإسرائيل التاريخية هذه. وفي الحقيقة فإنّ العكس هو الصحيح تماماً. ذلك أن مفهوم دولة «كل إسرائيل» الذي اخترعته الرواية التوراتية المتأخّرة، قد تمّت صياغته انطلاقاً من الوجود التاريخي لإسرائيل - السامرة.

عاشت مملكة السامرة أقل من قرنين من الزمان، ولعبت خلال حياتها دوراً في سياسة العالم السوري خلال فترة المدّ الآشوري، إلى أن انتهت ككيان إثني وسياسي عندما دمّر الآشوريون عاصمتها السامرة عام ٧٢١ق.م، وسبوا أهلها إلى آشور، وفق سياسة التهجير الآشورية التي كانت تُمارس ضدّ الشعوب الثائرة المغلوبة. وخلال كل تلك الأحداث الجسام التي مرّت بها هذه المملكة، لا يتوفر لدينا دليل واحد على أن جارتها الجنوبية يهوذا كانت تتمتع بأي نوع من الوحدة السياسية، أو أن أورشليم قد لعبت دوراً يُذكر في السياسة الفلسطينية أو السورية، رغم أنها كانت خلال ذلك الوقت تزدهر وتعمل تدريجياً على السيطرة على مناطق يهوذا الواقعة إلى جنوبها. ولسوف نقدم فيما يلي من هذا الفصل عرضاً تاريخياً مكثّفاً لمسار حياة هذه المملكة، التي جعلت من نفسها خلال فترة وجيزة أقوى دويلة فلسطينية قامت خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. وهي الفترة التي تعتبر من أكثر فترات التاريخ السوري امتلاءً بالأحداث والصراعات وصعود الممالك وزوالها السريع.

عندما تلاشت آخر آثار الجفاف الميسيني حوالي عام ١٠٥٠ق.م، لم يكن الوضع الديمغرافي يسمح بقيام كيان سياسي ناضج وموحّد في الهضاب المركزية. فمدينة شكيم، وهي المدينة الوحيدة الحقيقية في المنطقة (بالمعيار الفلسطيني)، كانت مدمّرة منذ مطلع

عصر الحديد وخالية من السكان (كينيون ١٩٨٥ ص٣٤٢). أما حفنة البلدات الصغيرة التي كانت قائمة في عصر البرونز الأخير، مثل بيت إيل و جبعة و شيلوة، فلم تكن خلال عصر الحديد الأول إلا مواقع هزيلة إلى أبعد الحدود، ولا يبلغ عدد السّكان في كلٍّ منها أكثر من بضع مئات (كينيون ١٩٨٥ص١٣٠-١٣١). ورغم أن الاستيطان كان يسير بشكل متسارع، إلا أن المنطقة في أواخر القرن الحادي عشر لم تحتوِ إلاّ على حوالي ٢٠٠ قرية صغيرة، لم يبلغ عدد سكانها مجتمعة سوى بضعة آلاف.

إلا أن عودة معدلات الأمطار إلى حالتها الطبيعية في القرن العاشر، قد رفع من وتيرة الاستيطان، مثلما ساعد أيضاً على الزيادة المحلية في عدد السكان. وكان لتوفر الأدوات الحديدية دور في رفع كفاءة وفعاليات هذه التجمعات القروية، لأنها مكنتها من حفر خزانات لحفظ مياه الأمطار، وحفر آبار تصل إلى مصادر المياه التحتية في أراض كانت المعاول البرونزية عاجزة على نقبها. فازداد الإنتاج الزراعي وتنوع تبعاً للبيئة، حيث قامت بعض القرى بزراعة محاصيل الكفاف كالقمح والشعير وغيرها من أنواع الحبوب القابلة للخزن والاستهلاك المحلي، وقام البعض الآخر بالرعي وتربية الماشية، وبعضها باستصلاح المنحدرات الهضبية وتجهيز مصاطب تصلح للزراعات المتوسطية مثل الكرمة والزيتون واللوزيات والفاكهة.

هذا الاقتصاد المتنوع قد شجع على التبادل التجاري بين البيئات. غير أن الزراعات المتوسطية تتطلب على الدوام سوقاً أوسع فأوسع، لأنها بطبيعتها منتجات تبادل نقدي. فمع ازدياد عدد القرى وارتفاع عدد سكانها ونمو محاصيلها، صار مصيرها رهناً بتنظيم وترشيد تجارتها، وربط هذه التجارة بالأسواق الأبعد والأوسع. لقد غدت البنى السياسية البدائية غير مؤهلة للتصرف في الأوضاع الجديدة، وصارت عملية تصريف المنتجات المحلية بحاجة إلى إدارة مركزية قادرة على ربط شبكة التجارة المحلية المحدودة بشبكة التجارة الدولية، وخصوصاً بعد أن عاد التبادل التجاري الدولي إلى سابق عهده بين أقطار غرب آسيا الرئيسية، وراحت مدن فينيقيا تفتح أسواقاً جديدة عبر البحار (تومبسون ١٩٩٩ ص١٦٤-١٦٥).

في هذا السياق التاريخي، ظهرت إلى الوجود مملكة السامرة. ويبدو أن المقر الإداري للبنية السياسية، التي كانت في طريقها للتحول إلى مملكة، كان في مدينة شكيم

التي أعيد بناؤها حوالي عام ١٠٥٠ق.م بعد فترة انقطاع سكني دام قرابة قرن ونصف (كينيون ١٩٨٥ ص٣٤٢). وعندما آلت السلطة إلى قائد عسكري يدعى عُمري، وهو مؤسس أول أسرة ملكية في الهضاب المركزية، عمد إلى بناء مدينة السامرة ونقل مقره الملكي إليها، ملبياً بذلك حاجة ذلك الإقليم المتزايدة إلى تنظيم شؤونه السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي دخلت طور النضج. تم اكتشاف مدينة السامرة في الشمال من منطقة الهضاب، تحت تل الفرح الحالي الذي يشرف على المنحدرات الهابطة تدريجياً نحو وادي يزرعيل الاستراتيجي. ويبدو أن الملك عُمري قد اختار هذا الموقع لعاصمته بعناية، لأنه يؤمّن له الاتصال عبر وادي يزرعيل بثقافتين راقيتين مجاورتين، هما الثقافة الفينيقية والثقافة الآرامية، كما يؤمّن له إمكانية سهلة لتصريف منتجاته الزراعية الفائضة. وقد باشر عُمري ببناء عاصمته على النمط الفينيقي السوري الفخم، ولكن ابنه آخاب الذي كان معجباً بالثقافة السورية الشمالية وبالثقافة الفينيقية المجاورة، والذي تزوج من أميرة فينيقية، هو من أعطى المدينة اللمسات الأخيرة كآية من آيات العمارة والتنظيم في فلسطين (كينيون ١٩٧١، ص٧٢ وما بعدها).

تبدي قصور السامرة، والأبنية العامة فيها، تأثراً كبيراً بفن العمارة الفينيقية، حتى لتبدو وكأنها نتاج فينيقي صرف. وهذا ما يدل على البيئة الثقافية التي نشأت فيها مملكة إسرائيل، وعلى روابطها مع العالم الآرامي – الفينيقي الأوسع. ومن أهم ما كشفت عنه التنقيبات في قصور السامرة، مجموعة كبيرة من وحدات النحت البارز العاجية المخصّصة لتزيين الجدران وقطع الأثاث، وهي تنتمي إلى مدرسة فنية سورية في النحت مغرقة في القدم، نجد بوادرها الأولى في منحوتات إيبلا (٢٤٠٠ق.م)، كما وصلتنا نماذج من هذا الفن النحتي من أوغاريت ومن جبيل (أواخر عصر البرونز الأخير). وهناك مجموعات عاجية شبيهة بمجموعات السامرة، وصلتنا من مواقع الممالك الآرامية في الشمال السوري، في حداتو (أرسلان طاش) وكركميش (جرابلس) وأرفاد وتل حلف وشمأل (انظر الصورتين رقم ٣،٢ في القسم المصور). ويبدو أن الآشوريين قد نهبوا مجموعات من هذه العاجيات خلال حملاتهم على مناطق ما وراء الفرات، لأن التنقيبات الأثرية في القصور الآشورية بموقع نمرود قد كشفت عن منحوتات عاجية مصنوعة بالأسلوب نفسه. وعندما تم الكشف عن أساسات معبد حدد في قلعة حلب عام ١٩٩٧، ظهرت

مجموعة لوحات نحتية جدارية مصنوعة بالأسلوب نفسه، تعتبر من أجمل آثار النحت السوري المكتشف حتى الآن. ورغم اختلاف تقنية النحت على الحجر عن تقنية حفر العاج، إلا أن صانع تلك المنحوتات بدا كأنه يتعامل مع سطح عاجي، وبالأسلوب السوري المعروف من مطلع الألف الأول قبل الميلاد.(*)

مع نشوء مملكة السامرة في مطالع القرن التاسع، كانت الفترة نفسها تشهد ازدهارا كبيرا للمدن الفلسطينية، سواء في وادي يزرعيل (مجدو، بيت شان، تعنك، يزرعيل)، أو في سهل شفلح (لخيش، جرار، بيت شميش)، أو في السهل الفيليستي (أشدود، أشقلون، غزة، عقرون، جرار). إلا أن أيا من هذه المدن لم يحقق دولة إقليمية تعادل في قوتها ومساحتها دولة السامرة، وإنما بقيت على ما كانت عليه في عصر البرونز، كمدن تحكمها أسر ملكية متنفذة، تسيطر على مساحة صغيرة تحيط بها. ومن ناحية أخرى فقد شهدت هذه الفترة أيضا نشوء ممالك صغيرة في شرقي الأردن، مثل عمون ومؤاب وأدوم، أفادت من عودة النشاط التجاري على طريق الملوك الدولي. وإلى الشمال، كانت مملكة دمشق الآرامية (أو آرام دمشق كما يدعوها النص التوراتي) قد تحولت إلى أقوى قوة في وسط وجنوب سورية، وامتدت سيطرتها شرقا نحو البقاع اللبناني، وغربا نحو الفرات، وجنوبا إلى ما وراء الجولان، وشمالا حتى حدود مملكة حماة. أما المدن الفينيقية الساحلية، من أرواد شمالا إلى يافا جنوبا، فقد تحولت إلى قوى تجارية مهمة في شرقي المتوسط، وراكمت ثروات طائلة من تجارتها البحرية غربا. وكانت صور أهم هذه

(*) في أحد صباحات صيف عام ١٩٩٧ تلقيت مكالمة هاتفية من صديقي حميدو حمادة المنقب في مديرية آثار حلب، يبشرني بظهور أساسات بناء ضخم في قلعة حلب. كنت منذ زمن طويل أتوقع العثور على معبد حدد إله حلب، الذي ورد ذكره مرارا في النصوص القديمة، في مكان ما من القلعة، فهرعت إلى المكان وكنت من أوائل من شاهد إفريز الجدار وعليه سلسلة من المنحوتات المذهلة، التقطت لها صورا سريعة على قدر ما سمح لي خندق السير بالتحرك، وعدت إلى مكتبي فعكفت على دراستها. كان من الواضح انتماؤها إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد، وإلى مدرسة النحت السوري المتسلسلة من إيبلا في الألف الثالث قبل الميلاد إلى عاجيات أوغاريت والسامرة وأرسلان طاش وشروذ. ولكنها إلى جانب ذلك كانت تحتوي على تأثيرات حثية ومصرية وآشورية، مما جعلها في نظري نموذجا نادرا عن الفن الكوزموبوليتاني السوري في أرقى أشكاله. وعندما جاءت البعثة الألمانية لإكمال الكشف عن الموقع، خرجت بنتيجة مفادها أن البناء هو بالفعل معبد حدد وأن الإفريز ينتمي إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد. وإنني أهيب بدارسي الفن السوري القديم إيلاء هذا الاكتشاف الهام اهتمامهم، ودراسته الدراسة التي يستحقها.

العواصم البحرية، وقد ساعد على دعم مركزها كونها مقراً لملوك صيدون الذين كانوا يحكمون من بلاطهم فيها أهم قوتين بحريتين على شواطئ المتوسط في ذلك الوقت.

يقول لنا محرّر سفر الملوك الأول في كتاب التوراة، بأن الملك عمري كان قدئداً للجيش في مدينة ترصة التي انتقل إليها مقر السلطة بعد شكيم، وأنه استولى على الحكم في انقلاب عسكري ونصّب نفسه ملكاً في ترصة مدة سنتين، قبل أن يبني مدينة السامرة وينقل مقره الملكي إليها (الملوك الأول ١٦). وفي الحقيقة، فإنّ عُمري هو أول شخصية في قصة بني إسرائيل التوراتية، يتقاطع عندها النص التوراتي مع المصادر النصية الخارجية. وبدءاً من عصر عُمري تبدأ بعض أحداث وشخصيات الرواية التوراتية بالتقاطع مع الأخبار التاريخية. ويعود السبب في ذلك إلى قرب القرن التاسع نسبياً من فترة تدوين التوراة، وبقاء بعض الأحداث حية في الذاكرة الشعبية وفي الأدب الفولكلوري. يضاف إلى ذلك أن بيروقراطية البلاط الملكي في السامرة (وبعدها في أورشليم) قد بدأت بتقليد بيروقراطية القصور الملكية في عواصم الشرق الكبرى، وراحت تدوّن أخبار البلاط في حوليات تشبه ما نعرفه عن حوليات ملوك فينيقيا المذكورة في المصادر التاريخية، وأشهرها حوليات ملوك صور التي ترد في كتابات فيلو الجبيلي و ميناندر الإفسوسي من العصر الكلاسيكي المتأخر. ويبدو أن نتفاً من حوليات ملوك إسرائيل وحوليات ملوك يهوذا (التي يذكرها المحرر التوراتي تحت عنوان أخبار الأيام لملوك يهوذا، وأخبار الأيام لملوك إسرائيل) قد وصلت إلى محرري التوراة، ولكن ليس بنصها الأصلي بل من خلال مراجع ثانوية هي أقرب إلى مدوّنات الأدب الشعبي منها إلى السجلات الدقيقة. يدلنا على ذلك مدى ابتعاد الأخبار التوراتية، التي تغطي فترة مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا، عن ما صرنا نعرفه الآن عن تاريخ تلك الفترة، وامتلائها بالفجوات والأحداث الخيالية التي يفرضها المنظور الإيديولوجي للقائمين على التدوين. فالمحرر التوراتي لم يكن يهدف إلى تقديم مسردٍ تاريخي محقق ومدقق، بقدر ما كان يسعى إلى تقديم قصة لاهوتية عن أصول بقيّة يهوذا العائدة من السبي البابلي.

إن الصورة التي يقدمها محرّرو سفر الملوك الأول وسفر الملوك الثاني عن أصول مملكة إسرائيل، هي أن هذه المملكة قد نشأت عقب وفاة الملك سليمان(*)، واستقلال

(*) هنالك تأريخان لموت سليمان، التاريخ الأول يضعه في عام ٩٣١ق.م، والثاني في عام ٩٢٥ق.م.

عدوه السابق يربعام بالمناطق الشمالية التي سكنتها دائماً الأسباط المعروفة بأسباط إسرائيل في الرواية التوراتية. كما أن هذه المملكة قد ورثت مناطق نفوذ سليمان في وادي يزرعيل و الجليل. إلا أن الصورة التاريخية لما كان يجري في القرن التاسع كانت أكثر تعقيداً بكثير من ذلك. فقد كانت مرتفعات الجليل منذ القرن العاشر تحت السيطرة غير المباشرة لكل من مملكتي صور و دمشق، بحيث بسطت دمشق نفوذها على الجليل الشرقي، وبسطت صور نفوذها على الجليل الغربي. أما بخصوص مدن وادي يزرعيل التي كانت تزداد ازدهاراً مع زيادة الإنتاج الزراعي ونشاط حركة التجارة عبرها، فقد تحكمت صور بمدينة يزرعيل الواقعة عند مدخل الوادي شرقاً، والتي يمر بها الطريق التجاري الساحلي قبل صعوده نحو فينيقيا، وتحكمت دمشق ببقية المدن وصولاً إلى بيت شان عند مخرج الوادي شرقاً. وبذلك بقيت مدن الوادي في حالة تمزق سياسي، ترتبط بمعاهدات حماية مع القوى الكبرى (تومبسون ١٩٩٩ ص١٨٠). ورغم أنه لا يوجد لدينا ما يشير إلى أن مملكة دمشق قد وسعت حدودها جنوباً لتشمل عمون و مؤاب، إلا أنه من المنطقي أن دمشق لم تكن لتترك طريق الملوك الدولي الذي ينتهي إليها تحت رحمة ملوك هاتين الدولتين، ولا شك أنها عمدت إلى ربطهما بمعاهدات حماية تضمن لدمشق مصالحها التجارية.

عندما شعر ملوك السامرة بالقوة بدأوا بالتطلع إلى وادي يزرعيل، المنفذ الوحيد لتجارة السامرة، سواء باتجاه فينيقيا أم باتجاه آرام. ورغم أنه لا يوجد لدينا من الدلائل ما يشير إلى أن وادي يزرعيل قد وقع تحت السيطرة المباشرة لبلاط السامرة، إلا أننا نرجح أن مدنه قد ارتبطت بمعاهدات تبعية مع السامرة منذ عهد الملك عُمري، وكذلك الأمر فيما يتعلق بمدن الجليل. بعد ذلك تطلعت السامرة نحو مناطق شرقي الأردن التي يعبرها طريق الملوك الدولي، وبدأت بإحكام نفوذها على عمون و مؤاب من خلال معاهدات حماية وتبعية. ولدينا من سفر الملوك الثاني الإصحاح الثالث ما يؤيد ذلك، لأن محرّر السفر يخبرنا بأن ميشع ملك مؤاب كان يؤدي جزية إلى ملك إسرائيل قوامها آلاف من الماشية كل سنة.

ويبدو أن ملك مؤاب قد تلكأ أو امتنع عن تأدية الجزية، فاتخذ عُمري من ذلك ذريعة لوضع مؤاب تحت السيطرة المباشرة لإسرائيل. وهذا ما يحدثنا عنه نصٌ تاريخي على جانب كبير من الأهمية، وُجد منقوشاً على نصب تذكاري بمنطقة ديبان في شرقي

الأردن. نقرأ في السطور الأولى من النص ما يلي: «أنا ميشع ملك مؤاب الدياني. أبي مَلَكَ على مؤاب ثلاثين سنة، وأنا ملكتُ بعد أبي، وبنيت هذا المرتفع للإله كموش، لأنه نصرني على كل الملوك، وأعانني على أعدائي. لقد أذل عمري ملك إسرائيل مؤاب أياماً كثيرة، لأن الإله كموش كان غاضباً على أرض شعبه. ثم خلفه ابنه وقال: سأذل مؤاب أيضاً في أيامي. ولكن كموش جعلني أراه مهزوماً أمامي، وإسرائيل انمحق، انمحق إلى الأبد. لقد احتل عمري كل أرض مأدبا، وأقام عليها كل أيامه وأيام ابنه أربعين سنة، ولكن كموش أرجعها في أيامي»[1].

هذه النشاطات التوسّعية للملك عُمري، قد وضعته في مواجهة مباشرة مع كل من مملكة آرام دمشق ومملكة صور. فقد كانت دمشق في مطلع القرن التاسع أقوى دولة سورية في مناطق غربي الفرات، ورغم أنها لم تسعَ إلى تكوين إمبراطورية سورية على الطريقة المصرية والرافدينية، إلا أنها استطاعت تشكيل نظام إقليمي في مناطق غربي الفرات يجمع كلمة الممالك السورية تحت لواء ملك دمشق، الذي كان يرأس الأحلاف العسكرية، ويقاوم المد التوسّعي لآشور التي كانت قد بدأت بتكوين إمبراطوريتها في آسيا الغربية. أما صور، فكانت أقوى المدن الفينيقية، وعاصمة لإمبراطورية بحرية تزداد توسّعاً في جزر البحر المتوسط وعلى شواطئه البعيدة.ولم تكن هاتان القوتان لتسكتان عن طموحات المملكة الجديدة الناشئة في الهضاب الفلسطينية. ولقد تعامل عُمري مع صور بالوسائل الديبلوماسية، لأن إرضاءها كان سهلاً بسبب انشغالها بنشاطات ما وراء البحار أكثر من انشغالها بالمسائل الداخليّة للعالم السوري، فعمد بلاط السامرة إلى الوسيلة الملكية التقليدية في عالم الديبلوماسية القديمة، وزوج ابنه المدعو آخاب من ابنة ملك صور المدعوّة إيزابيل (إيزا–بعل). وبذلك ضَمنت صور وجود قوة حليفة تحمي مداخلها التجارية البرية، وضَمن عُمري سكوت صور عن توسّعاته في وادي يزرعيل ومرتفعات الجليل. ومصدرنا عن هذا الزواج هو الخبر التوراتي في سفر الملوك الأول ١٦: ٣٠-٣١. ولكن المواجهة مع دمشق صارت مؤكدة بعد اجتياز قوات السامرة لنهر الأردن وسيطرتها على مؤاب.

١ – انظر ترجمتي الكاملة للنص في مؤلفي: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الرابعة سنة ٢٠٠٠، الفصل الأخير.

نقرأ في الإصحاحين ٢٠ و٢٢ من سفر الملوك الأول عن ثلاثة حروب بين دمشق و السامرة، ابتدأها ملك دمشق الذي يدعوه النص التوراتي ببن هدد، وذلك في عهد آخاب ابن عمري. في المرة الأولى يهاجم ملك دمشق السامرة، يعاونه اثنان وثلاثون ملكاً من أتباعه، ويحاصرها مدة طويلة. وعندما تشتد المجاعة في السامرة، يخرج ملك إسرائيل بقواته في إحدى الليالي من البوّابة، ويفاجئ ملك دمشق الذي كان يشرب ويسكر مع حلفائه في الخيام، فيتشتت شمل القوات المحاصِرة، ويعود بن هدد إلى عاصمته. وبعد مضي عام يعاود ملك دمشق وحلفاؤه الكرة، ولكنه ينهزم أمام آخاب ويضطر إلى توقيع معاهدة صلح تنصّ على فتح أسواق دمشق أمام تجار مدينة السامرة. بعد ثلاثة أعوام يتنازع الفريقان على أرض راموت جلعاد الواقعة في شمال مناطق شرقي الأردن، وتقع حرب ثالثة تنجلي عن هزيمة جيش السامرة وإصابة آخاب إصابة بالغة أدت إلى وفاته.

وفي الحقيقة، فإنّه رغم أن كل الظروف كانت مهيّأة لوقوع صدام بين دمشق و السامرة، بعد استيلاء عُمري على مؤاب وتهديده للمصالح الدمشقية في المنطقة، إلا أن المعارك المذكورة في سفر الملوك الأول ٢٠ و٢٢، والتي من المفترض أنها وقعت في عهد الملك آخاب (٨٧٤–٨٥٣ق.م)، لا تتفق والوضع التاريخي في المنطقة خلال أواسط القرن التاسع قبل الميلاد. فنحن نعرف أن الملك الذي عاصر آخاب لم يكن اسمه بن هدد بل هدد عدر، وأن آخاب قد حارب تحت إمرة هدد عدر في معركة قرقرة حوالي عام ٨٥٤ق.م، عندما جمع هدد عدر اثني عشر جيشاً سورياً مع ملوكها، وحارب شلمنصر الثالث ملك آشور في موقع قرقرة على نهر العاصي، حيث أجبره على التراجع إلى ما وراء الفرات. وقد قدم آخاب إلى هذه المعركة، على ما يذكره النص الآشوري ٢٠٠٠ عربة قتالية و ١٠,٠٠٠ جندي، بينما قدم هدد عدر ١٢٠٠ عربة و١٢٠٠ فارس، وقدم إرخوليني ملك حماه ٧٠٠ عربة و٧٠٠ فارس و١٠,٠٠٠ جندي. وقد شكلت قوات هذه الممالك الثلاث القوة الضاربة الرئيسية في حلف قرقرة(*).

ورغم أنني لست معنياً بالتوفيق بين الرواية التوراتية والمصادر التاريخية، إلا أن هذه المسألة تستحق أن نتوقف عندها قليلاً. فقد اقترح بعض الباحثين أن بن هدد المذكور

(*) راجع النص في مؤلفي: آرام دمشق وإسرائيل، ودراستي الوافية له: فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل – في التاريخ والتاريخ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق ١٩٩٥، الفصل الرابع.

في الملوك الأول ٢٠ و٢٢، هو بن هدد ابن حزائيل، الخليفة الثاني لهدد عدر على عرش دمشق، وأن الحروب الثلاثة التي توردها القصة التوراتية لم تجرِ في عصر آخاب وإنّما في عصر أحد خلفائه المعاصرين لبن هدد ابن حزائيل. وبما أن المحرر التوراتي كانت تنقصه المعلومات بخصوص فترة حكم آخاب (بدليل جهله بمعركة قرقرة التي شاركت فيها السامرة إلى جانب دمشق) فقد وضع هذه الحروب في عصر آخاب[87]. ورغم أنني قد وقفت إلى جانب هذا الرأي في كتابي «آرام دمشق وإسرائيل»، لأنه بدا لي الأكثر منطقية بين الآراء المطروحة لحل هذه المشكلة، إلا أنني أرى الآن، وبكل وضوح، أن الحروب الثلاثة قد وقعت بين دمشق و السامرة خلال فترة حكم الملك عُمري، وأن خصمه الدمشقي كان بن هدد بن طبريمون بن حزيون، الذي نفهم من النص التوراتي أنه كان ملكاً على دمشق خلال الأحداث التي قادت إلى استيلاء عُمري على عرش السامرة(*) (راجع الملوك الأول ١٥: ١٦–٢٠).

رغم أن آشور قد ابتدأت منذ القرن العاشر قبل الميلاد بوضع الممالك الآرامية في منطقة الجزيرة السورية تحت نفوذها، مع إبقائها على الأسر الحاكمة فيها واكتفائها

87 - W. T. Pitard, Ancient Damascus, Chapter 4.

(*) انطلاقاً من القبول بالرواية التوراتية على علاتها، في سفر الملوك الأول ٢٠ و٢٢، يطابق المؤرخون الغربيون بين هدد عدر المعروف لنا جيداً من النصوص التاريخية، وبين بن هدد الوارد في القصة التوراتية باعتباره خصم آخاب في الحروب الثلاثة إياها. وهذا ما قادهم إلى القول بوجود ثلاثة ملوك حملوا اسم بن هدد في قائمة ملوك دمشق هم: ١- بن هدد بن طبريمون بن حزيون، ويدعونه بين هدد الأول. ٢- بن هدد معاصر آخاب، وهو هدد عدر النصوص الآشورية، ويدعونه بن هدد الثاني. ٣- بن هدد بن حزائيل، وهو الخليفة الثاني لهدد عدر، ويدعونه بين هدد الثالث. وقد نسجت الأبحاث التاريخية العربية على هذا المنوال، وكذلك المناهج الدراسية الجامعية (راجع على سبيل المثال كتاب «الآراميون» للدكتور علي أبو عساف، الصفحات ٦٢ و٦٣. وكذلك كتاب «اللغة الآرامية» للدكتور فاروق إسماعيل ص٣٠، وكتاب «موجز في تاريخ سورية القديم»، للدكتور حرب فرزات ص١٥٩.

وبما أنني أشكك في رواية سفر الملوك الأول ٢٠ و٢٢ (بعد أن تبين لنا الجهل المطبق لمحرر السفر بالأحداث التي كانت تجري في تلك الفترة)، وأقبل بحذر خبر سفر الملوك الأول ١٥: ٦–٢٠، عن وجود ملك دمشق اسمه بن هدد بن طبريمون، معاصر للملك عمري، فإني أقول بوجود ملكين حملا اسم بن هدد، هما بن هدد بن طبريمون، وبن هدد بن حزائيل. بينما لا يوجد في سلسلة ملوك دمشق واحد اسمه بن هدد معاصر للملك آخاب.

بتحصيل الجزية والأتاوات، إلا أن المشروع الإمبراطوري الأشورية لم يوضع موضع التنفيذ الفعلي إلا في عهد الملك شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ق.م). فبعد ثلاث حملات واسعة على الممالك الآرامية في حوض الفرات والخابور، استطاع شلمنصر ضم مملكة بيت عديني إلى التاج الآشوري، وهي أقوى ممالك تلك المنطقة، وضمن ولاء بقية الممالك ودفعها المنتظم للجزية. بعد ذلك، وفي السنة السادسة من حكمه، شن أكبر حملة له على مناطق غربي الفرات، افتتحت عصر الصراع السوري الآشوري الذي دام قرابة قرنين من الزمان. فقد عبر شلمنصر الفرات ووصل إلى حلب بعد أن استعرض قوته مجددا أمام ملوك آرام، وفي حلب جمع الأتاوات من أهل المدينة، وقدم قربانا إلى الإله حدد في معبده على قمة الأكروبوليس (القلعة الحالية)، ثم توجه شرقا نحو أراضي إرخوليني ملك حماة، التي كانت تمتد حتى المنعطف الكبير لنهر العاصي في الشمال. ولكن هدد عدر ملك دمشق كان بانتظاره مع اثني عشر ملكا عند موقع قرقرة عند ضفة العاصي، حيث جرت معركة من أشهر معارك ذلك العصر.

ورغم أن نص المسلة السوداء، التي نقش عليها شلمنصر أخبار حملته على حلف دمشق، يدعي انتصاره التام على المتحالفين، إلا أن مسار الأحداث اللاحق يثبت بطلان هذا الادعاء، ذلك أن شلمنصر لم يتابع حملته جنوبا، وكاتب نص المسلة السوداء لم يذكر شيئا عن قتل أو أسر أي من ملوك التحالف، ولم يختتم نصه بالصيغة المعروفة في السجلات الحربية الآشورية: «وجعلتهم يركعون تحت قدمي ويقدمون لي الجزية». والأهم من هذا كله هو أن الجيوش الآشورية قد غابت عن منطقة غربي الفرات بعد معركة قرقرة مدة خمس سنوات. وعندما عاد شلمنصر بعد ذلك في عام ٨٤٩ق.م، وجد هدد عدر في انتظاره على رأس التحالف السابق. ترد أخبار هذه الحملة الجديدة لشلمنصر في نص مختصر يقول بعد وصف سريع لمسار الحملة: «... عند ذلك. هدد عدر ملك دمشق(*)، وإرخوليني ملك حماة، والملوك الاثنا عشر، وضعوا ثقتهم بقواتهم المشتركة وشنوا الحرب ضدي. فقاتلتهم وانتصرت عليهم وغنمت عرباتهم وخيول فرسانهم ومعداتهم الحربية، فهربوا من وجهي طالبين سلامة أرواحهم»[٨٨]. نلاحظ هنا

(*) تذكر دمشق في النصوص الآشورية إما باسم عاصمتها «ديمشقي»، أو باسم المملكة «إميريشو».

88 - W. T. Pitard, Ancient Damascus, P. 129.

عدم ذكر السامرة إلى جانب دمشق وحماة. فإما أن خلفاء آخاب الذي توفي بعد عام واحد من معركة قرقرة قد خرجوا من حلف دمشق، وإما أن السامرة لم تقدم إلى المعركة قوات يعتد بها، وأن كاتب النص قد أدرجها في عداد الاثني عشر مملكة التي لم يذكر أسماءها. أما عن نتيجة هذه المواجهة السورية الآشورية الثانية، فإنه رغم اللهجة الدعائية المتبجحة للعاهل الآشوري، هنالك دلائل واضحة على هزيمة الآشوريين. فلقد كان على شلمنصر الثالث مواجهة التحالف نفسه بقيادة دمشق في حملاته الثلاثة التي تلت، والمؤرخة بأعوام ٨٤٨ و٨٤٦ و٨٤٥ق.م. وتدل أخبار هذه الحملات أيضا على عدم مقدرة الآشوريين تحقيق تقدم يذكر في مناطق غربي الفرات خلال حياة هدد عدر.

توفي هدد عدر بعد الحملة الآشورية إثر مرض عضال، وذلك في زمن ما خلال الفترة الواقعة بين عام ٨٤٥ وهو تاريخ الحملة الآشورية الأخيرة التي يظهر في أخبارها هدد عدر على رأس التحالف السوري، وعام ٨٤١ وهو تاريخ ظهور اسم خليفته حزائيل في السجلات الآشورية. كان حزائيل قائد جيش هدد عدر، ويبدو أنه استولى على السلطة بعد فترة من الاضرابات والصراع على السلطة في البلاط الدمشقي، مما تلى وفاة هدد عدر. ولقد تابع الملك الجديد سياسة هدد عدر في التصدي لآشور، كما وليه على قيادة جيوش التحالف السوري، رغم أننا لا نعرف من سجلات شلمنصر عدد الممالك المتحالفة ولا نعرف أسماءها. نقرأ في أول نص آشوري يذكر حزائيل ما يلي: «... هدد عدر مات واغتصب العرش حزائيل المجهول النسب(*)، فدعا الجيوش العديدة وثار ضدي، فقاتلته وهزمته وغنمت كل مركباته. أما هو فقد هرب طالبا حياته، فتعقبته حتى دمشق، مقره الملكي، حيث حاصرته وقطعت أشجار بساتينه»[٨٩]. نستشف من هذا النص أن حزائيل قد بقي سيدا على مناطق غربي الفرات، وأن الملوك السوريين كانوا على عهدهم القديم مع دمشق، ومستعدين لتلبية ندائها كلما دعت الضرورة. ورغم أن شلمنصر الثالث قد أفلح لأول مرة في مطاردة الجيش الدمشقي إلى عاصمته، إلا أنه ارتد عنها دون تحقيق مكسب ما، ولم يجد وسيلة ينتقم بها من حزائيل سوى قطع أشجار غوطة دمشق المشهورة منذ القدم.

(*) حرفيا: ابن لا أحد.

2 - Leo Oppenhiem, Babylonian and Assyrian Historical Texts.. in: James Pritchard's, Ancient Near Eastern Texts, P.280.

إلى جانب سياسته في الدعوة إلى الأحلاف المؤقتة، عمل حزائيل على عدم انحياز أي من الممالك السورية إلى الجانب الآشوري، لأن من شأن ذلك إضعاف موقف دمشق التي تحمل على عاتقها الجزء الأكبر من مسؤولية التصدي للمد الآشوري. وعندما لم تكن تجدي الوسائل الديبلوماسية في توحيد كلمة الممالك، كان حزائيل يلجأ إلى التدخل العسكري ضد أية دولة تميل إلى مهادنة آشور وتدفع لها الجزية. وقد كانت إسرائيل أول دولة تطالها عقوبة حزائيل. فبعد وفاة هدد عدر مال يهورام (أويورام) ابن آخاب وخليفته الثاني على عرش السامرة إلى مهادنة آشور، فانطلق حزائيل لمقاتلته وعسكر في راموت جلعاد، وهناك وقعت عدة معارك غير حاسمة بين الطرفين. ومصدرنا هنا هو الرواية التوراتية التي تقول في سفر الملوك الثاني ٩: ٢٥ –٢٩، بأن يهورام قد أصيب بجروح بليغة في هذه المعارك، فترك القيادة وانسحب إلى الداخل ليشفى من جروحه. ولكن أحد قادته المدعو ياهو تبعه إلى مكان نقاهته وقتله هناك وولي العرش بعده. أما حزائيل فقد وصلته أخبار عن عبور شلمنصر الثالث نهر الفرات في طريقه إلى وسط سورية والساحل الفينيقي، فانسحب من راموت جلعاد وعاد إلى دمشق.

عمل حزائيل على تحصين دمشق، ثم انطلق لقطع الطريق على الجيش الآشوري عند سفوح جبل الحرمون. وهنا نقرأ في سجلات شلمنصر الثالث عن هذه الحملة المؤرخة في عام ٨٤١ق.م(*) ما يلي: «في السنة الثامنة عشر من حكمي، عبرت الفرات للمرة السادسة عشر. حزائيل ملك دمشق، وضع ثقته بجيشه العرم، وجمع قواته بأعداد كبيرة جاعلا من جبل سنيرو المقابل لجبل لبنان قاعدة له. قاتلته، وهزمته، وجندلت ستة عشر ألفا من جنوده الأشداء، وغنمت ١١٢١ عربة و٧٤٠ جواد وكل معسكره. أما هو فقد هرب ناجيا بحياته، فتعقبته إلى دمشق، مقره الملكي، وحاصرته هناك وقطعت أشجار بساتينه. ثم سرت إلى جبل حوران، فهدمت وأحرقت عددا لا يحصى من المدن وأخذت منهم الجزية. ثم سرت إلى جبل بعل راسي (= الكرمل) الذي يقع مقابع البحر، حيث أقمت نصبا تذكاريا نقشت عليه صورتي. وهناك تلقيت الجزية من صور، ومن صيدون، ومن ياهو ابن عمري»(٩٠).

(*) وهي نفس الحملة التي نوهت عنها باختصار سجلات شلمنصر في معرض ذكرها لموت هدد عدر واستلام حزائيل السلطة.

90 - Leo Oppenheim, op. cit, P.280.

نلاحظ من قراءة النص الآشوري، أعلاه، عدم ذكر اسم ملك صور أو اسم ملك صيدون، بينما تم ذكر اسم ياهو ملك إسرائيل. ولعل السبب هو أن صور وصيدون قد ارسلتا الجزية إلى الملك الآشوري في معسكره، أما ياهو فقد حضر شخصيا للقاء شلمنصر الثالث مؤكدا له ولاءه المطلق. وهذا ما يؤكده نحت بارز محفور على خلفية المسلة السوداء، ضمن مجموعة صور أخرى، يمثل رجلا بلباس كنعاني ساجدا عند قدمي شلمنصر الثالث، وقد كتب تحته: «جزية ياهو ابن عمري. تلقيت منه فضة وذهبا، و... إلخ».

أما عن تسمية النص الآشوري لياهو بابن عمري رغم عدم انتمائه لسلالة عمري(*)، فيمكن تفسيره على ثلاثة وجوه: ١– فإما أن البلاط الآشوري لم يكن يعرف نسب الملك الجديد فاعتقد أنه من سلالة الملك عمري. ٢– وإما أن ياهو، الذي يدعوه نص سفر الملوك الثاني بياهو ابن نمشي، كان من نسل عمري فعلا ولكنه لم يكن من نسل آخاب، وأن أباه نمشي كان ابنا لعمري من زوجة ثانية. ٣– وإما أن تعبير عمري هنا لا يدل على شخص الملك عمري وإنما على إسرائيل التي تدعى في النصوص الآشورية بأرض عمري، وبالتالي فإن في قوله ابن عمري ما يشبه قولنا بالعربية ابن دمشق أو ابن حماة، وهذا التفسير الثالث هو الأكثر منطقية في رأينا.

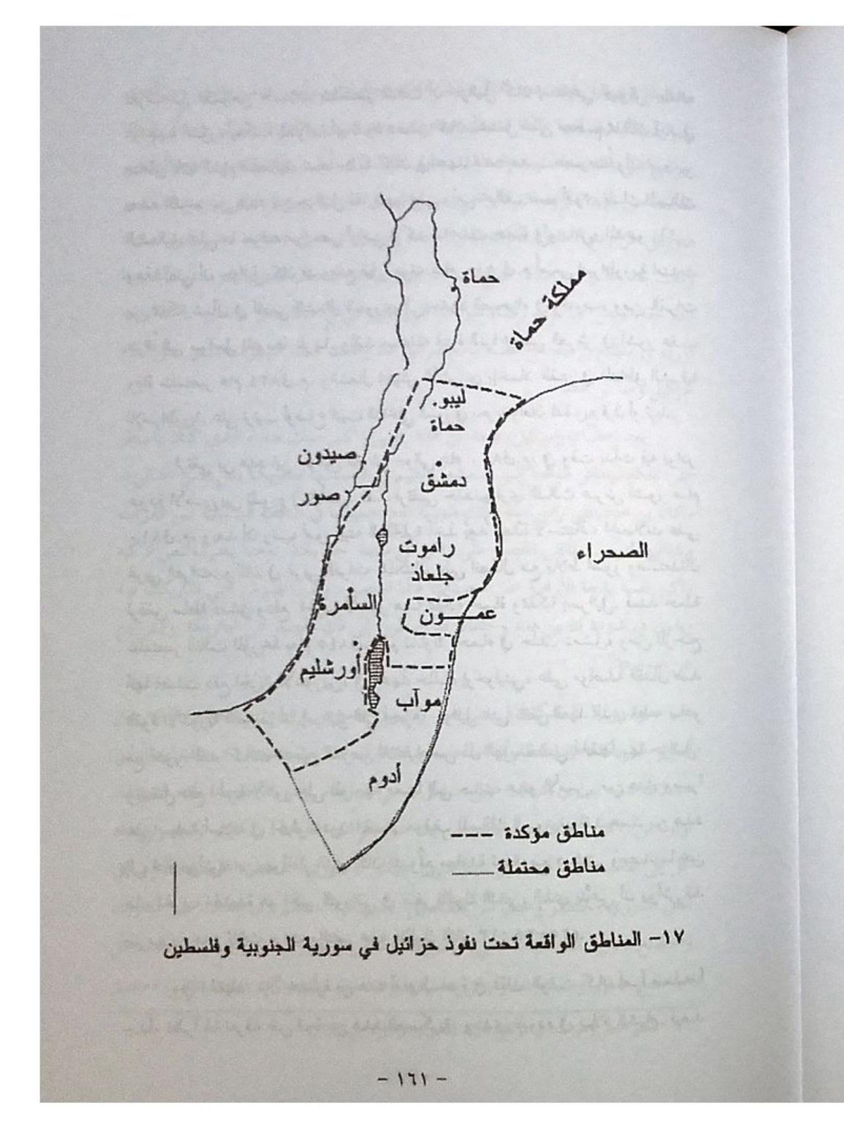
لا يذكر لنا محرر سفر الملوك الثاني شيئا عن العلاقات الإسرائيلية الآشورية، ولا عن قيام عمري بالتوجه إلى مقر شلمنصر الثالث وتأديته الجزية إليه، لأنه حتى هذه المرحلة من الرواية التوراتية عن أخبار السامرة، لم يكن قد سمع بقيام مملكة عظمى في وادي الرافدين اسمها آشور، ولم يكن يعرف بكل تلك الأحداث الجسام التي عصفت بالمنطقة السورية خلال القرن التاسع. لم تصله أخبار معركة قرقرة ولا مشاركة آخاب فيها، ولم يسمع بالملك العظيم هدد عدر ولا بكل تلك الأحلاف والحروب، ولا بدخول إسرائيل عالم السياسة الدولية منذ حلف قرقرة. ولكنه في مقابل جهله بكل ما كان يجري على الساحة السورية شمالا وجنوبا، فقد كانت في حوزته نتف متفرقة من أخبار حروب حزائيل ملك دمشق في فلسطين، وإخضاعه للسامرة أخيرا، ولقسم واسع من فلسطين الكبرى.

(*) لقد قتل ياهو يهورام ، وهو الابن الثاني لعمري والملك الرابع في السلالة التي أسست مملكة السامرة، ثم أمر بعد ذلك بقتل جميع أبناء آخاب من أخوة يهورام وعددهم سبعون أميرا، فأحضرت رؤوسهم في سلال إليه، الملوك الثاني ١٠: ١– ١١.

كان حزائيل قد انسحب من راموت جلعاد عام ٨٤١ ق.م لمواجهة شلمنصر عند جبل الحرمون، ثم شغلته المعارك التالية مع آشور حتى عام ٨٣٧ق.م. وعندما تأكد لديه عدم نية الآشوريين شن حملات جديدة على غرب الفرات، بدأ يضغط على مناطق التواجد الإسرائيلي في المناطق الشمالية من شرقي الأردن، حتى دفع بالقوات الإسرائيلية إلى ما وراء نهر الأردن. نقرأ في سفر الملوك الثاني: «ولكن ياهو لم يتحفظ للسلوك في شريعة الرب من كل قلبه. في تلك الأيام ابتدأ الرب يقص إسرائيل، فضربهم حزائيل في جميع تخوم إسرائيل، من الأردن لجهة مشرق الشمس، جميع أراضي جلعاد...إلخ». ١٠: ٢١-٣٣.

بعد وفاة ياهو انتقل الصراع إلى أراضي إسرائيل ذاتها، فقد عبر حزائيل الأردن وهزم يهوآحاز ابن ياهو في عدة معارك، ثم طارده إلى السامرة وأجبره على توقيع معاهدة مذلة. وهذا ما نستنتجه من الأخبار الغامضة في سفر الملوك الثاني، حيث نقرأ: «ثم مَلَكَ يهوآحاز ابن ياهو على إسرائيل في السامرة سبع عشرة سنة، وعمل الشر في عيني الرب... فحمي غضب الرب على إسرائيل فدفعهم ليد حزائيل ملك آرام، وليد بن هدد بن حزائيل كل الأيام... لأنه لم يبق ليهوآحاز شعباً إلا خمسين فارساً، وعشر مركبات، وعشرة آلاف فارس، لأن ملك آرام أفناهم ووضعهم كالتراب للدوس» ١٣: ١-٢٣. بعد إخضاع إسرائيل بسط حزائيل سلطته الكاملة على وادي يزرعيل، ثم خرج من الوادي نحو السهل الساحلي فأخضع مدنه وصولاً إلى الساحل الفليستي، حيث حطت قواته في مدينة جت. ثم انقلب نحو الداخل فأخضع مدن سهل شفلح صاعداً التلال المنخفضة نحو أورشليم، التي كانت في هذا الوقت من أواخر القرن التاسع قد بدأت بالازدهار. قبل أن يُلقي حزائيل حصاره على أورشليم، أعلن ملكها يهوآش خضوعه وأرسل الجزية إلى حزائيل. نقرأ في سفر الملوك الثاني: «حينئذ صعد حزائيل ملك آرام وحارب جت وأخذها، ثم حول وجهه ليصعد إلى أورشليم. فأخذ يهوآش ملك يهوذا كل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك، وأرسلها إلى حزائيل ملك آرام، فصعد حزائيل عن أورشليم» ١٢: ١٧-١٨.

وهكذا نجد أن منطقة وسط وجنوب سورية قد صارت بكاملها ضمن النفوذ الفعلي لمملكة دمشق في عصر حزائيل (انظر الخريطة في الشكل رقم ١٧). وبما أننا



١٧- المناطق الواقعة تحت نفوذ حزائيل في سورية الجنوبية وفلسطين

نعرف من نصوص حملات شلمنصر الثالث أن حزائيل كان يستدعي جيوش حلفائه لمواجهة آشور، يمكننا القول بأن نفوذ دمشق كان يشتمل على معظم ممالك آرام في مناطق بلاد الشام الشمالية، تماماً مثلما كان في عهد هدد عدر، خصوصاً وأن ابنه من بعده المدعو بن هدد بن حزائيل قد ظهر على رأس تحالف ضم أقوى تلك الممالك الشمالية، على ما نعرفه من نص آرامي تركه لنا ملك حماة ولوعاش، المدعو زاكير. وهذا يعني أن حزائيل كان قد وضع قبل موته عام ٨٠٠ ق.م أسس إمبراطورية امتدت من مملكة شمأل في أقصى الشمال السوري إلى حدود الصحراء في الجنوب، ومن الفرات شرقاً إلى سواحل المتوسط غرباً. ولقد ساعدته فترة النزاع على العرش في آشور عقب وفاة شلمنصر عام ٨٢٤ق.م، وانشغال الجيش الآشوري بإخماد الفتن في المناطق الشرقية للإمبراطورية، على ترتيب أوضاع البيت الداخلي السوري بحرية وأمان لمدة ربع قرن أو تزيد.

ارتقى بن هدد ابن حزائيل العرش حوالي عام ٨٠٠ق.م، في وقت بدأت فيه بوادر عودة الآشوريين تلوح في الأفق. فقد ارتقى حددنيراري الثالث عرش آشور عام ٨١٠ق.م، وبعد أن رتب أمور بيته الداخلية أخذ يُعِدُّ العدّة لاستئناف الحملات على غربي الفرات. وكان في غربي الفرات مملكتان على اتصال مع بلاط آشور ومستعدتان لرفض سلطة دمشق ودفع الجزية لآشور هما مملكة حماة ومملكة إسرائيل. فمنذ حملة شلمنصر الثالث المؤرخة بعام ٨٤٥ق.م لم تشارك حماه في حلف دمشق، ومن المرجح أنها فضلت دفع الجزية للآشوريين، في عهد خلفاء إرخوليني، على مواصلة القتال ضد القوة الآشورية الجبارة. أما إسرائيل التي أجبرها حزائيل على نقض العهد الذي قطعه ياهو مع آشور، فقد كانت تتحين الفرص للانتقام من ذل الهزيمة التي ألحقها بها حزائيل، وتفضل دفع الجزية لآشور على المواجهة معها إلى جانب عدو الأمس. من هنا، وسيراً على سياسة أسلافه في الحيلولة دون انقسام موقف الممالك السورية، فقد عمد بن هدد إلى قتال يوآش، ابن يهوآحاز الذي كان قد وقّع معاهدة تبعية مع دمشق. ومصدرنا عن هذه الحرب الجديدة هو الخبر التوراتي في سفر الملوك الثاني، الذي يدَّعي أن يوآش قد ضرب بن هدد ثلاث مرات وانتصر عليه (الملوك الثاني١٣: ٢٤-٢٥).

وفي الحقيقة، فإنَّ خسارة بن هدد أمام السامرة في ذلك الوقت كان أمراً مستبعداً جداً، نظراً لما نعرفه عن قوة بن هدد العسكرية، ومدى نفوذه في بلاد الشام. فبعد

محاربته لإسرائيل نجده يتجه لقتال زاكير ملك حماة على رأس حلف مؤلف من أقوى الممالك الآرامية، بينها مملكة شمأل، والعمق، وجوشي. ويكفي أن نذكر هنا أن مملكة جوشي التي قاتلت تحت إمرة ملك دمشق، كانت تبسط سيطرتها على كل الأراضي الممتدة من نهر الفرات شرقا وحتى سهل العمق غربا. من هنا، فإني أرجح أن الخبر التوراتي عن ربح السامرة لثلاث معارك ضد دمشق، في حال صحته، يشير إلى معارك وقعت بعد عصر بن هدد، عندما بدأت قوة دمشق تضعف نتيجة الضربات الآشورية المتلاحقة. ولعل مما يؤيد رأينا، هو أن المحرر التوراتي في هذا الخبر يناقض ما كان قد أورده في مطلع الإصحاح نفسه بأن إسرائيل قد وقعت تحت سيطرة دمشق كل أيام حزائيل وابنه بن هدد .

بعد إخضاعه إسرائيل، صعد بن هدد على زاكير ملك حماة الذي كان يسيطر على مملكة لوعاش الواقعة إلى شماليه، ويقيم في عاصمتها حاتريكا (تل أفس الحالي). وكان بن هدد على رأس ستة ممالك سورية تقع جميعها في المنطقة الشمالية بين الفرات وشاطئ المتوسط، فألقى الحصار على زاكير في مدينة حاتريكا . وهنا يخبرنا نص تركه زاكير نفسه باللغة الآرامية عن مجريات هذا الحصار، وعن الجيوش التي شاركت فيه ويقول في النهاية إن بن هدد وحلفاءه قد اضطروا إلى فك الحصار عن حاتريكا والتراجع عن أسوارها[٩١].

ونحن إذ لا نشكك في خبر نص زاكير بخصوص تراجع بن هدد وحلفائه عن أسوار حاتريكا ، فإننا نعتقد أن انسحاب بن هدد قد جاء بعد سماعه بخبر اقتراب أولى حملات هدد نيراري الثالث على مناطق غربي الفرات. ومن المرجح أن المتحالفين قد تولوا عن زاكير واصطدموا بالآشوريين بعد عبورهم لنهر الفرات، ولكنهم تراجعوا وعاد كل إلى عاصمته بعد أن ظهر لهم تفوق الجيش الآشوري. أما بقية القصة فنقرؤها في نص آشوري مختصر وخال من التفاصيل، يقول فيه حددنيراري إنه قد عبر الفرات وأخضع سورية الشمالية (حاتي) وسورية الوسطى (آمورو)، ثم توجه نحو الساحل فأخضع صور وصيدون، وأرض عمري، وفليستيا، وأدوم، ثم صعد على دمشق

٩١ – انظر النص ومراجعه في مؤلفي »آرام دمشق وإسرائيل« ص٢٣٢.

وأفتتحها، وتلقى في قصر بن هدد جزية دمشق(٩٢). وكانت هذه هي المرة الأولى التي تدفع فيها دمشق الجزية لآشور منذ بداية الحملات المنظمة الآشورية على بلاد الشام. وبذلك ابتدأ العد التنازلي لسقوط دمشق، ولسقوط إسرائيل أيضا التي اعتقدت أنها تستطيع النجاة من مطرقة آشور إذا خذلت دمشق.

يبدو أن بن هدد قد توفي قبل عام ٧٧٣ق.م، لأننا نعرف من وثيقة آشورية عثر عليها في موقع كارشلمنصر (*)، مقر الحاكم الآشوري على مناطق الفرات وبلاد الشام، أن دمشق قد تمردت في عام ٧٧٣ق.م، وكان على عرشها في ذلك الوقت ملك يدعى حديانو . وقد قام عامل الآشوريين في كارشلمنصر، المدعو شمسي إيلو ، بقمع التمرد. وفي عام ٧٤٢ق.م يرد في السجلات الآشورية ذكر ملك اسمه رحيانو ، الذي نرجح أنه قد ولي حديانو على عرش دمشق حوالي عام ٧٥٠ق.م. وبناء على ذلك نستطيع كتابة ثبت بملوك آرام دمشق منذ ابتداء ظهور أخبارها في السجلات الآشورية، وفق ما يلي:

هدد عدر	٨٦٠ - ٨٤٢ ق.م
حزائيل	٨٤٤ - ٨٠٠ ق.م
بن هدد	٨٠٠ - ٧٧٣ ق.م
حديانو	٧٧٣ - ٧٥٠ ق.م
رحيانو	٧٥٠ - ٧٣٢ ق.م

أما ثبت ملوك إسرائيل فيعطينا لائحة أطول من هذه بكثير، وذلك ابتداء من الملك عمري الذي عاصر خلال النصف الثاني من فترة حكمه هدد عدر . ويرجع طول لائحة ملوك إسرائيل إلى كثرة الانقلابات السياسية وقصر فترات حكم الأسر المتعاقبة. وإليكم ثبت ملوك إسرائيل وفق المعلومات المستمدة من سفر الملوك الأول وسفر الملوك الثاني في النص التوراتي:

---

٩٢ - انظر النص وتحليلاته في مؤلفي «آرام دمشق وإسرائيل»، ص٢٣٣ وما بعدها.

(*) كارشلمنصر هو الاسم الآشوري لمدينة تل برسيب الآرامية عاصمة بيت عديني. وقد غير اسمها الملك شلمنصر الثالث بعد أن ألحق بيت عديني باشور.

أسرة عُمري:

عُمري	٨٨٥ - ٨٧٤ ق.م
آخاب	٨٧٤ - ٨٥٣ ق.م
أحزيا	٨٥٣ - ٨٥٢ ق.م
يورام	٨٥٢ - ٨٤١ ق.م

ياهو يقتل يورام

أسرة ياهو

ياهو ٨٤١ - ٨١٤ ق.م

يهو آحاز ٨١٤ - ٧٩٨ ق.م

يربعام ٧٩٨ - ٧٥٣ ق.م

زكريا ٧٣ - ٧٥٢

شالوم يقتل زكريا

عهد شالوم

شالوم ٧٥٢ ق.م

مناحيم يقتل شالوم

أسرة مناحيم

مناحيم ٧٥٢ - ٧٤٢ ق.م

فقحيا ٧٤٢ - ٧٤٠ ق.م

فَقح يقتل فقحيا

عهد فَقح

فقح ٧٤٠ - ٧٣٢ ق.م

هوشع يقتل فقح

عهد هوشع

هوشع ٧٣٢ - ٧٢١ ق.م

دمار السامرة

ونهاية مملكة إسرائيل

نأتي الآن إلى خاتمة هذه الفترة الحافلة، وهي الخاتمة التي شهدت نهاية كل من دمشق وإسرائيل، حيث تم إلحاق دمشق بالتاج الآشوري، وتدمير السامرة وسبي أهلها إلى آشور.

في عام ٧٤٥ ق.م، ارتقى عرش آشور الملك تغلات فلاصر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ق.م)، الذي وطد دعائم إمبراطورية مترامية الأطراف دامت بعده قرابة قرن كامل، وامتدت من إيران ضمناً في الشرق إلى مصر ضمنا في الغرب، ومن آسيا الصغرى ضمناً في الشمال إلى أواسط شبه الجزيرة العربية في الجنوب. فبعد أن كانت سياسة ضم الأراضي المقهورة بالقوة وحكمها بواسطة ولاة آشوريين، تمارس على نطاق ضيق منذ عهد شلمنصر ، فقد جعلها تغلات فلاصر ركيزة من ركائز حكمه وبسط سلطانه. كما أنه أسس لسياسة الترحيل المنظم للشعوب المغلوبة، وإحلال جماعات محلها يتم اختيارها من شعوب مغلوبة أخرى. وبذلك تمكنت آشور أخيراً من حكم المناطق الثائرة بعد أن أفقدتها تكوينها السياسي وتجانسها الإثني. وقد غيرت سياسة الترحيل الآشورية الخارطة الديمغرافية للشرق القديم بكامله، بعد أن طالت أكثر من ١٠٠ شعب وفق معلومات السجلات الآشورية ذاتها.

في حملاته الاستعراضية الأولى، أجبر تغلات فلاصر جميع ممالك بلاد الشام الداخلية والساحلية عن دفع الجزية لآشور. من ضمن هذه الممالك دمشق وإسرائيل، إضافة إلى يهوذا التي يردُ ذكرها لأول مرة في السجلات الآشورية. نقرأ عن نتائج إحدى هذه الحملات ما يلي: «تلقيت جزية خاشتاشبي ملك قوماجين، وأوريك ملك قوية، وسيبيتي بعل ملك جبيل، وإنليل ملك حماه، وبنامو ملك شمال... ومتان بعل ملك أرواد، وسابينو بعل ملك بيت عمون، وسلمانو ملك مؤاب، وميتيني ملك أشقلون، وآحاز ملك يهوذا، وكوش ماليكو ملك أدوم، وهانو ملك غزة»[1]. ونقرأ في نص آخر: «تلقيت الجزية من رحيانو ملك دمشق، ومن مناحيم ملك السامرة، ومن حيرام ملك صور، ومن سيبيتي بعل ملك جبيل، ومن أوريك ملك قوية، ومن بيسيريس ملك كركميش، ومن إنليل ملك حماه، ومن بنامو ملك شمال.... ومن زبيبة ملكة العرب»[2].

1 - Leo Oppenheim, op. cit, P. 282.

2 - op. cit, P.283.

بعد هذه الحملات الاستعراضية، يبدأ تغلات فلاصر بتطبيق سياسة ضم الأراضي على نطاق واسع. نقرأ في نص مفصل للعاهل الآشوري ما يلي: «... مدن حاتريكا وكل الأراضي إلى جبل سوا، ومدن جبيل، وسيميرا، وعرقاتا، وأوزنو، وعربا... مدن البحر الأعلى، جميعها بسطت نفوذي عليها ووضعت قواداً من عندي لحكمها. وكذلك مدن... غالزا، وآبي ليكا. المتاخمة لأراضي عمري، وأرض... الواسعة بكاملها وحدتها مع مملكة آشور. أما هانو ملك غزة الذي هرب أمام قواتي والتجأ إلى مصر، فقد قهرت مدينته واستوليت على ممتلكاته وعلى صور آلهته، وأقمت صور آلهتي وصوري في قصره فأعلنتها آلهة للبلاد، ثم فرضت على أهلها الجزية. وأما مناحيم (ملك السامرة) فقد انقضضت عليه كعاصفة ثلجية، فهرب من أمامي وحيداً كالعصفور، ثم عاد وسجد عند قدمي، فأعدته إلى قصره وفرضت عليه الجزية فضة وذهباً وعباءات حريرية مزركشة»[1]. نلاحظ من هذا النص أن تغلات فلاصر قد أبقى على استقلال كل من غزة والسامرة، رغم إلحاقه بآشور بقية الممالك المذكورة في النص.

هذا ويتقاطع النص التوراتي هنا مع نصوص تغلات فلاصر الثالث في عدد من النقاط، ويختلف عنها في نقاط أخرى، فمناحيم قد استولى على السلطة في السامرة عام ٧٥٢، بعد قتله شالوم الذي كان قد قتل زكريا آخر ملوك أسرة ياهو وحكم مدة شهر واحد فقط. نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٥: «...وصعد مناحيم بن جادي من ترصة وجاء إلى السامرة وضرب شلوم بن يابيش فقتله وملك عوضاً عنه... ملك مناحيم بن جادي على إسرائيل في السامرة عشر سنين، وعمل الشر في عيني الرب، فجاء فول ملك آشور على الأرض، فأعطى مناحيم لفول ألف وزنة من الفضة... فرجع ملك آشور ولم يقم في الأرض» ١٥: ١٤-٣٠، نلاحظ من هذا الخبر التوراتي أن المحرر قد أغفل هروب مناحيم ثم عودته، وأنه قد دعا ملك أشور بالاسم فول، وهذا الاسم غير معروف في ثبت ملوك آشور، لا في هذه المرحلة التاريخية ولا في ما سواها من المراحل السابقة واللاحقة.

بعد ضياع ما يمكن للسامرة ودمشق أن تتنازعا عليه، وتوقعهما لحملة جديدة تلحقهما بآشور، قررت دمشق نقض عهد آشور والتوقف عن دفع الجزية، وإحياء سياسة التحالف السوري. ويبدو أن الملك رحيانو ، الذي بدأ اسمه يظهر في سفر الملوك الثاني

1- Leo Oppenheim, op. cit, P.283.

تحت اسم «رصين»(*)، قد حاول استمالة كل من السامرة و أورشليم إلى جانبه. فوافقت السامرة بينما رفضت أورشليم . فقد كانت مملكة يهوذا الناشئة حديثا في ذلك الوقت تستفيد من الانهيار التام للبنى السياسية من حولها، وتثرى على حساب الدمار المنتشر في المنطقة. وبما أن نصوص تغلات فلاصر الثالث لم تشر إلى أية مواجهة مسلحة مع يهوذا، خلال جميع حملاته على سورية الجنوبية وفلسطين، فإن من المؤكد أن ملوك أورشليم قد التزموا سياسة التبعية والعمالة لآشور على حساب جيرانهم، وهي السياسة التي ستفلح في إبقاء يهوذا مستقلة لأكثر من قرن قادم. من هنا، فقد قرر رحيانو مهاجمة أورشليم بمساعدة إسرائيل من أجل إسقاط ملكها آحاز ، وتعيين ملك عليها من المتعاونين معه اسمه ابن طبئيل . وكان ملك إسرائيل في ذلك الوقت هو فقح ، الذي قتل فقحيا ابن مناحيم وحكم بدلا عنه. ولعل مما ساعد رحيانو ملك دمشق على اتخاذ هذه الخطوة انشغال تغلات فلاصر عن مشاكل غربي الفرات بحروبه في المناطق الشرقية للإمبراطورية. ومعلوماتنا عن حملة دمشق والسامرة على أورشليم تستند إلى النص التوراتي.

نقرأ في سفر أشعيا ٧ : «وحدث في أيام آحاز بن يوثام ملك يهوذا، أن رصين ملك آرام صعد مع فقح ملك إسرائيل إلى أورشليم لمحاربتها، فلم يقدر على محاربتها. وأخبر بيت داود (أي ملك أورشليم) وقيل له: قد حلت آرام في أفرايم (أي إسرائيل)، فرجف قلبه وقلوب شعبه كرجفان شجر الوعر قدام الريح. فقال الرب لأشعيا: أخرج لملاقاة آحاز وقل له.... لأن آرام تآمرت عليك بشر مع أفرايم قائلة: نصعد على يهوذا ونقوضها ونستفتحها ونملك في وسطها ملكا هو ابن طبئيل. هكذا يقول السيد الرب...إلخ» ٧: ١-٧. ونقرأ في سفر الملوك الثاني ١٦: «كان آحاز ابن عشرين سنة حين ملك، وملك ست عشرة سنة في أورشليم، ولم يعمل المستقيم في عيني الرب إلهه، بل سار في طريق ملوك إسرائيل، حتى أنه عبر ابنه في النار حسب أرجاس الأمم، وذبح وأوقد على المرتفعات وتحت كل شجرة خضراء. حينئذ صعد رصين ملك آرام وفقح بن رمليا ملك إسرائيل إلى أورشليم للمحاربة، فحاصروا آحاز ولم يقدروا أن يغلبوه... وأرسل آحاز رسلا إلى تغلت فلاسر ملك آشور قائلا: أنا عبدك وابنك، اصعد خلصني

(*) من الممكن أن اسم رحيانو الوارد في السجلات الآشورية، هو في الآرامية رحين ، وبناء عليه يمكن أن المحرر التوراتي قد أبدل الحاء صادا.

من يد ملك آرام ومن يد ملك إسرائيل القائمين علي. فأخذ آحاز الفضة والذهب الموجود في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك آشور هدية، فسمع له ملك آشور وصعد إلى دمشق وأخذها وسباها إلى قير، وقتل رصين. وسار الملك آحاز إلى دمشق للقاء تغلت فلاسر ملك آشور» ١٦ : ١-١٠.

بصرف النظر عن سذاجة هذه الفقرة من سفر الملوك الثاني، التي تجعل ملك آشور يقبل الرشوة من آحاز ملك يهوذا فيأتي لمساعدته، فإن سجلات تغلات فلاصر تعطينا فكرة تقريبية عن الأحداث التي أدت إلى نهاية دمشق وتحجيم السامرة استعدادا لإنهائها بعد ذلك بفترة قصيرة. فبعد تمرد دمشق والسامرة وامتناعهما عن دفع الجزية، استعد تغلات فلاصر لشن حملات جديدة على سورية الجنوبية. ولربما ساعده على التبكير في هذه الحملة ما وصله من أخبار عن حصار أورشليم من قبل المملكتين المتمردتين، فخشي من انتشار التمرد إذا سقطت أورشليم، باعتبارها العميل الرئيسي لآشور في سورية الجنوبية.

عندما طال حصار أورشليم، ووصلت أخبار عبور تغلات فلاصر لنهر الفرات، اضطر المتحالفان إلى فك الحصار والعودة كل إلى عاصمته للدفاع عنها. وصل شلمنصر إلى المنطقة وتوجه نحو السامرة، فاستولى على المناطق الواقعة تحت نفوذها إلى الشمال من شرقي الأردن، والجليل، ووادي يزرعيل، فألحقها بالتاج الآشوري وسبى أهلها. بعد ذلك حاصر السامرة حصارا شديدا، وأبلغ أهلها أنه لا ينوي سوى خلع الملك المتمرد فقح، فثار أهل المدينة على ملكهم وخلعوه، ثم فتحوا الأبواب لتغلات فلاصر الذي دخل المدينة سلما، وعين عليها ملكا جديدا اسمه هوشع. هذا هو تفسيري للشذرة الباقية من نص لتغلات فلاصر يقول فيها: «... ومن أرض عمري استوليت على ..... وسقت سكانها وممتلكاتها إلى آشور، ثم ثاروا على ملكهم بيقحا (=فقح)، فجعلت عليهم المدعو أوشي (=هوشع) ملكا، وتلقيت منهم جزية مقدارها...إلخ»[96]. ومن المرجح أن هذه الحملة على إسرائيل قد جاءت في سياق حملة عامة على فلسطين جرت حوالي عام ٧٣٤ ق.م. هذا ونقرأ في سفر الملوك الثاني خبرا مماثلا : «في أيام فقح ملك إسرائيل، جاء تغلت فلاسر وأخذ عيون، وآبل بيت معكة، وينوح، وقادش، وحاصور، وجلعاد،

96 - Leo Openheim, op. cit, P. 283

والجليل، وكل أرض نفتالي، وسباهم إلى آشور. وفَتَنَ هوشع بن إيلة على فقح بن مليا، وضربه فقتله، وملك عوضاً عنه» ١٥: ٢٩ - ٣٠.

أما عن فتح دمشق وسبي أهلها، فإن القارئ للفقرة التي اقتبسناها من سفر الملوك الثاني ١٦: ١-١٠، ليعتقد بأن تغلات فلاصر قد توجه بعد استسلام السامرة إلى دمشق مباشرة فافتتحها وقتل ملكها. ولكننا نعرف من شذرات نصوص آشورية أن عامين من القتال قد سبقا استسلام دمشق. فقد شن تغلات فلاصر حملتين على دمشق يمكن تأريخهما في الأعوام ٧٣٣ و٧٣٢ ق.م. في حملة عام ٧٣٣ ق.م، لم يتمكن تغلات فلاصر من فتح دمشق وإنما اكتفى بفتح مدينة حدرا القريبة (عدرا الحالية)، والتي يصفها النص بأنها مسقط رأس رحيانو، كما دمّر وأحرق عدداً كبيراً من المدن والبلدات في أراضي مملكة أميريشو الكبرى[1]. وفي حملة عام ٧٣٢ ق.م أفلح الآشوريون أخيراً في القضاء على دمشق وإلحاقها مع جميع أراضي مملكتها بالتاج الآشوري، على ما نفهم من ثلاث شذرات لرقيم مكسور ثم ترميمه وقراءته من قبل الباحث Tadmor عام ١٩٦٢[2]. وبذلك تم اختتام آخر فصول الصراع بين هاتين القوتين العظميين، بعد حوالي قرن ونصف من المجابهة الدامية بينهما.

لم تتأخر السامرة كثيراً عن اللحاق بدمشق. ففي عهد شلمنصر الخامس، ابن تغلات فلاصر، الذي حكم فترة قصيرة فيما بين ٧٢٦ و٧٢٢ ق.م، امتنعت بعض الممالك السورية عن أداء الجزية لآشور مجدداً، الأمر الذي شجع هوشع ملك إسرائيل على اتخاذ الموقف نفسه، خصوصاً وأن مراسلات كانت تجري بينه وبين ملك مصر، وكان المصريون يحضونه فيها على خلع طاعة آشور ويعدونه بالمساعدة، على ما يورده خبر سفر الملوك الثاني في الإصحاح ١٧ : ٤. ولكن صارغون الثاني الذي ولي عرش آشور بعد شلمنصر الخامس، ما لبث أن شن حملة على الممالك السورية المتمردة، وبينها مملكة حماة التي فقدت استقلالها بدورها وتم سبي قسم كبير من سكانها إلى آشور[3]. بعد تصفيته لمملكة حماة التي كانت على رأس المتمردين، توجه صارغون إلى السامرة

١ - راجع النص في مؤلفي آرام دمشق وإسرائيل ص ٢٤٦.

٢ - راجع النص في مؤلفي آرام دمشق وإسرائيل ص٢٤٧.

٣ - راجع النص في مؤلفي آرام دمشق وإسرائيل ص ٢٤٨.

فحاصرها وافتتحها وألحقها بالتاج الآشوري، وذلك في عام ٧٢١ ق.م. نقرأ في نص لصارغون عن فتح السامرة ما يلي: «لقد حاصرت السامرة وفتحتها، وسبيت ٢٧٢٩٠ فرد من سكانها، فجهزت من بينهم فصيلة من خمسين عربة ألحقتها بفيلقي الملكي. أما المدينة، فقد أعدت بناءها فصارت أفضل مما كانت عليه، وأسكنت فيها شعوبا من المناطق الأخرى التي قهرتها، ثم أقمت عليهم حاكما من ضباطي وفرضت عليهم ضريبة المواطنين الآشوريين»[100].

وفي سفر الملوك الثاني ١٧، نقرأ خبرا مشابها عن فتح السامرة، ولكن المحرر يعزو ذلك للملك شلمنصر سلف صارغون: «... ملك هوشع بن إيلة في السامرة على إسرائيل تسع سنين، وعمل الشر في عيني الرب. فصعد عليه شلمنصر ملك آشور، فصار هوشع له عبدا، ودفع له الجزية. ووجد ملك آشور في هوشع خيانة لأنه أرسل رسلا إلى سوا ملك مصر، ولم يؤد الجزية لآشور حسب كل سنة. فقبض عليه ملك آشور وأوثقه في السجن. وصعد ملك آشور على كل الأرض، وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين. في السنة التاسعة لهوشع، أخذ ملك آشور السامرة وسبى أهل إسرائيل إلى آشور، وأسكنهم في حلح وخابور ونهر جوزان وفي مدن مادي»: ١٧: ١-٦. إن غياب اسم صارغون من هذا الخبر التوراتي ليدل مرة أخرى على أن محرر سفر الملوك الثاني لم يكن بين يديه إلا نتفا وأخبارا متفرقة عن تلك الفترة، وغير مترابطة. فهو لم يسمع بصارغون، الذي كان إمبراطورا على المشرق بكامله ووصلت غزواته إلى قبرص والجزر اليونانية، ولم يخصه بخبر واحد لا في هذا الموضع من سفر الملوك الثاني، ولا في غيره[*]. وفي الحقيقة، فإنه لا يوجد لدينا موجب لترجيح الخبر التوراتي على الخبر الآشوري بخصوص شخصية فاتح السامرة، لأن صارغون يتفاخر في نص آخر بفتحه للسامرة عندما يقول: أنا صارغون قاهر السامرة، وجميع بلاد عمري، الذي غنم أشدود...إلخ، الذي قهر مصر في رفح، الذي أسر هانو ملك غزة...إلخ».[101]

100- Leo Oppenheim, op. cit, p. 284.

(*) ورد ذكر صارغون بصورة عابرة في سفر أشعيا ٢٠: ١، حيث نقرأ: «في سنة مجيء ترتان إلى أشدود، حين أرسله سرجون ملك آشور، فحارب أشدود، وأخذها. في ذلك الوقت تكلم الرب عن يد أشعيا قائلا...إلخ».

101- Ibid, p.284.

إن من يقرأ عن نهاية السامرة في الخبر التوراتي الذي اقتبسناه أعلاه، وفي الأخبار المتفرقة الأخرى عن سبي أسباط إسرائيل العشرة وضياعها إلى الأبد في مناطق الإمبراطورية الآشورية الشرقية، ليظن بأن منطقة إسرائيل قد أُفرغت من سكانها وحل محلهم شراذم من شعوب شتى لم تشكل نسيجاً واحداً، ولم يجمعهم كيان سياسي منظم. إلا أن قراءة نصوص صارغون تحطم الصورة الرومانسية عن أسباط إسرائيل الضالة، فهذه الأسباط لم يكن لها وجود ولم يتم سبيها إلى آشور. إن رقم المسبيين الذي أورده صارغون في نصه الذي اقتبسناه أعلاه، وأعاد توكيده بحرفيّته في نص آخر له[1]، هو ٢٧٢٩٠ نسمة، هم من سكان السامرة تحديداً على ما ورد في النص. وهذا يعني أن بقية سكان إسرائيل قد بقوا في مدنهم وقراهم ومزارعهم يتابعون حياتهم العادية، بينما تم إسكان جماعات من الشعوب المغلوبة الأخرى في مدينة السامرة التي أولاها صارغون عناية خاصة وأعاد بناءها وترميمها، وأعطى أهلها وأهل بقية مناطقها التابعة الآشورية، وأعاد تنظيمها السياسي لتغدو مقاطعة آشورية يحكمها والٍ معين عليها من البلاط الآشوري.

إن خلاصة ما يمكن قوله بخصوص مملكة إسرائيل هو أنها نشأت كمملكة فلسطينية كنعانية في سياق عصر الحديد الثاني، وأن سكانها هم فلسطينيون محليون لا علاقة لهم بالأسباط المدعوة بأسباط بني إسرائيل. أما الأراضي التي شغلتها هذه المملكة فهي منطقة الهضاب المركزية تحديداً، ولكنها توسعت على شكل مدٍّ استعماري نحو الشمال والشرق، كان يزداد أو يتقلص تبعاً لقوة ملوكها وعلاقاتهم مع الممالك المجاورة، وخصوصاً مملكة آرام دمشق التي تنازعت معها النفوذ على مناطق شرقي الأردن ووادي يزرعيل. عاشت هذه المملكة قرابة قرن ونصف ثم تحولت إلى مقاطعة آشورية، ثم إلى مقاطعة بابلية، ففارسية فهيلينستية، على ما سنراه في الفصول القادمة.

1- Leo Oppenheim, op. cit, p285.

الفصل العاشر

مملكة يهوذا الكنعانية

في نهاية عصر الحديد الأول (١٠٠٠ق.م)، عندما كانت منطقة الهضاب المركزية قد امتلأت بما لا يقل عن ٢٠٠ قرية جديدة، كانت مرتفعات يهوذا خالية تقريباً. وفيما عدا بضعة مستقرات زراعية لا تزيد كثيراً عن أصابع اليدين، فإن المنطقة كانت موئلاً للجماعات الرعوية التي جاءتها من البوادي الشرقية والجنوبية، والتي كانت تتنقل بقطعانها طلباً للمرعى. وعندما بدأ خط الجفاف بالتراجع نحو الجنوب بعد أن صعد إلى مسافة قصيرة من أورشليم خلال فترة الجفاف الميسيني، أخذت زراعة الزيتون بالانتعاش مع مطلع القرن العاشر، وازداد عدد المستقرات الزراعية إلى ٣٤ قرية لم يتجاوز عدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة في أفضل الأحوال[1]. وفي هذا الوقت باشرت مدينة لخيش، أقوى مدن سهل شفلح، بتوسيع مناطقها الزراعية باتجاه مرتفعات يهوذا، من أجل تلبية الطلب على المنتجات المتوسطية، وخصوصاً زيت الزيتون، بعد عودة النشاط إلى الطرق التجارية الدولية. وهذا ما ساعد على زيادة عدد القرى الزراعية في منطقة يهوذا، والتي راح أهلها يجهزون المدرجات المنبسطة الصالحة لزراعة الكرمة والزيتون والثمار المتوسطية الأخرى. كما عملت سلطات لخيش على تشجيع الرعاة المتنقلين على الاستقرار والتحول إلى حياة الزراعة (تومبسون ١٩٩٩، ص١٦٧). نحو أواخر القرن العاشر، يبدو أن أورشليم قد

١ – إضافة إلى ما أوردناه سابقاً من معلومات أركيولوجية حديثة حول هذا الموضوع، انظر الورقة التي قدمها الآثاري الإسرائيلي Gunar Lehman، من جامعة بن غوريون إلى مؤتمر الأدبيات التوراتية في كنساس سيتي عام ١٩٩٩، والتي يذكر فيها أنه حتى نهايات عصر الحديد الأول لم تحتو منطقة يهوذا إلا على ١٨ مستوطنة زراعية. أما مدينة حبرون في الجنوب فكانت مدينة ميتة وشبه مهجورة. للإطلاع على المزيد راجع:
Biblical Archaeology Review, March-April 1999. P.41.

دبت فيها الحياة، وأخذت بالتحول إلى مركز إداري صغير. ولكن الدلائل مفقودة على وجود سكن مكثف في الموقع.

يقول عالم الآثار الإسرائيلي إ. فنكلشتاين في كتابه: The Bible Unearthed، الصادر عام ٢٠٠١:

«إن صورة أورشليم في زمن داود وابنه سليمان قد تلونت عبر العصور بظلال رومانسية وأسطورية. وقد ساعد الحجاج الوافدون، والصليبيون، وأصحاب الرؤى من كل نوع، على ذيوع القصص الخرافية عن عظمة مدينة داود ومعبد سليمان. من هنا، لا عجب إذا طرحت عملية البحث عن بقايا هيكل سليمان نفسها على أولويات علم الآثار التوراتي خلال القرن التاسع عشر. على أن تلك العملية لم تكن بالسهلة، وبالكاد مثمرة، نظراً لطبيعة الموقع. .. لقد جرى التنقيب مراراً وتكراراً في موقع أورشليم القديمة، وخلال الحملات التنقيبية المكثفة التي جرت في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، بإشراف Yigal Shiloh من الجامعة العبرية، تم البحث في مدينة داود المركز السكني الأصلي لأورشليم القديمة، عن البقايا الأثرية لعصر البرونز وعصر الحديد. ولكن المدهش، على ما يقول ديفد أوسيشكين الآثاري والأستاذ في جامعة تل أبيب، أن العمل الميداني لم يوفق في العثور على دلائل حياة سكنية خلال القرن العاشر، لا في هذه المنطقة ولا في غيرها من أورشليم التوراتية. إن غياب الدلائل على وجود الحياة السكنية هنا لا يقتصر على فقدان البُنى المعمارية الضخمة، بل يتعدى ذلك إلى فقدان الكسرات الفخارية التي تميَّز بها القرن العاشر في بقية المواقع. يقول بعض الباحثين بأن النشاطات المعمارية اللاحقة في الموقع قد محت آثار أبنية القرن العاشر، ولكن ماذا عن الكسرات الفخارية؟ لقد عثرت الحملات التنقيبية على فيض من لقى الكسرات الفخارية في المستويات الآثارية لعصر البرونز الوسيط وعصر الحديد المتأخر، ولكن لا شيء من القرن العاشر. من هنا فإن التفسير الأكثر تفاؤلاً لهذه الظاهرة يذهب إلى القول بأن أورشليم القرن العاشر كانت مقراً سكنياً متواضعاً جداً لا يمكن تصنيفه إلا كقرية هضبية اعتيادية.

«هذه الحالة المتواضعة التي كانت عليها أورشليم تتناسب إلى حد كبير مع الوضع السكاني العام في بقية مناطق يهوذا خلال الفترة نفسها، والتي لم يزد فيها عدد القرى

عن عشرين قرية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها مجتمعة بضعة آلاف نسمة، غالبيتهم من الرعاة المتنقلين. من هنا، فإن الاحتمال ضعيف جداً في أن تكون قرية أورشليم الصغيرة هذه، ومن ورائها إقليم يهوذا الخالي تقريباً من السكان، قد صارت مركزاً لإمبراطورية امتدت من البحر الأحمر في الجنوب إلى العمق السوري في الشمال. ولكن هل من المستبعد أن يفلح ملك مقتدر، هنا، في تجهيز العدد والعدة من أجل اكتساب هذه المساحة الواسعة من الأرض والمحافظة عليها؟ إن جواب علم الآثار على مثل هذا التساؤل هو أنه لم يعثر على دلائل تشير إلى ثروة في المنطقة أو طاقة بشرية. أو مستوى من التنظيم، مما هو ضروري لتجهيز وإعالة جيش كبير في الميدان، حتى ولو لفترة قصيرة ومحدودة من الزمن. وحتى لو فرضنا جدلاً بأن أهل يهوذا القليلي العدد قد استطاعوا القيام بغزوات سريعة على الأقاليم المجاورة، فكيف كان بإمكانهم إدارة أصقاع إمبراطورية طموحة مثل تلك المعزوّة لسليمان ابن داود؟» (1)

بعد هذا المقطع المطول الذي اقتبسناه عن فلنكشتاين، نعود إلى القول إنه في سياق القرن التاسع فقط (وهو القرن الذي شهد صعود مملكة دمشق. ومملكة السامرة، وازدهار مدن سهل شفلح والسهل الفليستي، وتشكُّل ممالك عمون ومؤاب وأدوم) تحولت أورشليم إلى مدينة مسكونة على نطاق يُعتد به، كما بلغت حركة الاستيطان ذروتها في منطقة مرتفعات يهوذا، حيث تم تنظيف معظم الأراضي من الأحراش البرية وجرى تحويلها إلى مدرجات زراعية، وكانت منتجاتها تُدفع إلى الأسواق المحلية في كل من أورشليم وحبرون ولخيش. ثم دخلت هذه المدن الثلاث في تنافس من أجل السيطرة على مرتفعات يهوذا التي لم تكن قد خضعت بعد إلى سلطة مركزية (تومبسون ١٩٩٩ ص١٦٣، و١٩٩٢ ص٣٣٢-٣٣٣)، ورغم أننا لا نملك من الوثائق التاريخية ما يمكّننا من رسم صورة واضحة عن هذه المرحلة، إلا أنه من المؤكد أن أورشليم قد أفلحت حوالي عام ٧٥٠ ق.م في بسط سلطتها على كامل يهوذا وصولاً إلى بئر السبع في الجنوب، وألغت استقلال مدينة حبرون. وبذلك تحول أمراء أورشليم إلى ملوك وظهر اسم مملكة يهوذا لأول مرة في السجلات الآشورية، وكذلك اسم ملكها آحاز، بين الممالك التي دفعت الجزية إلى تغلات فلاصر الثالث، كما ورد معنا في الفصل السابق.

1 - I. Finkelstein and N. A. Silberman, The Bible Unearthed PP.132ff.

في أواخر القرن الثامن، إذن، تتقاطع الرواية التوراتية لأول مرة مع المصادر الخارجية فيما يتعلق بأخبار مملكة يهوذا. وفي تلك الفترة تدخل أورشليم لأول مرة أيضاً معترك الحياة السياسية في المنطقة. أما ما قبل ذلك، فإن كل الأخبار التوراتية حول أورشليم ويهوذا، هي بالنسبة للمؤرخ الموضوعي بمثابة "ما قبل تاريخ"، وتنتمي إلى جنس الأدب الديني لا إلى جنس الكتابة التاريخية. إن غياب الدلائل على قيام سلطة مركزية في المناطق الهضبية الفلسطينية خلال القرن العاشر، وكذلك على قيام مملكة يهوذا خلال القرن التاسع ومعظم القرن الثامن، لا يُعزى إلى عدم اكتمال معلوماتنا الأركيولوجية عن المنطقة، بل العكس تماماً هو الصحيح. إن كل ما في حوزتنا الآن من معلومات يؤكد أن أول كيان سياسي موحد ومنظم في المناطق الهضبية، قد ظهر مع بناء مدينة السامرة في مطلع القرن التاسع، وأن هذا الكيان السياسي المعروف في السجلات التاريخية باسم مملكة السامرة، أو إسرائيل أو بلاد عمري، لم ينشأ عن مملكة موحدة سبقته وكانت عاصمتها أورشليم، لأنه من المستحيل التحدث عن مملكة بدون قاعدة سكانية وعن عاصمة بدون دليل على وجود مدينة. أما إلى الجنوب من أورشليم، فإن كل المعلومات تؤكد أن هذه الأراضي التي دعيت فيما بعد بمملكة يهوذا، لم تشهد الوحدة السياسية إلا عشية دمار مملكة السامرة، وأن هذين الكيانين لم يتعاصرا إلا لفترة وجيزة، وذلك على عكس الرواية التوراتية التي ترسم صورة شعب واحد توزع في مملكتين عقب موت سليمان.

تعزو الرواية التوراتية تأسيس مملكة يهوذا إلى رحبعام ابن الملك سليمان بعد وفاة أبيه (حوالي عام ٩٣١)، مثلما تعزو تأسيس مملكة إسرائيل إلى والي سليمان عليها المدعو يربعام بن نباط، الذي أقام في شكيم واستقل عن أورشليم سياسياً وإدارياً، كما استقل دينياً بعد أن بنى لشعبه معبدين للعجل المقدس، ومنعهم من التوجه إلى معبد أورشليم. وفي الحقيقة، فإن مثل هذه الأخبار لا تزيد مصداقية عن الأسطورة الرومانية التي تعزو بناء مدينة روما إلى الأخوين روموس وريمولوس، اللذين أرضعتهما ذئبة وربتهما في الغابة قبل أن يشبا على الطوق، وغيرها من الأساطير المشابهة المتعلقة بنشأة المدن وأصول الممالك. بعد وفاة رحبعام بن سليمان، وحتى ورود أول ذكر لملك على يهوذا في السجلات الآشورية، وهو الملك آحاز، تفيدنا الرواية التوراتية بأن أحد عشر ملكاً توالوا

على عرش يهوذا في أورشليم. وبما أن الوقائع الأركيولوجية والتاريخية لا تفيدنا بأن مملكة يهوذا كانت قائمة قبل أواسط القرن الثامن، فإن أولئك الملوك المفترضين على يهوذا لم يكونوا سوى أمراء محليين في أورشليم الناشئة. ونحن لا نستطيع الابتداء بسرد تاريخ يهوذا إلا اعتباراً من تاريخ الإشارة إليها في المصادر الخارجية.

ارتقى آحاز العرش حوالي عام ٧٣٥ ق.م، واختطَّ منذ البداية سياسة العمالة لآشور في المنطقة، وهي السياسة التي سيستمر عليها ملوك يهوذا لأكثر من قرن، والتي ستضمن استقلال هذه المملكة بعد تدمير معظم الممالك الفلسطينية، أو إلحاقها بآشور. فآحاز لم يكتفِ بالدور الصغير المرسوم له من قبل آشور، وإنما تطوع من تلقاء ذاته لتأييدها عسكرياً عندما سار بقواته لمساعدة تغلات فلاصر على حصار دمشق، وكان في طليعة من دخل المدينة على ما نفهم من سفر الملوك الثاني ١٦: ١-١٠. في دمشق رأى آحاز المذبح الذي في معبدها فأعجبه، وطلب من أوريا كاهن معبد أورشليم أن يصنع له مثله، بعد أن زوده برسم مفصل له، فبنى له أوريا مذبحاً مشابهاً، راح آحاز يذبح عليه ويوقد لآلهة آرام ونسي إله آبائه (الملوك الثاني ١٦: ١٠-١٧ وأخبار الأيام الثاني ٢٨: ٢٣-٢٤).

عيّن آحاز ابنه حزقيا ولياً للعهد ومشاركاً له في الحكم، وهو ما زال غلاماً مراهقاً، فحكم إلى جانب أبيه مدة أربع عشرة سنة قبل انتقال السلطة إليه كاملة بوفاة أبيه، وبذلك امتدت سنوات حكمه من ٧٢٩ إلى ٦٨٦ق.م. وقد أفرد له محرر سفر الملوك الثاني ومحرر سفر أخبار الأيام الثاني حيزاً من الكتاب لم يُفرد لملك آخر من ملوك يهوذا. فهو الملك التقي الصالح الذي أعاد عبادة يهوه إلى سابق عهدها في هيكل أورشليم وهدم مقامات ومراكز عبادة الآلهة الأخرى، وهو من وسع أراضي المملكة وضم إليها مناطق جديدة، وهو من حصَّن أورشليم وبقية مدن يهوذا، وهو من زاد غلة الزراعة وكثَّر المواشي وجعل طرق التجارة آمنة. ولكن حزقيا هذا، قد قام بأول وآخر محاولة تمرد على السلطة الآشورية، عندما منع الجزية عنها بتحريض من فرعون مصر الذي وعده بالمساعدة العسكرية في حال تعرضه للانتقام.

كان صارغون الثاني قد أبقى على استقلال يهوذا ولم يمس عاصمتها بسوء، رغم ما ألحقه من دمار بالسامرة والمدن الفلستية أشدود وغزة، وعقرون، التي صُوِّرت مشاهد

حصارها وافتتاحها على نحت بارز عُثر عليه في قصر صارغون. فلقد أفلح آحاز في كسب رضى صارغون مثلما أفلح في كسب رضى سلفيه شلمنصر الخامس وتغلات فلاصر الثالث. ولكن طموحات حزقيا الإقليمية، وقيام كل من بابل ومصر بتحريضه على العصيان ووعده بالمساعدة، كانت وراء إحساس حزقيا بقوته وبقدرته على التمرد. وفي الحقيقة، فإن قرار حزقيا لم يأتِ نتيجة حسابات خاطئة، بل جاء نتيجة حسابات بدت له دقيقة. فمصر التي كانت تَعِدُ سابقاً بالمساعدة ولا تفي بوعودها، قد وفت هذه المرة. وقبل أن تتحرك آشور لإخماد التمرد الجديد في فلسطين وفينيقيا، كانت القوات المصرية متواجدة في فلسطين بشكل مكثف، وجاهزة للتدخل إلى جانب حزقيا وغيره من الملوك الفلسطينيين الذين وعدتهم مصر بالمساعدة. ومن ناحية أخرى، جاء التشجيع من ملك بابل المنفي المدعو مردوخ أبال إيدينا، الذي كان قد قاد تمرداً فاشلاً ضد آشور، ثم هرب وراح يؤلب من منفاه الممالك السورية على العصيان. وربما كان يخطط من أجل العودة سراً إلى بابل وقيادة تمرد جديد يتوافق مع التمرد في فينيقيا وفلسطين، وبذلك يتم إشغال آشور على جبهتين وتغدو فرص نجاح التمرد على إحدى هاتين الجبهتين كبيرة جداً. ولدينا خبر في سفر الملوك الثاني عن زيارة رُسل ملك بابل، الذي يدعوه النص بردخ بلادان، للملك حزقيا، وهي الزيارة التي تحمل من المعاني أكثر مما فهم محرر النص التوراتي: «في ذلك الزمان أرسل بردوخ بلادان ملك بابل رسائل وهدية إلى حزقيا لأنه سمع أن حزقيا قد مرض. فسمع حزقيا لهم وأراهم كل بيت ذخائره، والفضة والذهب والأطياب وكل بيت أسلحته». الملوك الثاني ٢٠: ١٢-١٣.

وكان النبي أشعيا من أكثر معارضي سياسة حزقيا في الانحياز لمصر والاعتماد على عونها. وعندما لم يلقَ من الملك أذناً صاغية، راح يمشي في شوارع أورشليم حافي القدمين رافعاً عقيرته بالنبوءات: «ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة، ويستندون على الخيل، ويتوكلون على المركبات لأنها كثيرة، وعلى الفرسان لأنهم أقوياء، ولا ينظرون إلى قُدُّوس إسرائيل، ولا يطلبون الرب، وهو أيضاً حكيم ويأتي بالشر ولا يرجع بكلامه... أما المصريون فهم أناسٌ لا آلهة، وخيلهم جسد لا روح، والرب يمد يده فيسقط المعين ويسقط المُعان، ويفنيان كلاهما». أشعيا : ٣١: ١-٣.

لم تُحرِّك آشور في البداية ساكناً، لأن سنحاريب الذي ولي العرش بعد صارغون في عام ٧٠٥ق.م، كان مشغولاً خلال السنوات الأولى من حكمه بمشاغل المملكة الداخلية. ولكنه في عام ٧٠١ق.م شن حملة واسعة على غربي الفرات، استهدفت عدداً من الممالك الفينيقية والفلسطينية التي استغلت الفترة الانتقالية بين حكم صارغون وحكم سنحاريب وامتنعت عن دفع الجزية، وعلى رأس هذه الممالك صيدون ولخيش وأشقلون. فقد عبر سنحاريب الفرات واجتاز سورية الشمالية هبوطاً نحو صيدون فأخضعها، ثم تابع حملته فأخضع بقية المدن الفينيقية التابعة لصيدون وصولاً إلى عكا. ومن عكا هبط نحو أشقلون زعيمة التحالف الفليستي، فحاصرها وفتحها وقبض على ملكها صدقيا وارسله أسيراً إلى آشور. عند ذلك استسلمت له بقية مدن فلستيا، فتوجه نحو سهل شفلح وحاصر مدينته الرئيسية لخيش ودمرها تدميراً كاملاً، ولم يبقَ في الميدان سوى حزقيا ملك يهوذا، الذي وضع ثقته بالقطعات العسكرية المصرية التي جاءت لمعونته، وانتظر سنحاريب في مكان يدعوه النص الآشوري بسهل ألتِقو. وهنا نقرأ في نص سنحاريب المقاطع التالية:

«دعا حزقيا لمساعدته قوات مصر وأثيوبيا التي جاءت بأعداد كبيرة لا تُحصى، وفي سهل ألتقو انتظمت صفوفهم ضدي وشحذوا أسلحتهم. بعد استخارة نبوءة إلهي آشور هاجمتهم وهزمتهم، وفي غمرة القتال أسرت بنفسي فرسان العربات وأمراءهم من مصريين وإثيوبيين. حاصرت مدينة ألتقو ومدينة تمنة وأخذتهما... أما حزقيا نفسه، فقد صار كعصفور في قفص، حبيساً في مقره الملكي أورشليم. فأحطته بالمتاريس والخنادق لحجز الفارين عند البوابات. أما المدن التي أخذتها منه فقد أعطيتها لأشدود وعقرون وغزة، وبذلك أنقصت مساحة أراضيه، ووضعت عليه جزية سنوية تفوق الجزية السابقة. لقد غمره الخوف من رهبة جلالتي، والقوات التي استدعاها إلى أورشليم لدعم صمودها قد اختلت صفوفها وتركته. عند ذلك أرسل إليَّ في نينوى عاصمتي ثلاثمئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب»[1].

1- Leo Oppenheim, Assyrian and Babylonian Historical Texts. In: J. Pritchrd, edt, Ancient Near Eastern Texts. P.287.

من أجل التفصيلات الكاملة لهذه الحملة، راجع مؤلفي: الحدث التوراتي والشرق الأدنى.

يتصف القسم الأخير من نص سنحاريب المتعلق بحملته على يهوذا بالغموض والاضطراب، فمن الواضح أن سنحاريب قد هزم التحالف المصري الأورشليمي، وأنه قد ضرب على أورشليم حصاراً شديداً، ولكنه قد ارتد عنها وقبل جزية الملك حزقيا. وبالطبع فإن سنحاريب لم يكن لينهزم عند أسوار أورشليم، بعد أن فتح مدناً أقوى منها وأكثر منعة، ولكن أخباراً وصلته من بلاطه في نينوى عن مؤامرات ودسائس سياسية، فآثر الإسراع في العودة إلى الوطن لمعالجة الأمور.

وفي المقابل، فإن محرر سفر الملوك الثاني يروي عن وصول سنحاريب إلى المنطقة وإلقائه الحصار على أورشليم ثم ارتداده عنها. ولكن المحرر الذي كان يستقي معلومات مبعثرة وغير مترابطة، لم يكن يعرف شيئاً عن مقدمات الحملة الآشورية، واعتقد أن كان موجهة أساساً ضد يهوذا نقرأ في سفر الملوك الثاني ما يلي:

«في السنة الرابعة عشر للملك حزقيا، صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور، إلى لخيش، يقول قد أخطأت، ارجع عني ومهما جعلتَ عليّ حملته. فوضع ملك آشور على حزقيا ثلاثمئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب، فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. وأرسل ملك آشور ترتان وربشاقي وربساريس(*) من لخيش إلى الملك حزقيا بجيش عظيم، فصعدوا وأتوا إلى أورشليم... ودعوا الملك، فخرج إليهم إلياقيم الذي على البيت، وشبنة الكاتب، ويو آخ المسجل. فقال لهم ربشاقي: قولوا لحزقيا... على من اتكلت حتى عصيت عليّ؟ هل اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة، على مصر التي إذا توكأ عليها أحد دخلت في كفه وثقبتها؟ هكذا هو فرعون لجميع المتكلين عليه. وإذا قلتم على الرب إلهنا اتكلنا... هل بدون الرب صعدتُ إلى هذا الموضع لأخربه؟ ... اسمعوا كلام الملك العظيم ملك آشور. هكذا يقول الملك: لا يخدعكم حزقيا، لأنه لا يقدر أن ينقذكم من يدي... اعقدوا معي صلحاً واخرجوا إليّ، وكلوا كل واحد من جفنته ومن تينته، واشربوا كل واحد من ماء بئره، حتى آتي وآخذكم إلى أرض كأرضكم(*)، أرض حنطة وخمر، أرض خبز وكروم، أرض زيتون وعسل، وأحيوا ولا تموتوا» ١٨: ١٣-٣٢.

(*) وهذه ليست أسماء وإنما ألقاب ورتب عسكرية آشورية.

(*) يعد القائد الآشوري هنا أهل أورشليم بالسبي إلى أرض أفضل إذا استسلموا له.

ولكن النبي أشعيا يشدّد من عزيمة حزقيا ويتنبأ له: «هكذا قال الرب: لا تخف بسبب الكلام الذي سمعته، الذي جدف عليّ به غلمان ملك آشور. هأنذا أجعل فيه روحاً فيسمع خبراً ويرجع إلى أرضه، وأسقطه بالسيف في أرضه... هكذا قال الرب عن ملك آشور: لا يدخل هذه المدينة ولا يرمي سهماً ولا يتقدم عليها بترس ولا يقيم عليها مترسة. في الطريق الذي جاء فيه يرجع، وإلى هذه المدينة لا يدخل، يقول الرب. وأُحامي عن هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسي ومن أجل عبدي داود. وكان في تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً. ولما بكروا صباحاً إذ هم جميعاً جثث ميتة، فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى. وفيما هو ساجد في بيت إلهه نسروخ، ضربه ابناه أدر ملك وشر آصر بالسيف، ونجوا إلى أرض أراراط، وملك أسرحادون ابنه عوضاً عنه» ١٩: ٥-٧ و٣٢-٣٧.

تتفق رواية سفر الملوك الثاني مع الرواية الآشورية في خطوطها العامة، رغم اختلافهما في العديد من التفاصيل. فصعود القوات المصرية لمساعدة حزقيا بأعداد كبيرة غير مذكور في الخبر التوراتي رغم وجود تلميح بالاتكاء على مصر. وكذلك الأمر بخصوص المعركة الكبيرة في سهل ألتقو بين القوات الآشورية وقوات مصر ويهوذا. أما تراجع سنحاريب عن أسوار أورشليم فيعزوه محرر السفر، وكما يمكن لنا أن نتوقع دوماً، إلى معجزة من الرب الذي تدخل وضرب الآشوريين ليلاً.

هذه هي الأخبار التاريخية المتوفرة لدينا بخصوص الفترة الأولى من نشوء يهوذا كمملكة فلسطينية قوية، وبروز أورشليم كعاصمة إقليمية مهمة خلال فترة حكم آحاز وابنه حزقيا. فماذا عن الوثائق الأركيولوجية؟ إن الدلائل الرئيسية يجب أن تأتي من أورشليم. فمنذ بدايات القرن التاسع قبل الميلاد تبدأ كسرات الفخار، وغيرها من اللقى الأثرية الصغيرة الدالة على وجود حياة نشطة في الموقع، بالظهور بغزارة بعد أن كانت معدومة تقريباً خلال عصر الحديد الأول. ومطلع عصر الحديد الثاني في القرن العاشر قبل الميلاد. هذه الدلائل على عودة الحياة إلى المدينة والزيادة المستمرة في عدد سكانها، تتزامن مع ظهور أخبار أورشليم ومملكة يهوذا في المصادر الخارجية. وبما أن كل البنى المعمارية السابقة على العصر البيزنطي قد زالت بسبب الاقتلاع الدائم لحجارة في كل طبقة آثارية واستخدامها في الطبقة التي تليها، فإن دليلنا المتبقي هو السور.

لقد رسمت المنقبة كاثلين كينيون حدود المدينة اليبوسية – الداودية على ذروة هضبة أوفيل، وقالت إن خط الأسوار بقي على حاله خلال فترة حكم الملك داود (انظر المخطط في الشكل رقم ٥ ص٣١). أما التوسعات الشمالية المحصورة بين الخط الشمالي القديم للمدينة اليبوسية وجدار الحرم الجنوبي، فقد عزتها المنقبة إلى عصر سليمان، أي إلى أواسط القرن العاشر، ودعتها بمنطقة التوسعات السليمانية، رغم أن البينة الستراتيغرافية كانت تشير إلى أن سور هذه التوسعات يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد. أما كيف نقلت كينيون تاريخ بناء سور التوسعات الشمالية من القرن الثامن إلى القرن العاشر، فلأنها لاحظت أن هذا السور قد بني بحجارة منحوتة بالأسلوب الذي تم التعرف عليه في أبنية السامرة، ووصف بالفينيقي، وأُرجع تاريخه إلى مطلع القرن التاسع قبل الميلاد. وهذا يعني في رأيها أن بناة سور القرن الثامن قد استخدموا أنقاض سور سابق كان قائماً في الموضع نفسه خلال عصر سليمان[1]. ونحن إذ نرفض هذا الاستنتاج لعدم منطقيته من جهة، ولعدم اتفاقه مع كل ما صرنا نعرفه عن تاريخ وأركيولوجيا أورشليم، فإننا نعتبر مخطط أورشليم المدعوة بالسليمانية في الشكل رقم ٥، بمثابة مخطط أورشليم خلال عصر آحاز وحزقيا، في القرن الثامن قبل الميلاد.

ولدينا ملمح أركيولوجي هام من عصر حزقيا في أورشليم، يستحق أن نتوقف عنده. ففي معرض تعداده لنشاطات حزقيا الدفاعية والمعمارية، يذكر محرر سفر الملوك الثاني عن قيام حزقيا بحفر قناة نفقية تحت أورشليم، اخترقت هضبة أوفيل، وأُجرِيَ فيها ماء نبع جيحون من موقعه بوادي قدرون شرقاً ليصب في بركة سلوام على المنحدرات الغربية للهضبة: «وحزقيا هذا، سد مخرج مياه جيحون الأعلى، وأجراها إلى الجهة الغربية من مدينة داود، وأفلح حزقيا في كل عمله» ٣٢ : ٣٠. يبلغ طول هذه القناة حوالي ٥٦٠ مترٍ، وقد تم اكتشافها من قبل المنقب وارن في أول حملة تنقيبية في موقع أورشليم عام ١٨٦٧، ثم قام المنقب باركر بتنظيفها عام ١٩١١، ثم أعادت حملة السيدة كينيون تنظيفها وإعادتها إلى ما كانت عليه أيام حزقيا. ويستطيع أي زائر اليوم أن يسير عبرها من منبع الماء إلى مصبه في البركة التي يُطلق عليها اليوم اسم بركة سلوان، نسبة إلى قرية سلوان القائمة على مرمى النظر من سور القدس القديم الحالي. ولكن

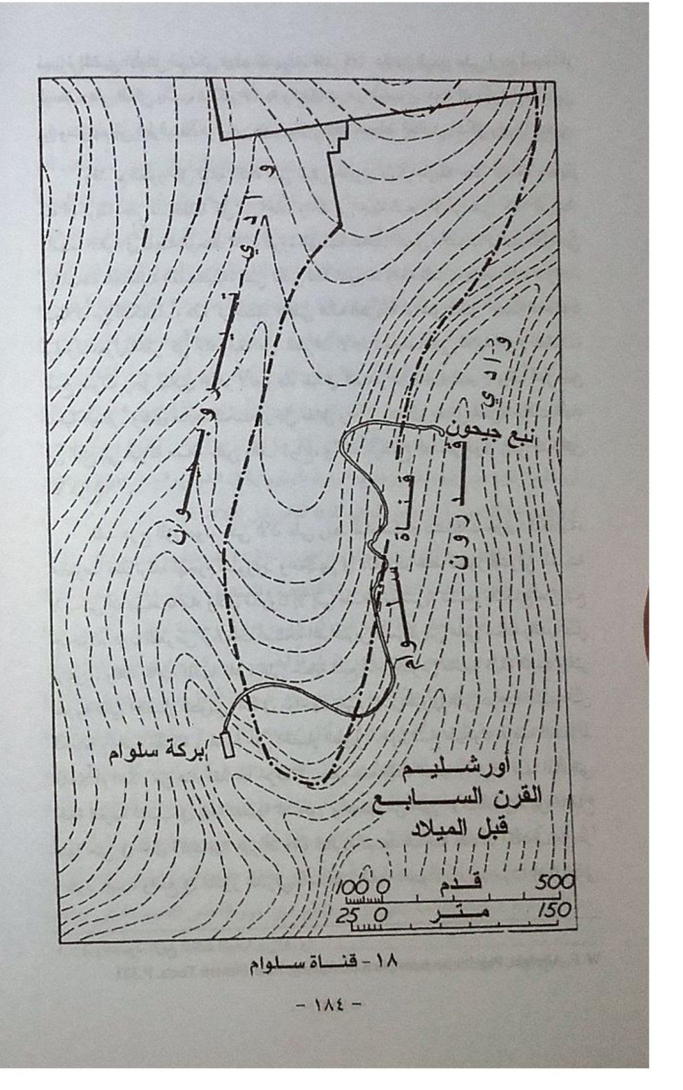
١ – راجع اقتباسنا عن كينيون، وتعليقنا عليه في الفصل الرابع ص٦٨-٦٩.

مسيرة المنقبين الأوائل لم تكن بهذه السهولة. فقد كان عليهم السير على أربع أحياناً أو الزحف على البطن بسبب تراكم الأتربة والنفايات عبر العصور، دون أن يكونوا متأكدين من وصولهم إلى الطرف الآخر وخروجهم سالمين (انظر مخطط القناة في الشكل رقم١٨ أدناه).

وقد تم العثور قبل نهاية القناة على نقش حجري يذكر طريقة حفر القناة، ونفهم منه أن فريقا حفرٍ قد انطلقا كل من اتجاه، واحد من جهة النبع والآخر من جهة البركة. وأنهما التقيا في نقطة الوسط تحت ذروة الهضبة تماماً. النص مكتوب بالقلم الآرامي وباللهجة الكنعانية الفلسطينية، التي تعتبر لغة التوراة، ولغة نقش ميشع ملك مؤاب، شكلان من أشكالها. وهذه ترجمته: «على هذه الطريقة تم شق النفق. بينما النحاتون يرفعون معول الحفر كلٌ تجاه رفيقه من الطرف الآخر، وبينما بقي ثلاثة أذرع للنحت، سُمع صوت رجل ينادي الآخر لأنه وجد ثقباً في الصخر من ناحية اليمين، وثقباً آخر من ناحية اليسار. ولدى متابعة النحت، رجل مقابل رجلٍ، ومعول مقابل معل، سالت المياه من النبع إلى البركة مسافة مئتين وألف ذراع، وكان ارتفاع الصخر فوق رأس النحاتين مئة ذراع»[1].

لقد درج المؤرخون حتى الآن على ربط قناة سلوام بنشاطات حزقيا الدفاعية، خصوصاً بعد توقعه لهجوم آشوري. وحجتهم في ذلك أن خط السور الشرقي للمدينة لا يمكن أن يهبط باتجاه وادي قدرون إلا إلى مسافة محسوبة تسمح بالدفاع عن نبع جيحون، دون التعرض لرشقات أسلحة المحاصرين المتمركزين على منحدرات جبل الزيتون. ولقد كانت المدينة قادرة على حماية النبع أمام جيوش محلية قليلة العدد وغير مدربة على الحصار الطويل، أما في مواجهة جيش إمبراطوري على درجة عالية من الكفاءة والخبرة القتالية ومقدرة على الحصار الطويل، فإن النبع سيكون عرضة للسقوط عاجلاً أم آجلاً. من هنا، فقد لجأ حزقيا إلى حفر هذه القناة النفقية وأجرى فيها الماء إلى الجهة الغربية لتصب في بقعة تغطيها الصخور وتحجبها عن أعين الأعداء، ويسهل الدفاع عنها حتى في حال اكتشافها. غير أن هذه النظرية لم تعد صالحة بعد أن اكتُشِف مؤخراً وجود جيب واسع في السور الشرقي للمدينة وظيفته احتواء نبع جيحون، إضافة إلى

١ – إ. ولفنتسون تاريخ اللغات السامية ص٨٣. و:
W. F. Albright, Palestinian inscriptian in: Ancient Near Eastern Texts. P.321.



١٨ - قناة سلوام

وظيفته الأخرى في توسيع المنطقة السكنية على منحدرات أوفيل الشرقية. وهذا يعني أن النبع قد صار محصوراً بين سورين، السور القديم المرتفع والسور الجديد المنخفض. وقد أرجعت بعثة التنقيب التي اكتشفت السور الجديد تاريخه إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، الأمر الذي يجعل حزقياً مسؤولاً عن بنائه أمراً محتملاً[1].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا الاكتشاف، هو لماذا بذل حزقيا مجهوداً جباراً في جر مياه جيحون إلى بركة تقع خارج السور الغربي، طالما أن السور الجديد كان كفيلاً بالدفاع عن النبع؟ وهنا يتابع أصحاب النظرية الدفاعية قولهم بأن بوابة السور الجديد وأبراجها المصممة خصيصاً للدفاع عن النبع سوف تكون الهدف الأول للعدو، وأن بركة احتياطية في منطقة مموهة على السفح الغربي ضرورية في حال سقوط السور الأول. ولكن هذا الجواب غير مقنع من الناحية العسكرية، لأن الجيش الإمبراطوري المدرب على القتال، مدربٌ أيضاً على التجسس وجمع المعلومات عن قوة الموقع المحاصر، وموارده الغذائية والمائية. ولا أعتقد بأن الآشوريين الذين أمضوا قروناً في حصار وفتح المدن الحصينة، كانوا عاجزين عن اكتشاف موقع بركة سلوان، حتى قبل إلقاء الحصار على أورشليم. من هنا فإنني أرجح أن قناة السلوام لم يكن لها وظيفة دفاعية، وأن آحاز أو ابنه حزقيا قد حفرها لكي يؤمن لسكان الجهة الغربية من أورشليم مصدراً مائياً قريباً إسوة بسكان الجهة الشرقية، خصوصاً وأن الدراسات الجيولوجية الحديثة تبرهن على أن حفر قناة السلوام لم يكن معجزة هندسية كما ظن الآثاريون حتى وقت قريب، ولم يكن بالمشروع الباهظ التكاليف.

لقد لاحظ المستكشفون الأوائل، وكل من عمل في تنظيف القناة بعد ذلك، المسائل التقنية الصعبة التي كان على القائمين على مشروع القناة في تلك الأيام مواجهتها وحلها. وعلى رأس هذه المسائل مشكلة التوجه تحت الأرض ومشكلة المَيْل. فلقد كان من الصعب، أو المستحيل فعلياً، على فريق حفر واحد أن يحافظ على الاتجاه المرسوم له تحت الأرض بدون البوصلة التي لم تكن معروفة في ذلك العصر، ناهيك عن صعوبة أو استحالة المهمة على فريقي حفر عليهما أن ينطلقا من اتجاهين متعاكسين ليلتقيا في نقطة

1- H. Shanks, Rewriting Jerusalem History. In: Biblical Archaeology Review, Nov.-Dec. 1999, PP.20-29.

الوسط. أما بخصوص المَيْل، فإن حساباته النظرية وتطبيقاتها، كانت أعقد بكثير مما يمكن لوسائل تلك الأيام التعامل معها، خصوصاً وأن الماء قد تدفق عقب هدم الحاجز الفاصل بين فريقي الحفر. فكيف تغلب مهندسو تلك الأيام على هذه المشاكل؟ بقي هذا السؤال معلقاً بدون إجابة إلى أن قام الجيولوجي Dan Gill بدراسة التكوين الجيولوجي للنفق، وخرج بنتيجة مفادها أن النفق ليس من صنع الإنسان بل هو تشقق صخري طبيعي لم تتدخل يد الإنسان إلا من أجل تشذيبه وإزالة حاجز صخري يفصل قسمه الشرقي عن قسمه الغربي[1].

نعود الآن لمتابعة تاريخ أورشليم ويهوذا، فرغم أن أورشليم استطاعت نحو أواخر القرن الثامن قبل الميلاد السيطرة على مرتفعات يهوذا ووضع أمراء حبرون (وهي المدينة الثانية في المرتفعات بعد أورشليم) تحت حمايتها، إلا أن لخيش، المدينة الكبرى في سهل شفلح والمنافس الرئيسي لأورشليم منذ بداية الانتعاش الاقتصادي، بقيت السوق الرئيسية للمحاصيل المتوسطية للمناطق الجنوبية، وخصوصاً زيت الزيتون. لقد كان الآشوريون يتحرقون للسيطرة على مراكز إنتاج الزيت وتنظيم تجارته بما يلائم مصالحهم، ولكن مدينة لخيش، بثروتها واتساع تجارتها وتأثيرها على مدن شفلح وفليستيا، كانت عقبة كأداء أمام مخططات آشور. من هنا، كانت لخيش أحد الأهداف الرئيسية لحملة سنحاريب المؤرخة بعام ٧٠١ق.م، وكانت المدينة الوحيدة التي تم إحراقها وتدميرها تدميراً كاملاً بحيث لم تقم لها قائمة بعد ذلك. ولعل في لوحات النحت البارز التي تمثل حصار وتدمير لخيش وسبي أهلها، والتي تم العثور عليها في قاعة عرش سنحاريب، ما يبرهن على أهمية هذه المدينة الفلسطينية، وعلى أهمية النصر الذي حققه سنحاريب عليها.

كانت أورشليم أول المستفيدين من زوال منافستها القديمة لخيش، فلقد صارت الآن حرة في بسط سلطتها وتوسيع مناطقها إلى ما وراء حبرون جنوباً وحتى منطقة النقب، ثم حلت محل لخيش كسوقٍ لمنتجات الخمور والزيوت التي راحت تعيد تصديرها على طول الطرق التجارية الدولية، فأثْرت وتوسعت وزاد عدد سكانها، حتى بلغ حوالي ٢٥٠٠٠ نسمة في أواسط القرن السابع قبل الميلاد، وذلك بعون ومباركة آشور التي اعتمدت على ملوكها في تحقيق الاستقرار في فلسطين. كما أنها غدت مركزاً

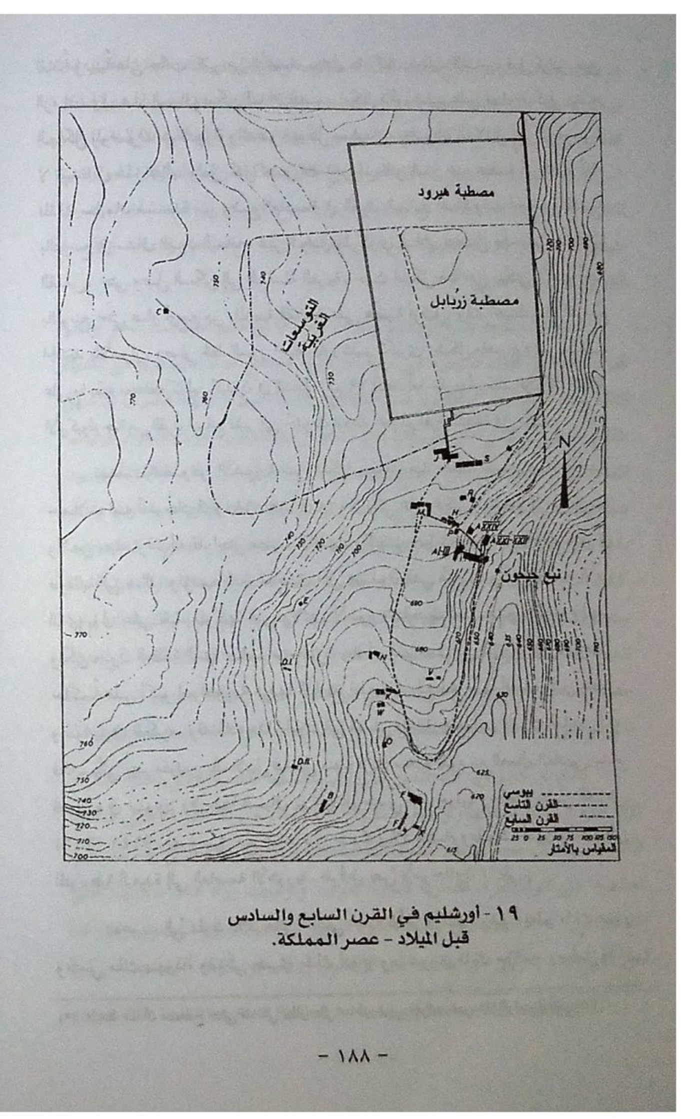
1- Dan Gill, How They Met? Biblical Archaeology Review, July august 1994.

ثقافياً ودينياً على جانب كبير من الأهمية، يعادل ما كانت عليه السامرة قبل قرنين من الزمان. وفي هذا السياق يمكن لنا أن نتصور إمكانية أورشليم على بناء هيكل يشبه الهيكل الموصوف في التوراة والمدعو بهيكل سليمان، رغم أن الدلائل الأركيولوجية لا تفيدنا في هذا المجال. ولعل كل تصورات المحررين التوراتيين عن عظمة أورشليم أيام الملك سليمان مستمدة من وضع العاصمة في القرن السابع. هذا وقد أخذت المدينة بالتوسع في سياق القرن السابع، عبر الوادي المركزي الذي يفصل سلسلتي هضاب القدس، حتى وصل السكن إلى السلسلة الغربية، حيث تشكل هنا حي سكني كبير أخذ بالتوسع حتى صار أوسع من المدينة القائمة على هضبة أوفيل. وقد أحيط هذا التوسع الجديد بالأسوار، وصار لخط السور المحيط بأورشليم الكبرى شكل متعرج وغير منتظم، على ما يبيّنه مخطط كاثلين كينيون في الشكل رقم ١٩ أدناه. أما خارج أورشليم فإن كل الدلائل الأركيولوجية من القرن السابع تشير إلى حدوث ازدهار عام لم تعرفه المنطقة قبل ذلك.

تصمت النصوص الآشورية عن مملكة يهوذا بعد حملة سنحاريب. وأخبار حملات ابنه أسرحادون (٦٨٠-٦٦٩ق.م) ولا تأتي على ذكر أورشليم لا من قريب ولا من بعيد، رغم أنه قد احتل مصر بكاملها، وكانت جيوشه تعبر فينقيا وفلسطين في طريقها إلى هناك، وتؤدب المدن العاصية، مثل صيدون التي هُدمت وسُبي أهلها. الأمر الذي يدل على بقاء ملوكها على ولائهم لآشور ومتابعتهم لعب الدور المرسوم لهم. ولكن جنون العظمة الذي أصاب أسرحادون بعد أن ضم مصر إلى التاج الآشوري وصار حاكماً على أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ قبله، قد بلغ به حداً أفقده كل منطق وصواب في تفكيره. وقد قاده هذا الجنون إلى التسلي بإهانة وتعذيب الملوك التابعين له، فكان يأتي بهم مقيدين بالسلاسل فيجعل منهم فريق سخرة يقوم مع العمال العاديين ببناء قصوره في نينوى. وفي هذا السياق تم اعتقال منسي ابن حزقيا وخليفته على العرش (٦٩٦-٦٤١ق.م)، وسيق مع عدد من ملوك بلاد الشام وملوك الجزر والشواطئ المتوسطية البعيدة إلى العاصمة الآشورية. نقرأ في نص لأسرحادون ما يلي:

«دعوت إليّ ملوك بلاد حاتي(*) على الجهة الأخرى للنهر وهم: بعلو ملك صور ومنسي ملك يهوذا، وقوش جبري ملك أدوم، وموسوري ملك مؤاب، وسلبيل ملك

(*) نلاحظ هنا أن مصطلح حاتي قد بقي يطلق على مناطق غربي الفرات حتى هذا الوقت المتأخر.



١٩ - أورشليم في القرن السابع والسادس قبل الميلاد - عصر المملكة.

غزة، وميتيني ملك أشقلون، وإيكوسو ملك عقرون، وملكيا شبا ملك بيت عمون، وآبي ملكي ملك أشدود،...إلخ (يلي ذلك قائمة طويلة بأسماء ملوك الجزر والشواطئ المتوسطية وبينها قرطاجة وكريت وقبرص). كل هؤلاء أرسلتهم إلى نينوى مقر ملكي، حيث جعلتهم ينقلون تحت أقسى الظروف مواد بناء لقصري..إلخ»[١].

ويورد محرر سفر الملوك الثاني من ناحيته خبر اقتياد منسي من قبل ضباط آشوريين، ولكنه يجعل وجهته إلى بابل بدل نينوى، ويجعل من ملك آشور أداة عقاب بيد الرب إله منسي: «وعمل منسي الشر في عيني الرب... وكلم الرب منسي وشعبه فلم يصغوا، فجلب الرب عليهم رؤساء الجند الذين لملك آشور، فأخذوا منسي بخزَامة[*]، وقيدوه بسلاسل نحاس، وذهبوا به إلى بابل. ولما تضايق طلب وجه الرب إلهه وتواضع جداً وصلى إليه، فاستجاب له وسمع تضرُّعه ورده إلى أورشليم» ٣٣: ١-١٣. إن خلاصة الأمر في هذه الحادثة بروايتها الآشورية الكاملة، والتوراتية الناقصة والمجتزأة، هو أن القبض على منسي ملك أورشليم لم يكن بسبب عصيانه على آشور. فالرواية الآشورية لا تقدم سبباً لأسر الملوك سوى نزوة مريضة في نفس أسرحادون، بينما نفهم من الرواية التوراتية أن منسي قد عاد إلى وطنه وتاب إلى إله إسرائيل الذي عاقبه بالنفي والمذلة.

بعد حادثة اقتياد منسي إلى نينوى، تعود النصوص الآشورية للصمت عن أورشليم ولا تتعرض لذكر أحد من ملوكها حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية في العقد الأخير من القرن السابع قبل الميلاد. من هنا لا يوجد أمامنا سوى الاعتماد على النص التوراتي من أجل تغطية بقية أخبار القرن السابع في يهوذا. فلقد توفي منسي بعد أن حكم قرابة خمسين سنة (٦٩٦-٦٤١ق.م)، وخلال فترة تعتبر بمثابة العصر الذهبي ليهوذا. ثم خلفه ابنه آمون الذي حكم مدة عامين فقط ثم تعرض لفتنة في القصر أدت إلى مقتله على يد بعض ضباط الجيش، فخلفه ابنه يوشيا وله من العمر ثماني سنوات فقط. حكم يوشيا فترة طويلة جداً (٦٣٩-٦٠٨ق.م) وعاصر الفترة العاصفة التي شهدت زوال آشور وصعود الأسرة الكلدانية في بابل، وما تلا ذلك من صراع مصري بابلي، شاركت

1- Leo Oppenheim, op. cit, P.291.

(*) الخزَامة، بكسر الخاء، هي حلقة من شعر توضع في ثب أنف البعير لِيُشد بها الزمام. ويقال جعل في أنفه خزامةً أي أذله وأهانه وسخره.

فيه يهوذا بعد أن خرجت من طمأنينتها في حضن آشور، الأمر الذي قادها إلى حتفها السريع.

ورث آشور بانيبال (٦٦٨-٦٣٣ق.م) عن أبيه أسرحادون عالماً يموج بالفتن والاضطرابات، وظهرت في عهده عوامل تفسخ الإمبراطورية الآشورية، وهي العوامل التي كانت نشطة في الخفاء لمدة طويلة مضت. فقد اضطر لإخضاع مصر بعد أن ثارت عقب وفاة أسرحادون، ثم عاد إليها أكثر من مرة لتأديب الأمراء المحليين الذين عينهم في المقاطعات المصرية وعقد معهم اتفاقيات التبعية. ولكن التجربة أقنعت آشور بانيبال بأن احتلال مصر بشكل دائم هو أمر على غاية من الصعوبة من الناحية العسكرية، فغض الطرف في آخر سنوات حكمه عن قيام الأمير نخو بتوحيد مصر وإعلان نفسه ملكاً عليها، وفضّل التفرغ للإبقاء على ممتلكات آشور التقليدية، بدل هدر طاقته في الاحتفاظ بأراضي مصر البعيدة عن مركز السلطة في نينوى.

بعد وفاة آشور بانيبال عام ٦٣٣ق.م، أعلن نابو بولاصر الكلداني نفسه ملكاً على بابل واستقل عن آشور، مؤسساً بذلك لما يدعوه المؤرخون بالمملكة البابلية الجديدة، ثم عقد ملك بابل حلفاً مع مملكة ميديا الإيرانية، وسارت جيوشهما من الجنوب ومن الشرق فأوقعت آشور بين فكي كماشة، ووجد الآشوريون أنفسهم لأول مرة يدافعون عن عقر دارهم في مدن المثلث الآشوري. وبين عام ٦١٤ و٦١٢ ق.م سقطت مدينة آشور ثم تبعتها نمرود فنينوى. وفي ما تدعوه الاستراتيجية العسكرية الحديثة بالقتال التراجعي، كان آخر ملوك آشور المدعو آشور أوباليط ينسحب إلى ما وراء نهر الدجلة، حيث أقام لنفسه مقر قيادة مؤقت في مدينة حران، محاولاً تأخير المذبحة الشاملة للشعب الآشوري. ومن هناك أرسل إلى الفرعون نخو طالباً عونه. فاستجاب نخو وصعد بجيشه عبر فلسطين عام ٦٠٩ق.م لنجدة آشور أوباليط، مفضلاً المحافظة على مملكة آشورية ضعيفة يتقاسم معها مناطق النفوذ في بلاد الشام.

وهنا يخبرنا نص سفر الملوك الثاني أن يوشيا ملك يهوذا تصدى له عند موقع مجدّو، محاولاً رد الحملة المصرية عن أهدافها. وعبثاً حاول نخو إقناع يوشيا بأن لا يؤخر تقدمه وأنه لا ينوي قتاله، فأرسل إليه يقول: «مالي ولك يا ملك يهوذا، لست عليك اليوم بل على بيت حربي (أي المكان الذي أتوجه اليوم للحرب فيه)، والله أمر

بإسراعي. فكف عن الله الذي معي فلا يهلكك. فلم يحول يوشيا وجهه عنه بل تنكر لمقاتلته (أي غير زيه الملكي) ولم يسمع لكلام نخو من فم الله، بل جاء ليحارب في بقعة مجدو، وأصاب الرماة الملك يوشيا فنقله عبيده وساروا به إلى أورشليم فمات هناك». الملوك الثاني ٣٥: ٢٠-٢٤. أما عن دوافع ملك يهوذا للوقوف في وجه الجيش المصري فغير مذكورة في هذا النص التوراتي. وأغلب الظن أن حساباته الخاطئة قد أقنعته أن بإمكانه الحصول على نصيب من تفليسة آشور في مناطق سورية الجنوبية.

لا تفيدنا رواية سفر الملوك الثاني عن مآل حملة نخو، ولكننا نعرف الآن من بعض شذارت الحوليات البابلية التي اكتشفت عام ١٩٥٦ أن نبوخذ نصر الذي ورث عرش بابل قد هزم نخو في معركتين الأولى في كركميش على الفرات والثانية قرب حماة[٩]. تراجع نخو وأقام لنفسه مقر قيادة في بلدة ربلة (غربي مدينة حمص الحالية باتجاه الهرمل)، ومن هناك بدأ يتصرف وكأنه حاكم على مناطق سورية الوسطى والجنوبية، وبدأ يرتب أوضاعها بما يتلاءم ومخططاته المستقبلية في مواجهة بابل. وفي هذا السياق أرسل قوات من عنده إلى أورشليم فقبضت على ملكها يهوآحاز ابن يوشيا القتيل، فساقته أسيرا إلى ربلة ومنها إلى مصر حيث مات هناك، وعين نخو بدلا عنه الابن الثاني ليوشيا المدعو يهوياقيم، بعد أن تعهد بالولاء المطلق لمصر ودفع الجزية لها. نقرأ في سفر الملوك ٢٣: «وكان يهوآحاز ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر في أورشليم... فعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمله آباؤه، وأسره الفرعون نخو في ربلة في أرض حماة وغرم الأرض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب. وملك الفرعون نخو إلياقيم بن يوشيا عوضا عن يوشيا أبيه وغير اسمه إلى يهوياقيم، وأخذ يهوآحاز إلى مصر فمات هناك. ودفع يهوياقيم الفضة والذهب لفرعون» ٢٣: ٣١-٣٥. ومنذ ذلك الوقت بقيت يهوذا على ولائها لمصر، مدفوعة بحسابات خاطئة لميزان القوى، وهذا ما قادها سريعا إلى نهايتها.

كانت الأمور قد استقرت لبابل في مناطق الفرات بعد القضاء تماما على آشور أوباليط واستسلام قواته بالجملة، فتفرغ نبوخذ نصر (٦٠٥-٥٦٢ق.م) لوضع حد

9- S. H. Horn, The Divided Monarchy. In: Hershel Sahnk, edt, Ancient Israel, PP.143-144.

لطموحات مصر، وشنَّ حملة على نحو أبعدته عن سورية الوسطى، ثم طارده حتى حدود مصر على ما نفهم من الحوليات البابلية. وفي طريقه ابتلع يهوذا بلقمة واحدة وساق ملكها أسيراً إلى بابل وعين بدلاً عنه ابنه. نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني: «كان يهوياقيم ابن خمسة وعشرين سنة حين مَلَكَ، ومَلَكَ إحدى عشرة سنة في أورشليم، وعمل الشر في عيني إلهه. فصعد عليه نبوخذ ناصر ملك بابل وقيده بسلاسل نحاس ليذهب به إلى بابل، وملَّك يهوياكين ابنه عوضاً عنه» ٣٦: ٥-٨.

ولكن الملك الجديد كان يتحين الفرص للتمرد على بابل. وقد واتته الفرصة التي ظنها ذهبية عندما شن نبوخذ نصر حملة على أراضي مصر في محاولة نهائية للتخلص من شغب فراعنتها، ولكن حملته لم تفلح وارتد دون تحقيق أهدافه. وقد قلل هذا التراجع من هيبة بابل وقاد عدداً من الممالك الفلسطينية ومنها يهوذا إلى إعلان التمرد. ولكن نبوخذ نصر ما لبث أن عاد إلى المنطقة بعد ثلاث سنوات وعسكر في منطقة ربلة، ومن هناك كان يبعث بقادة جيوشه لتأديب الملوك العصاة. نقرأ في سفر الملوك الثاني: «جاء نبوخذ نصر ملك بابل على المدينة، وكان عبيده يحاصرونها. فخرج يهوياكين إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساء خصيانه، وأخذه ملك بابل في السنة الثامنة من مُلكه، وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب. وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس: عشرة آلاف سبي، وجميع الصُّناع والأقيان، ولم يَبْقَ أحدٌ إلا مساكين شعب الأرض. وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض، سباهم من أورشليم إلى بابل، وملَّك ملك بابل متنيا عمه عوضاً عنه وغير اسمه إلى صدقيا» ٢٤: ١٠-١٧.

لم توجه هذه الحملة الضربة الأخيرة لأورشليم بل أبقت عليها ضعيفة بعد سبي خيرة رجالها، وتعيين ملك جديد عليها هو صدقيا عم الملك المخلوع. وقد جرت هذه الحملة في العام السابع من حكم نبوخذ نصر، على ما تخبرنا به الحوليات البابلية، أي حوالي عام ٥٩٧ق.م. نقرأ في نص مختصر لنبوخذ نصر ما يلي: «في السنة السابعة، قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي فحاصر مدينة يهوذا وفتحها في اليوم الثاني من شهر آذار، فقبض على الملك وعين عوضاً عنه ملكاً جديداً اختاره، وأخذ منها جزية كبيرة

حملها إلى بابل»[١]، أما عن الحملة الثانية على أورشليم والتي قادت إلى تدميرها وسبي قسم آخر من سكانها، وإلى القضاء على يهوذا كمملكة مستقلة، فلم يصلنا بخصوصها نص بابلي.

لم يأخذ صدقيا الملك الجديد عبرة كافية من حملة نبوخذ نصر على أورشليم وما نتج عنها. فما أن غابت جيوش آشور عن المنطقة حتى راح يبعث الرسل إلى ملوك فينيقيا وشرقي الأردن، في محاولة لخلق تحالف عسكري جديد. ويبدو أن ملوك أدوم ومؤاب وعمون وصيدون وصور، أو مندوبين عنهم قد اجتمعوا في أورشليم بدعوة من الملك صدقيا، على ما نفهم من سفر إرميا ٢٧: ٣. ولعل مثل هذه التحركات والاتصالات كانت تجري بتشجيع مصر، لأننا نعرف الآن من بردية مصرية، أن خليفة نخو الفرعون بسامتيك قد قام بجولة ديبلوماسية حوالي عام ٥٩٢ق.م زار خلالها عدداً من الممالك الفلسطينية والفينيقية[٢]. ومما لا شك فيه أن هذه الجولة كانت تهدف إلى تأليب ملوك المنطقة على بابل.

انقسم الرأي بين شيوخ أورشليم إلى فريقين، فريق يدعو إلى مقاومة بابل بالسيف وفريق يدعو إلى قبول عبودية بابل دفعاً للكارثة الأخيرة المقبلة. وكان على رأس هذا الفريق النبي إرميا، الذي اعتبر نبوخذ نصر منفذاً لمشيئة الرب. نقرأ في سفر إرميا ٢٧: «هكذا قال رب الجنود، إله إسرائيل، هكذا تقولون لسادتكم: إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض،وأعطيتها لمن حَسُنَ في عيني. والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدي، فتخدمه كل الشعوب وكذلك ابنه وابن ابنه، حتى يأتي وقت أُسقطه فيه فتستخدمه شعوب كثيرة وملوك عظام... أَدخِلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل واخدموه وشعبه واحيوا... اخدموا ملك بابل واحيوا، لماذا تصير هذه المدينة خربة؟» ٢٧: ٤-١٧. ولكن كلمات إرميا لم تلقَ أذناً صاغية من الملك صدقيا ومَنْ حوله من الصقور الداعية إلى الحرب.

جاء رد فعل نبوخذ نصر حاسماً وسريعاً، وراحت الوعود المصرية أدراج الرياح أمام حملة بابلية صاعقة طالت عدداً من الممالك الفلسطينية، بينها يهوذا التي اجتاحها

1- Leo Oppenheim, op. cit, p. 564.

2- S. H. Horn, op. cit, P. 147.

الجيش البابلي وضرب حصاراً حول عاصمتها دام سنتين على ما تقوله الرواية التوراتية في سفر الملوك الثاني ٢٥. وعندما اشتد الجوع ونفذت المؤن، حاول الملك صدقيا وعائلته الهرب بمعونة فرقة من خيرة جنده، من فتحة سرية أحدثوها في السور. ولكن الكلدانيين قبضوا عليه وساقوه إلى نبوخذ نصر الذي كان مقيماً في ربلة، فأمر نبوخذ نصر بقتل عائلة صدقيا أمام ناظريه، ثم سمل عينيه وأرسله أسيراً إلى بابل. أما أورشليم التي لم تفتح أسوارها بعد هرب ملكها، فقد اقتحمها نبوزردان قائد الجيش البابلي: «في السنة التاسعة عشر للملك نبوخذ ناصر ملك بابل، جاء نبوزردان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار، وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة، والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل، وبقية الجمهور، سباهم نبوزردان ولكنه أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين». وبذلك تم تدمير أورشليم وإلغاء يهوذا من الخارطة السياسية الفلسطينية إلى الأبد حوالي عام ٥٨٧ق.م. أما من تبقى من سكان يهوذا فقد أقام عليهم نبوخذ نصر واحداً من بينهم اسمه جدليا بن أخيقام، ليدير شؤونهم ويجمع منهم الجزية السنوية للبلاط البابلي.

هذا ورغم عدم توفر نص بابلي يصف الحملة الأخيرة على أورشليم وتدميرها، إلا أن تنقيبات كاثلين كينيون قد كشفت عن آثار دمار وحرائق في موقع أورشليم ترجع إلى بدايات القرن السادس، وانقطاع في السكن دام قرابة قرن من الزمان، كما كشفت عن آثار دمار في العديد من مواقع يهوذا الأخرى وانقطاع في السكن دام قرابة قرن ونصف. وخلال العقود القليلة التي سبقت انهيار الإمبراطورية البابلية، كانت يهوذا عبارة عن مقاطعة بابلية فقيرة اقتصادياً وسكانياً تحكم من قبل والي محلي أو بابلي يقيم في بلدة المصفاة القريبة من أورشليم المهجورة، وربما أُلحقت بمقر إداري آخر قريب بعد ذلك.

إن خلاصة ما تقودنا هذه المعلومات التي سردناها حول تاريخ مملكة يهوذا، (وهي كل المعلومات التي يمكن للمؤرخ استخلاصها من المصادر الخارجية، ومن المادة التوراتية المتقاطعة معها) هو أن هذه المملكة قد قامت في المناطق الهضبية الفلسطينية بعد قرن ونصف من قيام مملكة السامرة، عندما بدأت أورشليم تتخذ وضع العاصمة الإقليمية القوية لأول مرة في تاريخها، وتبسط سلطانها على المناطق الزراعية الآخذة بالازدهار إلى

جنوبها. أما سكانها فقد أتوا من ثلاثة مصادر محلية، ولا علاقة لهم بسبط يهوذا التوراتي. المصدر الأول هو الزيادة المتسارعة في عدد السكان بعد انقضاء فترة الجفاف الميسيني، والمصدر الثاني هو سكان المناطق الفلسطينية المقتلعين من مواطنهم خلال الفترة الانتقالية، والمصدر الثالث هو الجماعات الرعوية التي جاءتها من المناطق الجنوبية والشرقية، بسبب وضع يهوذا الجغرافي المنفتح على مناطق البوادي. وقد أخذت هذه الجماعات الرعوية بالاستقرار وزراعة الأرض، أو أنها قد أُجبرت على الاستقرار من قبل سلطات أورشليم، عندما صارت أورشليم سوقاً رئيسية لمنتجات الكرمة والزيتون والمحاصيل المتوسطية الأخرى. فمملكة يهوذا، في نشأتها ومسار حياتها ونهايتها، هي مملكة فلسطينية، كنعانية اللغة والثقافة والدين والتكوين الإثني. وقد عاشت قرابة قرنين من الزمان، واستطاعت في فترات قوتها بسط سلطانها على مدن سهل شفلح، خصوصاً بعد دمار لخيش عام ٧٠١ق.م، كما تجاوز نفوذها مناطق بئر السبع جنوباً باتجاه قادش برنيع ومناطق سيناء الشمالية، ثم جاءت نهايتها عندما فشل ملوكها في لعبة الكبار التي لم يتقنوها.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل كانت مملكتا السامرة ويهوذا يهوديتين؟ وهل دان أهلوهما بالديانة التوراتية؟ هذا ما سنتعرض له في الفصل المقبل.

الفصل الحادي عشر

يهوه وآلهة كنعان
الثقافة والدين في المملكتين

يتجلى الانتماء الثقافي الكنعاني للمملكتين (كما أوضحنا عبر الفصول السابقة) في جميع اللقى الأثرية، والأوابد المعمارية المكتشفة التي تنتمي للمتُحَد الثقافي السوري، وتنسج في مفاهيمها المعمارية ومعظم تفاصيلها على منوال الأوابد المعمارية الفينيقية والشامية. كما يتجلى هذا الانتماء الثقافي في اللغة التي تكلمها أهل السامرة ويهوذا، وفي القلم الذي كتبوا به. فاللغة التي تكلموا بها هي لهجة كنعانية فلسطينية قريبة جداً من لهجة فينيقيا وأوغاريت، والقلم الذي كتبوا به لغتهم هو القلم الفينيقي الآرامي بعينه. وقد كان محررو التوراة مدركين لهذه الحقيقة عندما أطلقوا على لغتهم اسم لغة كنعان أو شفة كنعان، ولم يطلقوا عليها اسم اللغة العبرية أبداً (انظر على سبيل المثال أشعيا ١٩ :١٨). فهل شذّت الظاهرة الدينية عن بقية مظاهر الثقافة في المملكتين؟ وهل كان للسامرة ويهوذا ديانتهما المتميزة عن الديانة الكنعانية؟

إن مؤرخ الأديان لا يستطيع قول شيء بخصوص المعتقد الديني لثقافةٍ ما، منقطعة عنا زمنياً، إذا لم يترك لنا أهل تلك الثقافة مخلفات تدل على معتقداتهم وطقوسهم، مثل صور الآلهة، والمقامات المقدسة، والأدوات الطقسية. وإذا تم تدعيم هذه المخلفات المادية بالوثائق المكتوبة التي تنتمي إلى نفس الفترة التي جاءت منها المخلفات المادية، تجمعت لدى مؤرخ الأديان كل الشواهد المباشرة التي تعينه على رسم صورة عامة عن ذلك المعتقد. أما الشواهد المباشرة التي تعينه على رسم صورة عامة عن ذلك المعتقد. أما الشواهد غير المباشرة، مثل الكتابات المتأخرة التي تصدت بعد قرون طويلة لوصف ذلك

المعتقد، فيجب عدم اعتمادها إلا بمقدار ما تتقاطع مع الشواهد المباشرة وتلقي ضوءاً عليها. فهل وصلتنا مثل هذه الشواهد والبيّنات المباشرة من عصر مملكتي يهوذا والسامرة؟ وما الذي يستطيع مؤرخ الأديان قوله استناداً إلى دراستها وتحليلها؟

حتى وقت قريب كان النص التوراتي المتأخر قروناً عدة على دمار السامرة ويهوذا هو الوثيقة الوحيدة المتوفرة لدينا. وهذه الوثيقة كانت تقول لنا بأن أهل المملكتين كانوا على المعتقد الأرثوذوكسي التوراتي كما رسمته الأسفار التوراتية، وأنهم ما كانوا يزيغون عن هذا المعتقد إلا ليعودوا إليه سريعاً. غير أن التنقيبات المكثفة التي جرت خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين في أراضي السامرة ويهوذا، وفي المناطق التي يُفترض أن نفوذهما امتد إليها أحياناً، قد أمدتنا بفيض من الشواهد والبيّنات المباشرة، وهي تقول لنا بأن أهل المملكتين لم يكونوا على المعتقد الأرثوذوكسي التوراتي الذي تمت صياغته في الفترات المتأخرة خلال العصر الفارسي والهيلنيستي، ولا يوجد شاهد أثري أو نصي واحد يشير إلى أي شكلٍ، ولو جنيني من أشكاله. فديانة المملكتين كانت استمراراً طبيعياً لديانة كنعان في عصر الحديد الأول وما سبقه، والآلهة التي عُبدت هنا هي آلهة كنعان التقليدية، وكل ما تم الكشف عنه من معابد ومقامات دينية كان مكرساً لعبادات الخصب المتأصلة منذ القدم. أما الإله يهوه الذي اختاره التوراتيون المتأخرون ليعبدوه وحده من دون بقية آلهة كنعان، فلم يكن إلا واحداً من آلهة فلسطين القديمة وعضواً في مجمع آلهة موسع يضم العديد من الآلهة والإلهات، وكان متزوجاً من الإلهة عشيرة، وهي الإلهة التي نعرفها جيداً في الميثولوجيا الكنعانية منذ عصر أوغاريت الذهبي الذي أمدنا بالنصوص الأدبية والدينية الشهيرة.

في كتابه الصادر عام ٢٠٠١ تحت عنوان The Bible Unearthed، يقول عالم الآثار الإسرائيلي إ. فنكلشتاين بخصوص ديانة يهوذا وأصل العبادة في هيكل أورشليم ما يلي:

«إن المؤسسات السياسية والدينية في أورشليم لم تمارس سلطتها على عامة السكان في المناطق الريفية بالطريقة التي يقدمها لنا النص التوراتي. ذلك أن الاستمرارية مع الماضي، لا المستحدثات السياسية والدينية المفاجئة، هي السمة التي ميزت مجتمع يهوذا خلال القرون المبكرة من عصر الحديد. وهذا ما نستطيع ملاحظته بشكل أكثر وضوحاً في الممارسات الدينية التي كانت الهاجس الرئيسي للعاكفين على تدبيج الأسفار

التاريخية في يهوذا. لقد تحدث سفرا الملوك الأول والثاني بكل صراحة عن الردة الدينية لشعب يهوذا والتي كانت وراء سقوط المملكة، ووصف سفر الملوك الأول بوادر هذه الردة منذ عهد رحبعام أول ملوك يهوذا، وذلك في عبارات نمطية استخدمها محرر السفر بعد ذلك مراراً وتكراراً في فضح انحراف شعب وملوك يهوذا: وعمل يهوذا الشر في عيني الرب، وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التي أخطأوا بها. وبنوهم لأنفسهم مرتفعات وأنصاباً وسواري على كل تل مرتفع وتحت كل شجرة خضراء. وكان أيضاً مأبونون في الأرض (= عاهرن ذكور في محيط المعبد) فعلوا حسب كل أرجاس الأمم - الملوك الأول ١٤: ٢٢-٢٤.

«قد أوضح علماء التوراة منذ وقت مبكر أن مثل هذه الممارسات لم تكن شأناً عرضياً وممارسات وثنية منعزلة، وإنما كانت جزءاً من طقوس متكاملة تهدف إلى طلب عون القوى السماوية من أجل إحلال الخصوبة في الأرض والرخاء بين الناس، وهي تتماثل مع طقوس الشعوب الأخرى المجاورة. وفي الحقيقة فقد أثبتت اللقى الأثرية المكتشفة في منطقة يهوذا، مثل التماثيل الطينية الصغيرة، ومذابح البخور، وآنية التطهير الطقسي، ومناصب التقدمات، أن الممارسات الدينية هنا كانت متنوعة إلى حد كبير، ولا مركزية من الناحية الجغرافية، وبالتأكيد غير مقتصرة على عبادة الإله يهوه في معبد أورشليم.

«في يهوذا التي لم تكن تتمتع ببيروقراطية دولةٍ متطورة، ولا بمؤسسات مدنية على المستوى القومي، كانت الطقوس الدينية موزعة على ساحتين، منسجمتين أحياناً ومتجابهتين أحياناً أخرى؛ الساحة الأولى كانت في معبد أورشليم الذي أعطتنا أسفار الكتاب أوصافاً غزيرة عنه عبر جميع المراحل ولكننا لا نملك عنه شواهد أركيولوجية، أما الساحة الثانية فقد اشتملت على مناطق العشائر المتفرقة في مناطقها الريفية، حيث سادت طقوس تختلف في كثير من الأحيان عن طقوس المعبد. فهنا كانت الأضاحي تقدم في المصلى الخاص بالمعسكر السكني للعائلة الموسعة، أو عند قبور الأسلاف، أو عند مذابح في الهواء الطلق وهي التي يدعوها الكتاب بالمرتفعات.. .. إن وجود هذه المرتفعات وغيرها من أشكال عبادة الأسلاف وعبادة الإله الخاص بالعائلة، لم تكن بمثابة ارتداد عن الإيمان القديم - كما يحاول محرر سفر الملوك أن يقوله لنا - وإنما كانت جزءاً من موروث مغرق في القدم لسكان مرتفعات يهوذا، الذين عبدوا الإله يهوه إلى

جانب آلهة أخرى محلية أو مستوردة من المناطق المجاورة.. .. هذه العبادات المتأصلة لم تكن وقفاً على المناطق الريفية، ولدينا شواهد من النص التوراتي ومن المكتشفات الأثرية ما يؤكد بأن عبادة آلهة أخرى إلى جانب يهوه كانت قائمة في أورشليم ذاتها حتى أواخر عصر المملكة»[1].

إن أول ما يطالعنا في المشهد الديني لفلسطين الكبرى، هو آلاف من التماثيل الأنثوية الصغيرة على هيئة جذع ورأس ونهدين عاريين، وجدت في كل موقع أثري تقريباً، سواء في المعابد والمقامات الدينية أم في بيوت الناس العاديين، ولم تكن أراضي المملكتين في المناطق الهضبية خالية من هذه التماثيل، بل العكس هو الصحيح. فلقد بلغ عدد القطع المكتشفة منها في أورشليم ومرتفعات يهوذا، حتى الآن، ثلاثة آلاف قطعة، وذلك في المستويات الآثارية العائدة للفترة ما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد، أي منذ نشوء المملكة حتى نهايتها (انظر الصور ٤و٩و١٠ في القسم المصور). عن هذه التماثيل ووظيفتها والشخصية الإلهية التي تمثلها، يقول الأركيولوجي الأميركي وليم ديفر (الذي اقتبست منه مراراً في معرض التعريف بالتوجهات التوراتية المحافظة) ما يلي:

«مع اكتشاف هذا الكم الهائل من التماثيل الصغيرة الجذعية، والتي تجاوز عددها الثلاثة آلاف في منطقة يهوذا وحدها، فإن مهمتي كعالم آثار هي أن أفهمها في سياقها الزمني. وبما أننا لا نصنفها في زمرة الدمى العادية، فإني أعتقد بأنها تماثيل خصب أنثوية وأنها تمثل الإلهة عشيرة التي نعرف عنها الكثير، سواء من التنقيبات الأثرية أو من النص التوراتي. ولكن هذه التمثيلات، مقارنة بأشباهها التي وصلتنا من مواقع الثقافة الكنعانية، تبدو أكثر بساطة، كما أنها أكثر احتشاماً بسبب إظهارها لمنطقة الصدر من دون المنطقة السفلى، وهي تعكس المفهوم الإسرائيلي عن الإلهة الأم... وبعد أن أعمد إلى تفسير هذه اللقى الأثرية من وجهة النظر الأركيولوجية والتاريخية، فإن الخطوة المنطقية الثانية هي إجراء المقارنة مع النص التوراتي... ولكن الأمر المحيِّر هو أننا لا نعثر على أية عبارة في النص يمكن لها أن تدل على هذه التمثيلات الجذعية، فهل كان المحررون التوراتيون على علم بوجودها أم لا؟ الأصوب لنا أن نقول بأنهم كانوا على علم بها. ولكن لماذا لم يذكروها بطريقة تسمح لنا بالتعرف عليها؟ الحقيقة هي أنني شخصياً لا أدري... إننا

1 - I. Finkelstein and N. A. Silberman, The Bible Unearthed, PP.240-242.

لا نعرف بالضبط ما الذي كان عليه معتقد الإله يهوه بالنسبة إلى الإسرائيلي العادي. ورغم أن النص التوراتي يقول لنا بأن معظم الإسرائيليين كانوا يعبدون يهوه وحده، إلا أننا نعرف الآن عدم صحة ذلك... إن مكتشفات الخمس عشرة سنة الأخيرة قد أعطتنا الكثير من المعلومات عن عبادات الإسرائيليين القدماء، ويبدو أننا يجب أن نأخذ عبادة الإلهة عشيرة الآن بجدية أكثر من الماضي»[1].

تعطينا الوثائق الأركيولوجية والنصية مادة وافية عن هذه المعبودة الفلسطينية. فمن ألواح مدينة أوغاريت التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، نعرف أن عشيرة كانت أم الآلهة، وإلهة للحب، وراعية لشؤون الأسرة، ومعينة الأمهات في الحمل والولادة. كما كانت زوجة الإله الأعلى إيل، وتدعى أيضاً بالاسم إيلات وهو الصيغة المؤنثة من الاسم إيل. تمثلها المنحوتات العاجية عارية الصدر في وضعية الوقوف وإلهان أقصر منها يرضعان من حليبها. كما تمثلها قطع زينة مصنوعة من صفائح الذهب المضغوط، بأسلوب نمطي مختصر لا يظهر سوى الوجه والثديين، ومنطقة العانة التي تنبعث منها سنبلة قمح ترتفع حتى مفترق النهدين (انظر الشكل رقم ٢٠ أدناه والصورة رقم ١١ في القسم المصور). وقد شاع هذا النوع من تمثيلات عشيرة حتى وصل إلى يهوذا، ولدينا نماذج منه عثر عليها بموقع تل العجول. خلال الألف الأول قبل الميلاد، عُبدت عشيرة في مدن الساحل الفينيقي، حيث صارت زوجة للإله بعل، ودعيت بالاسم عشتارتا وبالاسم تانيت أيضاً. ويظهر الاسم تانيت بشكل خاص لدى فينيقيي المستعمرات المتوسطية في قرطاجة وغيرها، والذين استخدموا في الإشارة إليها رمزها الذي يشبه الصليب المصري الدال على رمز الحياة (الصورة رقم ١٢في القسم المصور) كما عبدت لدى سكان مدن الساحل الفيليستي الذين دعوها عشيرة ودعوها أيضاً ديركيتو وتانيت، واستخدموا في الإشارة إليها نفس الرمز الفينيقي. أما في يهوذا والسامرة فقد دعيت بالاسم «عشتورت» وبالاسم «عشيرة» الذي حولته الترجمات العربية إلى «سارية».

نفهم من كتاب التوراة أن سكان المملكتين قد عبدوا الإلهة عشيرة من خلال ثلاثة تجسيدات كانت ترمز إلى حضورها بينهم وفي معابدهم. في التجسيد الأول كانت

١ – عن مقابلة أجرتها مجلة علم الآثار التوراتي مع وليم ديفر:
Biblical Archaeology Review, July-August 1996. PP.36-37.

٢٠ - صفحائح من الذهب المضغوط
تمثل الآلهة عشيرة من أوغاريت

عشيرة حاضرة من خلال صورها وتماثيلها المنصوبة في المعابد والمنازل، فقد صنعت أم الملك آسا ملك يهوذا تمثالا لعشيرة ووضعته في محرابها المنزلي، على ما يورده نص سفر الملوك الأول ١٥: ١٣. أما الملك منسي فقد صنع تمثالا لعشيرة ونصبه في هيكل أورشليم، على ما يورده نص سفر الملوك الثاني ٢١: ٧. وفي التجسيد الثاني كانت حاضرة من خلال شجرة خضراء تزرع قرب المذبح، وخصوصا في المقامات المقدسة المبنية في الهواء الطلق على ما يورده نص سفر التثنية ١٦: ٢١ ونص سفر القضاة ٦: ٢٥. هذه الشجرة المقدسة هي التي أشار إليها الأنبياء أشعيا وإرميا وحزقيال في معرض تنديدهم بطقوس أهل المملكتين التي كانت تجري تحت كل شجرة خضراء، على حد تعبيرهم (أشعيا ٥٧: ٥، وإرميا ٢: ٢٠، وحزقيال ٦: ١٣). أما في التجسيد الثالث، فقد كانت عشيرة حاضرة من خلال جذع شجرة مقتطع ينصب في المعبد قرب المذبح. وقد استخدم النص العبري للتوراة الاسم «عشتورت» في الإشارة إلى شخصية الإلهة، بينما استخدم الاسم «عشيرة» في الإشارة إلى جذع الشجرة التي يرمز إليها، وجمعها على صيغة «عشيرتيم»، في الوقت الذي حولت فيه الترجمات العربية الاسم عشيرة إلى سارية وجمعتها على صيغة سواري.

على أن ما لم يقله لنا محررو التوراة، الذين كانوا يؤسسون لوحدانية عبادة الإله الفلسطيني القديم يهوه، هو أن عشيرة لم تكن تعبد وحدها في المملكتين، بل مع زوجها الذي هو يهوه بالذات، قبل أن تتبدل صورته المشرقة كإله للخصب، ويغدو أقرب إلى الكائنات الشيطانية الظلامية في أسفار التوراة. ومصدرنا عن هذه المعلومة هو عدد من النصوص القصيرة التي وصلتنا من أراضي يهوذا، وعرفنا منها أن الإله يهوه كان معبودا رئيسيا في كل من السامرة ويهوذا، إلى جانب عدد آخر من الآلهة الكنعانية، وربما كان رئيسا للبانثيون في معتقدات المملكتين. هذه النصوص القصيرة لا تكفي مؤرخ الأديان لرسم صورة واضحة عن هذا الإله الفلسطيني القديم، ولكن قراءة ما وراء السطور، مقرونة بتحليل الأعمال التشكيلية المرافقة للنصوص، تكفي للاستنتاج بأن يهوه يهوذا والسامرة، لم يكن إلا الصيغة المحلية من الإله الكنعاني الساحلي بعل، وأن الزوجين يهوه وعشيرة هما قطبا ديانة الخصب في مناطق فلسطين الهضبية الداخلية.

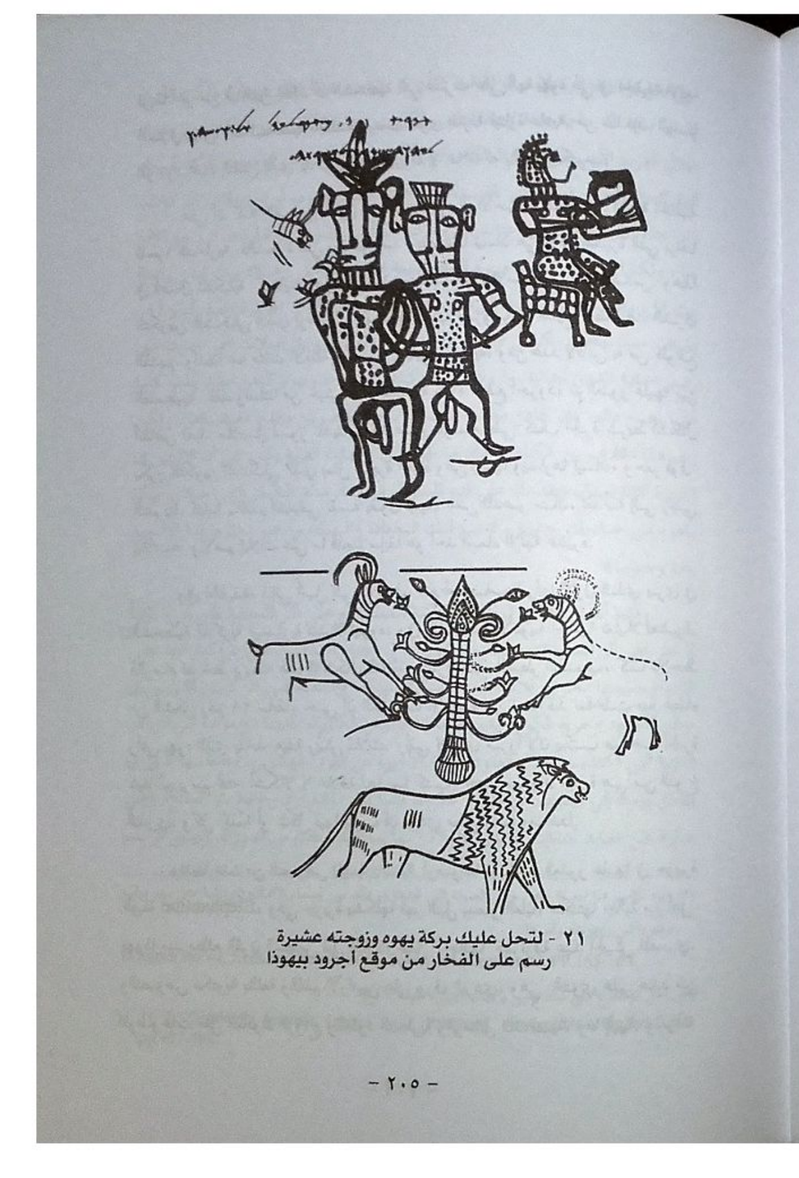
في موقع خربة الكوم على مسافة ثمانية أميال إلى الشرق من مدينة حبرون (الخليل)، تم مؤخرا اكتشاف قبر على شكل غرفة مبنية بالحجر نقش على جدارها الجملة التالية: «لتحل عليك بركة الإله يهوه وعشيرته»[١٤]. وتحت الجملة، هناك كف ليد إنسانية محفور على الصخر (انظر الصورة رقم ٥ في القسم المصور). وفي موقع أجرود بسيناء الشمالية تم اكتشاف محطة قوافل وبها معبد صغير عثر فيه على نقوش متفرقة تذكر أسماء الآلهة إيل وبعل ويهوه. كما ورد اسم يهوه مقترنا بزوجته عشيرة منقوشا على جرار فخارية ضمن نصوص قصيرة نمطية يقول أحدها: «لتحل عليك بركة يهوه، إله السامرة، وعشيرته». ويقول آخر «لتحل عليك بركة يهوه إله تيمن، وعشيرته». والاسم تيمن يرد في التوراة للدلالة على المناطق الصحراوية إلى الجنوب من يهوذا بشكل عام. ويقول ثالث: «قال أماريو لسيدي... فلتحل عليك بركة يهوه وعشيرته. ليباركك يهوه ويحفظك ويكون إلى جانبك»[١٥]، وقد أرجع علماء الخط السامي القديم هذه النقوش إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

تحت النقش الذي يذكر يهوه إله السامرة وزوجته عشيرة، هنالك رسم يصور ثلاث شخصيات، رجلان في المقدمة بقضيبين ذكريين ضخمين يشبكان ذراعيهما إلى بعضهما، وامرأة في خلفية اللوحة تجلس على كرسي وتعزف على آلة موسيقية. وعلى الجهة الخلفية من الجرة لدينا رسم آخر يصور شجرة الحياة، رمز ألوهة الخصب المشرقية، يحملها أسد. وعن يمين ويسار الشجرة تيسان يقصدانها ويأكلان من أوراقها (انظر الشكل رقم ٢١ أدناه). فيما يتعلق بالرسم الأول ذي الشخوص الثلاثة، رأى بعض البحاثة أن الشخصية الواقفة على اليسار تمثل الإله يهوه، بينما تمثل المرأة العازفة على القيثارة الإلهة عشيرة. ولكنهم احتاروا في تفسير الشخصية الذكرية الواقفة إلى اليمين، خصوصا وأنها تحمل إلى جانب القضيب الذكري الضخم صدرا أنثويا أشار إليه الرسام بدائرتين صغيرتين على غرار الدائرتين الموجودتين على صدر الشخصية الأنثوية الخلفية[١٦]. ولكن

14- J. G. Tylor, Was Yahweh Worshiped as the sun?, Biblical Archaeology Review, May-June 1994.

15- J. Callaway, Seltlement an Judges, in: Hershel Shanks, Ancient Israel pp.82-83.

16- Ruth Hestren, Understanding Asherah, in: Biblical Archaeology Review, September- October 1991.



٢١ - لتحل عليك بركة يهوه وزوجته عشيرة
رسم على الفخار من موقع أجرود بيهوذا

فريقاً آخر من الباحثين يعتقد أن الشخصية التي فُسرت على أنها يهوه هي في الحقيقة الإله المصري بيس، أما الشخصية الجالسة فليست سوى عازفة قيثارة عادية. من هنا فإن الرسم الموجود تحت النقش الذي يذكر يهوه وعشيرته لا علاقة له بالنص المكتوب.

على أن كلا الفريقين متفق بخصوص الرسم الآخر المرسوم على الجهة الخلفية للجرة الفخارية. فالشجرة التي يحملها أسد ويقصدها تيسان هي الإله عشيرة التي نراها في أعمال تشكيلية كنعانية أخرى عارية ومنتصبة فوق الأسد، حيوانها المقدس. وهذا التكوين التشكيلي الذي يرمز إلى ألوهة الخصب معروف في جميع حضارات الشرق القديم، ولدينا عنه مئات الأمثلة من سومر وبابل وسورية، ومن عدد لابأس به من المواقع الفلسطينية. فقد وصلتنا من لخيش جرة مشابهة لجرة موقع أجرود، تم العثور عليها بين أنقاض معبد ملاصق لسور المدينة. وقد صور الرسام على كتف الجرة شريط أشكال يكرر التكوين التشكيلي الذي يمثل شجرة الحياة وعن يمينها ويسارها تيسان، وحفر فوق الشريط كتابة بالقلم الفينيقي نفسه يقول فيها: «من المدعو متان، تقدمة إلى ربتي إيلات». والاسم إيلات على ما قدمنا سابقاً هو أحد أسماء الإلهة عشيرة.

وفي الحقيقة، فإني أميل إلى الوقوف مع أصحاب الرأي الأول الذي يرى في الشخصية الذكرية اليسارية تمثيلاً ليهوه، وفي الشخصية الأنثوية الخلفية تمثيلاً لعشيرة. فالرسام قد خط بريشته هذه الأشكال الثلاثة مباشرة تحت السطر المكتوب، كما نلاحظ من الشكل رقم ٢١ سابقاً، حتى أن الكلمات الأخيرة من نصه قد تداخلت مع غطاء رأس يهوه الذي يأخذ هيئة ريِّش ثلاث. وأني لا أرى مبرراً لأن يكتب صاحب الجرة شيئاً ثم يرسم تحته أشكالاً لا علاقة لها بما كتب، خصوصاً وأن الجرة هي من النوع النذري، وكل كلمة أو شكل فيها يجب أن يؤدي معنى معيناً ومحدداً.

ولدينا عدد من النصوص المهمة بالنسبة لموضوعنا هنا، تم العثور عليها في جزيرة الفِيَلَة Elephantine، وهي جزيرة يشكلها نهر النيل بمصر العليا، سكنتها جالية من أهل يهوذا منذ مطلع القرن السادس قبل الميلاد، عمل رجالها كمرتزقة عند الجيش المصري. والنصوص مكتوبة باللغة والقلم الآراميين على ورق البردي، وهي تحتوي على عدد من الموضوعات مثل صكوك الزواج والعقود التجارية والرسائل الشخصية، وما إليها. ونعرف

من بعض برديات المراسلات أن الجالية كانت قد شيدت معبداً للإله يهوه(*)، ولكن المعبد قد تهدم وهناك حاجة ماسة لإعادة بنائه. ولكن يهوه هذه الجالية، التي ارتحلت من يهوذا خلال الهزيع الأخير من حياة المملكة، لم يكن معبوداً وحيداً، والبرديات تذكر أسماء آلهة كنعانية أخرى في معرض القسم، أو الإشهاد على العقود، أو استجلاب البركات. ومن هذه الآلهة هناك الإلهة عنات المعروفة لنا جيداً من نصوص أوغاريت كزوجة للإله بعل، ولكنها ترد في برديات جزيرة الفيلة بصيغة عنات – ياهو. وهناك بيث إيل، وعناة بيث إيل، وإيشيم، وإيشيم بيت إيل، وحِرم بيت إيل. وكان في الجزيرة معبد كبير آخر يضاهي معبد ياهو، مكرس لإله اسمه خنوب. ونفهم من المراسلات التي جرت بين رئيس الجالية المدعو جدانية وأورشليم، أن كاهن معبد خنوب وكاهن معبد ياهو كانا على خصام دائم، وأن كاهن معبد خنوب قد استعان بالمصريين وهدم معبد ياهو. ولكن رغم هذا الخلاف بين الكاهنين فإن ما نقرؤه في برديات الفيلة يشير إلى أن الإلهين في الجزيرة كانا يعبدان ويقدسان على قدم المساواة، ومنها الرسالة التالية: «إلى سيدي ميكا ياهو، من خادمك جيديل، أتمنى لك السعادة والهناء، وأدعو لك بركة الإلهين ياهو وخنوب»[1].

وكما أننا لا نعثر في الوثائق الكتابية للمملكتين على أثر للمعتقد التوراتي، فإننا لا نعثر على أثر للمعقدات والطقوس التوراتية في معابد المملكتين التي تم اكتشافها حتى الآن، وجميعها مكرس للآلهة الفلسطينية التقليدية. فإضافة إلى المركزين الدينيين في موقعي أجرود وخربة الكوم، الذين قدما لنا النقوش الكتابية، لدينا مجموعة من المراكز الدينية التي اكتشفت خلال العقود القليلة الأخيرة من القرن العشرين، ومعظمها ظهر في مناطق يهوذا إلى الجنوب من مدينة حبرون فيما بين موقع أرد وموقع بئر السبع، وهي عبارة عن معابد كنعانية تقليدية لاعلاقة لها بمعتقد وطقوس التوراة. ويبين الرسم

(*) ويرد الاسم هنا بصيغة ياهو، وهي الصيغة التي نجدها في عدد من أسماء الأعلام التوراتية مثل يهو ياقيم ويهوياكين ويهوشع وغيرها.

1- James Purvis, Exile and Return in: H. Sahnks, Ancient Israel. PP.163-164.

ومن أجل الإطلاع على نماذج من برديات جزيرة الفيلة راجع:
H. L. Ginsberg, Aramaic Letters in: J. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts pp.491-492

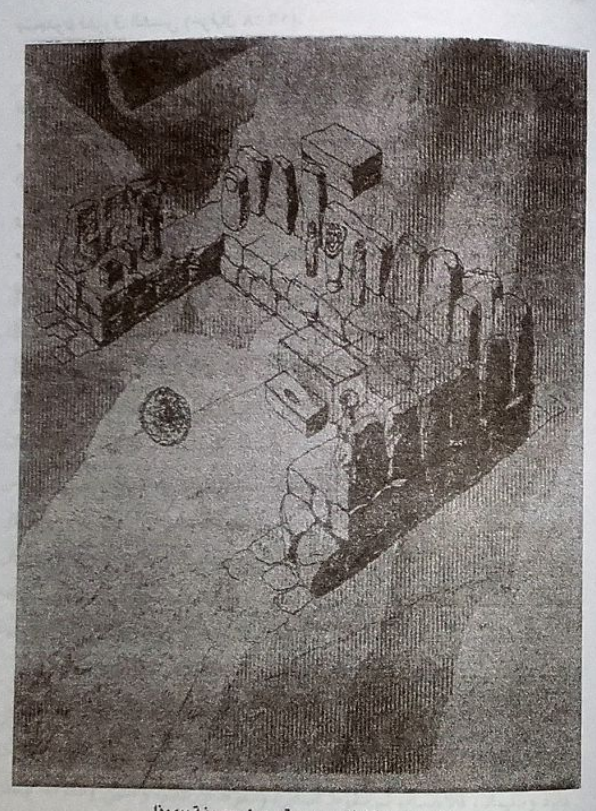
التخطيطي الموضح في الشكل رقم ٢٢ نموذجا من هذه المعابد، وهو من موقع عين حصيفة.

على أن أهم وأخطر مركز ديني كنعاني من فترة مملكة يهوذا، قد تم اكتشافه في أورشليم ذاتها خلال حملة تنقيبات كاثلين كينيون (١٩٦٠-١٩٦٧)، وأرجعت المنقبة تاريخه إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، أي إلى فترة ظهور أورشليم كعاصمة إقليمية قوية. يقع هذا المركز على مسافة ٣٠٠م من الجدار المفترض لهيكل سليمان، وهو يلاصق السور الشرقي اليبوسي من جهة الخارج. إن ما تبقى من هذا المعبد يجعل منه أكمل المعابد التي تم اكتشافها حتى الآن من عصر المملكتين. فهنالك سور ضخم يحيط بالمعبد، وهنالك قدس الأقداس الذي يتصدره عمودا الماصيبوث رمز ألوهة الخصب الكنعانية، وهنالك المذبح. وفي كهف صغير مخصص لحفظ التقدمات النذرية، تم التعرف على عدد كبير من التماثيل الجذعية العشتارية التي وصفناها آنفا، إضافة إلى تماثيل حيوانية صغيرة، أكثرها يمثل خيولا تحمل على رأسها قرص الشمس[١٨]. ويعتقد بعض الباحثين أن هذه الخيول منذورة للإله يهوه الكنعاني الذي كان أهل يهوذا يرون في قرص الشمس رمزا له، شأنه في ذلك شأن الإله بعل، وكثير من ألوهات الخصب المشرقية التي ارتبطت بالشمس[١٩].

كل هذا يدعونا إلى القول بأن هيكل سليمان المدعو بالهيكل الأول، لم يكن بدوره إلا معبدا كنعانيا مكرسا لعبادة الإله الفلسطيني يهوه وزوجته عشيرة. فإلى جانب ما أوردناه سابقا من انتماء الهيكل إلى النمط المعماري لمعابد الخصب السورية، فإن مقاطع حية من سفر حزقيال تعطينا صورة عن طقوس الخصب التي كانت تقام فيه خلال أواخر عصر المملكة. فهنالك تمثال ضخم لإله لا يذكر لنا النص اسمه منصوب عند الجهة الشمالية من باب المذبح (حزقيال ٨: ٥)، وعلى جدران قدس الأقداس من الداخل صور وتماثيل، وشيوخ بني إسرائيل يقدمون بخورهم أمامها (حزقيال ٨: ٩-١١)، وعند باب الهيكل الشمالي هنالك نسوة جالسات يبكين على موت إله الخصب

18- Katheen Kenyon, Digging up Jerusalem, PP.133-143.

19- J. Glen Taylor, Was Yahweh Worshiped as The Sun? in: Biblical Archaeology Review, May- July 1994.



٢٢ – معبد كنعاني من موقع عين حصيفة بيهوذا

(حزقيال ٨: ١٤-١٥)، وبين الرواق الداخلي والمذبح هنالك خمسة وعشرون كاهناً يسجدون لشروق الشمس (حزقيال ٨: ١٦).

لقد قلت في بداية هذا الفصل بأن مؤرخ الأديان لا يستطيع قول شيء بخصوص المعتقد الديني لثقافة منقطعة عنا زمنياً، إذا لم يترك أهل تلك الثقافة مخلفات تدل على معتقداتهم وطقوسهم. ولقد ترك لنا أهل السامرة ويهوذا ما يكفي للتعرف على حياتهم الروحية، وما تركوه لنا عبر أربعة قرون من حياة المملكتين يدل على استمرارية ثقافية ودينية غير منقطعة مع الثقافة الفلسطينية الكنعانية في عصر الحديد الأول وما وراءه. أما ما يقوله لنا محررو الأسفار التوراتية بخصوص الحياة الدينية في المملكتين، فليس إلا إسقاطات لاحقة لا تفيدنا في التعرّف على الماضي بقدر ما تفيدنا في فهم التوجهات الفكرية والنفسية للقائمين على عملية صياغة الإيديولوجيا التوراتية وهي في طور التشكّل. إن التاريخ الحقيقي للسامرة ويهوذا، هو ملك للتاريخ الثقافي والسياسي السوري الفلسطيني، أما إسرائيل ويهوذا التوراتيتين فليستا إلا نوعاً من التهويمات الأدبية التي تحكم عملية السرد التوراتي.

إلى هذه النقطة من دراستنا، نحن لم نستطع العثور على أثر ثقافي أو كيان سياسي لليهود في فلسطين. في الفصول القادمة، سوف ننتقل إلى ما يدعوه المؤرخون بفترة الهيكل الثاني، وهي الفترة التي شهدت ولادة وتشكّل الدين اليهودي، واستكمال تحرير الأسفار المقدسة على يد عدد كبير من كهنة أورشليم. ولكننا سوف نتوقف أولاً عند ما يشبه خاتمةً للقسم الأول من دراستنا.

الفصل الثاني عشر

أزمة التاريخ التوراتي

تعتمد الهوية اليهودية بالدرجة الأولى على التاريخ. فإله التوراة إله فاعل في التاريخ، يعمل على توجيهه منذ بداية العالم إلى اليوم الأخير، وفق خطة محكمة هدفها النهائي نصر شعبه على بقية شعوب العالم، وتأسيس مملكته التي يحكمها بشكل مباشر على الأرض، ويكون فيها شعب إسرائيل أمةً كهنة، أما شعوب الأرض قاطبة فتصير عبيداً وإماءً في خدمة شعب يهوه. وهذا ما يوضحه على خير وجه النبي أشعيا عندما يقول: «ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن...إلخ. ويرفع رايةً للأمم، ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض... لأن الرب سيرحم يعقوب، ويختار أيضاً إسرائيل ويريحهم في أرضهم، فتقترن بهم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب، ويأخذهم شعوب ويأتون بهم إلى موضعهم، ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيداً وإماءً، ويسْبُون الذين سبَوْهم ويتسلطون على ظالميهم» أشعيا: ١١: ١١-١٢ و١٤: ١-٢.

تكتسب كل مراحل الرواية التوراتية معناها من هذه الخطة التاريخية. ذلك أن كل معاناة شعب التوراة منذ الخروج من مصر، إلى دخول كنعان، فالعصر الذهبي لمملكة داود وسليمان، فالانقسام، ثم سقوط السامرة وسقوط أورشليم، والسبي والعودة، ليست إلا سلسلة مراحل تطهيرية من شأنها إعداد شعب يهوه للمهمة المعهودة إليه، سواء رغب بها أم لم يرغب. من هنا يأتي الإصرار على المصداقية التاريخية للرواية التوراتية بجميع تفاصيلها، وذلك السعي الأركيولوجي المحموم لربط هذه الرواية بجغرافيتها المفترضة على أرض فلسطين، لأن الحدث التاريخي لا يجري في فراغ بل على مسرح جغرافي محدد

وواضح. ولكن من هنا أيضا جاءت أزمة الهوية اليهودية التي ما إن تم الإحساس بها كاملة في القرن العشرين، من خلال المزاوجة بين امتلاك ناصية التاريخ وامتلاك الأرض التي جرى عليها ذلك التاريخ، حتى تعرضت للزعزعة بعد أن أجهز علم التاريخ وعلم الآثار على تاريخية الحدث التوراتي، وفك ارتباطه بالأرض المزعومة للرواية التوراتية. فإذا كان تاريخ إسرائيل التوراتية ليس إلا أحيولة أدبية، فأي معنى إذن للأرض التي هامت فوقها تلك الأحيولة؟ وأين الهوية اليهودية أمام الإحساس المتزايد بفقدان التاريخ وما يترتب عليه من خسارة الجغرافية؟

في ظل هذا الوضع الذي يهدد الهوية اليهودية، تنعقد منذ عدة سنوات ندوات علمية لمناقشة المستجدات التاريخية والأركيولوجية، وما يمكن أن ينجم عنها من مراجعة شاملة للمسألة اليهودية على المستوى المعرفي. وفي هذا السياق انعقدت في شهر أوكتوبر ١٩٩٩ في مدينة شيكاغو الأميركية، ندوة دولية للبحث في أصول الشعب اليهودي في ظل أزمة التاريخ التوراتي القائمة. رعت الندوة جامعة Northwestern University بالتعاون مع الفيدرالية اليهودية المتحدة لمدينة شيكاغو، ودعي إليها مؤرخون وآثاريون من كلا الفريقين المحافظ والراديكالي، من بينهم أسماء لامعة مثل: P. Machinist الذي يشغل في جامعة هارفرد أقدم كرسي جامعي في الولايات المتحدة، و Baruch Levine صاحب المؤلفات المعروفة في التعليق على أسفار التوراة، و Marc Brettler وهو مؤرخ شاب ومؤلف كتاب جديد مهم صدر له تحت عنوان Creation of History in Ancient Israel، وWilliam Dever ألمع الأركيولوجيين التوراتيين في أميريكا، والرئيس السابق لمعهد أولبرايت للبحث الأثري في مدينة القدس، وThomas L. Thompson أبرز المؤرخين الراديكاليين. وقد وجدت في ملفات هذه الندوة، كما عرضتها مجلة علم الآثار التوراتي[20]، أفضل ما أختتم به ما توصلنا إليه في فصولنا السابقة.

إن أول ما يلفت النظر في ملفات الندوة، هو أن الهوة اليوم قد ضاقت إلى حد كبير بين الباحثين التقليديين من أصحاب التوجهات التوراتية، والباحثين الراديكاليين الذين يطلق عليهم اسم مدرسة كوبنهاجن(*). ففي الأبحاث المقدمة حول ما يدعى بعصر

20- Biblical Archaeology Review, March-April 2000

(*) نظرا لأن جامعة كوبنهاجن قد استقبلت معظمهم وأعطتهم مراكز أكاديمية.

الآباء في سفر التكوين، لم يتصدَ أحد من الباحثين التقليديين للدفاع عن تاريخية القصص المتعلقة بإبراهيم وسلالته بل اكتفى المتحدثون بالتعليق على نظرية أولبرايت القديمة، التي تجعل من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وبقية عصر البرونز الوسيط (١٩٥٠-١٥٥٠) مسرحاً لعصر الآباء، وذلك اعتماداً على الربط بين بعض العادات والتقاليد التي نجدها في سفر التكوين، والعادات والتقاليد التي نستشفها من الوثائق الأكادية لتلك الفترة، وخصوصاً وثائق موقع مدينة نوزي الحورية. من ذلك مثلاً العادة التي تتضمن قيام الرجل الرجل المقطوع النسل بتبني ولد يدير أملاكه في حياته ثم يرثه بعد مماته، وهذا ما فعله إبراهيم عندما تبنى أليعازر الدمشقي. وكذلك العادة التي تتضمن قيام المرأة العاقر بتقديم جاريتها لزوجها لينجب منها أولاداً للأسرة، وهذا ما قامت به سارة زوجة إبراهيم وراحيل زوجة يعقوب. كما وجد أولبرايت في أسماء الآباء، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما يدل على صلتها باللغة الآمورية. وهذا ما أكد له أن عصر البرونز الوسيط الذي شهد انتشار الآموريين في مناطق الهلال الخصيب، هو العصر الذي حدثت فيه قصص سفر التكوين.

ولكن أحداً من المشاركين في الندوة لم يجرؤ على تبني أفكار أولبرايت وتلامذته بهذا الخصوص، في الوقت الذي تصدى فيه الجانب الراديكالي إلى دحضها. فما ورد في وثائق نوزي من قواعد وأعراف اجتماعية لم يكن وقفاً على عصر البرونز الوسيط، ولا على منطقة بعينها، بل نجد ما يشبهها في الألف الأول قبل الميلاد وفي مناطق متنوعة من بلاد المشرق القديم. أما بخصوص أسماء الآباء فهي أسماء سامية شائعة منذ عصر إيبلا في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد هبوطاً إلى الألف الأول قبل الميلاد. وقد اختتم الباحث بنيامين سومر المناقشة بقوله: «إن الصلة في الواقع مفقودة بين أحداث سفر التكوين والفترة التي من المفترض أن السفر يعمل على وصفها». وبذلك تم تعليق عصر الآباء في فضاء تاريخي غير محدد.

عندما انتقل النقاش إلى موضوع بني إسرائيل في مصر، والخروج منها بقيادة موسى، لم يدَّعِ أحدٌ من المشاركين في الندوة بأن لديه أية بيّنات تاريخية أو أركيولوجية على وجود العبرانيين في مصر، ولم يجادل أحد في تاريخية أحداث الخروج أو يقدم أية شواهد على صحة أي عنصر من عناصر القصة التوراتية. وبذلك تم تجاوز هذه النقطة بسرعة ليتسع مجال النقاش بعد ذلك حول الفترة الانتقالية من عصر البرونز الأخير إلى

عصر الحديد، وهي الفترة المفترضة لدخول كنعان واستقرار القبائل العبرانية فيها. وهنا تم الاتفاق بين الجميع على استبعاد نظرية الاقتحام العسكري بقيادة يشوع، بعد أن خيبت التنقيبات الأثرية أنصار هذه النظرية. ففيما عدا موقع حاصور الذي تظهر في الطبقة الأثرية العائدة إلى الفترة الانتقالية آثار دمار شامل، فإن بقية المواقع التي أعلن محرر سفر يشوع مسؤولية الإسرائيليين عن تدميرها، إما أنها قد دمرت قبل مطلع القرن الثاني عشر بوقت طويل ولم تكن مسكونة خلال الفترة المفترضة لدخول يشوع، أو أنها كانت حية ترزق ولم تسمع بحملة يشوع الصاعقة. وقد ختم الباحث بنيامين سومر هذه الحلقة بقوله: «إن نظرية الاقتحام العسكري لأرض فلسطين من قبل القبائل الموحدة بقيادة يشوع بن نون، قد عانت الكثير من النقد العلمي الجدي، ولم يبقَ سوى قلة من الباحثين في موقع الدفاع عنها».

أما بخصوص نظرية الاستقرار السلمي، فرغم أن الأركيولوجي التوراتي وليم ديفر هو الذي تصدى كمتحدث رئيسي فيها، إلا أنه لم يأتِ بنتائج تبتعد كثيراً عن نتائج الفريق الراديكالي. فقد استعرض ديفر نتائج المسح الأثري الذي قام به المنقبون الإسرائيليون في المناطق الهضبية، وخلُص إلى أن مطلع القرن الثاني عشر قد شهد جماعات جديدة بدأت بالتوطن هنا، ولكنه لم يكن مستعداً لإطلاق اسم الإسرائيليين على تلك الجماعات، وإنما فضل استخدام تعبير Proto Israelite والذي يعني مقدمات الإسرائيليين، أي الجماعات الأولى التي نشأ عنها الإسرائيليون فيما بعد. وهذه الجماعات لم تأتِ من مصر ولا من غيرها، بل هي من الذخيرة السكانية المحلية، على ما تدل عليه مخلفاتهم المادية، وربما انضمت إليهم فئات من الوافدين الساميين القادمين من مصر، ولكن الآثار المادية على قدوم هؤلاء معدومة تماماً.

لم تحظَ مملكة داود وسليمان، بنصيب من مناقشات الندوة، ولم تكن مدرجة في جدول الموضوعات. الأمر الذي يدل على أن أحداً من جماعة المحافظين لم يكن مستعداً للدفاع عن تاريخية المملكة ومصداقية أحداثها في القرن العاشر. من هنا فقد تم الانتقال مباشرة إلى عصر المملكتين، وكان المتحدث الرئيسي هو البروفيسور Peter Machinist الذي حاول إظهار تطابق بعض أخبار المملكتين مع المصادر الخارجية، مُركّزاً على فترة القرن السابع وفترة حكم الملك منسي. وبذلك تفادى الدفاع عن تناقضات المحرر

التوراتي فيما يتعلق بالفترات السابقة على القرن السابع، وجهله بالأحداث التي كانت تجري على الساحة سواء داخل فلسطين أم حولها.

واخيراً، اختتمت الندوة بأكثر الجدل حرارة حول فترة تدوين الأسفار الخمسة والأسفار التاريخية. فهل كُتبت هذه الأسفار قبل السبي البابلي وخلاله، على ما يقول به الاتجاه المحافظ، أم أنها نتاج الفترة الفارسية (٥٣٩-٣٣٣ق.م)، والفترة الهيلنيستية (٣٣٣-٦٤ق.م)، كما يقول الاتجاه الراديكالي؟ ولكن رغم حرارة النقاش فإن أحداً من الباحثين المحافظين لم يدَّعِ أن الأسفار الخمسة، أو حتى يشوع والقضاة، قد كُتبت خلال وقت قريب من أحداثها، ولا حتى بعد ذلك بقرنين من الزمان، وهذا ما ضيق شقة الخلاف إلى حد كبير وجعل الفترة المتنازع حولها قصيرة مقارنة مع ادعاءات المتطرفين من مدرسة أولبرايت، والذين جادلوا سابقاً في أن الأسفار التوراتية من التكوين وحتى سفر الملوك الأول، قد كتبت في بلاط المملكة الموحدة.

هذا ويورد الباحث البريطاني فيليب ديفز Philip Davies في نهاية الملف تعليقاً على وقائع الندوة أنقله كاملاً فيما يلي[1]:

«إن الدوافع اللاهوتية تكمن وراء الفشل حتى الآن في تنسيق النص التوراتي في كلٍ مترابط ومتسق. وهذا ما يبدو لنا أكثر وضوحاً في الاتجاه اللاهوتي التوراتي الذي تزعمه Ernest Wright، الأستاذ في جامعة هارفرد منذ عام ١٩٥٩ وحتى وفاته في عام ١٩٧٤. لقد كان هذا الباحث تلميذاً وفياً لوليم فوكسويل أولبرايت، ومنقباً آثارياً متميزاً قاد عدة حملات تنقيبية في فلسطين، كما كان لاهوتياً عميق التأثر بالكتاب المقدس. إن قيمة الروايات التوراتية بالنسبة إليه تكمن في كونها شاهداً على الفعل المقدس في التاريخ، ومن هنا جاء عنوان كتابه المعروف «الله الذي يفعل – God Who Acts». ولكن يا للأسف. فقد قدم لنا إرنست رايت هنا لاهوتياً فجاً وهشاً إلى حد بعيد، وأكثر قرباً من وجوه عدة إلى الأدبيات الأصولية. وتكمن خطورة هذا اللاهوت في أنه يُحمّل علم الآثار مسؤولية توكيد القيم الدينية للتوراة. ذلك أن الإصرار على ربط إسرائيل التوراتية بإسرائيل التي نعرفها من التاريخ، قد ربطها بالمجال المعرفي لعلم الآثار، وترك الكتاب

١ – انظر المرجع السابق الصفحة ٢٧ وما بعدها.

المقدس هشاً أمام النقد، فإذا ما تهاوى البرهان الأركيولوجي تهاوى معه اللاهوت الذي ربط نفسه بالأركيولوجيا.

«على أن الباحثين الراديكاليين الذين عملوا على التفريق الواضح بين إسرائيل التوراتية وإسرائيل التاريخية، قد جعلوا الفرصة متاحة من أجل إعادة القيمة الدينية للنص التوراتي، وذلك من خلال إظهار وجهه الحقيقي كنص أدبي يُعبّر عن الاهتمامات الإيديولوجية لمدونيه الذين عاشوا بعد قرون عدة من الفترات التي تصدوا لرواية أحداثها. فالغاية الحقيقية للمرويات التوراتية، والحالة هذه، تكمن في شكلها الأدبي والفلسفي واللاهوتي، لا في مدى تطابقها أو تعارضها مع التاريخ.

«إن ما يقوله علم الآثار بخصوص الجماعات التي شكلت إسرائيل التاريخية، هو إنها جماعات فلسطينية محلية، وأن ثقافتها التي تعكسها مخلفاتها المادية هي ثقافة فلسطينية لا يمكن تمييزها عن ثقافة بقية المناطق الفلسطينية، رغم احتفاظ تلك الجماعات بهامش من الخصوصية فيما يتعلق بأنماط حياتها الاقتصادية. وإنه لمن المؤكد أن هؤلاء الناس لم يتحدروا من سلف واحد جاء من منطقة ما في بلاد الرافدين(*)، ولم يخرجوا من مصر، ولم يدخلوا كنعان حاملين معهم ديانة نزل وحيها خلال تجوالهم في الصحراء، كما أنهم لم يفتكوا بالسكان المحليين أو يحلّوا محلهم، بل لقد أسسوا تدريجياً مجموعة من القرى في الهضاب المركزية، وعملوا على تعرية الأحراش الدائمة الخضرة من أجل تحضير حقولهم الزراعية. وبمرور الوقت فإن تقارب هذه القرى، وتزايد الصلات العائلية بينها، وشعورها بالحاجة إلى التعاون، قد ولّد عندهم إحساساً بنوع من الهوية الإثنية. ولكن هل أطلق أولئك الناس على أنفسهم الاسم إسرائيل؟ الحقيقة أننا لا ندري، ولكنهم لو فعلوا ذلك، فإن إسرائيلهم تلك ليست إسرائيل الأسفار الخمسة.

«ولقد شكلت تلك الجماعات في النهاية جزءاً من سكان مملكتي إسرائيل ويهوذا، إلى جانب جماعات أخرى حضرية جاءت من خارج المناطق الهضبية، والنص التوراتي نفسه يذكر في أكثر من موضع من سفر القضاة أن الإسرائيليين والكنعانيين قد تشاركوا أماكن السكن في جميع مناطقهم وتزاوجوا فيما بينهم. ولكن بينما ينظر المحرر التوراتي

(*) إشارة إلى أبرام العبراني.

إلى الإسرائيليين والكنعانيين كشريحتين متمايزتين بشكل حاد، فإن علم الآثار لم يستطع تلمس مثل هذا التمايز.

«إن الفجوة بين إسرائيل علم الآثار وإسرائيل التوراتية، هي من السعة بحيث تضعنا أمام مجتمعين متباينين كلياً. وفيما عدا الاسم والمكان الجغرافي المفترض، فإن هذين المجتمعين لا يجمع بينهما جامع. إن إسرائيل التوراتية هي تصور أدبي خيالي، ولكنها مع ذلك تتمتع بإطار مكاني جغرافي واقعي،شأنها في ذلك شأن أي تصور أدبي خيالي آخر، وشأن العديد من الحكايا التوراتية التي صنفها النقد الحديث في زمرة الأدب الخيالي. فحكاية راموث تجري في مؤاب وبيت لحم، وحكاية يونس تجري في يافا ونينوى، وحكاية إستير تجري في بلاط الملك الفارسي. ولكن البحث الأكاديمي لا يأخذ هذه الحكايا مأخذ الجد رغم إطارها الجغرافي الواقعي، مثلما لا يأخذ حكايا ماري الإنكليزية والملك أرثر وفرسان المائدة المستديرة، التي تتخذ من إنكلترا مسرحاً لها، ولا يذهب حد البحث عن هؤلاء في التاريخ الإنكليزي. ذلك أن مجتمعاً يخلقه الخيال الأدبي غالباً ما يتخذ مكاناً له في مكان جغرافي لمجتمع حقيقي.

«إن الإسرائيليين في عصر الحديد، كما صرنا نعرفهم من علم الآثار، لن يستطيعوا التعرف على أنفسهم في الصورة التي رسمها لهم النص التوراتي. ونحن في الحقيقة لا نستطيع التعرف عليهم أيضاً، وعلى ذكرياتهم التاريخية وعباداتهم وعاداتهم الشعبية، من خلال المرويات التوراتية.

«لعل من أهم ما يميز إسرائيل عن كنعان، من وجهة نظر المحرر التوراتي، هو مكان سكن هؤلاء ومكان سكن أولئك. فالكنعانيون كما يراهم المحرر التوراتي هم سكان المناطق السهلية المختلفين إثنياً وثقافياً عن الإسرائيليين. إلا أن مثل هذا التمييز غير واضح بالنسبة لعلم الآثار، وهو تمييز خلقته الإيديولوجيا في زمان لاحق، عندما بدأت مسألة النسب والأصل تتخذ طابع الأهمية في مجتمع مصاب بمرض رُهاب الأجانب، هو مجتمع أورشليم ما بعد السبي البابلي. ويتجلى هذا الرُهاب في الإجراءات المنصوص عليها في تشريعات سفري عزرا ونحميا، والتي تحرم الاختلاط وتمنع الزواج من الأغراب. فهنا أُعطيت الأهمية القصوى لطقوس المعبد ولتطبيق القانون الموسوي، وهنا

فقط يتم التطابق بين إسرائيل التوراتية(*) وإسرائيل التاريخية، ولكن ليس في المجتمع الزراعي الإقطاعي الأقدم ليهوذا والسامرة. إن باستطاعتنا جدلاً أن نصف مزارعي الهضاب بالإسرائيليين وسكان المدن في المناطق السهلية بالكنعانيين، ولكن الملوك الإسرائيليين وبطانتهم قد حكموا في المدن، ونحن لا نستطيع التمييز بين الإسرائيليين والكنعانيين على أساس قبولنا بالمرويات التوراتية القائلة بالتحدر من إبراهيم ويعقوب، وباختيار يهوه لشعب معين، وبالخروج من مصر، لأن هذه الأحداث لا تمتّ بصلة إلى ماضي إسرائيل التاريخية، ونحن لا نستطيع في الواقع معرفة متى، وأين، ولماذا، نشأت هذه المرويات في حلتها الأدبية المعروفة. من هنا، لا يبقى أمامنا سوى التخلي عن مسألة التمييز بين ما يدعى بالكنعانيين في التوراة وما يدعى بالإسرائيليين.

«لقد اقتصرتُ حتى الآن على مناقشة إسرائيل التوراتية كما تبدو في الأسفار الخمسة وفي سفري يشوع والقضاة، ولكن ماذا عن التاريخ الذي تسجله أسفار صموئيل والملوك؟ هل يعرض النص التوراتي هنا أحداثاً أكثر واقعية، خصوصاً وأنه يورد بعض الأحداث التي تتقاطع مع المصادر الخارجية، وبعضها مما لا يتقاطع؟

«لنأخذ على سبيل المثال نقش تل دان الذي اكتُشف مؤخراً مكتوباً باللغة الآرامية، وأُرجع تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد. لقد قرأ البعض في هذا النص جملة «ب ي ت د و د» وفسروها على أنها بيت داود، ورأوا فيها إشارة إلى أسرة داود الحاكمة في أورشليم، ثم قام من يجادل في هذه القراءة ويفسر الجملة بشكل آخر. ولكني شخصياً لا أعير أهمية لصحة تلك القراءة أو خطئها، فلربما يثبت صدقها أو خطؤها في المستقبل. ولكن دعونا نوافق جدلاً على صحتها، فما الذي يعنيه ذلك؟ هل يعني ذلك وجود شخص واقعي يشبه الشخصية التوراتية لداود الذي حكم من أورشليم على مملكة مترامية الأطراف؟ بالكاد. ثم ماذا عن أورشليم التي يُفترض أن داود قد أقام فيها وحكم منها؟ إن أي مراقب موضوعي للجدل الأكاديمي الدائر حول أورشليم القديمة، يدرك بأننا لا نملك أية بيّنة على وجود مركز مديني في موقع أورشليم القرن العاشر، يمكن أن يصلح مقراً لحكم ملك مثل داود الموصوف في التوراة. إن الحملة التي ما زال البعض

(*) وهي يهوذا حصراً، أو بالأحرى مقاطعة أورشليم التي دعيت من قبل الفرس بمقاطعة «يهود» ودعيت في العصر السلوقي والبطلمي بمقاطعة «اليهودية».

يقودها اليوم من أجل الدفاع عن تاريخية المملكة الموحدة (وبالمناسبة، فإن النص التوراتي لا يذكر لنا اسم تلك المملكة)، لتذكرني من وجوه عدة بتلك الحملة التي قادها آخرون منذ سنوات ليست بالبعيدة من أجل الدفاع عن تاريخية إبراهيم وشخصيات عصر الآباء. فهل ستكون هذه الحملة أنجح من سابقتها؟ سوف نرى. ولكني أود أن أذكّر بأن الاثباتات التي دفعت بإبراهيم إلى عالم الخيال الأدبي، هي نفسها التي تُستخدم اليوم ضد داود.

«وباختصار، فإن نُقاد التوراة يتحققون الآن أكثر فأكثر من عدم إمكانية التوفيق على أي صعيد بين إسرائيل التوراتية وإسرائيل التاريخية. ولكن المسألة بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون بأن قيمة الكتاب المقدس تكمن في تاريخيته، ليست علمية بقدر ما هي لاهوتية وسياسية، وعلماء التوراة ينتمون إلى منظومة بحثية تخضع فيها الآراء العلمية لضغوط جماعات تتبنى وجهات نظر ومواقف دينية وسياسية.

«على أية حال، فإن علماء الآثار والنقوش القديمة والانتروبولوجيون، هم الآن أحرار في نشاطهم العلمي بعيداً عن شبح التوراة الذي كان يهيم فوق رؤوسهم. ومن جهة أخرى فن علماء التوراة يستطيعون التعامل مع مسألة متى ولماذا تم اختلاق إسرائيل التوراتية وتاريخها، مع الإدراك التام بأن المرويات التوراتية، في جُلّها، لم تدوَّن من أجل رواية التاريخ بالطريقة التي نفهم بها هذه العملية اليوم ونمارسها؛ أي إعادة بناء الماضي على أسس نقدية وموضوعية وبأدوات بحث علمية. إن مثل هذه العملية لم تكن تحمل فائدة تُرجى، أو معنى مباشراً بالنسبة لمجتمع زراعي قديم (كمجتمع أورشليم ومقاطعتها الصغيرة في فترة الهيكل الثاني). وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن وظيفة تلك المرويات، وعن من أعطاها المشروعية، وعن من قرأها، ولمن تم توجيه فحواها، وأية مصالح واهتمامات خدمت.

«إنني لا أدعو إلى قطع الصلة بين علم الآثار وعلم التوراة، فإسرائيل التوراتية هي، بعد كل شيء، نتاج أيديولوجي لمجتمع تاريخي (=مقاطعة اليهودية في العصر الفارسي) ونحن نحتاج إلى تاريخ موثق للمجتمع والدين الإسرائيلي واليهودي، من أجل فهم الأدبيات التوراتية. ومن ناحيتهم، فإن علماء التوراة يستطيعون من جانبهم المساهمة في توضيح السياق الذي تكونت فيه إسرائيل التوراتية، وذلك من خلال التحليل الأدبي والأيديولوجي للنص.

«لقد تركز موضوع ندوة جامعة Northwestern حول الشعب اليهودي. فالشعب اليهودي هو النقطة التي تنحو كل من إسرائيل التوراتية وإسرائيل التاريخية للقاء عندها. ولكن من الواضح أن الشعب اليهودي يطابق نفسه مع إسرائيل التوراتية، وبهذه الطريقة فإنه يحقق بدقة الغاية التي قصدها النص، وهي خلق إحساس بالهوية. من هنا، فإني أرى بأن النص التوراتي هو الذي ابتكر اليهود واليهودية وليس العكس. ولكن هذه العملية لم تكن وحيدة الاتجاه تماما. وإني لأتفق مع زميلي توماس ل. تومبسون في قوله بأننا نسيء فهم التوراة إذا قرأناه بعين التاريخ، لأن مقاصده لم تكن تاريخية، إنه وثيقة لاهوتية. ولعل أكبر التحديات التي يواجهها علم التوراة اليوم، هو التعامل مع كتاب التوراة باعتباره وثيقة غير تاريخية، أو على الأقل عدم النظر إليه كنسخة فوتو كوبي عن التاريخ. هذه النتيجة التي لا يمكن تفاديها في النهاية لا تقلل من قيمة التوراة. وبالمقابل، فإن علم الآثار لن يستطيع القيام بدوره كاملا إذا لم يحرر نفسه من الضغوط التوراتية والسياسية. إن بعض معارضينا في هذه الأفكار يرون بأننا منحازون إيديولوجيا، ولكن الحقيقة هي أن العكس هو الصحيح».

الفصل الثالث عشر

أورشليم في العصر الفارسي

في حملته الأولى على أورشليم عام ٥٩٧ق.م، أزاح نبوخذ نصر ملك يهوذا المدعو يهوياكين عن العرش وأحل محله عمه صدقيا، وأخذ منه جزية كبيرة حملها إلى بابل. لا يذكر لنا نص نبوخذ نصر المتعلق بهذه الحملة شيئاً عن اقتياد مسبيين من يهوذا، ولكن النص التوراتي في سفر الملوك الثاني ٢٤: ١٤ يذكر أن عدد المسبيين في هذه الحملة قد بلغ عشرة آلاف، إضافة إلى الحرفيين المهرة والأقيان. في حملته الثانية عام ٥٨٧ق.م، دمر نبوخذ نصر هيكل أورشليم وأسوارها وأضرم النار في بيوتها. ورغم أننا لا نملك نصاً بابلياً عن هذه الحملة، إلا أن التنقيبات الأثرية تؤكدها. أما النص التوراتي في سفر الملوك الثاني فيتحدث مرة أخرى عن سبي واسع لأهل أورشليم، ولكن من غير إعطائنا رقماً محدداً عن عدد المسبيين، بل يكتفي بالقول بأن قائد الجيش البابلي قد: «أحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار، وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها. وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة، والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل، وبقية الجمهور، سباهم نبوزردان، ولكنه أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين» ٢٥: ٨-١١.

ومما يزيد في غموض المعلومات التوراتية حول السبي وعدد المسبيين، عدم اتفاق محرر سفر إرميا ومحرر أخبار الأيام الثاني مع ما أورده محرر سفر الملوك الثاني. فسفر إرميا يقول لنا إن عدد المسبيين في الحملة الأولى قد بلغ ثلاثة آلاف مسبي، وفي الحملة الثانية ثمانمئة. وهناك حوالي سبعمئة مسبي بعد القلاقل التي نجمت عن اغتيال الوالي جدليا. أي ما مجموعه أربعة آلاف وخمسمئة نفس. (إرميا ٥٢: ٢٨-٣٠). أما سفر

أخبار الأيام الثاني، فلا يذكر شيئاً عن سبي جرى في الحملة الأولى، ثم لا ينص على رقم محدد في الحملة الثانية، بل يكتفي بالقول: «وسبى ملك الكلدانيين الذين بقوا من السيف إلى بابل، فكانوا له عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس». أخبار الأيام الثاني ٣٦: ٢٠.

أمام هذه المعلومات التوراتية المتضاربة، وعدم تقاطعها مع المصادر الخارجية، لا نستطيع سوى الخروج باستنتاجات مبنية على التوفيق بين الأخبار التوراتية التي ذكرت أرقاماً عن المسبيين، وإهمال الأخبار التي تفادت ذكر الأرقام. فسفر الملوك الثاني ٢٤: ١٤، يقول بأن عدد المسبيين في الحملة البابلية الأولى بلغ عشرة آلاف مسبي، وسفر إرميا ٥٢: ٢٨-٣٠ يذكر رقماً إجمالياً مقداره أربعة آلاف وخمسمئة مسبي في الحملة الأولى والتالية، إضافة إلى الحملة الصغيرة التأديبية التي تلت مقتل الوالي جدليا. وهذا يعني في رأينا، أن الحد الأدنى للمسبيين لم يقل عن ٤٥٠٠، والحد الأعلى لم يتجاوز بكثير العشرة آلاف. وقد تم اختيار هؤلاء المسبيين من أفضل جنود وضباط القطعات العسكرية التي استسلمت للجيش البابلي، ومن بين أفضل الحرفيين والكتبة المتعلمين. أما الغالبية العظمى مع أهل يهوذا فقد تُركت لتتابع حياتها الاعتيادية، وعين البابليون عليهم والياً منهم يدعى جدليا، ليدير شؤونهم ويعمل على تأدية الجزية إلى بابل بانتظام في كل سنة. وبذلك تحولت مملكة يهوذا إلى ولاية بابلية،لا نعرف بالضبط حدودها. فلربما اشتملت على جميع أراضي المرتفعات، ولربما أيضاً تم تقسيمها إلى ولايتين، واحدة في الشمال ومركزها بلدة المصفاة، وأخرى في الجنوب ومركزها مدينة حبرون.

اتخذ جدليا من بلدة المصفاة قرب أورشليم مقراً لإدارته، وراح يحث السكان على متابعة حياتهم الطبيعية، فاطمأن الهاربون الذين لجأوا أيام الحرب مع أسرهم إلى مناطق عبر الأردن، وعادوا إلى أراضيهم فزرعوا وحصدوا وجمعوا خمراً وتيناً وزيتاً كثيراً. كما التحق النبي إرميا بجدليا في المصفاة بعد أن حرره البابليون من سجنه الذي ألقاه فيه الملك صدقيا بسبب معارضته العلنية له والدعوة إلى عدم مقاومة بابل (سفر إرميا ٤٠). وكان بعد فترة، أن عصابة من المعارضين المتحمسين ممن لجأ إلى شرقي الأردن، صعدت إلى المصفاة بقيادة رجل من النسل الملكي اسمه إسماعيل بن نثنيا، فقتلت جدليا في مقره ومزقت الحامية الكلدانية ثم انسحبت إلى بيت عمون (إرميا: ٤١).

خاف السكان بعد هذه الحادثة من انتقام الكلدانيين، وتجمعوا حول قائد عسكري موالٍ لجدليا القتيل اسمه يوحانان بن قاريح، وكان هذا يحثهم على النزوح إلى مصر. ولكن النبي إرميا يرفع صوته مرة أخرى ويحذرهم من ترك أراضيهم والاطمئنان إلى مصر:

«فدعا إرميا يوحانان بن قاريح، وكل رؤساء الجيوش الذين معه، وكل الشعب من الصغير إلى الكبير، وقال لهم هكذا قال الرب إله إسرائيل الذي أرسلتموني إليه لكي ألقي تضرعكم أمامه: إن كنتم تسكنون في هذه الأرض فإني أبنيكم ولا أنقُضكم وأغرسكم ولا أقتلعكم، لأني ندمت عن الشر الذي صنعته بكم. لا تخافوا ملك بابل لأني أنا معكم لأخلصكم وأنقذكم من يده، وأعطيكم نعمة فيرحمكم ويردكم إلى أرضكم... وإن كنتم تجعلون وجوهكم للدخول إلى مصر وتذهبون لتتغربوا هناك، فإن السيف الذي أنتم خائفون منه يدرككم في أرض مصر، والجوع الذي أنتم خائفون منه يلحقكم هناك في مصر فتموتون هناك». إرميا ٤٢: ٨-١٦.

لم يسمع أهل يهوذا لكلام الرب من فم إرميا، فسار معظمهم في هجرة جماعية إلى أرض مصر، ونزلوا في موضع تحفينس بمنطقة الدلتا الشرقية، وهناك تابع النبي إرميا تقريعهم، وتنبأ لهم بسوء العاقبة. وتشف المجادلات التي جرت بين إرميا وأهل جلدته، عن المعتقد الديني لسكان يهوذا خلال هذه الفترة المتأخرة من مطلع القرن السادس قبل الميلاد. فها هم يقولون له بصريح العبارة إنهم لا يحفلون بإلهه، بل يتعبدون لعشيرة ملكة السماوات، كما تعبد لها آباؤهم وملوكهم من قبل:

«إننا لا نسمع لك الكلمة التي كلمتنا باسم الرب، بل سنعمل كل أمر خرج من فمنا، فَنُبَخِّرُ لملكة السماوات ونسكب لها السكائب، كما فعلنا نحن وآباؤها وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم، فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نرَ شراً، ولكن من حين كففنا عن التبخير لملكة السماوات وسكب السكائب لها احتجنا وفنينا بالسيف والجوع... فكلَّم إرميا كل الشعب قائلاً... من أجل أنكم قد بخرتم وأخطأتم إلى الرب ولم تسمعوا لصوته ولم تسلكوا في شريعته قد أصابكم هذا الشر... لذلك اسمعوا يا جميع سكان يهوذا الساكنين في أرض مصر. هأنذا قد حلفت باسمي العظيم، قال الرب. إن اسمي لن يُسمَّى بفم إنسانٍ ما من يهوذا في كل أرض مصر. هأنذا أسهر

عليهم للشر لا للخير، فيفني كل رجال يهوذا الذين في أرض مصر بالسيف والجوع حتى يتلاشوا». إرميا ٤٤: ١٦-٢٧.

تحمل هذه المقاطع من سفر إرميا شيئاً من الحقيقة. فبعد اغتيال جدليا، وقبل اتخاذ السلطات البابلية إجراءات سريعة لمعالجة الموقف، حدثت حالة من الفوضى وفقدان الأمن، أدت إلى نزوح عدد كبير من أهل يهوذا باتجاه مصر، خصوصاً وأن فترة ولاية جدليا القصيرة لم تكن كافية لإنعاش المناطق الريفية التي تحولت إلى أرض محروقة عقب الحملات البابلية، وتعطلت فيها طرق التجارة، مثلما تعطلت طرق التجارة الدولية التي تمر في فلسطين بسبب الحروب البابلية المصرية، ولم يعد بإمكان المزارعين تسويق زيوتهم وخمورهم بما يكفي لأداء الجزية إلى بابل. ولكننا لا نستطيع أن نتصور أن يهوذا قد أُفرغت تماماً من سكانها بسبب النزوح إلى مصر، ولابد أن قسماً لابأس به قد بقي في أرضه وتابع حياته المعتادة. ولسوف نرى فيما بعد أن العائدين من السبي البابلي سوف ينظرون باحتقار إلى السكان الأصليين بسبب اختلاطهم بالأجانب وعدم محافظتهم على نقائهم العرقي.

بعد هذه الأحداث يصمت النص التوراتي عن أخبار يهوذا قرابة خمسين سنة. ولكن علم الآثار يقول لنا إن حياة المدن قد توقفت تماماً خلال هذه الفترة، وأن القرى التي عبرت القرن الأول لدمار أورشليم كانت تعيش حياة فاقة وعوز، ولا يبدو من مخلفاتها المادية أي أثر لحضارة متقدمة. أما عن أوضاع المسبيين في مناطق بابل، فإن مقطعاً من سفر إرميا يقدم لنا معلومات مختصرة عنها. فالمسبيون قد عاشوا عيشة الأحرار هناك، بعد أن اقطعتهم السلطات البابلية أراضٍ استصلحوها وزرعوها وأثْرَوا من غلالها: «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيوتاً واسكنوا فيها، واغرسوا جنات وكلوا ثمرها، خذوا نساءً وأنجبوا بنين وبنات، وخذوا لبنيكم نساءً وأعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقِلّوا، واطلبوا سلام المدينة التي سُبيتم إليها، وصلّوا لأجلها، لأنه بسلامها يكون لكم سلام» إرميا ٢٩: ٥-٧. ولدينا مقاطع من سفر عزرا نستدل منها على ثراء بعض المسبيين الذين تبرعوا بفضة وذهب لإعادة بناء بيت الرب في أورشليم (عزرا ١: ٥-٦ و٢: ٦٨ - ٦٩). ومقاطع أخرى تفيدنا بأن بعض المسبيين كان لديهم عبيد وإماء اشتروهم بمالهم (عزرا ٢: ٦٥).

تعود الرواية التوراتية لالتقاط الخيط مع مطلع سفر عزرا. فبعد استيلاء الملك قورش الفارسي على بابل يُصدر مرسوماً بعودة سبي يهوذا إلى ديارهم: «في السنة الأولى لكورش ملك فارس، نبه الرب روح كورش ملك فارس، فأطلق نداءً في كل مملكته، وبالكتابة أيضاً، قائلاً: جميع ممالك الأرض قد دفعها لي الرب إله السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. مَنْ منكم مِن شعب الرب، ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله الذي في إسرائيل. وكل من بقي في أحد الأماكن، حيث هو متغرب، فلينجده أهل مكانِه بفضةٍ وبذهبٍ وبأمتعةٍ وببهائم، مع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم» عزرا ١: ١-٤.

لم تصلنا وثيقة فارسية بخصوص هذا المرسوم الوارد في سفر عزرا، ولكن لهجته تتفق من حيث الأسلوب مع البيان السياسي الذي أصدره قورش بعد أن آلت إليه أملاك الإمبراطورية البابلية عشية استيلائه على عاصمتها بابل عام ٥٣٩ق.م. وتلفت نظرنا بشكل خاص الفقرة التي يقول فيها: «من ... إلى مدن آشور وسوسة وأكاد وأشنونة، ومدن زامبان وميتورنا ودُر إلى إقليم الغوت، ومدن ما وراء الدجلة، التي كانت معابدها خراباً لسنين طويلة، أعدت إليها آلهتها وأسكنتها بيوتاً دائمة، كما جمعتُ سكان تلك المدن وأعدتهم إلى مواطنهم»[1]. لقد قدم الحاكم الجديد للإمبراطورية المشرقية نفسه لرعاياه على أنه محررهم من نير الحكام السابقين، وأنه ناشر السلام والأمن، وحامي المعتقدات الدينية المتنوعة للشعوب الخاضعة له. كما ميز نفسه عن أباطرة بابل وآشور الطغاة جامعي الجزية والأتاوات، باستهلاله مشاريع إحياء شاملة للمناطق المهجورة التي سُبي أهلها، فشجع على عودة المهجرين إلى مناطقهم وأمدهم بالمعونات اللازمة لبدء حياة جديدة.

ورغم الطابع الإعلامي الواضح لبيان قورش السياسي الأول، فإن الإدارة السياسية في عهد قورش وخلفائه قد وفت بمعظم وعودها للشعوب المحكومة، فأعادت تنظيم مقاطعات الإمبراطورية بطريقة لا مركزية تسمح بأكبر قدر من الحرية للحكومات الإقليمية التي لم تكن تشعر بوطأة الحاكم وطغيانه. وفي بلاد الشام تم تقسيم المنطقة إلى

1- Leo Oppenheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts. in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, P.316.

عدد من المقاطعات الصغيرة، بعضها يخضع لحكام محليين معينين من قبل البلاط الفارسي، كما هو الحال في مقاطعة السامرة ومقاطعة أورشليم، وبعضها الآخر يخضع لملوك محليين ذوي سلطة متوارثة يتمتعون بقسط غير قليل من الاستقلال الداخلي، كما هو الحال في مدن الساحل الفينيقي. ولا أدل على القسط الوافي من الاستقلال الذي كانت تتمتع به المقاطعات الفارسية في بلاد الشام، من السماح لها بصك عملتها الخاصة التي تحمل شعاراتها المحلية أو شعارات الأسر القديمة الحاكمة فيها. وما دامت السلطات الإقليمية تحافظ على الأمن والاستقرار الداخلي وتدفع الضريبة بانتظام، فإن الحكومة المركزية لم تكن تتدخل في شؤونها وفي كيفية إدارتها لمقاطعاتها.

إن النصوص القليلة التي وصلتنا من عصر أسرة قورش الأخمينية، لا تساعدنا على معرفة الكيفية التي تم بها تطبيق سياسة إعادة المهجرين إلى مواطنهم وإحياء المناطق المنكوبة، ولكن من المؤكد أن معظم تلك المناطق قد أفادت من ذلك، فاستقبلت من أراد العودة من أهلها، إضافة إلى خليط من عدة جماعات فقدت ارتباطها بمواطنها الأصلية ولا تمانع من بدء حياة جديدة في أرض جديدة، منساقة وراء نغمة الإعلام الفارسي الجذابة والمقنعة، أو تحت ضغط أسلوب الترهيب والترغيب. وقد جاءت عودة سبي يهوذا في ظل هذه الأوضاع والتوجهات السائدة في مطلع عصر الإمبراطورية الأخمينية.

لقد هلل محرر سفر إشعيا للملك قورش وأطلق عليه لقب مسيح الرب، وهو لقب لا يطلق في التوراة إلا على المختارين الذين مسحهم يهوه ملوكاً بواسطة أنبيائه(*). نقرأ في السفر: «هكذا قال الرب لمسيحه كورش، الذي أمسكتُ بيمينه لأدوس أمامه أمماً، وأحقاءَ ملوكٍ، لأفتح أمامه المصراعين، والأبواب لا تغلق. أنا أسير قُدَّامك، والهضاب أُمهد. أكسر مصراعَيْ النحاس، ومغاليق الحديد أقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابي(*)، ولكي تعرف بأني أنا الرب، الذي يدعوك باسمك، إله إسرائيل» ٤٥: ١-٧

(*) وكلمة المسيح تعني الممسوح بالزيت في طقس ديني خاص يجعل منه ملكاً على شعب يهوه. وفي سفر المزامير يقتصر اللقب على داود، أو على الملك الآتي من سلالته الذي يخلص شعب يهوه من أعدائهم في آخر الزمان.

(*) المقصود بالذخائر والكنوز هنا هو الحكمة ومعرفة الأسرار الخافية.

على أن هذا الفرح العام بصعود قورش، وبمرسومه الخاص بعودة سبي يهوذا، لم يُترجم فوراً إلى حركة عودة جماعية إلى أورشليم. ذلك أن المسبيين الذين كانوا يعيشون حياة دعة واطمئنان، وخصوصاً الأثرياء منهم وأصحاب المناصب في الدولة الفارسية، لم يكونوا مستعدين لترك كل شيء من أجل العودة إلى أرض فقيرة تعيش على أطراف الإمبراطورية. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار هنا أن الجيل الأول من سبي يهوذا قد توفي معظمه، أما الجيل الثاني المولود في السبي، فلم يكن يشعر بالحنين إلى الوطن وبرغبة صادقة في العودة إليه. وأخيراً استطاع المدعو شيشبصر، أحد أفراد النسل الملكي، أن يجمع حوله عدداً من رؤوس الأسر الراغبة في العودة إلى الوطن، وتهيأ الجميع للتوجه إلى أورشليم، ويبدو أن معظم هؤلاء كان من فقراء الحال الذين لم يكن لديهم ما يخسرونه بتركهم ديار بابل. وقبل أن يبدأ شيشبصر رحلة العودة، عينه الملك والياً على مقاطعة أورشليم التي ورثت في التنظيم الجديد مملكة يهوذا، تحت اسم مقاطعة يهود. وهذا الاسم مشتق من الاسم القديم يهوذا. ولكن أراضي المقاطعة الفارسية الجديدة هذه لم تشتمل إلا على المنطقة الشمالية من مرتفعات يهوذا، مع امتدادات شرقية باتجاه غور الأردن، وامتدادات غربية نحو سهل شفلح، أما المنطقة الجنوبية من المرتفعات فقد تم ضمها إلى الولاية الأدومية (انظر الخريطة في الشكل رقم ٢٣ أدناه).

ولمساعدة شيشبصر على الإقلاع في مشروع إحياء أورشليم ومنطقتها، فقد أعاد قورش إليه كنوز معبد أورشليم التي نهبها البابليون، كما أن الأغنياء من مسبيي يهوذا، المتكاسلين عن المشاركة في مشروع العودة، قد تبرعوا لإخوانهم العائدين فأعطوهم فضة وذهباً وبهائم: «فقام رؤساء آباء يهوذا وبنيامين والكهنة...إلخ، وكل الذين حولهم أعانوهم بآنية فضة وبذهب وبأمتعة وبيهائم وبتحف. والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التي أخرجها نبوخذ ناصر من أورشليم وجعلها في بيت آلهته، وأخرجها كورش ملك فارس وعدَّها لشيشبصر رئيس يهوذا. وهذا عددها...إلخ، جميع الآنية من الذهب والفضة خمسة آلاف وأربعمئة. والكل أصعده شيشبصر عند إصعاد السبي من بابل إلى أورشليم». عزرا ١: ٧-١١. ويرجح المؤرخون أن هذه الموجة الأولى من العائدين قد توجهت إلى أورشليم خلال السنة الأولى لدخول قورش إلى بابل (٣٥٩ق.م) أو بعدها بقليل.

٢٣- التنظيم الإداري لسورية الجنوبية في العصر الفارسي

رغم أن الهدف الأول لمشروع العودة كان إعادة بناء بيت الرب في أورشليم، إلا أن شيشبصر وجماعته التي لم يذكر لنا النص التوراتي عددها، قد انشغلت على ما يبدو بالمهام الآنية والمباشرة المتعلقة بتجهيز بيوت لها في خرائب أورشليم وبتأمين لقمة العيش. لذلك ينتقل سفر عزرا بسرعة في إصحاحه الثاني إلى الحديث عن الموجة الثانية من العائدين، بعد مرور سبع عشرة سنة على انطلاق الموجة الأولى، ويختفي شيشبصر من مسرح الأحداث دون سبب واضح.

جاءت الموجة الثانية في عهد الملك داريوس، ابن قمبيز وحفيد قورش، والذي حكم من عام ٥٢٢ إلى عام ٤٨٦ق.م. قاد هذه الموجة الثانية رجل من النسل الملكي أيضاً يدعى زرُبابل. وهو من الجيل الثاني المولود في بابل على ما يدل عليه اسمه الذي يعني حرفياً المولود في بابل. ورافق زرُبابل الكاهن يشوع، كما مشى معه هذه المرة عدد كبير من الأسر بلغ عدد أفرادها وفق سفر عزرا حوالي اثنان وأربعون ألف نسمة. وقبل أن ينطلق زربابل عيّنه داريوس والياً على مقاطعة يهود، وأعاد إليه ما تبقى من كنوز الهيكل وزوده أيضاً بمعونة مالية، وكتب إلى واليه على مناطق غربي الفرات أن يسهل مهمته ويدفع له أيضاً من خراج تلك المناطق. وهذا يدل على مدى جدية الإدارة الفارسية في عهد خلفاء قورش في متابعة مشروع إحياء المناطق المنكوبة، لا في يهوذا فحسب بل في جميع الممتلكات السابقة لبابل وآشور.

شرع زربابل فور وصوله ببناء الهيكل، فتقدم إليه سكان الأرض الذين بقوا في بيوتهم ولم يغادروها في يهوذا، وجمهرة من أهل السامرة، عارضين مساعدتهم ومساهمتهم في بناء الهيكل لأنهم يعبدون نفس إله المسبيين ويرغبون في رؤية معبده مُشاداً مرة أخرى. ولكن زر بابل والكاهن يشوع رفضا عرضهم وصدّاهم على المشاركة: «ليس لكم ولنا أن نبني بيتاً لإلهنا، ولكننا نحن وحدنا نبني للرب إله إسرائيل كما أمرنا كورش ملك فارس» عزرا ٤: ٣. فابتدأ شعب الأرض والسامريون يفتون في عضد القادمين ويصدونهم عن إنهاء مشروعهم بكل الوسائل ويستعْدون عليهم السلطات الفارسية، ولكن زر بابل استطاع إنهاء بناء البيت في السنة السادسة للملك داريوس أي حوالي عام ٥١٦ ق.م. على أننا لا ندري بالفعل ما إذا كان زربابل قد أنهى بنفسه الهيكل، لأن نص سفر عزرا يتوقف فجأة عن ذكر ذكره مثلما توقف عن ذكر شيشبصر،

وعند تدشين الهيكل لا يظهر زربابل ولا كبير الكهنة يشوع في الاحتفال الديني الكبير بهذه المناسبة، ويغلب الظن أن زربابل قد تمت تنحيته قبل إنهاء الهيكل بسبب ما ناله من محبة الناس التي بلغت حد التقديس. وهذا ما نلمحه من بعض مقاطع سفر زكريا التي تحمل نغمة مسيانية واضحة، وآمالا خفية بعودة سلالة داود لتحكم في أورشليم المستقلة: «هو ذا الرجل الغصن اسمه(*)، ومن مكانه ينبت، ويبني الهيكل للرب، وهو يحمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسيه، ويكون كاهنا على كرسيه». زكريا ٦: ١٢ -١٣.

بعد الانتهاء من بناء بيت الرب حوالي عام ٥١٦ق.م تصمت الرواية التوراتية عما كان يجري في أورشليم قرابة خمسين عاما، لتلتقط خيط الأحداث في عام صعود الملك أرتحشتا (أرتزاكسيس الأول)، الذي حكم من عام ٤٦٥ إلى عام ٤٢٤ ق.م. ففي السنة السابعة للملك أرتحشتا، أي حوالي عام ٤٥٨ق.م، انطلقت الموجة الثالثة من العائدين إلى أورشليم، بقيادة الكاهن عزرا ابن سرايا، بناء على توجيهات الملك وبدعم كامل منه، نقرأ في سفر عزرا:

«... وهذه صورة الرسالة التي أعطاها الملك أرتحشتا لعزرا الكاهن، الكاتب كلام وصايا الرب وفرائضه على إسرائيل: من أرتحشتا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن، كاتب شريعة إله السماء الكامل. قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل أن يرجع إلى أورشليم فليرجع معك. من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة، لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم، حسب شريعة إلهك التي بيدك، ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه، مع تبرعات الشعب والكهنة، والمتبرعين لبيت إلههم الذي في أورشليم، لكي تشتري بهذه الفضة ثيرانا وكباشا وخرافا، وتقدماتها وسكائبها، وتقربها على المذبح. ومهما حسن عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقي الفضة والذهب، فحسب إرادة إلهكم تعملونه... أما أنت يا عزرا، فحسب حكمة إلهك التي بيدك(*) ضع حكاما وقضاة يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر (=نهر الأردن)، من جميع من يعرف شرائع إلهك، أما الذين لا يعرفون فعلموهم. وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك، فليقض عليه عاجلا إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس» عزرا ٧: ١٢ -٢٦.

(*) أي غصن شجرة داود. والحديث هنا عن زربابل الذي ينتمي إلى الأسرة الملكية القديمة في يهوذا.
(*) المقصود هنا شريعة الملك التي جاء بها عزرا من البلاط الفارسي.

لم يذكر النص عدد المسبيين العائدين مع عزرا، أما عن مهمة عزرا فمن الواضح أنها تركزت حول مسائل التنظيم الديني والاجتماعي للمجتمع الجديد في أورشليم. فقد اهتم عزرا بتعزيز طقوس الهيكل وأدائها على الشكل الصحيح، وكان عليه أن ينظم أمور القضاء استناداً إلى شريعة حملها معه من البلاط الفارسي، ويدعوها النص بشريعة الملك وشريعة الرب. ورغم أننا لا نعرف الكثير عن بنود هذه الشريعة، إلا أن لهجة رسالة الملك الفارسي الموجهة إلى عزرا تدل على رغبته بتنظيم المجتمع الجديد في أورشليم، وفق خطة البلاط الفارسي الهادفة إلى توحيد القوانين والشرائع المعمول بها في ولايات الإمبراطورية الفارسية، وخصوصاً في المجتمعات الجديدة التي تم تشكيلها في المناطق المستفيدة من سياسة الإنعاش، والتي فقدت تواصلها مع عاداتها وتقاليدها القديمة، وسيق إليها جماعات اثنية مختلفة ذات أصول ثقافية متباينة. وليست تسمية هذه الشريعة بشريعة الرب، إضافة إلى تسميتها بشريعة الملك، إلا من قبيل إعطائها سلطة مزدوجة تساعد على تطبيقها والالتزام بها. ولكي يمارس عزرا مهامه على أفضل وجه، فقد تم تفويضه بصرف المعونة التي أعطيت إليه بالطريقة التي يراها مناسبة.

بعد ثلاثة أو أربعة عشر عاماً من وصول عزرا، يأتي إلى أورشليم واحد من أبرز أفراد الجالية المسبية، وهو نحميا بن حكليا. وكان نحميا هذا قد تدرج في مناصب البلاط الفارسي حتى وصل إلى منصب ساقي الملك الخاص، وهو منصب لا يقل عن منصب الوزير، ثم عينه الملك أرتحشتا حوالي عام ٤٤٥ ق.م، والياً على أورشليم، وأوكل إليه عدداً من المهام على رأسها تحصين المدينة وإعادة بناء أسوارها. في اليوم الثالث لوصوله أعلن نحميا للشعب عن المهمة التي جاء من أجلها: «أنتم ترون الشر الذي نحن فيه، كيف أن أورشليم خربةٌ وأبوابها قد أُحرقت بالنار. هلم فنبني سور أورشليم، ولا نكون بعدُ عاراً. وأخبرتهم عن يد إلهي الصالحة عليَّ، وأيضاً عن كلام الملك الذي قاله لي. فقالوا لنقم ولنبن، وشددوا أياديهم للخير» نحميا ٢: ١٧-١٨.

كان السامريون يتوجسون خيفة من نشوء دولة قوية إلى جوارهم تعيد سيرة يهوذا الأولى، خصوصاً بعد أن توضحت نوايا الشرائح العائدة من السبي في معاداة السامريين، منذ أن رفضوا عرضهم في المساعدة على بناء هيكل يهوه في أورشليم. وعندما شرع نحميا ببناء السور، خططوا لإيقاف العمل بالقوة، ووقف إلى جانبهم بنو عمون الخصوم التقليديون ليهوذا القديمة، وأهل مقاطعة أشدود الملاصقة لمقاطعة يهود، وبعض القبائل

العربية التي كانت تتجول بحرية في مرتفعات يهوذا الحالية، واجتمع الكل إلى والي السامرة المدعو سنبلط، من أجل مفاجأة نحميا واخذه على حين غرة، ولكن أخبار المؤامرة وصلت إلى أورشليم، فشدد نحميا الحراسة واستنفر قواته للدفاع عن المدينة، فخاف سنبلط ومن معه وعدلوا عن الحرب (نحميا : ٤)

انتهى نحميا من بناء السور، ولكن المدينة كانت خالية من السكان ولا تحتوي إلا على قلة من البيوت المسكونة: «وكمل السور في الخامس والعشرين من شهر أيلول في اثنين وخمسين يوماً. ولما سمع أعداؤنا، ورأى جميع الأمم الذين حوالينا، سقطوا كثيراً في عين أنفسهم وعلموا أنه من قِبلِ إلهنا عملنا هذا العمل... وكانت المدينة واسعة الجنبات وعظيمة والشعب قليلاً في وسطها، ولم تكن البيوت قد بنيت». نحميا ٦: ١٥-١٦. و٧: ٤. من هنا كان على نحميا أن يملأ المدينة من سكان المناطق الريفية وذلك بإجراء القرعة بينهم، وبهذه الطريقة تم اختيار واحد من كل عشرة للسكن في أورشليم: «وسكن رؤساء الشعب في أورشليم، والقى سائر الشعب قُرعاً ليأتوا بواحد من عشرة للسكنى في أورشليم، مدينة القدس، والتسعة أقسام في المدن، وبارك الشعب جميع القوم الذين انتدبوا للسكنى في أورشليم» نحميا ١١: ١-٢.

من المرجح أن نحميا قد بقي والياً على مقاطعة يهود حتى أواخر حكم الملك أرتحشتا الأول، لأن النص التوراتي يخبرنا عن قيامه برحلة إلى البلاط الفارسي في السنة الاثنتين والثلاثين لأرتحشتا، أي حوالي عام ٤٣٣ ق.م، وكان من نتائج هذه الزيارة على ما يبدو تعزيز سلطة نحميا وتجديد ولايته على المقاطعة حتى وفاة ارتحشتا الأول عام ٤٢٤ق.م. بعد ذلك تتوقف الرواية التوراتية تماماً عن ذكر أخبار أورشليم ومقاطعة يهود حتى حوالي عام ٢٠٠ ق.م، أي إلى وقت متقدم من العصر الهيلنستي. وهذا يعني أن قرنين من الزمان قد انصرما دون أية وثقة توراتية أو خارجية تصف لنا ما كان يجري في هذه المقاطعة وما حولها.

الشواهد الأثرية

تقف رواية سفري عزرا ونحميا وحيدة دون أي سند من مصدر خارجي، فالوثائق الفارسية شبه معدومة فيما يتعلق بمنطقة فلسطين خلال القرنين الخامس والرابع

قبل الميلاد، وكذلك الوثائق المصرية. أما الشواهد الأثرية بخصوص مقاطعة يهود الفارسية فتنحصر في طبعات الأختام على الجرار الفخارية المعدة لتسويق منتجات الزيت والخمور وما إليها، وكذلك في قطع العملة المعدنية.

تبدأ قطع العملة المعدنية التي تحمل اسم مقاطعة يهود بالظهور في المستويات الأثرية العائدة لأواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك شظايا الجرار الفخارية التي تحمل طبعات أختام تذكر اسم المقاطعة منقوشاً بالقلم الآرامي الخالي من الحركات الصوتية: ي هـ د (انظر الصورة رقم ٦ في القسم المصور). وقد ساعد انتشار هذا النوع من اللقى الأثرية العلماء على رسم حدود المنطقة التي خضعت إدارياً لولاة أورشليم خلال العصر الفارسي، وهي تمتد من موقع تل النصبة (المصفاة التوراتية) شمالاً إلى موقع بيت زور جنوباً، ومن أريحا شرقاً إلى جازر غرباً. وتؤيد أسماء المدن والبلدات والمناطق الجغرافية الواردة في سفري عزرا ونحميا خط الحدود الذي انتشرت داخله اللقى الأثرية المذكورة. هذا وقد اكتشف المنقب الإسرائيلي موشي كوشافي سلسلة من القلاع الدفاعية على طول الحدود الغربية مع مقاطعة أشدود والحدود الجنوبية مع مقاطعة أدوميا، تتوضع على نفس الخط الذي رسمته اللقى الأثرية والشواهد النصية (راجع الخريطة السابقة في الشكل رقم ٢٣). وفيما عدا ذلك فإن كل البينات الأثرية تدل على فقر المنطقة وقلة عدد سكانها، ولا يتوفر لدينا شواهد على زيادة ملحوظة في عدد السكان قبل عام ٢٠٠ ق.م. أما العاصمة أورشليم فقد نقصت مساحتها كثيراً عما كانت عليه في أواخر عصر المملكة واقتصر السكن فيها على ذروة هضبة أوفيل[١].

وفيما يتعلق بالسور الذي بناه نحميا، تقول المنقبة كاثلين كينيون بأن التوسعات السكنية التي امتدت نحو المنحدر الشرقي لهضبة أوفيل خلال عصر مملكة يهوذا قد اختفت تقريباً، لأن سور القرن الخامس قد تراجع نحو قمة الهضبة من الناحية الشرقية، بينما حافظ على نفس الخط القديم من الناحية الغربية مع بعض الانحرافات. كما أنه لا يوجد دلائل على السكن على منحدرات الوادي المركزي أو على السلسلة الغربية[٢] (انظر مخطط مدينة نحميا في الشكل رقم ٢٤ أدناه). وهذا يعني أن المدينة في العصر

1- J. D. Purvis, Exile and Return. in: H. Shanks, Ancient Israel, PP.171-173.

2- Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem. PP.180-187.

الفارسي قد عادت إلى حجمها القديم قبل أن تصبح عاصمة إقليمية قوية، وأن عدد سكانها لم يكن يتجاوز الثلاثة آلاف نسمة في أفضل الأحوال.

أما فيما يتعلق بهيكل زربابل المدعو بالهيكل الثاني، فلا يوجد ما يدل عليه سوى البينة الواهية التي قدمتها كاثلين كينيون بخصوص جدار المصطبة الشرقي. وقد عالجنا هذه المسألة بالتفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب. على أن مقطعا من سفر عزرا، وآخر من سفر حجي، يقدمان لنا صورة عن ضآلة حجم هيكل زربابل وتواضعه. فعندما اكتمل بناء الهيكل وجاء الشعب لحضور حفل التدشين، بكى الكثيرون لما رأوه من ضآلة هذا الهيكل مقارنة بما سمعوه عن هيكل عصر المملكة (عزرا ١٣: ١٢-١٣) ونقرأ في سفر حجي: «وكانت كلمة الرب عن يد حجي النبي قائلا: كلم زربابل والي يهوذا، ويهوشع الكاهن العظيمة وبقية الشعب قائلا من الباقي فيكم الذي رأى هذا البيت في مجده الأول، وكيف تنظرونه الآن؟ أما هو في أعينكم كل شيء؟» حجي ١٢: ١-٣.

اليهود واليهودية

لقد كانت القرون الثلاثة الواقعة بين أواخر القرن السادس وأوائل القرن الثاني قبل الميلاد، هي الفترة التي تمت خلالها الصياغة التدريجية للمعتقد التوراتي والشريعة التوراتية. وقد سارت هذه العملية يدا بيد مع تحرير أسفار التوراة واستكمال فصول الرواية التوراتية. كما شهدت هذه الفترة تشكل الإثنية اليهودية التي عبرت عن نفسها في تمرد أورشليم على الحكم السلوقي حوالي عام ١٧٠ ق.م. ومع ذلك فإننا جاهلون بحقيقة ما جرى خلال هذه الفترة على كل صعيد سياسي واجتماعي ولاهوتي.فالظلام يلف تاريخ مقاطعة يهود خلال العصر الفارسي ومعظم العصر الهيلنيستي، لأن النص التوراتي لا يغطي سوى مدة قرن من أخبار المقاطعة، أما المصادر الخارجية فصامتة تماما.

هذه الصورة لا تتغير كثيرا مع استهلالنا للقرن الثاني قبل الميلاد لأن مصادرنا تبقى محدودة، وهي تنحصر في أسفار المكابيين التوراتية وكتابات المؤرخ اليهودي. يوسيفوس من القرن الأول الميلادي، وهذان المصدران يعانيان من إشكالات ومحددات ذاتية عديدة. فأسفار المكابيين ليست من الأسفار القانونية في التوراة العبرانية، ولا يوجد لدينا من الجانب السلوقي ما يتقاطع معها. أما كتابات يوسيفوس فتنقصها المنهجية

مصطبة هيرود

مصطبة زربابل

نبع جيحون

قناة حزقيا

بركة سلوام

٢٤ - أورشليم في عصر نحميا

والانضباط الفكري وهي مليئة بالتناقضات. وهذا ما يجعل فترة الهيكل الثاني، كما تُدعى، بعيدة عن متناول التقصي التاريخي العلمي. والمؤرخ لا يملك سوى الاعتماد على المنطق السليم في تقييم المصادر المحدودة لديه، وقراءة ما وراء السطور في النص التوراتي، وخصوصاً رواية سفري عزرا ونحميا المليئة بالثغرات والتي كتبت بعد قرنين على الأقل من الفترة التي تقص عن أحداثها.

لم توصف ديانة التوراة عبر كل أسفار الكتاب باليهودية، مثلما لم يوصف أتباعها باليهود. وفي الحقيقة فإن هذه الديانة لم يكن لها اسم معين، أما أهلها فهم بنو إسرائيل. ورغم أن تعبير بني إسرائيل قد دل في سفر التكوين على أبناء يعقوب وسلالتهم، إلا أن هذا التعبير عبر بقية الأسفار يحمل مضموناً لاهوتياً بالدرجة الأولى، وهو يشير إلى شعب يهوه المختار. أما صفة يهود ويهودي فلم تستخدم إلا في مواضع قليلة من الكتاب للدلالة على جماعة أو شخص من منطقة يهوذا. ففي سفر الملوك الثاني ١٦: ٦، استخدم المحرر تعبير يهود في إشارته إلى جماعة من أهل يهوذا، ثم تكرر هذا الاستخدام ثماني مرات في سفر إرميا، ومرة واحدة في سفر دانيال. ولكن محرر سفري عزرا ونحميا قد وجد نفسه حراً تماماً في إطلاق الصفة على أهل مقاطعة يهود. من هنا، فإن تعبير يهود ويهودي لم يستخدم قط للدلالة على أتباع دين معين بل للدلالة على سكان أرض معينة، وذلك حتى دمار هيكل أورشليم وزوال الكيان الإثني لمقاطعة اليهودية الرومانية. ولكن ابتداءً من القرن الثاني الميلادي، الذي شهد صياغة الديانة اليهودية التلمودية على يد لاهوتيين عُرفوا باسم الربانيين (ومفردها ربان ورابي، أي معلم)، ابتدأت الديانة التوراتية تتخذ اسم الديانة اليهودية، وصار أتباعها يدعون يهوداً.

لا يوجد لدينا مبرر للشك في الخطوط العامة لرواية سفري عزرا ونحميا. فلقد قام البابليون بتهجير نخبة أهل أورشليم من تقنيين وكتبة وعسكريين، وأبقوا على جمهرة الفلاحين الذين نزح قسم كبير منهم بعد ذلك إلى مصر. وهذه الهجرة الاختيارية إلى مصر هي التي تفسر وجود عدد كبير من الجالية اليهودية هناك، خلال العصر الهيلنيستي والروماني. وعندما شجع قورش الفارسي على عودة المهجرين إلى مناطقهم، عاد فريق من سبي يهوذا إلى مقاطعة أورشليم واستفاد من معونة السلطات الفارسية المخصصة لإحياء المناطق المهجورة، بينما بقي في مناطق بابل فريق آخر فضل البقاء في موطنه الجديد على المغامرة في المجهول.

ولكننا في المقابل نشك في هوية هؤلاء العائدين، وفي كونهم جميعاً من سبي يهوذا حصراً. فلقد أوضحنا سابقاً أن رقم المسبيين لا يمكن أن يكون قد تجاوز العشرة آلاف وفق أعلى التقديرات، بينما بلغ عدد العائدين في الموجة الثانية بقيادة زربابل ٤٢,٠٠٠ نسمة، إضافة إلى عدد غير محدد في الموجة الأولى والموجة الثالثة. فمن أين جاء هؤلاء، علماً بأن المحرر في سفري عزرا ونحميا كان واضحاً في التأكيد على بقاء قسم كبير من المسبيين في بابل واكتفائهم بالتبرع للعائدين بمالهم؟

لعل دراسة بعض حالات السبي والعودة، تساعدنا على تكوين فرضيات حول حقيقة ما جرى بخصوص سبي يهوذا وعودتهم. فلقد طالت سياسة السبي الآشورية حوالي مئة شعب سواء في بلاد الشام أم في غيرها، ولدينا ما ينوف عن مئة وخمسين نصاً آشورياً يتحدث عن الشعوب المسبية ومناطق سبيها والشعوب التي حلت محلها. ورغم ان أباطرة المملكة البابلية الحديثة قد مارسوا سياسة السبي على نطاق أضيق بكثير، إلا أن هؤلاء هم الذين ابتدروا سياسة إعادة المهجرين السابقين إلى أراضيهم، وأسسوا لنظرية وممارسة التوطين وإحياء المناطق التي دمرها السبي الآشوري، مثلما ابتكروا الصيغة الإعلامية لهذه النظرية، وهي الصيغة التي تبناها حكام الإمبراطورية الفارسية بعد ذلك.

لدينا أكثر من نص بابلي يؤسس لنظرية وممارسة إعادة التوطين، ففي نص لنبوخذ نصر يقدم نفسه فيه كمحرر لقرى جبل لبنان من قمع الجيش الآشوري، ومُعيدٍ لمسبييها إلى مواطنهم، نقرأ ما يلي: «... في ذلك الوقت، لبنان الجبل المقدس، وغابة الإله مردوخ الغنية والحلوة الرائحة، غابة الأرز العالي الذي لم يطمح إليه إله ولم يقطعه ملك، قد اشتهاه إلهي مردوخ لتعطير قصره، قصر حاكم السماء والأرض، وكان لبنان تحت وطأة عدو أجنبي حكمه ونهب خيراته وشتت أهله. لقد وضعت ثقتي في قوة إلهي مردوخ وإلهي نيبو، وجهزت حملة وجهتها إلى لبنان. هناك جعلت البلاد سعيدة، وقضيت على عدوها في كل مكان، أما المشتتون من أهلها فقد جمعتهم وأعدتهم إلى أراضيهم... لقد جعلت أهل لبنان يعيشون بسلام مع بعضهم بعضاً، ولم أسمح لأحد بإزعاجهم. ولكي لا يعدو عليهم أحد بعد ذلك، فقد أقمت لنفسي نصباً يذكرني ملكاً دائماً على تلك المناطق»[1].

1- Leo Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts. In: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.

في هذا النص، يؤسس نبوخذ نصر لفكرة «العودة» كعنصر مركزي في سياسة الإنعاش البابلية، وهي الفكرة التي طورها فيما بعد الملك نابونيد أهم خلفاء نبوخذ نصر، في نصوصه التي يعلن عن نفسه فيها كمحرر للآلهة من الأسْر وباني معابدهم المهجورة، ومحرر لرعاياه الذين أعادهم إلى مواطنهم. من أهم هذه النصوص نص إعادة بناء مدينة حران، ومعبد إله القمر سين فيها. وكانت حران قد شهدت واحدة من أكبر عمليات التهجير الجماعي في العصر الآشوري. يقول نابونيد في مقتطفات أسوقها من نصه ما يلي(*): «لقد هبط سن، سيد الآلهة والإلهات في السماوات العلى، نزل من عليائه إليَّ ودعاني لأن أكون ملكاً، بعد أن تضرع إليه كل الآلهة والإلهات ليفعل ذلك. وعند منتصف الليل جاءني في الحلم وقال لي: أعِد بناء إهلول معبد سن في حران، ولسوف أسلم قياد البلاد كلها إليك... سِن، يا سيد الآلهة. أنت الذي يُمسك بيده قوى الإله آنو، ويستخدم كل قوى الإله إنليل، ويسيطر على قوى الإله إيا، فيجمع إليه كل القوى السماوية. أيها السيد بين الآلهة، يا ملك الملوك ويا رب الأرباب. أمرك لا يعارضه أحد، وكلمتك لا يطالها تغيير... تنفيذاً لأمر إلهي، أعدت بناء إهلول معبد سن، وسقت إلى حران جماعات من بابل ومن سورية العليا، من حدود مصر عند البحر الأعلى، إلى شواطئ البحر الأدنى، وجميعهم ممن عهد بهم إليّ الإله سن ملك الآلهة. وعند اكتمال بناء المعبد، أتيت إليه بالإله سن، وبالآلهة ننجال ونوسكو وسادرنونا، فأقمت صورهم على قواعد راسخة، وقرَّبتُ إليهم القرابين»(1).

في نص نابونيد هذا، نحن أمام ثلاث أفكار رئيسية هي: ١- فكرة وحدانية عبادة إله تتجسد فيه القوى الإلهية الأخرى. ٢- فكرة بناء إعادة تعمير هيكل هذا الإله. ٣- فكرة بناء مجتمع جديد يتمركز حول المعبد وإلهه. فالملك البابلي قد أعاد إلى حران المهدمة والمهجورة إلهها التقليدي القديم، ولكن في حلته الشمولية الجديدة كإله للإمبراطورية البابلية، ثم ساق إليها جماعات من مناطق متفرقة من أراضي الإمبراطورية، بعضهم ولا شك من مسبيي حران وسكانها الأصليين، فأعطاهم وطناً يعملون على بنائه،

(*) في معالجتي لنصوص نبوخذ نصر ونابونيد هذه، تطوير لأفكار ت. ل. تومبسون. انظر تومبسون ١٩٩٤، ص ٣٤٥-٣٤٦ و٤١٦ وما بعدها.

1- Leo Oppenheim, op cit, PP.562-563.

وإلهاً قديماً جديداً في آن معاً، يوحد بين الجماعات المختلفة ويؤلف بينها. هذه الأفكار الرئيسية الثلاث تعود إلى الظهور في النظرية والممارسة الفارسية. ففي بيان قورش الذي أعلنه من بابل، يتهم الحاكم الفارسي سلفه بالظلم والاستبداد، وتسخير الرعية وتهجيرهم، والإساءة إلى الآلهة والمعتقدات الدينية. ثم يتعهد بإعادة بناء المدن المقدسة وتعمير هياكلها المهدمة التي نُقلت منها صُور آلهتها، وإعادة المسبيين مع آلهتهم إلى تلك المدن. وهنا تقف رواية سفر عزرا شاهداً على تطبيق السياسة الفارسية التي تبنت النظرية والممارسة البابلية. فقد نبه الرب روح كورش ملك فارس، مثلما هبط سن من عليائه وكلم نابونيد في الحلم. وكلا الإلهين يحثان الملك على اتخاذ قرار بإعادة بناء الهيكل وتعمير المدينة المهدمة، وكلاهما أيضاً يحثاه على إعادة المسبيين إليها وتشكيل مجتمع جديد حول الهيكل.

إن من يتأمل قصة عودة سبي يهوذا وإعادة بنائهم للمدينة وهيكلها، يجد نفسه أمام نسخة مكررة من قصة إعادة بناء مدينة حران وهيكل الإله سن فيها. ولكن مع إصرار القصة التوراتية على أن العائدين كانوا حصراً من سبي يهوذا، وإصرار شريعة عزرا الكاهن على حفظ نقاء الدم وتحريم الاختلاط بالسكان المحليين الذين تنجسوا بزواجهم من الأغراب. ولكن، أليس هذا الهوس بالنقاء العرقي، ورُهاب الأجانب الذي يتجلى في كل التحريمات التي فرضها عزرا، دليلاً على عدم النقاء العرقي للجماعات الخليطة التي ساقها الفرس إلى مقاطعة يهود، مثلما ساق نابونيد جماعات خليطة إلى حران؟ ألا تحمل هذه التشريعات في حد ذاتها رغبة في إقناع القادمين الجدد بأنهم فئة متميزة ومتماسكة عليها الحفاظ على نقائها. إن الفرضية التي نسوقها هنا تقول نعم.

إن الرقم العالي للمسبيين العائدين إلى أورشليم يقدم لنا دليلاً على أن الإدارة الفارسية قد دفعت مع سبي يهوذا الراغب في العودة، شرائح أخرى من مناطق شتى من أملاك الإمبراطورية. ولكن الإدارة الفارسية قد جهزت في الوقت نفسه الخطة المثلى لصهر هذه الشرائح في بوتقة واحدة، عندما أعطت الأولوية لا لبناء المدينة المهدمة، بل لبناء هيكل الرب في أورشليم، بعد أن طابقت بين إله السماء الواحد للإمبراطورية الفارسية آهورامزدا، والإله الفلسطيني القديم يهوه. وبذلك أُعطيت الجماعات الموجهة إلى أورشليم أرضاً جديدة، ومعبداً جديداً، وإلهاً قديماً جديداً. هذه العناصر الثلاثة كانت

كفيلة بتوحيد الجميع خلال فترة قصيرة، والسير بمجتمع مقاطعة أورشليم نحو التجانس وتشكيل إثنية متميزة. ثم أتبعت الإدارة الفارسية هذه العناصر الثلاثة بعنصر رابع هو التشريع المدني الذي حمله معه عزرا من البلاط الفارسي، والذي يدعوه النص بشريعة الملك وشريعة الرب. ونستطيع أن نتصور بكل ثقة أن مثل هذا التشريع المدني كان في طور التطبيق في معظم المناطق التي كانت تشهد عملية إحياء وإنعاش مماثلة وتفتقر، بسبب تنوع أصول الجماعات التي وُجهت إليها، إلى قاعدة مكينة للقوانين والأعراف المحلية المتجذرة.

لقد جاء عزرا إلى أورشليم كمتفقه في شريعة الرب، فكان عليه تنظيم القضاء وشؤون المجتمع المدنية. وقبل أن يعمد إلى تطبيق هذه الشريعة كان عليه أن يشرحها لجميع الناس في اجتماع عام ويُفهمهم فقراتها. نقرأ في سفر نحميا: «اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التي أمام باب الماء، وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الرب إله إسرائيل، فأتى عزرا بالشريعة أمام الجماعة... وقرأ بها من الصباح إلى نصف النهار أمام الرجال والنساء والفاهمين، وكانت آذان الشعب نحو سفر الشريعة... وبارك الرب الإله العظيم عزرا، وأجاب جميع الشعب آمين، آمين، رافعين أيديهم، وخروا وسجدوا للرب على وجوههم إلى الأرض. ثم قام يشوع وباني وشربيا ويامين، و..إلخ بإفهام الشعب الشريعة والشعب في أماكنهم، وقرأوا في السفر ببيانٍ وفسروا المعنى وأفهموهم القراءة.. وفي اليوم الثاني اجتمع رؤوس آباء الشعب والكهنةُ واللاويون إلى عزرا الكاتب ليُفهمهم كلام الشريعة» نحميا ٨: ١-١٣.

إن ما تقوله لنا هذه الفقرات من سفر نحميا، هو أن عزرا قد جاء إلى أورشليم من البلاط الفارسي بشريعة مؤيدة بقوة السماء، وأفهم الجميع أن ما يقرؤه عليهم موحى من إله السماء الكامل، الذي هو يهوه الجديد قرين أهورا مزدا، ومما يدل على جدة هذه الشريعة، أن المجتمعين كانوا يسمعون فقراتها لأول مرة، ولهذا كان على عزرا أن يشرح مضمونها ومعانيها للكهنة وللاويين الموكلين بشؤون الخدمة الدينية في المعبد، ليعملوا بدورهم على إفهامها لبقية الشعب. وبالطبع فإن مثل هذا الشرح وإعادة الشرح، لا يمكن أن يكون موضوعه شريعة متوفرة بين أيدي الناس منذ القدم، وترقى إلى أيام موسى. ثم إن عزرا لا يكتفي بإبلاغ الشريعة، بل يطلب ممن سمعها أن يقطع عهداً أمام الرب

بقبولها والعمل بها، ويبرم ميثاقاً مكتوباً معهم يختمه الرؤساء واللاويون والكهنة. نقرأ في سفر نحميا: «والآن يا إلهنا العظيم حافظ العهد والرحمة.. نحن أذنبنا، وملوكنا ورؤساؤنا وكهنتنا وآباؤنا لم يعملوا شريعتك ولا أصغوا إلى وصاياك... ها نحن اليوم عبيدٌ، والأرض التي أعطيتَ لآبائنا ليأكلوا أثمارها وخبزها، ها نحن عبيد فيها، وغلاتك كثيرة للملوك الذين جعلتم علينا... من أجل ذلك، نحن نقطع ميثاقاً ونكتبه، ورؤساؤنا ولاويونا وكهنتنا يختمون... والذين ختموا هم نحميا وعزرا وسرايا ويرميا...إلخ، وباقي الشعب وكل الذين انفصلوا من شعوب الأرض إلى شريعة الرب، ونسائهم وبنيهم وبناتهم، كل أصحاب المعرفة والفهم لصقوا بإخوتهم وعظمائهم، ودخلوا في حلفٍ وقسَمٍ أن يسيروا في شريعة الرب التي أعطيت عن يد موسى، وأن يعملوا ويحفظوا جميع وصايا الرب وأحكامه وفرائضه» نحميا ٩: ٣٢ -٣٨ و١٠: ١- ٢٩.

إن في قول محرر سفر نحميا أعلاه، بأن «الذين ختموا هم باقي الشعب وكل الذين انفصلوا من شعوب الأرض إلى شريعة الرب»، ليؤيد بقوة فرضيتنا بتعدد الشرائح الإثنية التي رافقت مسبيي يهوذا إلى أورشليم. فلقد صار الميثاق بقبول شريعة عزرا هو الذي يوحد هذه الجماعات ذات الأصول المتنوعة في مجموعة واحدة، ويميزها عن بقية سكان الأرض. وهؤلاء هم بنو إسرائيل بالمفهوم اللاهوتي أي شعب يهوه الخاص، الذين ورثوا إسرائيل القديمة العاصية، وأسسوا لإسرائيل الجديدة المؤمنة. وعلى هؤلاء جميعاً أن يحفظوا تماسكهم ووحدتهم ولا يختلطوا بغيرهم ممن بقي خارج العهد والميثاق.

من المفترض أن العهد الذي أبرمه أهل مقاطعة يهود مع إله الهيكل، هو آخر عهد في سلسلة العهود التي كانت تتجدد منذ أيام إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ولكن واقع ما شرحناه من أمور يدل على أن عهد ما بعد السبي هو العهد الأول الذي يتم بين الرب وشعبه الجديد. فلقد أعطى الرب هذه الأرض الجديدة إلى جماعات جديدة تحل فيها، مقابل عبادته وحده من دون بقية الآلهة والالتزام بشريعته ووصاياه. وهذا العهد الذي وضعه محررو التوراة في نهاية قصتهم الطويلة التي تختم تاريخ بني إسرائيل، هو الذي تم إسقاطه على قصة الأصول التوراتية التي تبتدئ بعهد بين إبراهيم وإلهه. وهذا ما يقودني إلى القول بأن سفري عزرا ونحميا كانا أول الأسفار التوراتية تدويناً لا آخرها. ثم جاءت بقية القصة لكي تبتكر أصولاً لهذا المجتمع الجديد الذي ربطه عهد الرب بالأرض

وبعضه بعضاً، وتعمل على تجذيره في المكان، والإيحاء للأجيال القادمة بأنها كانت دوماً هنا، وأنها عبدت دوماً إلهاً واحداً غالباً ما كانت تخطئ إليه، وأن خطيئة إسرائيل ويهوذا القديمتين هي السبب في زوالهما، وأن بقية سبي يهوذا هي الخلف الصالح للسلف الطالح.

ولكن ماذا عن الشريعة التي هي موضوع العهد والميثاق؟ إن بعض الباحثين يفترض أنها ليست سوى أسفار موسى الخمسة، أو بعض أجزائها. ولكن الفقرات التشريعية التي نجدها في سفري عزرا ونحميا لا تتفق مع أية فقرات تشريعية في الأسفار الخمسة. وبشكل خاص فإن التحريمات التي فرضها عزرا بخصوص الزواج ممن هم خارج الميثاق، هي أشد صرامة وأكثر وضوحاً وتحديداً من أية فقرة تشريعية بهذا الخصوص في الأسفار الخمسة، ولا تتطابق معها من قريب أو بعيد. وهذا ما يدعونا إلى القول بأن سفر شريعة عزرا لا علاقة له بشريعة موسى التوراتية، وموسى نفسه لم يكن قد وُلد في الرواية التوراتية، أو أنه كان مجرد شخصية ذات قدسية ما، في الموروث الديني لإحدى الجماعات التي شكلت مجتمع أورشليم الجديد، قبل أن يعمل كهنوت أورشليم على التوليف بين الموروثات الدينية والشعبية المختلفة، وصياغتها في رواية مطَّردة ترسم تاريخاً متخيلاً لماضي اليهودية.

ولكننا من جانب آخر، نستطيع القيام بتكهنات مشروعة حول مضمون السفر. فمما لا شك فيه أن التسمية المزدوجة التي أطلقها المحرر على الشريعة، عندما دعاها بشريعة الرب وشريعة الملك، تدل على مضمونها المزدوج؛ فهي شريعة مدنية وشريعة دينية. فيما يتعلق بجانبها المدني، فقد احتوت شريعة عزرا، كما هو واضح من سياق النص، على أصول المعاملات التجارية والزراعية، وأصول الاحتكام وفض المنازعات، وتنظيم المحاكم وتعيين القضاة، وما إلى ذلك. وفيما يتعلق بجانبها الديني فقد احتوت الشريعة على عقائد وطقوس أساسية متصلة بإله السماء الفارسي ومطابقته مع إله يهوذا والسامرة القديم يهوه، وعلى تحريمات معينة تطال بعض أنواع المأكل والمشرب، وقواعد في النظافة والطهارة، مما كانت الديانة الفارسية حريصة عليه كل الحرص، وإلى درجة الهوس المرضي. ولكن هذه الشريعة بشقيها لم تكن سوى نواة صلحت في البداية لتنظيم شؤون مجتمع بسيط، وعندما أخذت الحياة الاجتماعية بالتعقد كان لابد من تطوير هذه

النواة لمواكبة التوسع والتعقد في شتى مجالات الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية. وقد عمل عزرا خلال حياته على تطوير الشريعة والإضافة إليها، ثم جاء خلفاؤه من بعده فتابعوا المهمة. ومع تشعب الشريعة، كانت القصة التوراتية التي تحملها تتشعب وتتوسع، وتضرب بعيداً في الأصول وصولاً إلى البدايات.

خلال قرنين أو ثلاثة من عكوفهم على تدبيج قصة الأصول، لم يكن محررو التوراة يبتكرون كل شيء من بنات أفكارهم، بل يفيدون من التراث الأدبي والديني المحلي، وبعضه قد وفد ولا شك من مناطق أخرى غير فلسطينية، مع الجماعات التي تم توطينها في السامرة وفي غيرها من المناطق التي سُبي أهلها. وقد استقبلت السامرة بشكل خاص عدداً كبيراً من المهجرين العرب الذين ساقهم إليها صارغون الثاني بعد فتحه للسامرة، ووطَّنهم فيها، على ما نفهم من أحد نصوصه المتعلقة بحروبه ضد القبائل العربية المتجولة في شمال شبه الجزيرة العربية، وأهمها قبيلة ثمود[1]. ولكن ذلك التراث الأدبي والديني المتنوع والمختلف المنشأ، كان يخضع لعملية طويلة ومركَّبة من إعادة الصياغة والتحرير وإعادة التحرير، لكي يتلاءم مع المنظور الإيديولوجي العام لقصة الأصول.

لقد وُلدت الوحدات الأساسية للقصة التوراتية كلٌّ على حدة، وتم إنتاجها من قِبل محررين مختلفين وعلى فترات متباعدة، واستخدم كل محرر أو مجموعة محررين مصادر وموروثات متباينة المنشأ. ثم جاءت عملية التنسيق الأخيرة لتجمع بينها في رواية مطَّردة، ومن خلال منظور أيديولوجي وكورنولوجي مفروض عليها من خارجها. ولكن وحدات الرواية، المستقلة من حيث الأصل، بقيت مع ذلك تسبح في أجوائها الأدبية واللاهوتية؛ فالإله الذي يتناول الطعام تحت الشجرة بدعوة من إبراهيم، والذي يلتحم في صراع جسدي مع يعقوب في الليل، في سفر التكوين، هو غير إله سفر الخروج الذي

١ - يقول صارغون الثاني: «بناء على نبوءة صادقة من إلهي آشور، انطلقت لقتال العرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء، الذين لا يعرفون البحار ولا الحكام، ولم يقدموا الجزية لأي ملك قبلي، فقهرت قبائل ثمود وأباديدي ومارسيمانو وحايبا، وأبعدت من بقي منهم حياً وأسكنتهم في السامرة».

راجع هذا النص، وبعض النصوص الآشورية الأخرى المتعلقة بالعرب، في مؤلفي: الحدث التوراتي والشرق الأدنى، الفصل الرابع عشر.

يسير أمام الشعب على هيئة عمود من نار أو سحاب في سيناء. وهذا الإله المتجول الذي يسكن في خيمة بين شعبه، هو غير الإله الذي سكن فيما بعد هيكل أورشليم. وإله الأسفار التاريخية لا يشبه إله أسفار الأنبياء...إلخ. ذلك أن تشعب الرواية التوراتية وتطورها كان يحمل في الوقت نفسه تغيرات لاهوتية، وهذه بدورها كانت تمارس تأثيراً على منحى الرواية، وذلك في عملية جدلية مستمرة.

إن المراسلات التي جرت حوالي عام ٤١٠ ق.م، بين رئيس الجالية اليهودية في جزيرة الفيلة المدعو جدانية ووالي أورشليم المدعو باجوس (خليفة نحميا)، تُلقي ظلالاً من الشك على وحدانية عبادة يهوه في هيكل أورشليم. ذلك أن أهل جزيرة الفيلة كانوا على الديانة التقليدية ليهوذا القديمة بسبب نزوحهم إلى مصر في مطلع القرن السادس، ويعبدون عدداً من الآلهة الكنعانية إلى جانب الإله يهوه. ومع ذلك فقد شعروا بمطلق الحرية في مطابقة إلههم يهوه مع إله هيكل أورشليم، وكتبوا إلى والي أورشليم ووالي السامرة في نفس الوقت طالبين المساعدة على إعادة بناء هيكل يهوه المتهدم في الجزيرة. ومثل هذا الطلب إن دل على شيء، فعلى أن أهل أورشليم لم يكونوا بدورهم قد توصلوا إلى مبدأ وحدانية عبادة يهوه، وأن بقية الآلهة التي عبدها يهود الفيلة كانت تعبد أيضاً في هيكل أورشليم.

بعد شرحه لملابسات دمار هيكل يهوه (الذي يدعوه أهل الجزيرة ياهو) يقول جدانية في آخر فقرات رسالته الطويلة إلى والي أورشليم: «... والآن، فإن خادمك جدانية وزملاءه وكل أهل جزيرة الفيلة، يرجون من سيدنا أن يوجه عنايته لهذا المعبد من أجل إعادة بنائه، لأنهم لا يسمحون لنا بذلك. فهلاً اتصلتم بأصدقائكم ومحبيكم هنا في مصر، وكتبتم إليهم بخصوص إعادة بناء معبد ياهو في حصن الفيلة، ليعود سيرته الأولى، ولسوف نُصعد المحارق ونقدم البخور باسمك فيه، ونصلي من أجلك نحن وأولادنا وزوجاتنا وكل اليهود المتواجدين هنا، في كل الأوقات، ولسوف تنال حظوة لدى إله السماء أكثر مما لو قدمت له القرابين والمحارق بآلاف وزنات الذهب والفضة. ها نحن قد كتبنا لك بكل هذه الأمور، كما كتبنا أيضاً إلى دلايا (والي السامرة). وأخيه شيلميا، أبناء سنبلط. علماً بأن أرساميس(*) لم يعلم حتى الآن بما جرى لنا». ويبدو أن والي

(*) أرساميس هو الوالي الفارسي على المقاطعة المصرية التي تتبع لها جزيرة الفيلة.

أورشليم ووالي السامرة قد وجها رسالة مشتركة إلى جدانيه بخصوص الالتماس الذي قدمه لهما، لأن بين برديات جزيرة الفيلة مذكرة تركها جدانيه يقول فيها: «مذكرة بخصوص ما قاله لي باجوس ودلايا: إليك التعليمات بخصوص ما تقوله لأرساميس فيما يتعلق ببيت إله السماء الذي كان قائماً في حصن الفيلة منذ القدم، من قبل أيام حكم الملك قمبيز، والذي هدمه فيدارانج الشرير في السنة الرابعة عشر من حكم الملك داريوس. ستقول له أن يعيد بناء المعبد وفق ما كان عليه، وفي موقعه السابق، ويستأنف تقديم القرابين على مذبحه كما في الماضي»(١).

من الملفت للنظر في هذين النصين أن أهل جزيرة الفيلة من ذوي الديانة الفلسطينية التقليدية، قد كتبوا إلى والي السامرة ووالي أورشليم في وقت واحد ملتمسين عونهما على إعادة بناء هيكل يهوه في الجزيرة. وهذا يعني أن هذه المجتمعات الثلاثة في أواخر القرن الخامس كانت على عقدية يهوه التقليدية القديمة، وأن عقيدة يهوه التوراتية لم تكن قد أخذت صيغتها التي نعرفها من أسفار التوراة. ومن جهة أخرى فإن هذه المراسلات تنفي الخلاف الذي يؤكد عليه المحرر التوراتي، في سفري عزرا ونحميا، بين مجتمع أورشليم ومجتمع السامرة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن، هو كيف ومتى تم الانتقال من عقيدة يهوه الفلسطينية التقليدية إلى عقيدة يهوه التوراتية؟

في الحقيقة، نحن جاهلون كل الجهل بالكيفية التي تم بها هذا الانتقال. ويعود السبب في ذلك إلى أن الفترة التي دونت خلالها أسفار التوراة، أي القرن الرابع والثالث قبل الميلاد، هي فترة ظلام مطبق في تاريخ فلسطين، والنصوص ليست نادرة فحسب وإنما معدومة، بما في ذلك النص التوراتي الذي تتوقف روايته تماماً مع سفر نحميا إلى البلاط الفارسي عام ٤٣٣ق.م. كل ما نستطيع قوله أن هذا الانتقال قد تم خلال القرنين المنصرمين بين نهاية القرن الخامس ومطلع القرن الثاني قبل الميلاد، وأن الأسفار التوراتية قد تم تحريرها خلال هذه الفترة، وصارت مصدر التلاحم الاجتماعي والإثني والديني في مقاطعة يهود (أو اليهودية كما صارت تدعى في العصر الهيلينستي)، ومصدراً للديانة اليهودية التي صارت ديانة هذه المقاطعة تحديداً من دون السامرة والجليل وبقية البقاع

١ - من أجل هذا النص والذي سبقه، وغيرهما من برديات الجزيرة، راجع:
H. L. Ginsberg, Aramic Letters. In: J. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts. P.491 ff.

الفلسطينية. ففي مطلع القرن الثاني كان اليهود يعتقدون بأنهم شعب واحد تسلسل من جد واحد، وأنهم كانوا في العبودية في مصر، ثم خرجوا منها بقيادة موسى، إلى آخر القصة التي تنتهي حلقاتها مع أحداث سفري عزرا ونحميا. فهم الآن إسرائيل الجديدة التي قامت على أنقاض المملكتين الخاطئتين، وهم رغم قلة عددهم ما زالوا شعب يهوه المختار، وسوف يأتي يوم تتقوض فيه كل الممالك لتعود مملكة إسرائيل المقدسة التي يحكمها يهوه بشكل مباشر، وتزحف بقية الشعوب على بطنها ذليلة لتلحس التراب تحت أقدام إسرائيل وتُستعبد لها.

لقد صارت الحكاية التوراتية تاريخاً، بل وأكثر من ذلك صارت فلسفة في التاريخ، تفسر الغاية من صيرورة الزمن بين يوم البدء واليوم الأخير. فلقد خلق يهوه العالم من أجل هذه القلة التي اختارها لتكون شعبه الخاص، وليجعل منها أمةً كهنةً، ويحكم من خلالها ملكوته القادم على الأرض. بهذا يتقلص تاريخ الكون إلى تاريخ بني إسرائيل، وإلى هذه النتيجة يؤول عناء البشرية وشقاؤها عبر صيرورة الزمن. إن هذه البارانويا الجماعية التي أصيب بها شعب مقاطعة منسيةٍ ودخلت في جيناته وموروثاته، صارت عبئاً على التاريخ، وشوكة في خاصرة الحاضر والمستقبل.

الفصل الرابع عشر

أورشليم في العصر الهيلنيستي

بعد معركتين رئيسيتين في آسيا الصغرى، هما معركة سيرانيكوس عام ٣٣٤ق.م، ومعركة إيسوس عام ٣٣٣ق.م، انفتحت بوابة المشرق أمام الاسكندر المقدوني، وتراجع الفرس إلى ما وراء الفرات، فتابعت جيوشه مسيرتها جنوباً وغنمت بلاد الشام ووصلت إلى مصر عام ٣٣١ق.م. بعد أن استقرت له الأمور في مصر، عاد الاسكندر إلى سورية فاجتاز الفرات وغنم كامل بلاد الرافدين، ثم طارد الفرس إلى عقر دارهم،وتابع مسيرته شرقاً حتى وصل الهند عام ٣٢٦ق.م، وهناك اضطر للتوقف تحت ضغط قواده وعامة جيشه.

لم يطل العمر بالاسكندر ليشهد تحقيق حلمه في بناء إمبراطورية شرقية مطبوعة بالطابع الهيليني. وبعد فترة من الصراع بين قادته الرئيسيين، تم تقسيم الإمبراطورية الفارسية السابقة بين بطليموس وسلوقس، حيث استقل بطليموس بمصر وسورية الجنوبية، واستقل سلوقس بسورية الشمالية ووادي الرافدين وكامل ما وراء الدجلة شرقاً. غير أن خلفاء سلوقس لم يتمكنوا من الاحتفاظ بفارس مدة طويلة. ففي عام ٢٨٠ق.م قامت في منطقة بارثيا ثورة على الحكم السلوقي بقيادة زعيم يدعى أرشق، ثم قام خلفاء أرشق باسترجاع كامل مناطق بلاد الرافدين إلى الحكم الفارسي ودفعوا بالقوات السلوقية إلى ما وراء نهر الفرات.

من الوسائل الرئيسية التي اتبعها الاسكندر لنشر الثقافة الإغريقية في الشرق، بناء مدن جديدة على النمط الإغريقي، وتحويل بعض المدن الكبرى إلى مدن إغريقية الطابع. فإضافة إلى مدينة الإسكندرية التي بناها على شاطئ المتوسط المصري. فقد عمد الاسكندر إلى بناء عدد قليل آخر من المدن، مثل جرش في شرقي الأردن قرب عمان،

وحوّل مدناً أخرى إلى مدن إغريقية مثل السامرة، التي أطلق عليها اسم سيباسطة، وأسكن فيها جالية يونانية. ثم جاء خليفته أنتيغونوس فبنى مدينة أنتيغونا على حوض العاصي الشمالي وأسكن فيها جالية مقدونية وجالية يونانية، تمهيداً لجعلها عاصمة له. ولكن حركة بناء المدن اليونانية لم تنشط على نطاق واسع إلا في عهد سلوقس الأول (نيكاتور).

بنى سلوقس نيكاتور أربع مدن رئيسية في المناطق الشمالية من سورية المجوفة والساحلية هي انطاكية وسلوقية وأفامية واللاذقية، وعدداً من المدن الأصغر التابعة لها. كما بنى عدداً آخر من المدن الأقل أهمية مثل سلوقية على الفرات، وأوروبُس قرب كركميش (جرابلس الحالية)، إضافة إلى عشر مدن باسم انطاكية، وتسعاً باسم سلوقية، وثلاثاً باسم أفامية. وكانت كل مدينة من هذه المدن المتشابهة الاسم تُميز باسم منطقتها، فيقال مثلاً لاذقية فينيقيا، أو انطاكية تحت لبنان، وما إلى ذلك. وإلى جانب بنائه للمدن الجديدة فقد أعاد نيكاتور بناء العديد من المدن السورية القديمة على النمط الإغريقي، وأطلق عليها أسماء إغريقية جديدة، مثل بامبيقة التي صار اسمها هيرابوليس (منبج الحالية)، وقنسرين التي صار اسمها خلقيس (قنسرين الحالية). وقد قسم السلوقيون سورية إلى عدد من الولايات ذات الاستقلال الذاتي، ولكل ولاية حكومة محلية تتخذ مركزها في أكبر مدن الولاية. وفيما عدا ذلك، فإن ندرة النصوص السلوقية المعاصرة لهذه الفترة تمنعنا من تكوين صورة واضحة عن نظام الإدارة السلوقي، وعلاقة هذه الولايات بالإدارة المركزية، والاستقلالية التي كانت تتمتع بها كل حكومة محلية.

على عكس السلوقيين، فإن البطالمة لم يحققوا إلا قليلاً من الإعمار في القسم التابع لهم في سورية، لأن قلب مملكتهم كان في مصر، وإليها وجهوا جُلَّ اهتمامهم، والمدينة الوحيدة التي بنوها كانت هيليوبوليس في بعلبك. ولكنهم قد أضفوا الطابع اليوناني على عدد من المدن وأطلقوا عليها أسماء جديدة، مثل مدينة ربة عمون التي دعيت فيلادلفيا (عمان الحالية)، وإيلات التي دعيت برنيقة، وبيت‌شان التي دعيت سيقثوبوليس. ولكن التغييرات التي أحدثها البطالمة في التنظيم الإداري كانت أعمق بكثير مما فعله السلوقيون. فقد ألغوا الملكيات الوراثية القديمة، خصوصاً في دويلات المدن الفينيقية، واستبدلوها بجمهوريات ديموقراطية على غرار النظام القديم لمدينة قرطاجة. فقد جرى تنحية آخر ملك لمدينة صور وأنشئت الجمهورية الصورية عام ٢٧٤، وتبعتها

جبيل بعد وقت قصير ثم أرواد. وقد صاحب عزل الأسر الحاكمة الفينيقية تقطيع المدن التابعة لها، وجعلها جمهوريات مستقلة. وهذا ما حصل لأرواد التي تم تنظيمها في أربع جمهوريات، هي جمهورية أرواد نفسها، وجمهوريات مرانس (عمريت) وسيميرا، وقرنا. وترافقت عملية إلغاء الملكيات مع تقييد متزايد للاستقلال الذاتي في المدن، وطبق عليها النظام الإداري المعمول به في مصر، فدعيت كل منطقة إدارية طبارخية Toparchies. واستمدت كل طبارخية اسمها الخاص من مركزها الإداري أو من الإقليم ككل. فالسامرة مثلا دعيت بالمقاطعة أو الطبارخية السامرية، وعمون بالعمونية، وأورشليم باليهودية، وحوران بالحورانية، واللجاة باللجاوية. أما عن مدى استقلالية هذه المقاطعات عن الحكم المركزي، فلم يكن ثابتا، ويخضع في كثير من الأحيان إلى قوة الحكومة المحلية وعلاقتها بالبلاط البطلمي(١).

على عكس الحكام الفرس السابقين، فقد كان الحكام الإغريق مهتمين بنشر ثقافتهم الخاصة وأساليب حياتهم، جريا على سنة الاسكندر الأكبر. وهذا ما تقبلته المناطق المحكومة عن طيب خاطر، بل وسعت إليه حثيثا لما يوفر لها من مزايا عند الحاكم. كان من أنجع وسائل نشر الثقافة الهيلينية هو نظام المدينة اليونانية: بوليس polic. فقد قام الحاكم الإغريقي بإنشاء مدن جديدة، وأعاد تنظيم وتعمير مدن قديمة على النمط الإغريقي، وجميعها أعطي لقب بوليس، سواء دخل هذا اللقب في اسمها الجديد أم لم يدخل.

ولقب بوليس لا يتوقف عند التسمية السطحية فقط، بل إنه ينطوي على مضامين سياسية واجتماعية ودينية عميقة الأثر في حياة المجتمع المدني. فالمدينة التي تكتسب لقب بوليس تحكم إداريا وسياسيا على نمط دولة المدينة الإغريقية، بمجالسها الشعبية وبقية مؤسساتها السياسية، وتشاد فيها معابد للآلهة اليونانية بعد مطابقتها مع الآلهة المحلية القديمة. أما الثقافة الإغريقية فكانت تنشر في المجتمع من خلال عدد من المؤسسات المدنية مثل:

١- المعلومات التي سقتها حتى الآن بخصوص الأوضاع الإدارية في بلاد الشام تستند بشكل رئيسي إلى كتاب أ.هـ.م جونز: مدن بلاد الشام عندما كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس، دار الشروق- عمان ١٩٨٧. إضافة إلى مراجع متفرقة أخرى.

١- الجمنازيوم Gymnasium. وهو بناء مخصص للتدريب على الألعاب الرياضية، يقصده الشباب منذ بلوغهم سن المراهقة. وكانت السنوات التي يقضونها فيه بمثابة مقدمة للخدمة العسكرية.

٢- الستاديوم Stadium. وهو ملعب مفتوح يحتوي على مدرجات لمشاهدة السباقات والألعاب الرياضية.

٣- الأوديوم Odeum. وهو بناء في الهواء الطلق مسقوف من الأعلى ومفتوح الجوانب، يستخدم للاستماع إلى الموسيقى ومشاهدة العروض المسرحية الخفيفة.

٤- المسرح المدرج Theatre. وتقدم فيه العروض المسرحية الضخمة.

٥- الليكيوم Leceum. وهو قاعة مخصصة للاجتماعات العامة والمناظرات والمناقشات والمحاضرات.

٦- الآجورا Agora. وهو عبارة عن رواق للاجتماعات السياسية للمواطنين، يحف بإحدى الساحات الرئيسية للمدينة.

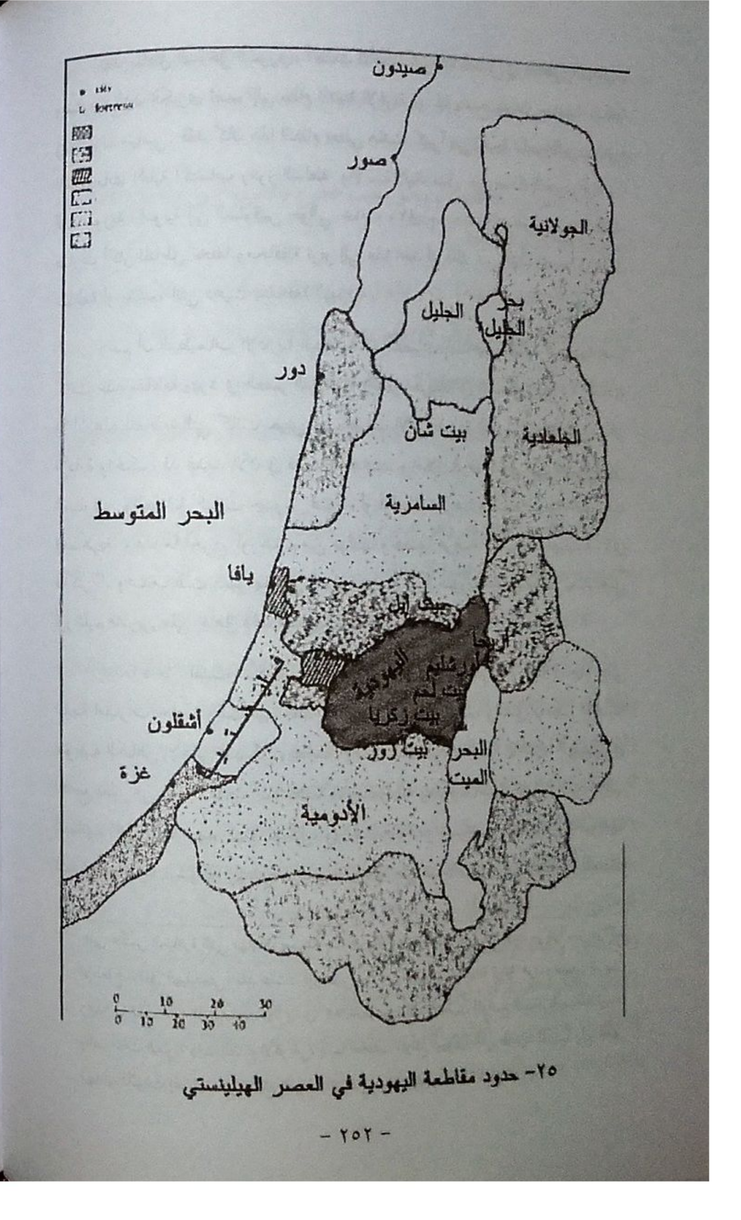
كانت فينيقيا أول المناطق السورية تقبلاً لنظام المدينة اليونانية، الذي انتشر في مدنها بسرعة أكثر من غيرها. ويرجع ذلك بصورة رئيسية إلى عالمية الثقافة الفينيقية وانفتاحها على الثقافات الأخرى عن طريق التجارة البحرية، وخصوصاً الثقافة اليونانية. وقبل فتوح الاسكندر كان التبادل التجاري والثقافي بين حواضر فينيقية والمدن اليونانية قد بلغ ذروته منذ مطلع القرن الرابع قبل الميلاد، وأخذ بعض أمراء الأسر الملكية الفينيقية يتخذون ألقاباً يونانية إلى جانب أسمائهم الأصلية. كما تدل الاكتشافات الأثرية على مدى ولوع ملوك فينيقية بالفنون اليدوية الإغريقية واقتنائهم لها. ويذكر الكاتب اليوناني ديودور الصقلي أن ملوك فينيقية كانوا محبين للفنون اليونانية في الرقص والموسيقى، وكان الراقصون والموسيقيون والمغنون اليونان يُستقدمون لأداء فنونهم في القصور الملكية الفينيقية. وقبل فتوح الاسكندر وانتشار نظام المدينة اليونانية، بدأ الفينيقيون يطابقون بين آلهتهم المحلية وآلهة اليونان، وصارت الآلهة: شمس وتانيت وعشتارت، تعرف بأسماء إغريقية هي هيليوس وأرتميس وافروديت.

بعد مناطق الساحل السوري، أخذت الأفكار اليونانية تتغلغل في المناطق الداخلية، وصارت المدن الكبرى تصبو إلى نظام المدينة الإغريقية، لما يتمتع به من جاذبية شكلية ومضمون سياسي. فقد كان هذا النظام يعطي هامشاً كبيراً من الحرية للمواطنين، ويتيح للحكومات المحلية اكتساب رموز السلطة والاستقلالية، مثل حق صك النقود. وعندما آلت سورية الجنوبية إلى السلوقيين حوالي عام ٢٠٠ق.م، بعد نزاع طويل مع البطالمة، صارت أكثر المناطق تخلفاً ومحافظة ترنو إلى هذا الحد أو ذاك من الهلْيَنة، بما في ذلك مقاطعة أورشليم، التي دعيت بمقاطعة اليهودية.

رغم أن التنظيمات الإدارية البطلمية قد أنقصت مساحة مقاطعة اليهودية عما كانت عليه مقاطعة يهود في العصر الفارسي (انظر الخريطة في الشكل رقم ٢٥ أدناه)، إلا أن هذه المقاطعة التي كانت تعيش على أطراف الإمبراطورية الفارسية بعيداً عن مركز الإدارة والحكم، قد غدت الآن في قلب الأحداث. وخلال قرن كامل من الصراع بين السلوقيين والبطالمة كانت جيوش هؤلاء أو أولئك تعبرها وتضع فيها الحاميات العسكرية، وهذا ما أخرج أورشليم من عزلتها وجعلها عرضة للتأثيرات الهيلينية أكثر فأكثر(*). وعندما آلت اليهودية إلى السلوقيين مع بقية سورية الجنوبية، لم يعد أهل أورشليم قادرين على تجاهل الحد الثقافي الهيلنستي.

عندما دخل الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث أورشليم عام ١٩٨ق.م، أعطى المدينة امتيازات خاصة وثبَّت فيها النظام السياسي الديني القائم، والذي يحكم المقاطعة بموجبه الكاهن الأعلى للهيكل وبطانته. ومنذ ذلك الوقت ابتدأ الاتجاه الهيليني في المجتمع يعلن عن نفسه، فأخذ أبناء الطبقة الأرستقراطية يتخذون أسماء يونانية إلى جانب أسمائهم المحلية، بما فيهم كهنة الهيكل، وراحت الأفكار السياسية والاجتماعية اليونانية تنتشر بين أفراد الشرائح المتعلمة، حتى أن فريقاً من هؤلاء قد رفع التماساً للملك

(*)- على عكس السامرة التي تهلينت بسرعة منذ أيام الاسكندر المقدوني، وصارت مركزاً من مراكز الإشعاع الثقافي الهيلينستي، فقد عاشت أورشليم بعيداً عن التأثيرات الجديدة قرابة قرن ونصف تقريباً. وهذا ما تدل عليه المكتشفات الأثرية في كلا المنطقتين. فقد أفاضت المواقع السامرية بالفخاريات والصناعات اليدوية ذات الطابع الأغريقي، بينما حافظت المواقع اليهودية على طابعها القديم، ولم تظهر فيها أية تأثيرات إغريقية حتى مطلع القرن الثاني قبل الميلاد (كينيون ١٩٧٤ص١٨٩).



٢٥- حدود مقاطعة اليهودية في العصر الهيلينستي

السلوقي لكي يأذن بإقامة جمنازيوم في أورشليم، وأن يُسجل أهل المدينة تحت اسم «الأنطاكيون في القدس». ومعنى ذلك أن تنال المدينة مكانة البوليس اليونانية تحت لقب أنطاكية. ورغم أن الملك السلوقي قد استجاب بترحاب لمطلبهم، إلا أن العملية لم تتم بسبب معارضة الفريق المحافظ[1].

كان التيار الإصلاحي بقيادة النخبة المتعلمة في أورشليم، راغباً في تحويل النظام السياسي الديني المتخلف إلى نظام حديث يتفق وروح العصر. ورغم أن الدوافع وراء هذا التوجه كانت اقتصادية واجتماعية بالدرجة الأولى، إلا أن بعض الإصلاحيين كان يتوق إلى أبعد من ذلك، وكانت النوايا تتجه إلى إصلاح الدين اليهودي والمزاوجة بين اليهودية والهلينية. فلقد رأوا أن التوحيد اليهودي ينطوي على أفكار شمولية عالمية، ولكن التفسير الحرفي الأصولي قد كبتها من خلال فهمه الضيق لفكرة الإله الواحد الذي يختص بشعب واحد من دون بقية الشعوب. كما رأوا أن هذه الأفكار الشمولية المكبوتة تتفق مع فكرة الثقافة العالمية الواحدة التي آمن بها الاسكندر وعمل على تطبيقها.

لقد أعاد الإصلاحيون قراءة النصوص المقدسة بعين جديدة، وحاولوا تأويلها وفهمها من خلال منظور عالمي شمولي، ورأوا بأن المعتقد والشريعة هما من حيث الجوهر والأصل موجهان لجميع الأمم لا لبني إسرائيل وحدهم، ولكن الأجيال التي تناقلت النصوص المقدسة قد غلفتها بالخرافة، وأضافت على الشريعة الكثير من المطالب والتحريمات المستحيلة. من هنا يتوجب على الأجيال الجديدة، في اعتقادهم، إعادة فهم وتأويل الشريعة بما يتلاءم ومستجدات الحياة الحديثة. وأفضل طريقة لذلك هي المواءمة بين فكرة الإله اليهودي ومفهوم المدينة اليونانية بما ينطوي عليه من ثقافة شمولية لا تقف عند حدود العرق والدين. لم تصلنا أفكار هؤلاء الإصلاحيين عبر نصوص مباشرة بل عبر كتابات نقادهم اللاحقين الذين اتهموهم بالهرطقة ومحاولة تقويض أصول الدين. كما أن ملاحظات فيلو اليهودي بخصوصهم مليئة بالإشارات المفيدة إلى حقيقة فكرهم[2].

1- Lee Levine, The Age of Hellenism. in: H. Shanks, Ancient Israel, p.181.

أ.هـ.م.جونز: مدن بلاد الشام عندما كانت ولاية رومانية، ص٥٢.

2- Paul Johnson, Ahistory of the Jews, pp.100-101.

لا نملك الكثير من المعلومات المستقاة من المصادر السلوقية المباشرة بخصوص مقاطعة اليهودية، لما تبقى من الفترة الهلينستية. من هنا، لابد لنا من الاعتماد على مرجعين يهوديين هما كتابات المؤرخ يوسيفوس في مؤلفيه «الحروب اليهودية» و«تاريخ اليهود»، وأسفار المكابيين في الترجمة اليونانية للتوراة، وهي من الأسفار غير القانونية في التوراة العبرية، وكتبت أصلا باللغة اليونانية. وهنا لابد لنا من قراءة هذه المراجع، التي تتصف بالتحيز وأحادية الرؤية الإيديولوجية، بعين المؤرخ العصري التي تميز بين الواقع والخيال، وبين الحدث وتفسيره الإيديولوجي.

في عام ١٧٥ق.م، ورث العرش السلوقي أنطوخيوس الرابع (أيفانوس)، الذي وجدت فيه الحركة الإصلاحية نصيرا قويا. فقد عمد هذا الملك، الذي كان تواقا إلى نشر الهيلينية، إلى دعم الإصلاحيين عن طريق إزاحة الكاهن الأعلى المحافظ أونياس واستبداله بواحد من الكهنة الذين يميل إليهم الإصلاحيون واسمه ياسون. وهنا يقول لنا محرر سفر المكابيين بأن ياسون قد اشترى منصبه بمبلغ من المال دفعه للملك السلوقي. ولكننا لا نملك أية وسيلة للتحقق من هذه المعلومة، ونميل إلى استبعادها نظرا لما يكنه محرر المكابيين من تحيز واضح ضد الاتجاه الإصلاحي. بدأ ياسون بإسباغ مظاهر المدينة اليونانية على أورشليم، فبنى جمنازيوم قرب جدار الهيكل، وقام بتحويل المداخيل الهائلة للهيكل، من الإنفاق على القرابين الباهظة التكاليف إلى الفعاليات والنشاطات والمرافق ذات النفع العام، كما أنفق على المباريات والألعاب بسخاء، حتى أن كهنة الهيكل قد انشغلوا بتتبع النشاطات الرياضية عن ذبائح وقرابين الهيكل وغيرها من النشاطات الدينية الروتينية. وقد عبر العاهل السلوقي عن رضاه بزيارته لأورشليم عام ١٧٣ق.م، حيث استقبل بحفاوة بالغة من قبل المواطنين الذي ساروا بمواكب المشاعل وحيوه بالهتافات العالية. وفي السنة نفسها شاركت أورشليم بالألعاب الرياضية السنوية التي كانت مدينة صور تقيمها على غرار الألعاب الأولمبية.

ولكن أنطوخيوس أيفانوس عمد في عام ١٧٢ إلى استبدال ياسون بشخص أكثر قربا إلى الإغريق هو مينلاوس. ويبدو أن هذه الخطوة لم تكن مدروسة بما فيه الكفاية، لأن المجتمع الأورشليمي قد انقسم حتى تحول إلى نزاع فإلى صدامات مسلحة بين الطرفين، تدخل أنطوخيوس لحسمها فدخل أورشليم بجيشه وأعاد إليها الاستقرار بقوة

السلاح، ثم بنى قلعة الأكرا على الهضبة الغربية المقابلة لأورشليم، ووضع فيها حامية سلوقية دائمة لحفظ الأمن(*)، بعد عام على هذه الأحداث أصدر أيفانوس مرسوماً استبدل به الشريعة الموسوية الحاكمة للعلاقات المدنية بالقانون المدني السلوقي، وحوّل هيكل أورشليم من مركزٍ ديني محلي إلى مركز ديني عالمي، وذلك بالمطابقة بين يهوه اليهودي وزيوس الأوليمبي، وتبع ذلك نصب تمثال لزيوس يهوه في هيكل أورشليم.

لقد فسر المؤرخون هذه الخطوة على أنها حملة اضطهاد ديني موجهة ضد المعتقدات اليهودية، وذلك بتأثير أسفار المكابيين وكتابات المؤرخ اليهودي يوسيفوس، جاعلين من أيفانوس أول مُعادٍ للسامية وأول من ابتدأ الاضطهاد الديني لليهود. ولكن الحقيقة هي أن السلوقيين لم يمارسوا قط سياسة التمييز الديني ضد أية طائفة، ناهيك عن الاضطهاد وتدنيس المحرمات، لأن التمييز الديني كان بعيداً عن طبع الإغريق عامة، وعن الحاكم السلوقي الذي اعتبر نفسه وريث الاسكندر والقيِّم على مبادئه الإنسانية الشمولية. من هنا، فإن الإجراءات السلوقية في أورشليم يجب أن تُفهم في السياق العام لسياسة الهلْيَنَة التي كانت مدن بلاد الشام تسعى إليها راضية. ففي جميع المدن التي نالت مرتبة بوليس وامتيازاتها، جرت مطابقة الآلهة المحلية مع الآلهة الإغريقية، وتقبَّل المواطنون القانون المدني السلوقي الذي يوحد وينمّط القوانين والأعراف المحلية، من أجل دمج المجتمعات الصغيرة في المجتمع الموحد للدولة. يضاف إلى ذلك أن أنطوخيوس أيفانوس الذي تلقى تعليمه وفق أفضل التقايد الهيلينية، كان بعيداً عن نموذج الحاكم الطاغية الذي رسمته له أسفار المكابيين ومؤلفات يوسيفوس، وأكثر قرباً إلى نموذج الحاكم الإغريقي المنفتح العقل والتفكير. من هنا فإننا نرجح أن يكون أيفانوس قد اتخذ إجراءاته تلك بتشجيع من الكاهن الأعلى مينلاوس والاتجاه الإصلاحي في المدينة، وذلك في خطوة حاسمة منهم نحو هيلْينة أورشليم. إلا أن نتائج هذه الإجراءات السابقة لأوانها

(*)- يتهم محرر سفر المكابيين الأول أنطوخيوس أيفانوس بنهب كنوز معبد أورشليم في حملته تلك. إلا أن ما نعرفه من ثراء المملكة السلوقية في عهد هذا الملك، وأعماله العمرانية التي لم يبزه بها أحد من ملوك السلوقيين إلا سلوقس نيكاتور، والترف الفاحش الذي كانت تعيشه العاصمة إنطاكية وبقية المدن الكبرى في المملكة، يجعل قيام أيفانوس بنهب الهيكل أمرا مستبعدا جدا، إن لم يكن مستحيلاً.

بالنسبة إلى مقاطعة متخلفة كمقاطعة اليهودية، قد فاقت كل توقعات أبيفانوس وحلفائه الإصلاحيين، وكان لها أثر لا يمحى على مسار التاريخ اللاحق لأورشليم.

المكابيون وقيام الدولة اليهودية

لو أن ما حصل في أورشليم قد حصل في أية مدينة سورية تطمح إلى مرتبة المدينة اليونانية، لكان أمراً طبيعياً بل ومرغوباً من قبل الجميع، ولكن المجتمع اليهودي الذي بقي محافظاً في غالبيته لم يكن جاهزاً بعد للانفتاح، ولم تجد عامة المتدينين الأصوليين في عبادة يهوه-زيوس سوى شكلاً من أشكال عبادة الأبعال السورية التي ندّدت بها أسفار الأنبياء. وما لبث التململ حتى تحول إلى تمرد اتخذ شكل حرب العصابات، وذلك بقيادة رجل يدعى متّى حشمون، وهو سليل أسرة كهنوتية يقيم في بلدة مورين على بعد عشرة كيلومترات من أورشليم. وكان لمتّى هذا خمسة أولاد مشوا معه، هم يوحنا الملقب كديس، وسمعان المسمى طسّي، ويهوذا الملقب بالمكابي، واليعازر الملقب أوران، ويوناثان الملقب أفوّس.

بعد عامين من حرب العصابات ضد السلوقيين ومناصريهم في الداخل، استطاع الأخوة الخمسة بقيادة يهوذا الملقب بالمكابي طرد الحامية السلوقية خارج منطقة أورشليم عام ١٦٤ق.م، وطهروا المعبد من كل رموز الإصلاح الديني. ولكن يهوذا المكابي قُتل في ما تلا ذلك من مواجهات عنيفة بين الطرفين، وتولى القيادة بعده أخوه يوناثان الذي اضطر للانسحاب من أورشليم مع مقاتليه والاحتماء ببيت لحم. في ذلك الوقت توفي أبيفانوس وكان ابنه صغيراً على تولي مقاليد الحكم، فنشب صراع طويل على عرش سلوقيا، الأمر الذي أتاح الفرصة ليوناثان للعودة إلى أورشليم، حيث تصرف كحاكم مستقل عن السلطة المركزية. بعد تصفية باقي المطالبين بالعرش تركز الصراع في أنطاكية بين أميرين سلوقيين هما الكسندر بالاس وديمتيريوس، فراح كل منهما يخطب ود حكام المقاطعات السورية لكسب تأييدها ضد خصمه. وهنا وقف يوناثان إلى جانب ديمتريوس الذي كانت حظوظه في طريق الصعود(*)، وكان قرار يوناثان المدروس هذا

(*) - يقول يوسيفوس في كتابه »تاريخ اليهود« أن يوناثان قد أنجد ديمتريوس بكتيبة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف جندي، عندما كان ديمتريوس محاصراً في قصره بانطاكية، فنفذ هؤلاء إلى القصر وراحوا يرشقون الشعب بالقذائف الملتهبة وأشعلوا النيران في المنازل المجاورة. وعندما أخذ أبناء المدينة يتراجعون أمام النار تعقبهم اليهود وأعملوا فيهم مذبحة ونهبوا ما استطاعوا الوصول إليه.

صائباً لأن ديمتريوس ما لبث طويلاً حتى تغلب على خصمه وتولى عرش سلوقيا، وكافأ كل من مساعده ومن بينهم يوناثان، الذي تم تثبيته كاهناً أعلى، وسُمح له بالاحتفاظ بقوات عسكرية خاصة به، وخُفِفت عنه الضرائب، كما أُعطي الإذن بتوسيع مقاطعته حتى عادت إلى ما كانت عليه أيام الفرس تقريباً.

في عام ١٤٣ق.م توفي يوناثان وخلفه أخوه سمعان، آخر الأخوة المكابيين من أبناء متى حشمون(*). وهو المؤسس الحقيقي لدولة أورشليم المستقلة، وفي عهده تمت النقلة الحاسمة نحو استقلال مقاطعة اليهودية. فقد حاصر سمعان قلعة الأكرا السلوقية وافتتحها ثم هدمها حجراً حجراً وسواها بالتراب. وهنا يقول يوسيفوس، بأن سمعان عندما لاحظ أن قمة الهضبة الغربية التي بنيت عليها القلعة هي أعلى من الهضبة الشرقية للمعبد، عمد إلى تسوية قمتها ليخفض مستواها عن مستوى المعبد. وعندما أعلن رسمياً الاستقلال الكامل عن سلوقيا، لم يكن وضع البلاط السلوقي في حالة تسمح له بالتحرك فخضع للأمر الواقع ، وتم إعلان اليهودية دولة مستقلّة عام ١٤٢ق.م.

كانت الدولة التي أسسها سمعان المكابي دولة دينية يرأسها الكاهن الأكبر الذي تركزت بين يديه جميع السلطات الدينية والدنيوية في آن معاً. فإلى جانب لقب الكاهن الأكبر، اتخذ سمعان لقبين آخرين هما إثنارك Ethnarch أي رئيس الشعب، وستراتيجوس Strategos أي القائد العسكري الأعلى. وقد ابتدأ بخطة شاملة لمحو كل آثار الهيلينية والعودة إلى التقاليد الدينية القديمة، فألغى المؤسسات التربوية والثقافية الهيلينستية، وأحل محلها نظاماً قومياً للتعليم قوامه شبكة من المدارس التي تعلّم أسفار التوراة، ويقصدها كل الشبان بدل الجمنازيوم والملاعب والمسارح اليونانية. وساعده في حملته الثقافية الرجعية هذه، طائفة الصدوقيين التي كانت آخذة بالتشكل في تلك الآونة، وهي طائفة متزمتة تلتزم التفسير الحرفي اللاهوتي للتوراة، وترفض كل شكل من أشكال التفكير الحر. حكم سمعان من ١٤٢ إلى ١٣٤ق.م، وعمل خلال هذه الفترة على توسيع مناطق نفوذه باتجاه الغرب والشمال الغربي، فضم يافا إليه وحصل بذلك على ميناء على البحر المتوسط.

(*) - تدعى هذه الأسرة التي تسلسلت من متى حشمون بالأسرة المكابية أو الأسرة الحشمونية.

لم يأتِ تشكيل الدولة المكابية نتيجة للقوة العسكرية للمكابيين، ولا لبطولات وتضحيات أولاد متى حشمون الذين رفعهم الخيال الشعبي في أسفار المكابيين إلى مصاف الأبطال الخرافيين. فمقاطعة اليهودية بعد كل شيء لم تكن سوى مقاطعة فقيرة ومتخلفة في كل مجال، ولم يكن بمقدورها تحقيق الاستقلال لولا التفكك السياسي للدولة السلوقية، وصعود نجم روما بعد سلسلة الحروب البونية التي قضت خلالها على منافستها قرطاجة، وانفتح أمامها الطريق للسيطرة على الشرق، فراحت تضغط على الدولة السلوقية وتفرض عليها الأتاوات الباهظة.وفي الحقيقة، فإن استقلال مقاطعة اليهودية الذي تصوره المراجع اليهودية على أنه حدث فذ وفريد، قد أتى ضمن سلسلة من العمليات الانفصالية عن الإدارة المركزية، وقيام العديد من الجمهوريات والولايات السلوقية بإعلان استقلالها، مستفيدة من الخلافات المستمرة بين أفراد الأسرة المالكة السلوقية. فبعد مقاطعة اليهودية استقلت جمهورية صور الفينيقية، ثم تبعتها صيدون فطرابلس فأشقلون فاللاذقية وبيروت.

وقد ساعد غياب السلطة المركزية في المملكة على صعود نجم إمارتين عربيتين هما إمارة الإنباط وإمارة اليطوريين. فأما الأنباط فهم قبائل عربية متجولة أخذت تدريجياً تساكن الأدوميين في مناطقهم جنوبي البحر الميت منذ القرن السادس قبل الميلاد، ثم ذابت العناصر الأدومية تدريجياً وطغت عليها العناصر النبطية. ومنذ أواسط القرن الثاني صار أمراء الأنباط يتلقبون بالملوك، واستغلوا فرصة ضعف الدولة السلوقية ليمدوا نفوذهم شمالاً باتجاه شرقي الأردن، وهذا ما وضعهم في منافسة مع حكام الدولة اليهودية الناشئة[1]. وأما اليطوريون فكانوا شعباً عربياً أقام منذ أيام الاسكندر المقدوني في المنطقة الواقعة بين جبل الحرمون وحوض الأردن الشمالي، وكانوا يقطعون طرق القوافل التجارية ويفرضون عليها الأتاوات. وتقول أخبار الاسكندر إنه ترك حصار صور وتوجه إليهم في حملة تأديبية. اختفت أخبارهم بعد ذلك حتى مطلع القرن الثاني، حيث ظهروا في منطقة البقاع واتخذوا من مدينة بعلبك عاصمة لهم. تهلّين أمراء اليطوريين بعد استقرارهم واتخذوا لأنفسهم أسماء يونانية، وقاموا بفتوحات واسعة ضمت، إلى الشرق من لبنان الشرقي، شقة كبيرة من الأرض اشتملت على كامل منطقة القلمون، كما

١- د.أحسان عباس: تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق-عمان١٩٨٧.

ضمت إلى الجنوب والجنوب الشرقي منطقة الطراخونية والحورانية، وبذلك أحاطوا بدمشق وخنقوا تجارتها، وكادوا يستولون عليها لولا حماية حارثة ملك الأنباط لها[1].

توفي سمعان المكابي عام ١٣٤ق.م وخلفه ابنه المدعو جون هيركانوس. كان هيركانوس تلميذاً نجيباً للتوراة، وقد اعتقد أن الحكمة الإلهية قد اختارته لإعادة فتح كنعان على طريقة يشوع، فبدأ بتجهيز جيش مدرب معظمه من المرتزقة الذين أنفق عليهم بسخاء. وعندما أحس بقوته كانت السامرة هدفه الأول، فبعد حصارٍ دام عاماً كاملاً سقطت السامرة (أو سيباسطة كما صارت تدعى)، فأحرقها ودمرها.وبعد أن الحق كامل مقاطعة السامرة بأملاكه وذبح عشرات الآلاف من سكانها، خصوصاً في بيت شان (أو سقيثوبوليس) وغيرها من مراكز الثقافة الهيلينية، توجه جنوباً نحو أدوميا وضمها أيضاً إلى ممتلكاته، وكان على أهل أدوم إما اعتناق اليهودية أو مواجهة الموت. كما وسع الرقعة التي كان سلفه قد استولى عليها حول يافا على ساحل المتوسط. حكم جون هيركانوس قرابة الثلاثين عاماً، وكان نموذجاً لليهودي المتعصب الذي لا يرى في البشر إلا نوعين هما اليهودي وغير اليهودي. ورغم أنه لم يتخذ لقب الملك مكتفياً بألقاب أبيه الثلاثة، إلا أن مقاطعة اليهودية قد تحولت في عهده إلى مملكة كبيرة تم اكتسابها بحد السيف.

توفي هيركانوس عام ١٠٤ق.م، وخلفاه ابنه أرسطوبولس الأول الذي اتخذ لقب الملك. استطاع أرسطوبولس خلال سنة واحدة من حكمه ضم منطقة الجليل، ثم توفي فجأة وخلفه أخوه اليكساندر ينايوس. كان ينايوس آخر الشخصيات المهمة في الأسرة المكابية، وهو الذي وسع حدود الدولة المكابية إلى أقصى مدى لها، وذلك باستيلائه على معظم مناطق شرقي الأردن، إضافة إلى ما تبقى من الساحل الفلسطيني، بينما كان السلوقيون يقفون موقف المتفرج في انتظار الضربة الأخيرة لروما والتي لم تتأخر كثيراً. كان ينايوس أشرس حكام المكابيين، فقد تابع سياسة التهويد تحت قوة السلاح وطبقها على أوسع نطاق، كما مارس القمع والإرهاب والقتل الجماعي في كل مكان، ولم ينج من طغيانه سكان اليهودية الذين قتل منهم الآلاف. وهذا ما أحدث تململاً شعبياً واسعاً في أورشليم والمقاطعة اليهودية، ما لبث أن تحول إلى تمرد بقيادة الطائفة الفريسية.

١-أ.هـ.م جونز: مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة احسان عباس، دار الشروق-عمان١٩٨٧.

نشأ الفريسيون من قلب الطبقات الشعبية، وقد ورثوا قسماً لا بأس به من أفكار الإصلاحيين القدماء الذين كانوا حول ياسون ومنيلاوس قبل ظهور المكابيين. إلا أن هؤلاء الإصلاحيين الجدد تميزوا بالاعتدال وبقوا ضمن الإطار العام للعقيدة التقليدية، ولكنهم قالوا بأن يهوه عندما أنزل الشريعة المكتوبة على موسى، قد أنزل معها في الوقت نفسه شريعة شفوية تم تداولها عبر أجيال الحكماء، وأن هؤلاء الحكماء يستطيعون بواسطة الشريعة الشفوية تفسير وتكميل الشريعة المكتوبة بما يتلاءم والظروف المستجدة(*). وفي المقابل، فقد رفضت الطائفة الصدوقية هذه الأفكار وأصرت على عدم وجود شريعة غير مكتوبة، وأدانت كل التفسيرات المرنة والعصرية الناجمة عن إعمال المنطق الفريسي في النصوص المقدسة(*). وقد التقت هذه الأصولية الفكرية للصدوقيين بالأصولية العرقية للمكابيين، وكان بينهم منذ البداية حلفاً مكيناً، خصوصاً وأن الصدوقيين كانوا يسيطرون على الهيكل وكهنته وعلى مدارس التعليم الديني في كل مكان. في عهد الكساندر ينايوس، وجد الفريسيون أن الأسرة المكابية قد آلت إلى التحلل والفساد، وأن الفتوحات الخارجية لم تكن تهدف إلى نشر الدين بقدر ما كانت تهدف إلى تحقيق الأمجاد الشخصية للملوك. وقد وقفت الطبقات الشعبية إلى جانب الفريسيين، بينما وقفت الأرستقراطية والكهنوت إلى جانب الصدوقيين والحكام، وتحول التوتر إلى تمرد فإلى حرب أهلية غلب عليها الطابع الطبقي. دامت الحرب الأهلية ست سنوات، وعندما بدأ الكسندر ينايوس يحقق انتصاراته على المعارضة وافته المنية في عام ٧٦ق.م، ووضع موته حداً للأزمة.

خلال عهد الكسندر ينايوس وأبيه جون هيركانوس، تحولت مقاطعة اليهودية إلى مملكة غنية، وازداد عدد السكان بشكل ملحوظ نتيجة لازدهار التجارة والزراعة وتدفق الأموال على خزينة الدولة من المقاطعات المفتوحة. ويمكن ملاحظة هذا التطور في أوضاع أورشليم. فلقد بقيت أورشليم محصورة ضمن أسوار نحميا على ذروة هضبة

(*) – التقط المعلمون الربانيون هذه الفكرة فيما بعد، وعملوا بواسطتها على إحداث انقلاب عميق الأثر في الدين اليهودي بعد دمار الهيكل وزوال الدولة اليهودية.

* – يذكرنا هذا الخلاف بين الصدوقيين والفريسيين، بالخلاف بين فرقة الأشاعرة وفرقة المعتزلة عند المسلمين خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين.

أوفيل خلال كامل العصر الفارسي ومعظم العصر الهيلينستي، ولم يتجاوز عدد سكانها الخمسة آلاف في أفضل الأحوال. ولكنها انتقلت خلال عصر المكابيين من وضع المدينة الهامشية إلى وضع العاصمة الكبرى، وخصوصاً خلال عهد جون هيركانوس واليكسندر ينايوس، حيث امتد العمران حتى شمل الهضبة الغربية للقدس، وبلغ عدد السكان قرابة الثلاثين ألفاً. وهذا يعني أن المدينة قد عادت إلى وضعها السابق خلال القرن الأخير لمملكة يهوذا. ونلاحظ من المخطط الذي رسمته كاثلين كينيون لأورشليم المكابية، أن المدينة صارت مؤلفة من قسمين مسورين؛ الأول على هضبة أوفيل داخل سور نحميا والثاني امتد عبر وادي تيبريون (الوادي المركزي) حتى صعد القمة المقابلة على التلة الغربية. والقسمان لا يتصلان إلا عند مساحة ضيقة قرب الجدار الجنوبي للمعبد، وهذا ما يجعلهما شبه منعزلين عن بضعهما، ويعرقل الاتصال بينهما خصوصاً في زمن الحصار والحرب (انظر المخطط في الشكل رقم٢٦ أدناه).

هذا وتُظهر اللقى الأثرية من الفترة المكابية، أن هؤلاء المكابيين الذين أنشأوا دولتهم على أسس أصولية منافحة عن الثقافة التوراتية، ما لبثوا حتى تحولوا إلى هيلينيين معتدلين. فالقطع النقدية التي صكها ملوك المكابيين باللغتين المحلية واليونانية تحمل رموزاً تشكيلية يونانية معروفة، مثل النجمة داخل دائرة، وغصن النخلة، والمرساة، وقرون الماعز المزينة بالثمار. وفي قصر مكابي تم اكتشافه حديثاً في أريحا، تظهر العمارة اليونانية بكامل أناقتها وأبهتها، مثلما يظهر أسلوب حياة الملوك المتأثر بنمط الحياة اليونانية.

بعد موت ينايوس عام ٧٦ق.م خلفته زوجته سالومي التي حكمت تسع سنوات (٧٦–٦٧ق.م). تقربت سالومي خلال عهدها من الفريسيين وأوكلت إليهم مراكز حساسة في الدولة، فكانت سنوات حكمها عهد استقرار ومصالحة بين شرائح المجتمع المتناقضة. وبعد وفاتها تنازع ابناها أرسطوبولس الثاني وهيركانوس الثاني على السلطة. وكان القائد الروماني بومبي قد صفّى المملكة السلوقية، ودخل قائد جيوشه إلى دمشق آخر معاقل السلوقيين، حيث استقبل بترحاب كبير عام ٦٥ق.م، فقصده الأخوان المتنازعان وكل منهما يسعى إلى تثبيته حاكماً إقليمياً على اليهودية وممتلكاتها. ولكن وزير هيركانوس المدعو أنتيبار، وهو أدومي متهود، قد لعب دوراً ديلوماسياً مهماً، حيث قصد دمشق واتفق مع القائد الروماني على فتح أبواب أورشليم أمام الرومان،

مصطبة هيرود
مصطبة زربابل

٢٦ - أورشليم في العصر المكابي

مقابل الاعتراف بسيده هيركانوس ملكاً على أورشليم. وكان عندما وصل الرومان أن أنصار ارسطوبولس تحصنوا في المدينة ورفضوا فتح الأبواب، فحاصرهم الرومان ثلاثة أشهر ثم فتحوا المدينة عام ٦٣ق.م. وعلى الأثر ثبت بومبي هيركانوس في منصبه، ولكن لا كملك بل ككاهن أعلى يتمتع بصلاحيات الحكم والإدارة، كما ثبت أنتيبار الأدومي في منصب الوزير الأول. وبذلك عادت اليهوية مقاطعة تحت حكم الرومان، وانتهت أول وأخر دولة مستقلة لليهود في فلسطين، والتي دامت قرابة ثمانين عاماً (١٤٢-٦٣ق.م).

يعزو المؤرخ اليهودي يوسيفوس خراب المملكة اليهودية إلى النزاع بين أولاد سالومي على السلطة، وهو يعتقد بأنه لو اتحد الأخوان واستطاعا معاً التفاوض مع الرومان لنجحا في تجنيب المملكة مصيرها. هذا الرأي الساذج يدل على ما تمتع به يوسيفوس من قصر نظر وبعد عن المنطق التاريخي السليم. ذلك أن الظروف التي أتاحت لهذه المملكة المصطنعة التشكُل والتوسع قد تغيرت تماماً. فلقد ظهر الأخوة المكابيون ومن ورائهم العناصر اليهودية الأصولية في ظل تراخي السلطة المركزية السلوقية وتفكك أجزائها، ولم يكن توسعهم داخل فلسطين وخارجها إلا على شكل مد استعماري لمناطق تم حكمها بالحديد والنار والقمع والإرهاب، ولم يكن لمثل هذا الحكم أن يستمر طويلاً حتى وإن لم تظهر روما على مسرح الأحداث. وبعد انتهاء فترة الإخوة المكابيين الذين قاتلوا عن عقيدة وإيمان مستمدين حق السلطة من عامة اليهود المتدينين، تحول ملوك الأسرة الحشمونية إلى طغاة يستمدون حق المُلك من قوة السلاح وحدها، وانفض عنهم عامة المتدينين بسبب فسقهم وفجورهم وتسلطهم، وراحت المقاطعات المحكومة تتحين الفرص للانفصال والاستقلال. ولم يكن دخول بومبي إلى أورشليم إلا من قبيل إطلاق رصاصة الرحمة على مملكة في طور الاحتضار، فجردها من جميع ممتلكاتها وأعادها إلى وضعها الطبيعي كمقاطعة فلسطينية صغيرة تابعة للولاية السورية الكبرى التي يحكمها قنصل روماني من دمشق. وهذه الخطوة كانت حتمية، إن لم يكن بسبب السياسية الإمبراطورية الرومانية، فبسبب بُعد النظام الديني المتعصب في هذه الدويلة عن الذائقة الرومانية وعن فلسفة الحكم الرومانية.

الفصل الخامس عشر

العصر الروماني ونهاية أورشليم

هيرود العربي

عندما دخل بومبي سورية، أعاد تشكيلها سياسياً في وحدات إدارية جديدة، يتلاءم حجمها مع الظروف الخاصة والمحلية. فلقد أبقى على بعض الممالك والإمارات القديمة مثل مملكة الأنباط، وإمارة اليطوريين، وإمارة حمص التي تم تثبيت أسرة شمسي غرام الحاكمة فيها، وترك على الساحل السوري نظام دويلات المدن بعد إعادة تشكيلها. كما عمد إلى تكوين ولايات موسعة تضم عدداً من المدن السلوقية السابقة، مثل ولاية اتحاد المدن العشر التي ضمت عدداً من المدن والبلدات على ضفتي الأردن مثل بيت شان، وفيلادلفيا (=عمان)، وجرش، وقناتا (=القنوات) التابعة للحورانية. أما مملكة اليهودية فقد أعيدت إلى نواتها الريفية القديمة، وتم تجريدها من كل المناطق التي استولى عليها المكابيون.

لم يحصل خلال السنوات العشرين الأولى تغيير يُذكر على النظام الإداري الذي وضعه بومبي، لأن روما كانت تشهد خلال هذه الفترة أحداثاً جساماً قادت إلى نهاية الجمهورية وصعود القيصرية، بعد نزاع على السلطة بين بومبي ويوليوس قيصر انتهى بانتصار قيصر عام٤٨ق.م. وقد عمد الوزير الداهية أنتيبار الأدومي إلى الاستفادة من هذا الصراع، فأرسل إلى قيصر معونة في وقت حاسم من الصراع، وقبع في انتظار الفوائد التي لم تتأخر. فعقب انتصاره على بومبي في فرسالوس قضى قيصر شتاء عام ٤٨-٤٧ق.م في الإسكندرية، ثم صعد في الربيع للقضاء على فتنة في آسيا الصغرى. وفي

طريقه عبر سورية توقف عند مدن ناصرته على بومبي ووزع عليها المكافآت، وبينها أورشليم التي أعطاها العديد من المزايا، بينما تثبيت هيركانوس الثاني في منصبه لا ككاهن أعلى فحسب وإنما كإثنارك، وهو لقب يوناني يعني حاكم. وكان الحكام المكابيون قد اتخذوا هذا اللقب لأنفسهم قبل أن يغدوا ملوكا. كما تم تثبيت أنتيبار في منصبه تحت لقب بروكيوريتور(*) Procurator. بعد بضع سنوات قامت مجموعة من الأصوليين اليهود باغتيال أنتيبار، فأعطي المنصب إلى ابنه هيرود، الذي لقب عبر حياته بهيرود الكبير. كما لقبه بعض المؤرخين المحدثين بهيرود العربي.

كان هيرود أدوميا من جهة الأبوين، وهذا سبب تلقيبه بالعربي، لأن الأدوميين ينتمون إلى الذخيرة السكانية لشبه الجزيرة العربية. وفي القرن الأول ق.م كانوا قد ذابوا تماما واختلطوا بالأنباط العرب، رغم بقاء اسم أدوم يطلق على مناطقهم التقليدية. أما عن ديانة هيرود فكانت نوعا من اليهودية السياسية التي ورثها عن أبيه أنتيبار الذي لم يولد من أسرة يهودية ولكنه تهود خلال خدمته في القصر الملكي وترقيته فيه. من هنا، فإن اليهود لم يعتبروا هيرود يهوديا قط، مثلما لم يعتبر نفسه هو كذلك. ولسوف تثبت سياسته الميكافيلية حقيقة موقفه من اليهود واليهودية.

ابتدأ هيرود حياته السياسية خلال حياة أبيه الذي كان يكلفه بمهام عسكرية حساسة. ومنذ ذلك الوقت ابتدأ طبعه الدموي بالظهور، وكذلك ضربه عرض الحائط بالتقاليد والشرائع اليهودية. وقد قطع دابر إحدى حركات التمرد التي قامت بها جماعة أصولية يهودية، ثم أعدم قائدها دون إخضاعه لمحاكمة وفق أصول الشريعة، كما قبض على قاتل أبيه وأعدمه بالطريقة نفسها، الأمر الذي عد جريمة دينية من الدرجة الأولى.

حوالي عام ٤٠ ق.م دفعت الأصولية اليهودية إلى واجهة الأحداث واحدا من أفراد الأسرة المكابية يدعى أنتيغونس (وهو ابن أخ لهركانوس الثاني). وقد تآمر انتيغونس لقلب نظام الحكم، وتراسل مع البلاط الفارسي لمعاونته في مشروعه، فأمده الفرس بجيش ساعده على دخول أورشليم، فقبض على عمه هيركانوس وقطع أذنيه ثم أودعه في السجن. أما هيرود فقد استطاع الهرب ولجأ إلى روما.

(*) وهو لقب إداري روماني يحمله كبار المسؤولين الرومانيين في المقاطعات الأجنبية الخاضعة لروما. وقد ترجمته في الصفحات التالية بكلمة ناظر.

كانت الأوضاع في روما شديدة التعقيد عقب مقتل يوليوس قيصر، وكانت السلطة بيد مجلس الشيوخ الذي يدير الأمور من خلال حكومة ثلاثية مؤلفة من أنطونيو، ولبيدو، وأوكتافيان. فمثل هيرود أمام مجلس الشيوخ وأقنعهم بأنه الوحيد القادر على استعادة أورشليم إلى روما، فعينه المجلس ملكاً على اليهودية مطلق الصلاحية، وذلك بعد أن ألقى أنطونيو بكل ثقله إلى جانبه وعمل على تزويده بجيش روماني قوامه ٣٠,٠٠٠ جندي. عاد هيرود على رأس هذا الجيش العرم فهزم الفرس ودخل أورشليم عام ٣٧ق.م، فحكمها مدة تزيد على الثلاثين سنة، بدعم قوي ومتزايد من روما التي لم تجد أفضل منه لتثبيت دعائم الاستقرار في فلسطين وسورية الجنوبية.

عندما نشب الصراع على السلطة في روما بين أنطونيو وأوكتافيان، وقف هيرود إلى جانب ولي نعمته أنطونيو. ولكن عندما بدأت حظوظ أنطونيو بالهبوط عقب معركة أوكتيوم الشهيرة بين الطرفين، تحرك هيرود بسرعة لحماية مملكته وغير ولائه إلى أوكتافيان. وكان قراره المستبصر هذا في محله، لأن أوكتافيان ما لبث أن حقق انتصاره الشامل على أنطونيو الذي لقي حتفه منتحراً في الإسكندرية. وقد كافأ أوكتافيان هيرود على دعمه له، بعد أن صار قيصراً تحت لقب أغسطس، فسمح له بتوسيع ممتلكاته، ثم تابع دعمه له وإعطاءه المزيد من المقاطعات حتى اشتملت مملكته على جميع المناطق السابقة للمكابيين في عهد الكسندر ينايوس، وزادت عليها شمالاً باتجاه الحورانية والجولانية. فقد أثبت هيرود أنه الوحيد القادر على تدعيم سلطة روما في هذه المناطق، وكان أكثر الحكام السوريين ولاءً لها ودعماً لجيوشها في مواجهة الفرس. يضاف إلى ذلك، أنه قد أثبت للرومان أن الدولة اليهودية لن تعود إلى سابق عهدها كدولة دينية، وذلك بفصله لمنصب الحاكم عن منصب الكاهن الأعلى، وإحلاله القوانين الرومانية محل الشريعة التوراتية من أجل الفصل في العلاقات المدنية.

عندما حاول السنهدرين، وهو المحفل اليهودي الذي يساعد الكاهن الأعلى في مهامه، التدخل من أجل منع تطبيق القوانين الرومانية على اليهود، عمد هيرود إلى إعدام ٤٦عضواً من أعضائه البارزين، ثم راح يعين ويعزل الكاهن الأعلى على هواه، معتمداً على اليهود البابليين أو المصريين الأقل تزمتاً والأكثر انفتاحاً. وبذلك تم تحويل منصب الكاهن الأعلى إلى وظيفة رسمية، وجرده من سلطاته وهيبته السابقة. وقد جر

البطش هيرود إلى مزيد من البطش. ونظراً لشكه في جميع من حوله، فقد قتل زوجته الأميرة المكابية وقتل معها أباها وأخاها وعمتها، وذلك بتهمة التآمر ضده، وبعد مدة قتل ولديه من زوجته المكابية بالتهمة نفسها.

حكم هيرود مملكته بقبضة حديدية لم تضعف قط، حتى أن آخر مجازره التي أمر بها تمت وهو على فراش الموت. وكأي طاغية عصري، فقد منع الاجتماعات العامة، وبث جواسيسه في كل مكان يرفعون إليه التقارير بخصوص أية معارضة أو حتى أي انتقاد لسلوكه العام والخاص. وكان المقبوض عليهم بتهمة النقد والتجريح بشخصه يساقون إلى قلعة هيركانيا، حصنه الخاص، ثم لا يُسمع عنهم شيئاً بعد ذلك. ويروي يوسيفوس عنه خبراً ربما كان متخيلاً، وهو أنه في أواخر أيامه خاف أن تكون جنازته مبعثاً للفرح والاحتفال العام بين اليهود، فأصدر أمراً بأن يُعدم فور موته عدد من وجهاء اليهود في كل مكان، لكي يرتفع صوت البكاء والنحيب في جميع أرجاء المملكة، ولا يجد أحد الفرصة للفرح بموت هيرود.

ولكن بالمقابل، فقد كان عصر هيرود عصر ثراء وازدهار في جميع المجالات. لقد أحب هيرود جمع المال، ولكنه أحب إنفاقه بسخاء أيضاً، فعمل على تنشيط التجارة والإفادة من مكوسها، وجعل طرقها آمنة، والتزم تحصيل الضرائب في مملكته الواسعة وشارك روما في عائداتها، وعرف كيف يستفيد من صداقاته في روما سواء مع القيصر أم مع كبار الموظفين والعسكريين، لما فيه مصالح الطرفين. من ذلك مثلاً حصوله على حق استغلال مناجم النحاس في جزيرة قبرص لقاء حصوله منها على نصف الإنتاج الإجمالي. ثم إنه أنفق موارده هذه على المرافق والمشاريع العامة، من طرق وحمامات ومكتبات وما إليها. ولكن إنفاقه الرئيسي انصب على المشاريع العمرانية. وبما أنه كان هيلينياً محباً للفكر الهيليني ولطرائق الحياة الإغريقية، فقد عمل على تزويد أورشليم بكل مظاهر ومرافق المدينة الرومانية-اليونانية، فبنى فيها مؤسسات ثقافية هيلينية كالمسرح والملعب الرياضي، وكان هو نفسه رياضياً من الطراز الأول مجلياً في الفروسية ورمي الرمح والقوس والمطرقة. كما بنى عند الطرف الشمالي الغربي للهيكل قلعة ضخمة دعاها أنطونيا، وسلسلة من القلاع المتفرقة الأخرى خارج أورشليم، أهمها قلعة مسعدة الشهيرة، والباقية إلى اليوم بأطلالها المهيبة.

وبما أنه لم ينظر إلى نفسه أبداً كحاكم يهودي بل كحاكم لجميع الشعوب المنضوية تحت لواء هذه المملكة الرومانية، فقد زاد اهتمامه بالمناطق الأخرى عن اهتمامه باليهودية، فبنى أو أعاد بناء مدن وثنية عديدة وأشاد فيها المعابد للآلهة المحلية. من ذلك مثلاً إعادة بنائه لمدينة السامرة التي كان هيركانوس المكابي قد دمرها، فوضع لها مخطط مدينة يونانية، وعندما أنهاها أسكن فيها جاليات وثنية جديدة وبنى لهم معابد وثنية، وسمح للمدينة بإصدار عملة تحمل شعارات الديانة المحلية واليونانية. وبسبب عداء السامرة لليهود، فقد سمح هيرود لها بتشكيل قوة عسكرية خاصة، كان يستعين بها على قمع الحركات الأصولية اليهودية. كما بنى مدينة قيصرية (قيسارية) على الساحل في موقع قلعة استراتو القديمة، وبكل فخامة وأبهة المدن اليونانية الرومانية، فأسكن فيها جاليات وثنية وبنى لهم المعابد، وملعباً رياضياً ضخماً كانت تقام فيه الألعاب الرياضية السنوية المعادلة للألعاب الأوليمبية مرة كل أربع سنوات. وعند ذلك الملعب نصب تمثالاً لقيصر، بلغ من الضخامة ما لتمثال زيوس أوليمبوس الذائع الصيت في العالم القديم. وفيما بعد، عندما رفعت الجالية اليهودية القليلة العدد في قيصرية التماساً للإمبراطور نيرون تطلب فيها أن يكون لها مندوبون في حكومة المدينة، رفض نيرون الالتماس على أساس أن هيرود لو أراد لهذه المدينة أن تكون يهودية لما بنى فيها المعابد الوثنية.

وبعيداً عن المناطق التابعة لمملكته، فقد طالت عطايا هيرود، الموجهة نحو المظاهر الثقافية الهيلينية، جميع مدن بلاد الشام وتجاوزتها إلى أرض اليونان. فقد أنفق على بناء فوروم(*) Forum في بيبلوس الفينيقية، وأعاد بناء سورها. وبنى فوروم أيضاً لكلٍ من صور وبيروت، وزود اللاذقية بقناة لجر مياه الشرب، وبنى مسرحاً في صيدون وآخر في دمشق، وجمنازيوم في طرابلس، ونوافير وحمامات في أشقلون. وفي أنطاكية رصف الشارع الرئيس بطول ثلاثة كيلومترات ورفع الأعمدة على جانبيه. وفي أثينا نفسها تبرع لإنقاذ الألعاب الأوليمبية من الاضمحلال بسبب نقص التمويل، وعمل على انتظام مواعيدها. وفي اسبارطة تبرع للإنفاق على النشاطات المدنية والثقافية المتنوعة، وتبرع أيضاً لمدن ليكيا وبيرغامون، وأعاد بناء معبد أبوللو المهدم في جزيرة رودس. لقد كان هيرود أكثر من هيليني متحمس كما وصفه المؤرخون، كان مواطناً عالمياً يؤمن بوحدة الأديان والثقافات، وبانفتاح الحضارات على بعضها وتعاونها على بناء دولة عالمية

(*) - وهو ساحة محاطة بالأعمدة تنتظم تحت أروقتها المحال التجارية، وتنعقد فيها الاجتماعات العامة.

شمولية، لا فضل فيها لدين على دين ولا لعرق على عرق ولا لفلسفة على فلسفة إلا بمقدار العطاء والمساهمة والتبادل الثنائي الاتجاه. وهو لم يكره شيئاً قدر كراهيته للتعصب العرقي والديني والانغلاق الثقافي والمذهبي. من هنا جاءت كراهيته لليهود، وجاءت كراهية اليهود له. ومع ذلك فقد بنى في أورشليم هيكل يهوه الذي ذاع صيته في المنطقة وكان درة نشاطات هيرود المعمارية.

جاء بناء هيرود لهيكل أورشليم في سياق نشاطاته العمرانية العامة. فلم يكن يُعقل أن يبني المعابد في كل مكان ويترك عاصمته تخجل أمام بقية المدن بهيكل زربابل المتواضع الذي يرجع بناؤه إلى خمسة قرون خلت. وبصرف النظر عن موقفه من اليهودية واليهود، فقد كان أهل المقاطعة من رعاياه، وكان عليه أن يصنع لأجلهم شيئاً يذكرونه به عبر الأجيال. وعلى كل حال فقد كان بناء معبد ضخم في جميع الحضارات هو شأن متصل بأبهة الملوكية وعظمتها، وكان على كل ملك أن يبني قصراً عظيماً ومعبداً سامقاً.

يقول يوسيفوس بأن هيرود قد وسع هيكل زربابل وزاد عليه بمقدار الضعف. ولاشك أن هذا التوسيع قد طال المصطبة القديمة مثلما طال المعبد المبني فوقها. فلقد عمد هيرود إلى بناء مصطبة عملاقة استندت قواعدها على السفحين الشرقي والغربي لهضبة أوفيل، واستوعبت داخلها من الجنوب والشمال والغرب مصطبة زربابل القديمة (انظر الشكل رقم٣- الفصل الأول). أما سقف المصطبة الذي يشكل الباحة الخارجية الواسعة للمعبد، فقد أحاطها على طول الأضلع الأربعة بأروقة ذات أعمدة. وفي الوسط رفع المعبد الذي ركز على مظهره الخارجي أكثر من تركيزه على ديكوراته الداخلية، فكان لمعان جدرانه المبنية بالحجر الأبيض والمطعم بالذهب والفضة يبهر أنظار القادمين من مسافة بعيدة. فطبقت شهرته الآفاق وصار محجة لليهود من داخل المنطقة ومن خارجها، ممن صار لديهم الآن حافزاً إضافياً لأداء فريضة زيارة المعبد مرة في كل سنة (انظر المخطط في الشكل رقم ٢٧ أدناه). وبما أنه كان يتوجب على كل حاج أن يدفع نصف «شيكل مقدس»(*) لخزانة الهيكل، وأن يدفع بالعملة نفسها قيمة القرابين التي

(*)- الشيكل المقدس هو عملة يصكها المعبد ولا تصلح للتداول التجاري خارجه. والفكرة من ورائه هي أن العملة الرومانية وكل عملة نقشت عليها رموز الوثنية أو السلطة الزمنية هي نقود دنسة لا يجوز دفعها للهيكل أو شراء حيوانات الأضاحي بها. من هنا، كان جماعة من الصرافين يضعون منصاتهم في ساحة الهيكل لمبادلة النقود المدنسة بنقود الهيكل المقدسة.

٢٧ - مخطط هيكل هيرود الكبير

يقدمها على المذبح، فإننا نستطيع تصور المبالغ الطائلة التي كانت تصب في خزائن الهيكل من ذلك الحشد الكبير من الزائرين كل سنة. يضاف إلى ذلك التبرعات التي كان يتلقاها المعبد من أثرياء اليهود، والهبات التي جاءته من الشخصيات العالمية عقب انتهائه، ومنها هبة جاءت من القيصر أوغسطس نفسه، ومن الملك الفارسي أرتازكسيس، حتى تحول هيكل هيرود إلى واحد من أغنى البيوتات المالية في الإمبراطورية الرومانية. ويبدو أن هذه النتيجة كانت في حسبان هيرود عندما أقدم على مشروعه هذا، وأنه قد خطط لذلك بدقة من خلال حسه العالي في تقصي مصادر تحصيل الأموال.

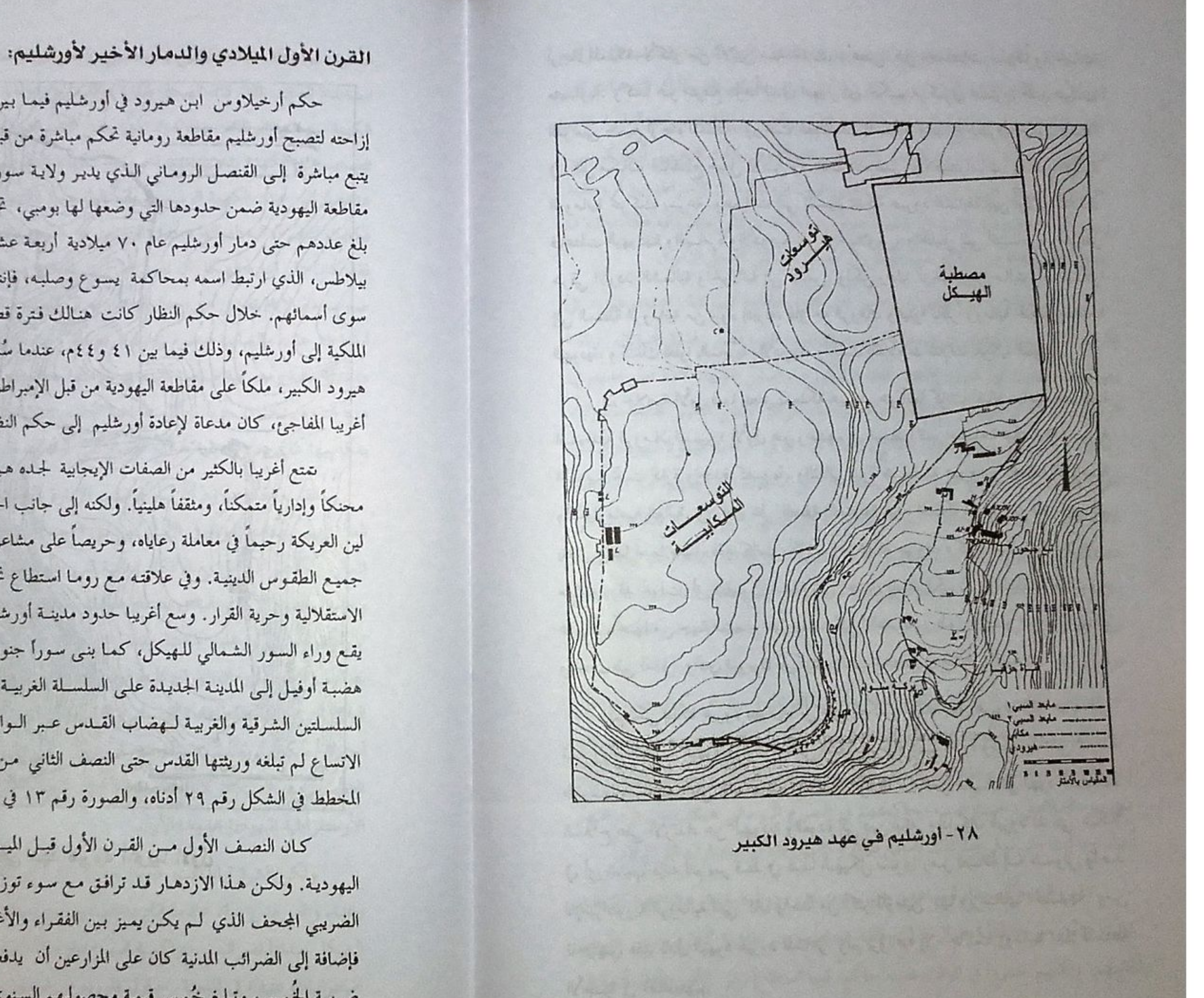
نظراً لنفورة من محدودية وضيق أفق أهل مقاطعة اليهودية، اعتمد هيرود في إدارته على يهود المناطق الأجنبية، وخصوصا يهود بابل ومصر. فمثل هؤلاء كانوا يصلحون لتحديث أورشليم وإضفاء الطابع الكوزموبوليتاني عليها. كما عين منهم في الوظائف الدينية في الهيكل لإعطاء العبادة في هذا المركز الديني الكبير طابعاً شمولياً، وإظهار إله الهيكل بمظهر الإله العالمي. وهذا ما زاد في كراهية اليهود لهيرود الذي نظروا إليه دوماً كحاكم أجنبي، ولم يشفع له كل ما فعله من أجلهم، ولا الازدهار الاقتصادي الذي جلبه حكمه على اليهودية، وكل الغنى والثروة التي تدفقت على عاصمتهم ومدنهم. ويروي يوسيفوس قصة تُظهر مدى العداء المستحكم بين هيرود واليهود. فقد تضمن آخر مشاريعه لتزيين بوابات الهيكل رفع تمثال لنسر باسط الجناح فوق البوابة الرئيسية، ولكن الجماعات الأصولية احتجت على هذا الإجراء وطلبت إيقافه دون أن تلقى أذناً صاغية من هيرود. وعندما تم تثبيت النسر في مكانه قامت جماعة الدارسين في المدارس التوراتية بارتقاء البوابة وأنزلت التمثال وحطمته. كان هيرود على فراش المرض يصارع الموت في قصره بمدينة أريحا، ولكن ذلك لم يمنعه من التصرف وفق تكوينه الشخصي وقناعاته الراسخة، فأمر بعزل الكاهن الأعلى وإحضار المتهمين إليه مقيدين بالسلاسل، حيث تمت محاكمتهم في المسرح الروماني هناك وأمر بإحراقهم أحياء. وما لبث حتى توفى بعد ذلك بأسابيع قليلة، وكانت وفاته في العام الرابع قبل الميلاد.

تنفس اليهود الصعداء لسماعهم خبر موت هيرود، أما بقية رعايا المملكة فقد كانت مشاعرهم متناقضة حيال ذلك، فلقد تخلصوا من طاغية كان يحصي عليهم أنفاسهم، ولكنهم خسروا في الوقت نفسه حاكماً قوياً استطاع نشر الأمن والطمأنينة في

أرجاء المملكة لأكثر من ثلاثين سنة خلت، وأعطى كل الجماعات حقوقاً وواجبات متساوية. وكما هو متوقع دوماً لدى انهيار أي حكم مركزي صارم، فقد عمت الفوضى جميع أرجاء المملكة، وراحت العصابات المسلحة وقطاع الطرق يعيثون فساداً في كل مكان، فانقطع حبل الأمن وسادت الفوضى والاضطرابات. ولكن الإدارة الرومانية تحركت بسرعة وعمدت إلى تقسيم مملكة هيرود السابقة بين أولاده الثلاثة، فأعطت اليهودية والسامرة والأدومية إلى أرخيلاوس، والجليل إلى أنتيباس، ومناطق شرقي الأردن الشمالية والجولانية إلى فيلبُس. ولكن رعايا أرخيلاوس مالبثوا أن اشتكوا إلى السلطة الرومانية من سوء إدارته، فأزاحه الرومان وعينوا ناظراً رومانياً لحكم مقاطعة اليهودية، وكذلك فعلوا بالسامرية والأدومية، وأُلحقت المقاطعات الثلاث بالولاية السورية.

إن خلاصة الأمر فيما يتعلق بمملكة هيرود، هو أنها كانت كياناً سياسياً مصطنعاً استحدثه الرومان لسببين؛ الأول هو رغبتهم في ضبط أكبر مساحة ممكنة في سورية الجنوبية تحت إدارة واحدة كفوءة، والثاني قوة شخصية هيرود وكفاءته السياسية والديبلوماسية العالية. ولا أدل على الصفة المصطنعة لهذه المملكة أن أياً من المؤرخين لم يطلق عليها اسماً معيناً، فقد كانت بكل بساطة مملكة هيرود، وكياناً سياسياً مفصلاً على مقاسه. وقد تحولت أورشليم في عهده إلى إحدى المدن الكبرى في المنطقة، حيث زاد على مساحتها من جهة الشمال حياً جديداً كبيراً امتد على طول الجدار الغربي للهيكل وزحف إلى أسفل وادي تيبريون المركزي (انظر المخطط في الشكل رقم٢٨).

لم تكن مملكة هيرود يهودية، بل على العكس. فلقد عمل هيرود طيلة حياته على قمع روح العصبية اليهودية، وأتاح لكل الشعوب حياة دينية حرة وشجعها على ممارسة طقوسها وساعدها على بناء معابدها الخاصة. وهذا ما حفز غالبية من تهوّد تحت قوة السلاح على الارتداد عن اليهودية والعودة إلى دين آبائه. وإذا كان هيرود قد بنى هيكلاً في أورشليم، فإنه لم يرَ قط في هذا الهيكل سوى رمز لعبادة إله شمولي واحد للإمبراطورية الرومانية التي كان واحداً من أكثر المؤمنين بها وبرسالتها الحضارية. ومن ناحيتهم، فقد بادل اليهود هيرود المشاعر ولم يروا فيه إلا حاكماً رومانياً ممثلاً للسلطة الأجنبية في مقاطعتهم.



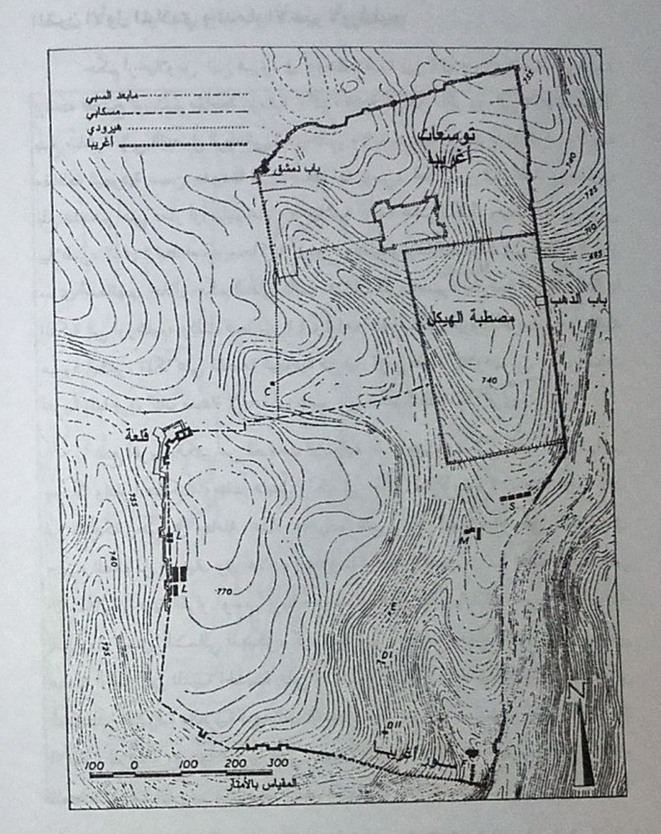
٢٨ - أورشليم في عهد هيرود الكبير

القرن الأول الميلادي والدمار الأخير لأورشليم:

حكم أرخيلاوس ابن هيرود في أورشليم فيما بين ٤ق.م و٦ميلادية، ثم تمت إزاحته لتصبح أورشليم مقاطعة رومانية تحكم مباشرة من قبل ناظر روماني Procurator يتبع مباشرة إلى القنصل الروماني الذي يدير ولاية سورية. ومنذ ذلك الوقت بقيت مقاطعة اليهودية ضمن حدودها التي وضعها لها بومبي، تحكم من قبل نُظّار رومانيين، بلغ عددهم حتى دمار أورشليم عام ٧٠ ميلادية أربعة عشر ناظراً. وفيما عدا بونتوس بيلاطس، الذي ارتبط اسمه بمحاكمة يسوع وصلبه، فإننا لا نعرف عن هؤلاء النُظار سوى أسمائهم. خلال حكم النظار كانت هنالك فترة قصيرة معترضة أعيدت خلالها الملكية إلى أورشليم، وذلك فيما بين ٤١ و٤٤م، عندما سُمي هيرود أغريبا، وهو حفيد هيرود الكبير، ملكاً على مقاطعة اليهودية من قبل الإمبراطور كلاوديوس. ولكن موت أغريبا المفاجئ، كان مدعاة لإعادة أورشليم إلى حكم النظار مرة أخرى.

تمتع أغريبا بالكثير من الصفات الإيجابية لجده هيرود الكبير، فقد كان سياسياً محنكاً وإدارياً متمكناً، ومثقفاً هلينياً. ولكنه إلى جانب الحزم وقوة الشخصية، فقد كان لين العريكة رحيماً في معاملة رعاياه، وحريصاً على مشاعر اليهود ميالاً إلى المشاركة في جميع الطقوس الدينية. وفي علاقته مع روما استطاع تحقيق درجة لا بأس بها من الاستقلالية وحرية القرار. وسع أغريبا حدود مدينة أورشليم بإنشائه لحي سكني جديد يقع وراء السور الشمالي للهيكل، كما بنى سوراً جنوبياً يجمع المدينة القديمة على هضبة أوفيل إلى المدينة الجديدة على السلسلة الغربية. وبذلك امتدت المدينة على السلسلتين الشرقية والغربية لهضاب القدس عبر الوادي المركزي، وبلغت حداً في الاتساع لم تبلغه وريثتها القدس حتى النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي (انظر المخطط في الشكل رقم ٢٩ أدناه، والصورة رقم ١٣ في القسم المصور).

كان النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد فترة ازدهار وثراء لمقاطعة اليهودية. ولكن هذا الازدهار قد ترافق مع سوء توزيع في الثروة، وفساد في النظام الضريبي المجحف الذي لم يكن يميز بين الفقراء والأغنياء ولا بين المالكين والمعدمين. فإضافة إلى الضرائب المدنية كان على المزارعين أن يدفعوا للهيكل ضريبة أخرى تدعى ضريبة الخُمس، وتبلغ خُمس قيمة محصولهم السنوي، وكان كهنة الهيكل يجبون



٢٩ - أورشليم في عهد هيرود أغريبا الأول

الأموال بواسطة عبيد مكلفين بالتحصيل، ومخولين باستخدام كافة الوسائل بما فيها استخدام العنف. لقد كان الهيكل بمثابة دولة داخل دولة، ومؤسسة ضخمة تضم آلاف الكهنة من شتى الوظائف والمراتب. وفي بعض المناسبات الدينية الرئيسية كان هذا العدد الضخم من الكهنة يدعم بعدد آخر من الكهنة المتطوعين من خارج الهيكل لا يقل عددهم عن عدد الكهنة الرسميين. أما الطقوس الدينية ومناسباتها التي لا تحصى، فكانت تلتهم آلاف الذبائح ومئات الوزنات من البخور المستورد الغالي الثمن. من هنا فقد كان على إدارة الهيكل أن تعمل على سد نفقاتها من خلال تحصيلها للضرائب التي صارت مع الأيام تفيض عن احتياجاتها. ومع ازدياد ثروة الهيكل التي كانت تساهم بها أيضاً التبرعات والهبات ورسوم زيارة الموقع المفروضة على كل الحجاج، فقد تحول إلى مؤسسة مالية ومصرفية ضخمة تجمع في خزانتها معظم ثروة البلاد. وكان القيمون على هذه الثروة يشكلون جزءاً من أرستقراطية المجتمع التي تعمل ما بوسعها على الاحتفاظ بمكاسبها على حساب بقية شرائح المجتمع التي ازدادت فقراً على فقر.

عقب وفاة هيرود أغريبا، فرضت الإدارة الرومانية ضريبة جديدة هي ضريبة العقارات، وبدأت تلوح في الأفق نُذر ثورة اجتماعية عارمة، عندما التقى إحساس المعوزين باليأس الكامل مع الأفكار الدينية التي بدأت تنتشر وتبشر بنهاية العالم القريبة، وحلول اليوم الأخير الذي يفتتح ملكوت الرب على الأرض. وبما أن الطبقة الأرستقراطية في أورشليم كانت حليفة للرومان، فقد امتزجت عواطف الكره للأغنياء بعواطف الكره للرومان، وراح المتطرفون الأصوليون يحمّلون الحكم الروماني مسؤولية البلايا التي حلت بالقطاعات الوسطى والفقيرة من الناس. في خريف عام ٦٦م، لم يكن أحد من سكان أورشليم يظن أن الثورة وشيكة رغم كل مقدماته الواضحة، لأن الغالبية العظمى من السكان كانت تقاوم فكرة التمرد على السلطة الرومانية وترى في الأرستقراطية اليهودية عدوها الأول.

ولكن الشرارة اندلعت فجأة عندما قام ناظر المقاطعة المدعو فلوريوس بخطوة رعناء وغير مدروسة، عندما قام باغتصاب سبع عشرة وزنة من الذهب من خزينة الهيكل سداداً لضرائب متراكمة غير مدفوعة. وقد أدى هذا العمل الأحمق إلى اضطرابات عنيفة في المدينة، حاول فلوريوس قمعها بالقوة ولكنه فشل، وما لبث أن

وجد نفسه غير قادر على حماية نفسه وجنده ففرَّ من المدينة. وهنا اغتنم الفرصة عدد من الجماعات الثورية المسلحة، فدخلت أورشليم التي صارت بلا حكومة ولا قانون(*). لم تكن هذه الجماعات منتظمة تحت قيادة واحدة ولا تتمتع بفكر استراتيجي واضح. وكان من أبرزها جماعة تدعى السيخاري يقودها ثوري صعب المراس يدعى مناحيم. وقد عملت هذه الجماعة على مهاجمة من تبقى من الحاميات الرومانية في المدينة وما حولها، كما راحت تهاجم ممتلكات وبيوت الأسر الأرستقراطية وتقتل العديد من رجالاتها البارزين، وكان من بين الضحايا الكاهن الأكبر المدعو حنانيا. ولكن بقية الكهنة تحصنوا في الهيكل الذي لا تقل أسواره مناعة عن أسوار المدينة، وراحوا يدافعون عن أنفسهم، وما لبثوا أن شنوا هجوماً مضاداً قتل على إثره مناحيم قائد السيخاري وتفرقت جماعته. وعلى الأثر دخلت أورشليم مجموعات ثورية أخرى، وصارت المدينة مقسمة بين عدد من جنرالات الحرب.

حاول جنرالات الحرب نشر الثورة في البقاع الأخرى ضمن اليهودية وخارجها، فأرسلوا ممثلين عنهم لتنظيم اليهود في مناطق تجمعاتهم الرئيسية. وفي هذا السياق تم إرسال يوسيفوس إلى منطقة الجليل التي كان قسم من أهلها قد تهود خلال حكم هيركانوس وينايوس المكابيين. ولكن يوسيفوس فشل في مهمته العسكرية ولم يكن قادراً إلا على تجهيز فصيل ثوري قليل العدد ما لبث أن استسلم للجيش الروماني الذي كان في طريقه إلى أورشليم، وذلك في صيف ٦٧م، وتم اقتياد يوسيفوس إلى فيسبازيان قائد القطعات السورية، والمكلف من قبل نيرون بالقضاء على التمرد في أورشليم. ولما مثل يوسيفوس أمام فيسبازيان استطاع تخليص نفسه من المأزق بأن تنبأ لفسبازيان بأنه سوف يغدو قريباً إمبراطوراً في روما وحاكماً على جهات الأرض الأربع. سُرَّ القائد الروماني للنبوءة وعفى عن يوسيفوس، بل وضمه إلى حاشيته الخاصة، وكلفه فيما بعد بالتفاوض مع الثوار ومتحدثاً باسم الرومان. وعندما صدقت نبوءة يوسيفوس عقب موت نيرون وتعيين فيسبازيان قيصراً، أخذه معه إلى روما وتسمى باسم يوسيفوس فلافيوس، نسبة إلى الأسرة الفلافية التي ينتسب إليها فسبازيان. وهناك عكف على كتابة مؤلفيه الشهيرين في تاريخ وحروب اليهود.

(*) – مرجعنا الأساسي حول هذه الأحداث وما تلاها هو المؤرخ اليهودي يوسيفوس، إضافة إلى أخبار رومانية متفرقة.

بعد تطهيره للمناطق الريفية من عصابات الثوار، استراح فيسبازيان أشهر الشتاء، ثم توجه في ربيع عام ٦٨م نحو أورشليم التي صارت معزولة وجاهزة للسقوط في يده. ولكن الأخبار وردته عن موت نيرون، فأوقف عملياته العسكرية، لأنه من الناحية النظرية لم يعد قائداً على القوات السورية، وعليه انتظار التعليمات الجديدة للإمبراطور الجديد. ثم وصله الخبر السار في صيف عام ٦٩م، وتوجه إلى روما لتولي مقاليد السلطة، وهناك انشغل عن أورشليم ومشاكلها حتى ربيع عام ٧٠م عندما شعر أن الوقت قد حان لتصفية الأمور هناك. وهذا يعني أن الثوار في أورشليم كان لديهم سنتان من الهدوء النسبي ليعملوا خلالها على تنظيم صفوفهم وتوحيد قياداتهم.ولكن ما حصل كان العكس تماماً، فقد استمر أمراء الحرب هناك في التنازع فيما بينهم، وزاد الطين بلة دخول فريق جديد من المتمردين المهووسين هم جماعة الغيارى؛ أي الغيورين على الشريعة. فتابع هؤلاء اضطهاد الشرائح الأرستقراطية وقتل الكثير من أفرادها. ثم نافس الغيارى فريق آخر يقوده سمعان بن غوريا المدعوم من العبيد المحررين الذين شكلوا نواة قواته، وكان يبشر بمشروعه الثوري الجديد لإعادة تنظيم المجتمع على أسس العدل والمساواة. فاستمرت الحرب الأهلية على أشدها، حتى سمع المتحاربون بوصول الجيش الروماني إلى أبواب أورشليم.

كانت الأمور قد استتبت لفسبازيان في روما بعد فترة من الفوضى، فأراد أن يُظهر بطريقة استعراضية مقدرته على فرض النظام في الخارج مثلما فرضه في الداخل، وابتدأ يمهد لحملة أورشليم إعلامياً عن طريق تضخيم خطر التمرد ومدى قدرة المتمردين على النيل من سمعة روما، ليكون النصر عليهم بمثابة توكيد على مقدرة الإمبراطور الجديد على إحلال الأمن والسلم في أصقاع الإمبراطورية. أما حقيقة الوضع العسكري والمعنوي في أورشليم فكانت شيئاً مختلفاً تماماً. فسكان المدينة كانوا مغلوبين على أمرهم، وجُلّهم لا يرغب في مواجهة غير متكافئة مع الرومان، ولكن ضغط أمراء الحرب كان يشل كل مقدرة لهم على المقاومة أو إبداء الرأي. ويقول يوسيفوس بأن حكماء المدينة قد توجهوا إلى قادة العصابات ورجوهم الإقلاع عن فكرة المقاومة وتجنيب المدينة نتائج حرب لن يستطيعوا ربحها، ولكن عناد هؤلاء، الذي يصفهم يوسيفوس بالقتلة وشذاذ الآفاق والغاصبين والمخادعين، قد قاد المدينة إلى حتفها. عين فسبازيان ابنه

تيتوس قائداً على الحملة المتجهة إلى أورشليم، فوصل تيتوس بقواته في ربيع عام ٧٠م، فحاصر المدينة ومنع عنها المواد وسد مخارج النجاة. وفي منتصف صيف ٧٠م شن هجوماً على أسوار المدينة فنقبها من ثلاث جهات، وصارت قواته في كل مكان عدا الهيكل الذي لجأ إليه الثوار وصمموا على التحصن به حتى الموت. وهنا عقد تيتوس اجتماعاً لقادته للبحث فيما يتوجب عمله، لأن الرومان كانوا يحترمون المعابد، ولم يُعرف عنهم قط تدميرهم لمعبد ما، ولكن هيكل أورشليم كان أقرب إلى القلعة المحصنة منه إلى معبد عادي، فهل يتم اختراقه أم لا؟ انقسم رأي القادة حول هذه المسألة، ففضل تيتوس التفاوض مع المحاصرين أولاً، وعرض عليهم الخروج بأمان والانسحاب إلى مكان آخر لمعاودة القتال، لأنه كان معنياً بسلامة المعبد (والكلام على ذمة يوسيفوس) وغير راغب في التعرض لهذا المركز الديني، ولكن جهوده باءت بالفشل. وكان في اليوم الثاني أن أحد الجنود الرومان ألقى شعلة نارية على المعبد، وامتدت النيران إلى الحرم وخرجت عن السيطرة، فاغتنم تيتوس الفرصة وانطلق بجنوده إلى الداخل يطاردون المدافعين في كل مكان ويحاولون في الوقت نفسه مكافحة النيران دون جدوى، فتُرك الهيكل لمصيره، وأكمل تيتوس تمشيط المدينة من المتمردين الذين حاولوا الاختباء في البيوت، وهذا ما أدى إلى حدوث مجزرة واسعة ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من سكان المدينة، وإلى تدمير وإحراق أقسام واسعة منها.

بعد استتباب الأمور لتيتوس لم يلجأ إلى إجراءات انتقامية لاحقة، ولكنه فرض على اليهود داخل المقاطعة وخارجها أن يدفعوا إلى معبد جوبيتر في روما الضريبة التي كانوا يدفعونها إلى هيكل أورشليم، كما لجأ إلى اقتطاع العديد من الأراضي الزراعية ووزعها على جنوده أو على من تعاون معه من اليهود. ثم توجه إلى روما حيث دخلها في موكب نصر يجر خلفه قادة المتمردين في أغلالهم، وكانت كنوز المعبد التي غنمها محمولة على الأكتاف ومعروضة على أهالي روما. وبعد ذلك أشاد قوسي نصرٍ لتخليد انتصاره على أورشليم، تهدم أحدهما في القرن الخامس عشر وبقي الثاني قائماً حتى الآن، وعلى قاعدته نحت بارز يصور موكب النصر.

لم يبقَ من هيكل هيرود حجر واحد قائم، وأسواره تهدمت حتى قواعدها عدا مقطع قصير من السور الغربي دُعي فيما بعد حائط المبكى. ولكن الحياة لم تتوقف تماماً

في المدينة التي تهدم معظم بيوتها، فقد بقي قسم من السكان يعيش فيها، ولكن بدون معبد ولا ذبائح ولا طقوس. أما في بقية مناطق المقاطعة، فقد تناقص عدد السكان نتيجة الحرب والنزوح، وأقفرت الأراضي الزراعية، وتدهورت الحياة الاقتصادية. وهنا تتوقف مصادرنا الكتابية، لأن رواية يوسيفوس تتوقف عند تدمير أورشليم عام ٧٠م، أما المصادر الرومانية فلم تعُد معنية بمتابعة ما كان يجري في هذه المقاطعة بعد استتباب الأمن فيها.

ولكن أمراً آخر كان يجري بعيداً عن الأحداث السياسية الصاخبة، لم يكن يعني روما ولا غيرها في شيء. فلقد أدى تدمير الهيكل وزوال مركزية العبادة في أورشليم، إلى حدوث تغييرات عميقة في بنية الطقوس والمعتقدات اليهودية. (ومصدرنا هنا هو الكتابات الربانية التي بدأت بالظهور منذ مطلع القرن الثاني الميلادي). فقد زالت الفرق اليهودية التي نشطت في القرن الأول الميلادي من صدوقية وفريسية وأسينية وغيارى، وغيرها، واستلم قيادة الحياة الروحية جماعة من الحكماء يدعون بالربانيين، نسبة إلى رَبان،أو رابي، أي الحكيم أو المعلم. وقد شكل هؤلاء أول محفل لهم في بلدة ينة (يمنيا) الساحلية، مهمته إحياء التعاليم التوراتية وتدريس النصوص المقدسة. ولكنهم سلكوا مسلك الفريسيين في موقفهم من النص، ورأوا ضرورة تفسيره بما يتلاءم والظروف المستجدة، وبذلك تم إحياء ما يدعى بالشريعة الشفوية غير المكتوبة، وولدت اليهودية التلمودية التي نعرفها الآن. وكان من أهم منجزات مجمع ينة استبعاد سبعة أسفار موجودة في الترجمة اليونانية للتوراة المدعوة بالسبعينية، وليس لها أصل عبري لأنها دونت أصلاً باللغة اليونانية. دعيت هذه الأسفار بالأبوكريفا أي المنحولة وهي: يهوديت، وطوبيا، والمكابيين الأول والثاني، ويشوع إبن سيراخ، والحكمة، وباروك.

ولكن القصة لم تنتهِ بعد. فلكأن في التاريخ شيء من القدر، ولقد حُمَّ القضاء على أورشليم، وحل يومها الأخير.

بين عامي ١٣٠ و١٣١م، قام الإمبراطور هادريان بزيارة عدد من المناطق الشرقية للإمبراطورية، وأرسى القواعد لبناء عدد من المدن الرومانية فيها. وهنا يخبرنا المؤرخ الروماني ديوكاسيوس[*] بأن هادريان قد أعلن خلال هذه الزيارة عن عزمه على بناء مدينة رومانية في موقع أورشليم. وهذا ما أشعل نار الثورة اليهودية الثانية بقيادة رجل

(*) - مؤرخ روماني عاش بين أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي. له كتاب في تاريخ روما.

يدعى سمعان باركوخبا (ابن كوخبا)، الذي استولى على أورشليم وأعلن اليهودية مقاطعة مستقلة. وتدلنا بعض اللقى الأثرية، ومنها قطع العملة التي أصدرها باركوخبا والمؤرخة بالسنة الأولى والثانية للاستقلال، وبعض لفافات البردى التي تحمل أوامر وتعليمات منه، بأن هذه الثورة الثانية كانت تحت قيادة مركزية واحدة ومنضبطة، على عكس الثورة الأولى التي تنازع قيادتها عدد من أمراء الحرب غير المنضبطين.

أعلن أحد رجالات محفل يبنة بأن سمعان باركوخبا هو المسيح المنتظر، ولكن معظم أعضاء المحفل ورجالات الدين امتنعوا عن التورط في هذه الحركة، وأعلنوا عن رفضهم لأية مقاومة عسكرية ضد الحكم الروماني. وفيما بعد، وصفت الكتابات الربانية اللاحقة باركوخبا بأنه باركوذبا أي ابن الأكذوبة، وانتقدت نشاطاته التي قادت إلى الدمار الأخير لأورشليم. ولكن الأصولية اليهودية التي انتعشت آمالها بالاستقلال وإعادة بناء الهيكل، قد ساندت الثورة بكل وسيلة، وقامت خلاياها بتنظيم المقاطعة تنظيما مدنيا وعسكريا جديدا استعدادا للمواجهة المقبلة مع الرومان.

جاء رد فعل روما هادئا، وقامت استراتيجية هادريان على التمشيط البطيء لمناطق اليهودية التي سقطت تدريجيا قبل الاستعداد لشن الهجوم الأخير على أورشليم. ويقول ديوكاسيوس[1] إن الرومان قد استولوا على خمسين بلدة وذبحوا الثوار فيها، كما مشطوا المناطق الريفية وهدموا ٩٨٥قرية، حتى بلغ عدد القتلى ٥٨٠,٠٠٠نسمة. بعد ذلك جرى الهجوم الأخير على أورشليم التي سقطت بسرعة عام ١٣٥م، وتم القبض على باركوخبا وجميع أفراد بطانته ومساعديه. أما من بقي حيا من سكان المدينة فقد تم بيعه في أسواق النخاسة، حتى أن سعر العبد اليهودي كان أقل من سعر الحمار. ثم عمد هادريان إلى هدم أورشليم وتسويتها بالتراب، وأقام في موضعها مدينة رومانية تحت اسم إيليا كابيتولينا. والمقطع الأول من هذا الاسم مشتق من الاسم الأول لهادريان وهو إيليوس، أما المقطع الثاني فمن اسم معبد جوبتير كابيتولينوس. وقد منع هادريان أي يهودي من دخول المدينة الجديدة تحت طائلة الموت، رغم أن قلة من اليهود كانت جاهزة لزيارة الموقع في ذلك الوقت، لأن المذابح الرومانية والهجرة التي تلت تدمير

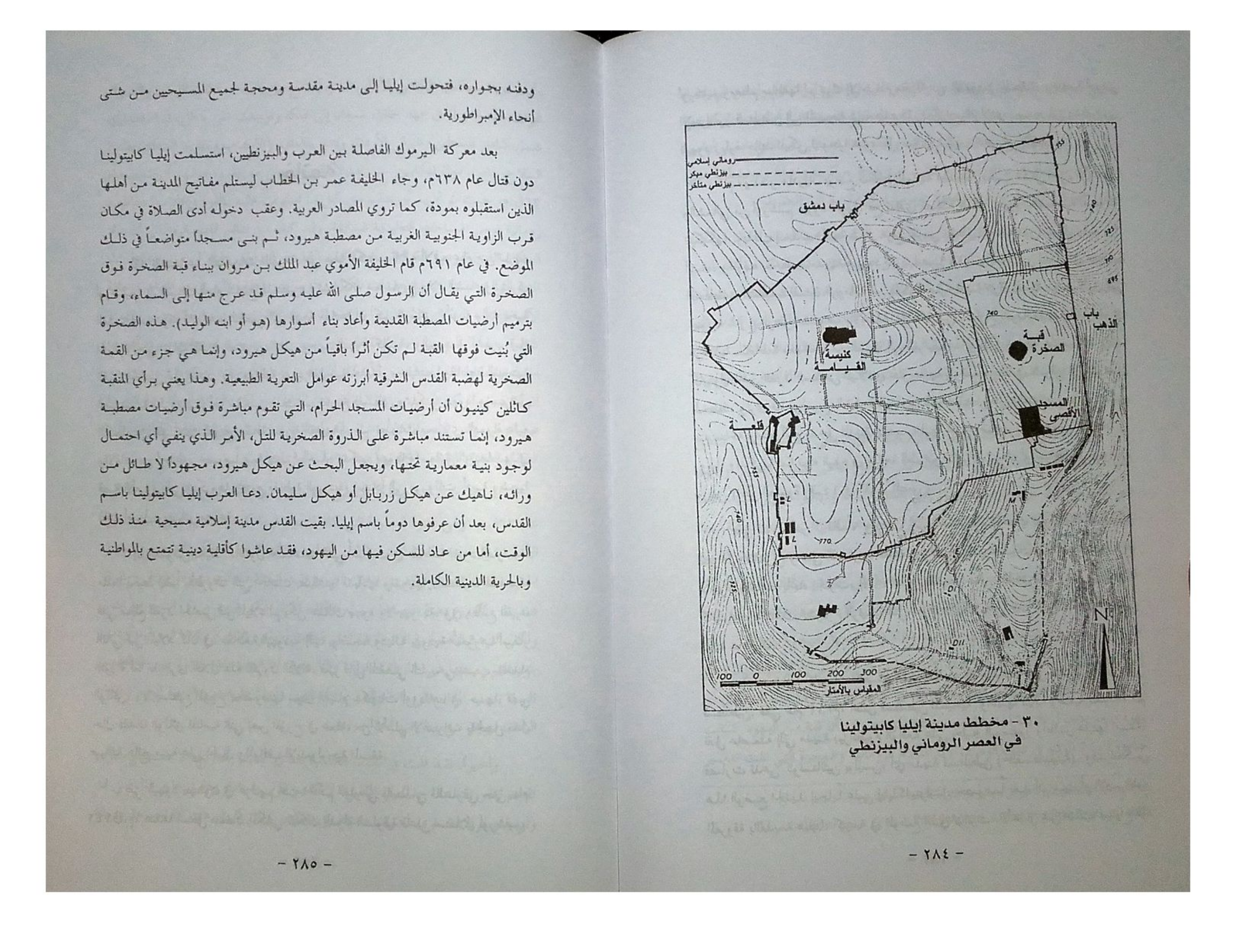
١- هذه المقتبسات عن ديوكاسيوس بخصوص الثورة الثانية، نسوقها عن:
Paul Johnson, A History of the Jews, p.140ff. إضافة إلى مراجع متفرقة أخرى.

أورشليم ومعظم مناطقها لم تترك إلا شراذم متفرقة من اليهود في المنطقة. وعندما تحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية في مطلع القرن الرابع الميلادي، سمح لمن يشاء من اليهود زيارة حائط المبكى لينوحوا عنده كل سنة في ذكرى تدمير أورشليم.

قام مهندسو هادريان بوضع مخطط للمدينة الجديدة، بحيث تشغل الجزء الأوسط والشمالي من أورشليم هيرود أغريبا، مع تفادي مصطبة هيكل هيرود الضخمة لصعوبة تفكيكها، وبذلك اتخذت المدينة شكل مربع تقريبي (انظر المخطط في الشكل رقم ٣٠ أدناه، وقارنه بمخطط مدينة هيرود أغريبا ص٢٧٩). وكما هو الحال في معظم المخططات التنظيمية للمدن الرومانية من ذلك العصر، فقد اخترق المدينة من شمالها إلى جنوبها شارع عريض محفوف بالأعمدة، إضافة إلى شوارع ثانوية موازية له وأخرى عرضانية متقاطعة معه تتجه من الشرق إلى الغرب. هذا وتُظهر خريطة فسيفسائية لإيليا كابيتولينا من القرن السادس الميلادي عُثر عليها بموقع مأدبا في شرقي الأردن هذا المخطط، ونرى فيه بوضوح الشارع الرئيسي ذي العُمُد، وهو يبتدئ من بوابة دمشق عند ساحة واسعة أمام مدخل المدينة ينتصب فيها عمود ضخم يشبه عمود تراجان في روما، ويذكرنا بما نراه اليوم في ساحة الطرف الأغر في لندن أو ساحة الفاندوم في باريس (انظر الصورة رقم١٤ في القسم المصور).

بقي سور هادريان قائماً، وكانت تجري عليه الإصلاحات المتوالية، منذ العصر البيزنطي فالعربي وحتى العصور الحديثة. ورغم أن المدينة كانت تمتد أحياناً خارج الأسوار وخاصة باتجاه الجنوب، إلا أن السور القديم الحالي يتطابق تقريباً مع سور إيليا كابيتولينا، وكذلك الشوارع الرئيسية التي مازالت تعكس إلى حد كبير التنظيم الأصلي لمدينة هادريان.

بقيت إيليا كابيتولينا تعيش على هامش الأحداث حتى عصر الإمبراطور قسطنطين. ففي عام ٣١٣م، اعتنق قسطنطين المسيحية وأعلنها ديانة رسمية للدولة، ثم نقل عاصمته إلى مدينة بيزانطيوم الواقعة على خليج البوسفور وأطلق عليها اسمه، فصارت تدعى كونستانتين بوليس، أي مدينة قسطنطين (=القسطنطينية). وقد انعكس هذا الوضع الجديد إيجاباً على إيلياكابيتولينا، خصوصاً بعد أن بنت أم الإمبراطور المعروفة بالقديسة هيلينا، كنيسة في الموضع الذي تواترت الأخبار عن صلب يسوع فيه



٣٠ - مخطط مدينة إيليا كابيتولينا في العصر الروماني والبيزنطي

ودفنه بجواره، فتحولت إيليا إلى مدينة مقدسة ومحجة لجميع المسيحيين من شتى أنحاء الإمبراطورية.

بعد معركة اليرموك الفاصلة بين العرب والبيزنطيين، استسلمت إيليا كابيتولينا دون قتال عام ٦٣٨م، وجاء الخليفة عمر بن الخطاب ليستلم مفاتيح المدينة من أهلها الذين استقبلوه بمودة، كما تروي المصادر العربية. وعقب دخوله أدى الصلاة في مكان قرب الزاوية الجنوبية الغربية من مصطبة هيرود، ثم بنى مسجداً متواضعاً في ذلك الموضع. في عام ٦٩١م قام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ببناء قبة الصخرة فوق الصخرة التي يقال أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عرج منها إلى السماء، وقام بترميم أرضيات المصطبة القديمة وأعاد بناء أسوارها (هو أو ابنه الوليد). هذه الصخرة التي بُنيت فوقها القبة لم تكن أثراً باقياً من هيكل هيرود، وإنما هي جزء من القمة الصخرية لهضبة القدس الشرقية أبرزته عوامل التعرية الطبيعية. وهذا يعني برأي المنقبة كاثلين كينيون أن أرضيات المسجد الحرام، التي تقوم مباشرة فوق أرضيات مصطبة هيرود، إنما تستند مباشرة على الذروة الصخرية للتل، الأمر الذي ينفي أي احتمال لوجود بنية معمارية تحتها، ويجعل البحث عن هيكل هيرود، مجهوداً لا طائل من ورائه، ناهيك عن هيكل زربابل أو هيكل سليمان. دعا العرب إيليا كابيتولينا باسم القدس، بعد أن عرفوها دوماً باسم إيليا. بقيت القدس مدينة إسلامية مسيحية منذ ذلك الوقت، أما من عاد للسكن فيها من اليهود، فقد عاشوا كأقلية دينية تتمتع بالمواطنية وبالحرية الدينية الكاملة.

خاتمة

لقد تقصينا عبر الصفحات المتقدمة من هذا الكتاب ثلاثة آلاف عام من تاريخ أورشليم، في السياق العام لتاريخ فلسطين، وتشابكاته مع تاريخ بلاد الشام والشرق القديم عامة. وقد قادنا هذا التقصي إلى نتيجة مفادها أن كل الوثائق الأثرية والتاريخية المتوفرة حتى نهاية القرن العشرين، تنفي وجود اليهود كإثنية، واليهودية كدين، قبل القرن الخامس قبل الميلاد، وفي مقاطعة يهود الفارسية تحديداً، وخليفتها مقاطعة اليهودية الهيلينستية والرومانية. أما ما سبق ذلك من تاريخ فلسطين ومملكتي يهوذا وإسرائيل الكنعانيتين، فهو ملك لتاريخ وثقافة سورية القديمة، رغم تعديات محرري التوراة عليه والإفادة من أحداثه، خصوصاً فيما يتعلق بأخبار مملكتي يهوذا وإسرائيل، وإدماجها في قصة الأصول التي ابتكروها لمجتمع مقاطعة اليهودية، استناداً إلى موروثات أدبية وشعبية ذات أصول ومصادر متنوعة.

إن الغموض يحيط بأصول الجماعات التي أُسكنت في مقاطعة يهود الفارسية، مثلما يحيط أيضاً بالظروف التي أحاطت بصياغتها لديانتها وتدوينها لأسفارها المقدسة. ففي مطلع القرن الخامس قبل الميلاد لم يكن هنالك يهود ولا يهودية، وفي مطلع القرن الثاني قبل الميلاد كان في مقاطعة اليهودية إثنية واضحة وديانة يهودية محورها أسفار التوراة.أما ما جرى خلال هذه القرون الثلاثة، فغير قابل للتقصي التاريخي بسبب انعدام الوثائق، ولا يستطيع المؤرخ بخصوصها سوى القيام بتكهنات أوردناها في حينها. ففي حال فقدان الوثائق المناسبة التي تعين المؤرخ في عمله، من الأسلم الاعتراف بالجهل بدل صياغة نتائج مبنية على الخيال والمواقف الإيديولوجية المسبقة.

بقي اليهود يعيشون في عزلتهم تحت الحكم الفارسي فالبطلمي فالسلوقي حتى عام ١٤٢ق.م، عندما استغل سمعان المكابي تفكك الدولة السلوقية فأعلن استقلال أورشليم،

وأنشأ دويلة يحكمها الكاهن الأعلى الذي يجمع بين يديه السلطات الزمنية والدينية. تحولت هذه الدويلة في عهد خلفاء سمعان إلى مملكة وتوسعت على شكل مدٍ استعماري شمل كامل فلسطين وشرقي الأردن، وتميز بالعنف والإرهاب وتهويد السكان بقوة السلاح. دامت دولة المكابيين حتى استيلاء الرومان على سورية ودخولهم أورشليم عام ٦٣ق.م، حيث تم تجريد أورشليم من كل ما استولت عليه بالقوة وإعادتها مقاطعة رومانية ضمن مساحتها التقليدية السابقة. وقد كان من نتائج الفتح الروماني أن عاد السكان الذي تهودوا بالقوة إلى معتقداتهم التقليدية السابقة، وقام الرومان بإعادة بناء المدن التي تهدمت نتيجة تعديات المكابيين، وساعدوا أهلها على ترميم المعابد وإعادة الآلهة القديمة إليها. وكان على رأس هذه المدن مدينة السامرة ومدينة سقيثوبوليس (بيت شان). وبذلك لم يبقَ خارج مقاطعة أورشليم سوى جيوب يهودية صغيرة، أهمها الجماعة الجليلية التي نعرف من الأناجيل أن يسوع قد ابتدأ رسالته التبشيرية بينها. ويبدو أن أسرة يسوع كانت من بين هؤلاء المتهودين الجدد من ذوي النزعة الهيلينستية البعيدة عن التزمت وعن الأصولية الأورشليمية، ولهذا فقد جاءت دعوته بمثابة انقلاب على التقاليد الدينية القديمة، وتجاوزها نحو دعوة عالمية رحبة.

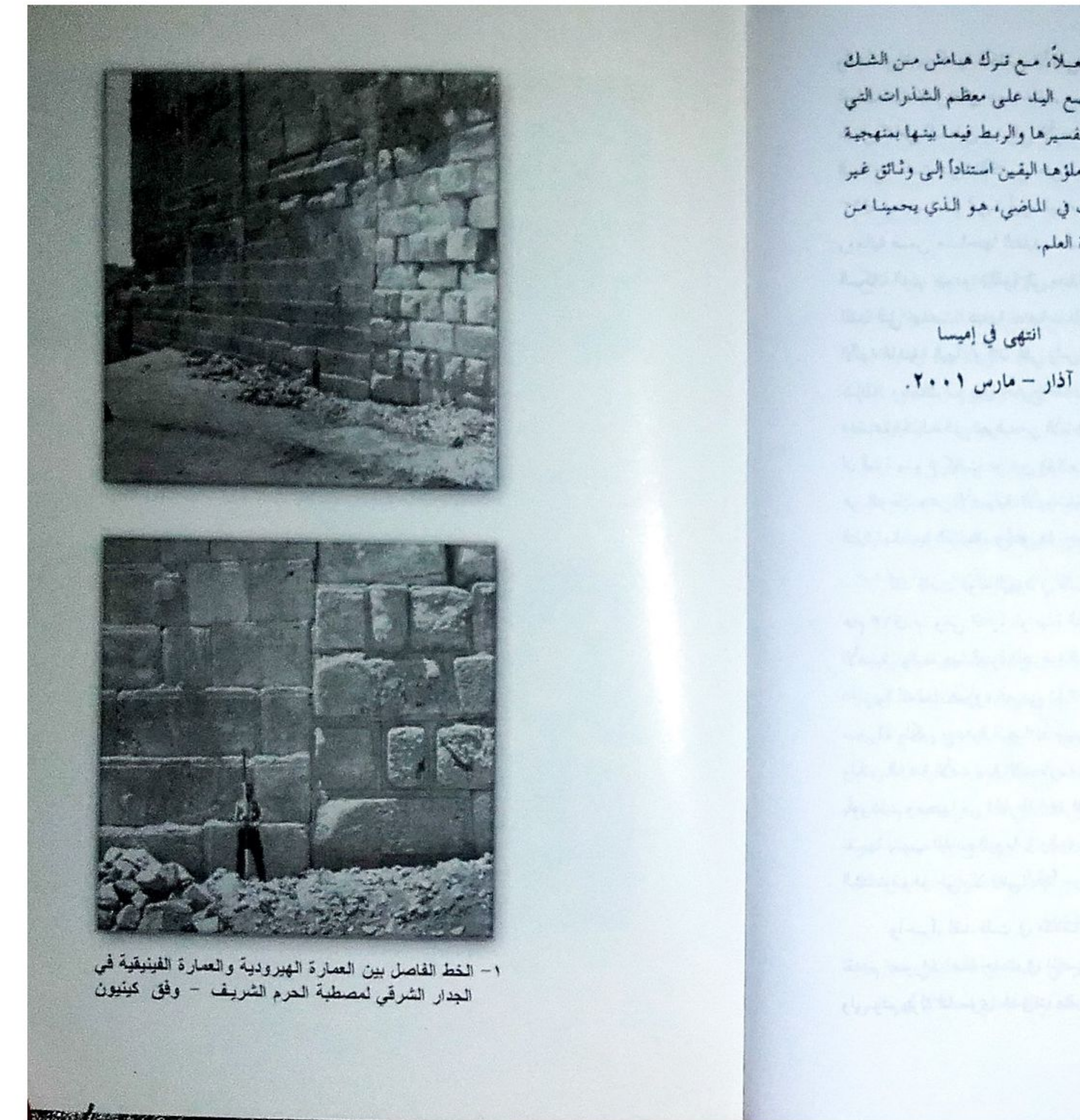
لقد دامت دولة اليهود في فلسطين مدة ثمانين سنة، وذلك من عام ١٤٢ق.م إلى عام ٦٣ق.م، وهي الفترة الوحيدة التي كان لليهود فيها كيان سياسي على جانب من الأهمية. وفيما عدا الفترة المعترضة التي أعطى خلالها الرومان حكم فلسطين وسورية الجنوبية للملك هيرود العربي (٣٨-٤ق.م) فقد استمرت اليهودية مقاطعة رومانية صغيرة، ولكن مزدهرة اقتصادياً بسبب ما أفاءه عليها حكم هيرود من ثروات وخيرات. ولكن النزعة الأصولية الانتحارية التي قادت ثورتي ٦٦ق.م و١٣٢ق.م قد أودت بأورشليم ومحتها من الخارطة الجغرافية والتاريخية. أما اليهود فقد اختفوا من مقاطعتهم نفسها بسبب المذابح الرومانية والنزوح الجماعي، وابتدأ ما يدعى بالنسبة إليهم بتاريخ الشتات، وهو شيء لا يعني أحداً سواهم.

وأخيراً. لقد قلت في مقدمة الكتاب إننا في كتابتنا للتاريخ، لا نستطيع سوى تقديم تصورات عما حدث في الماضي، لا تقديم تقرير صادق ودقيق عنه. فالماضي قد ولى ولم يترك لنا سوى شذرات متفرقة من نصوص ولقى أثرية، علينا أن نفسرها بطريقة

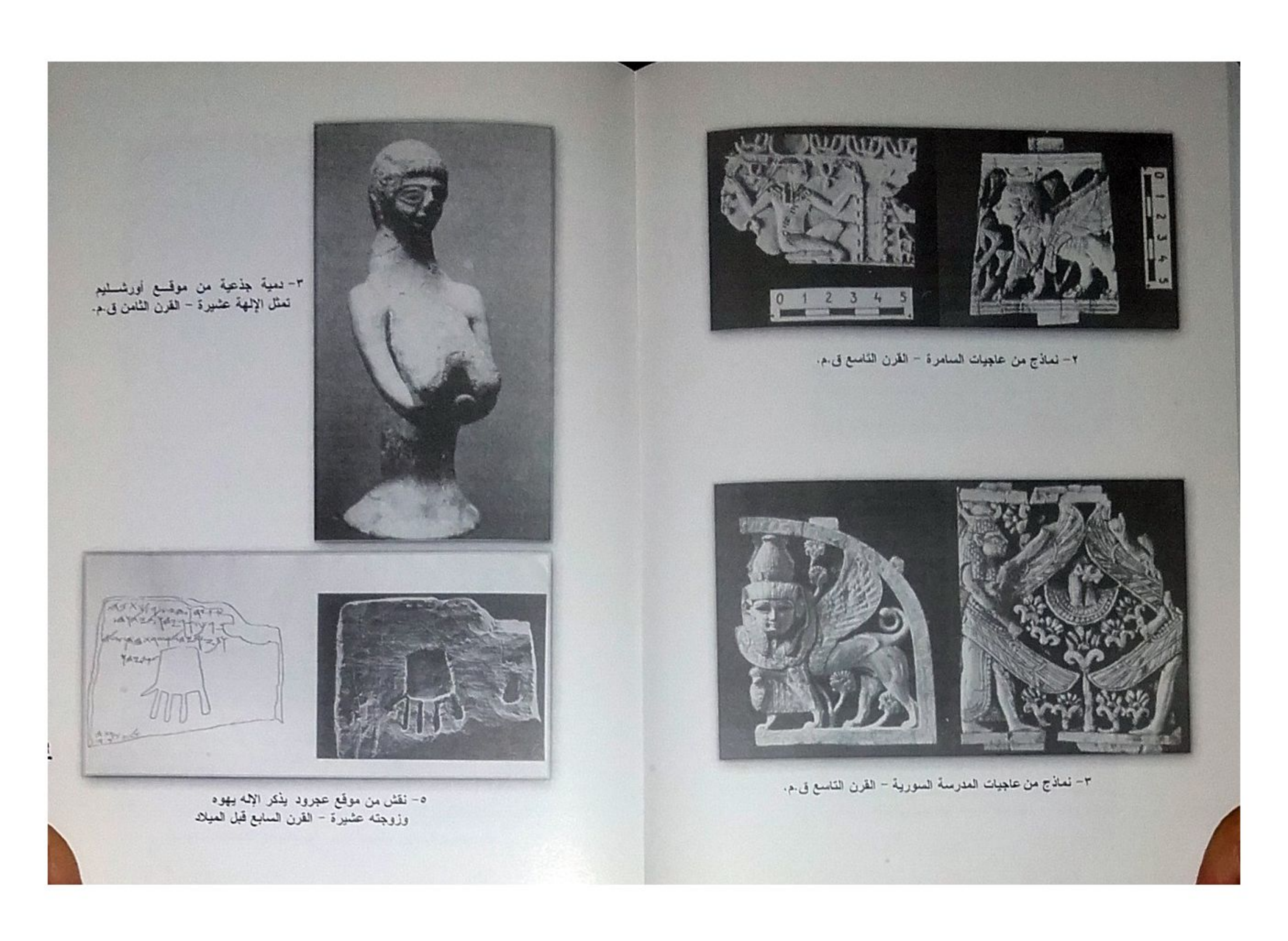
علمية، لنخرج بأقرب التصورات إلى ما حدث فعلاً، مع ترك هامش من الشك والاعتراف بالجهل. كل ما آمله أنني قد استطعت وضع اليد على معظم الشذرات التي تركها لنا ماضي فلسطين، وأني قد عملت على تفسيرها والربط فيما بينها بمنهجية تاريخية صارمة، ومن غير أن أخرج بقصة مطردة ملؤها اليقين استناداً إلى وثائق غير مضطردة. إن الاعتراف بأننا جاهلون بكثير مما حدث في الماضي، هو الذي يحمينا من سطوة الإيديولوجيا ومن أمان اليقين، ويبقينا في حيرة العلم.

انتهى في إميسا

آذار – مارس ٢٠٠١.



١– الخط الفاصل بين العمارة الهيرودية والعمارة الفينيقية في الجدار الشرقي لمصطبة الحرم الشريف – وفق كينيون



٢- نماذج من عاجيات السامرة – القرن التاسع ق.م.

٣- نماذج من عاجيات المدرسة السورية – القرن التاسع ق.م.

٣- دمية جذعية من موقع أورشليم
تمثل الإلهة عشيرة – القرن الثامن ق.م.

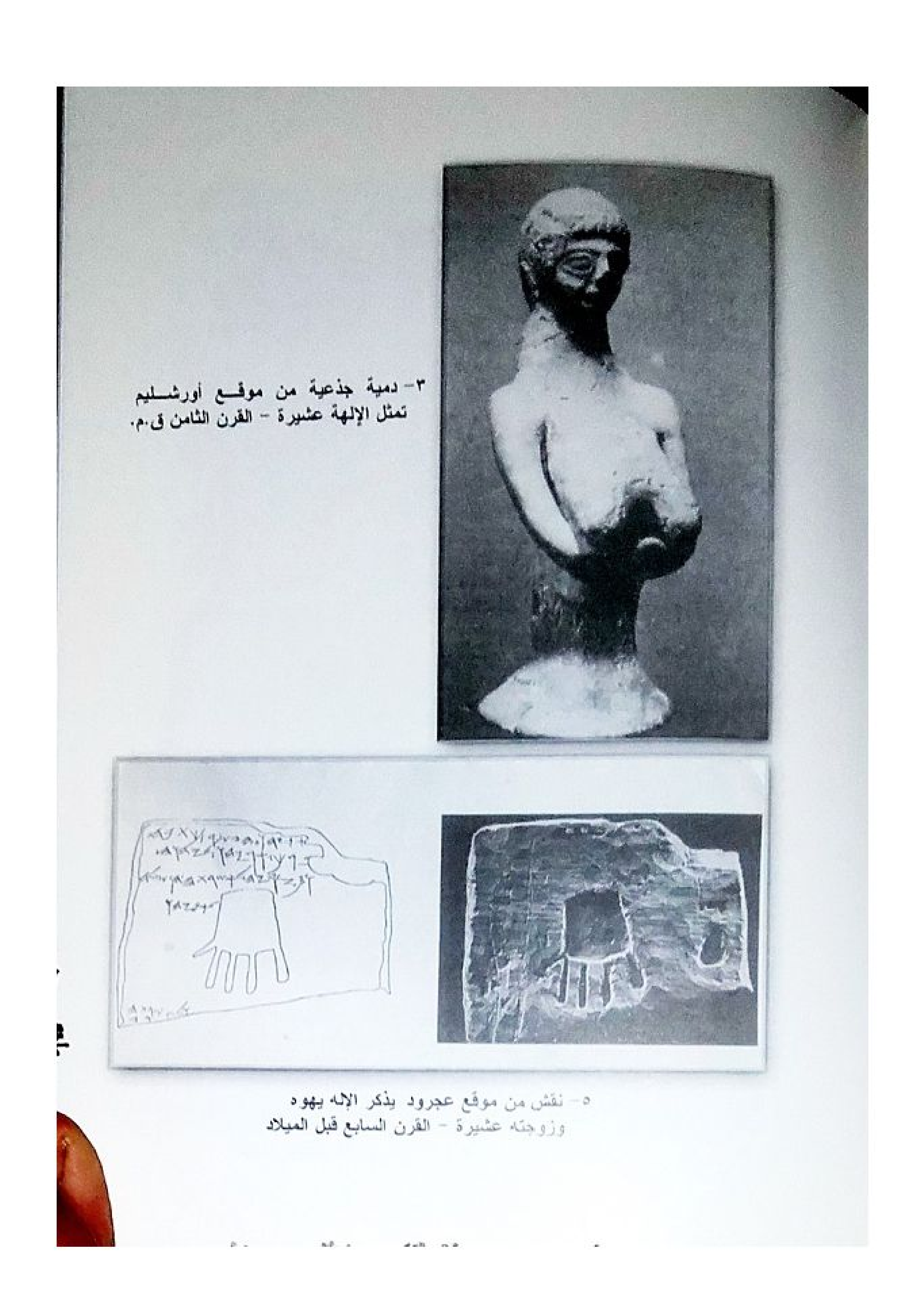
٥- نقش من موقع عجرود يذكر الإله يهوه
وزوجته عشيرة – القرن السابع قبل الميلاد



٢- نماذج من عاجيات السامرة - القرن التاسع ق.م.

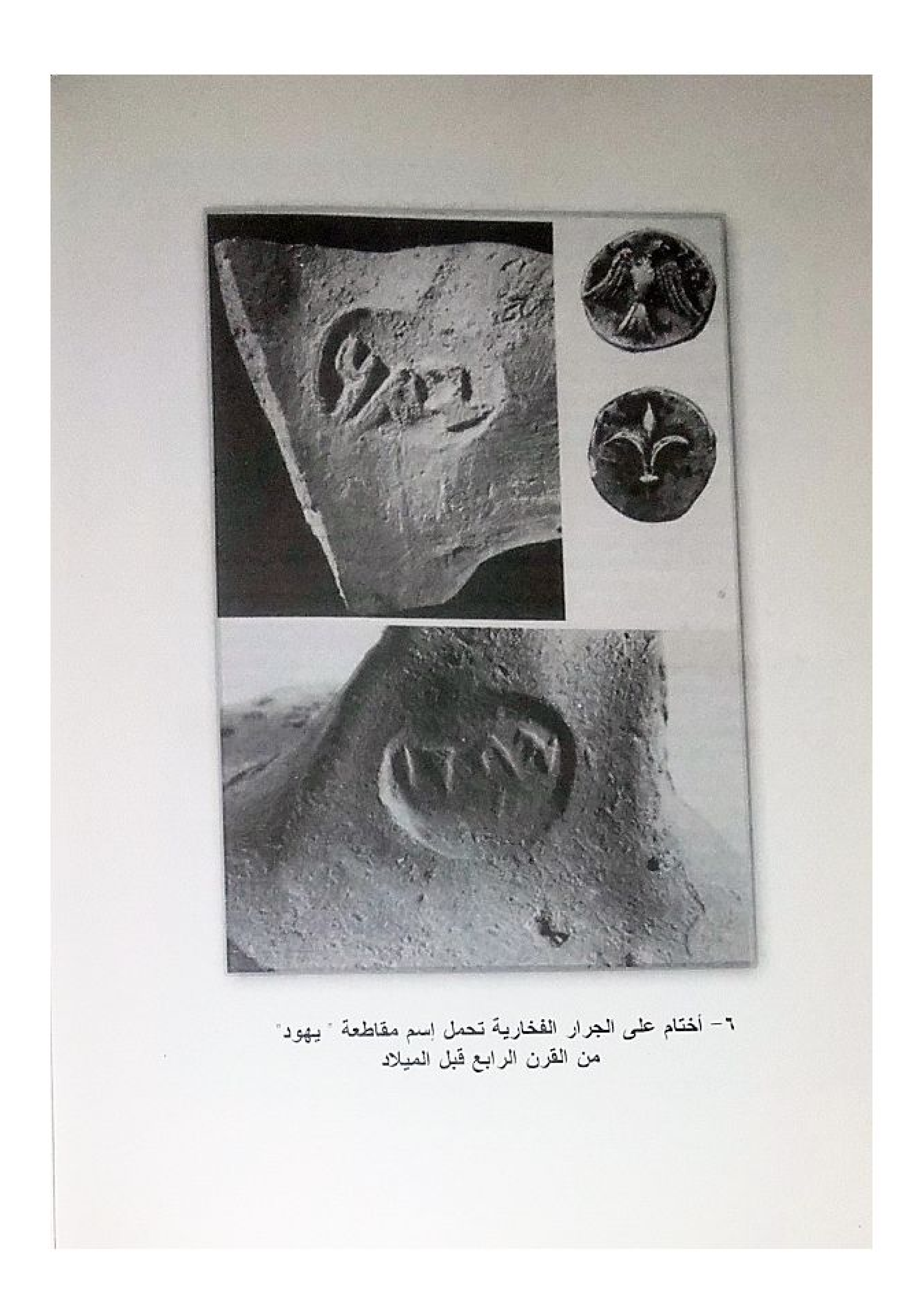


٣- نماذج من عاجيات المدرسة السورية - القرن التاسع ق.م.



٣- دمية جذعية من موقع أورشليم
تمثل الإلهة عشيرة - القرن الثامن ق.م.

٥- نقش من موقع عجرود يذكر الإله يهوه
وزوجته عشيرة - القرن السابع قبل الميلاد



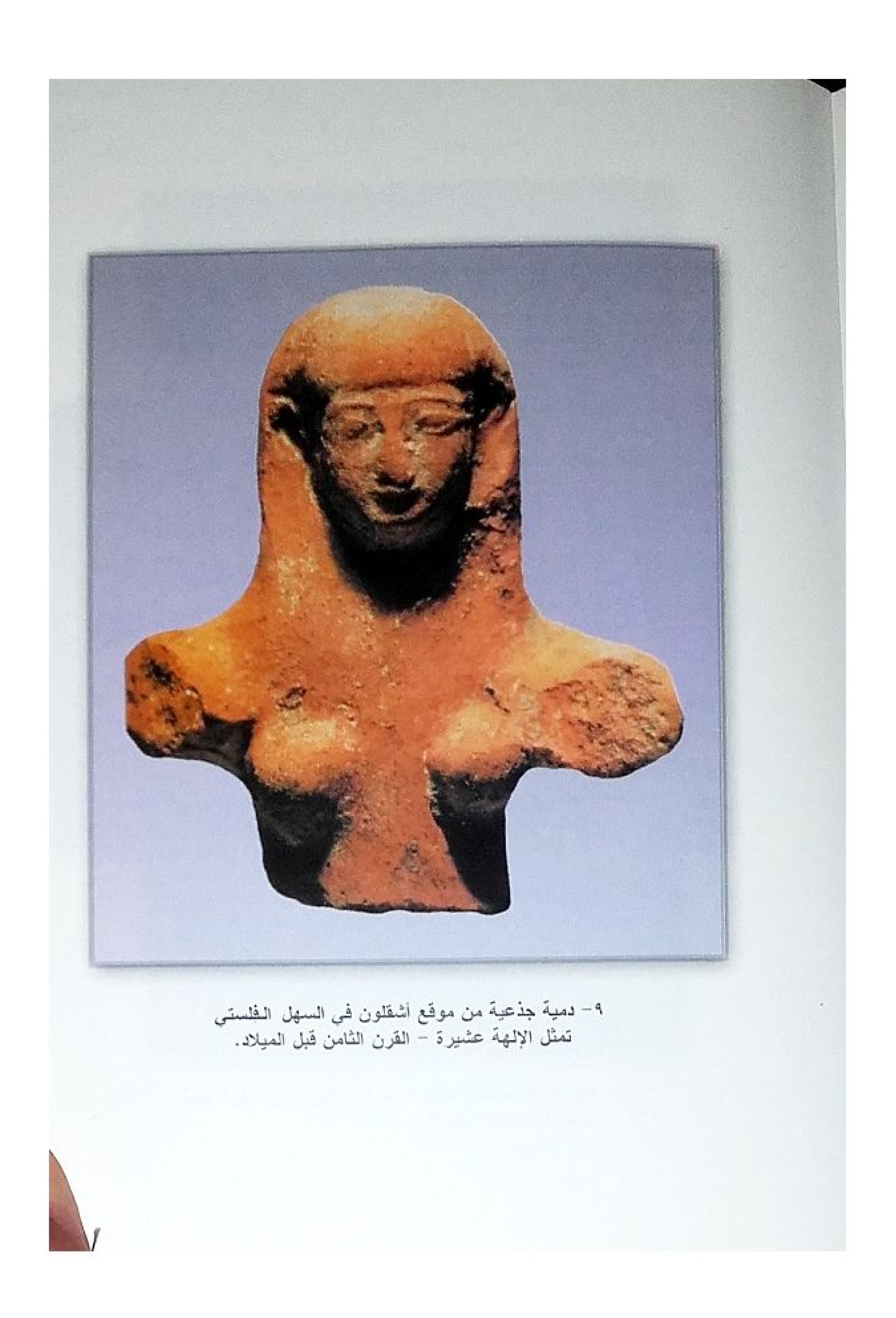
٦- أختام على الجرار الفخارية تحمل اسم مقاطعة "يهود"
من القرن الرابع قبل الميلاد



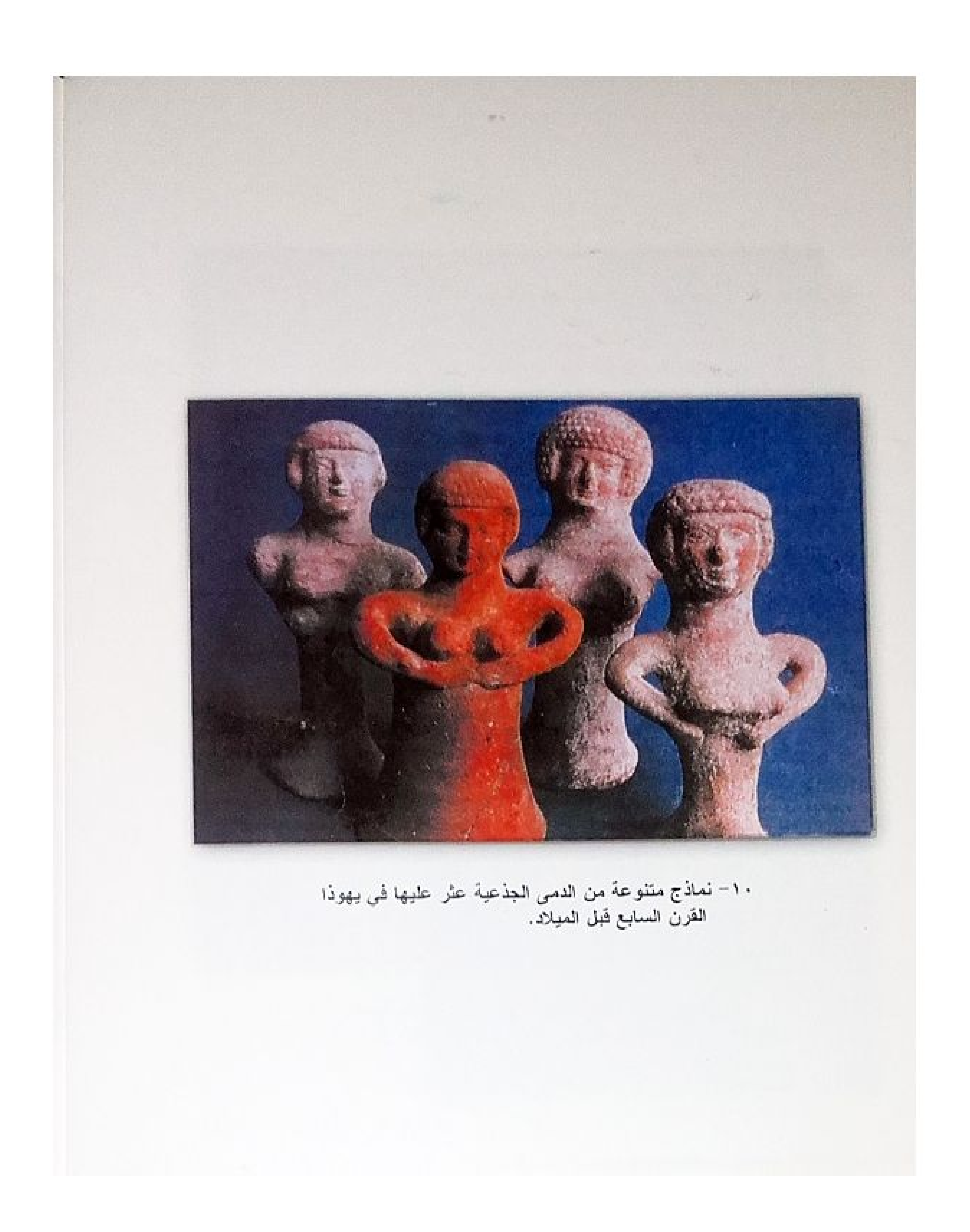
٧- مصور فلسطين الطبيعية وعليه أهم المواقع الفلسطينية القديمة



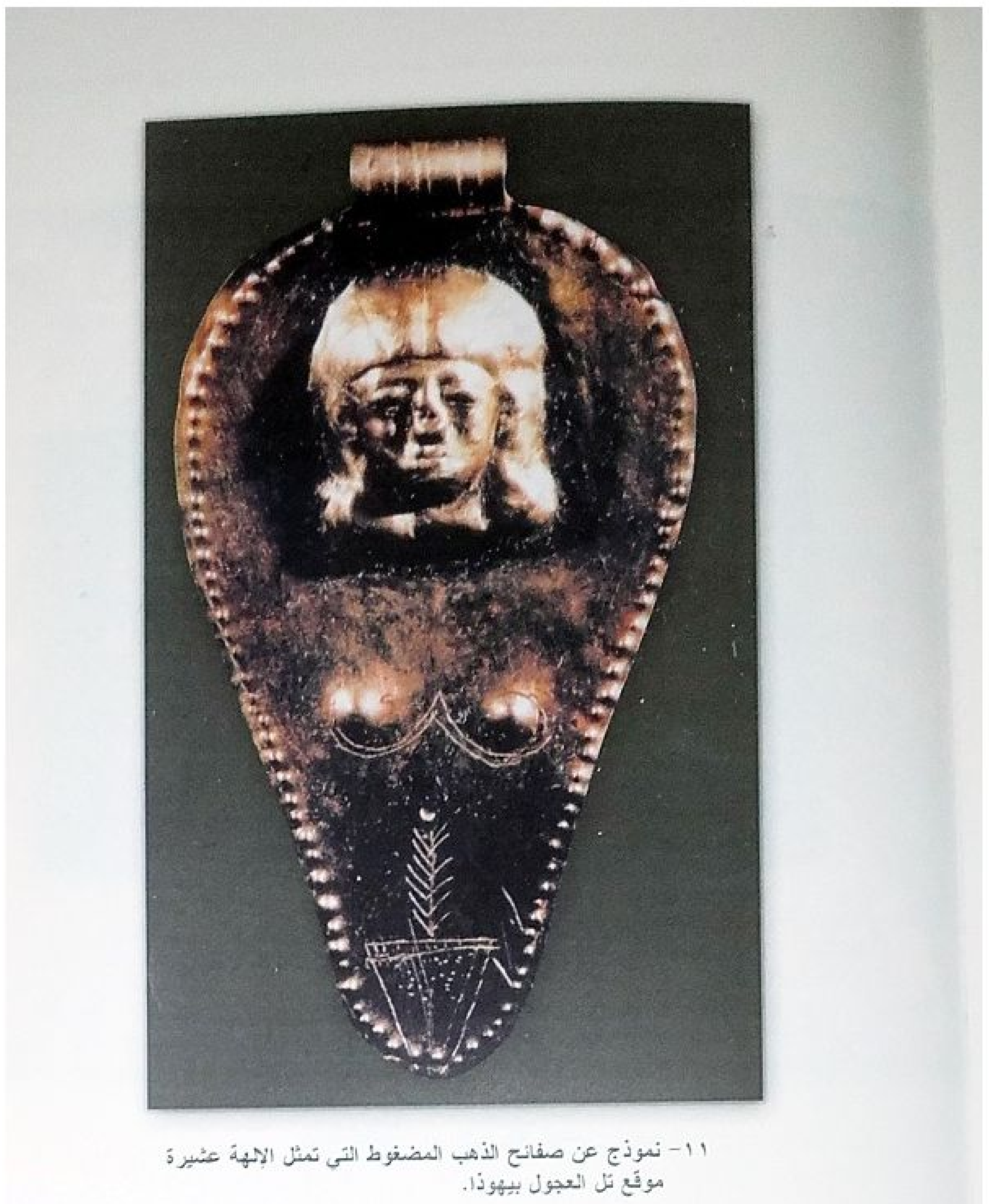
٨- نموذج من تمثيلات الآلهة
الفلسطينية القديمة
ربما للإلهة عشيرة من
أواخر القرن الحادي عشر



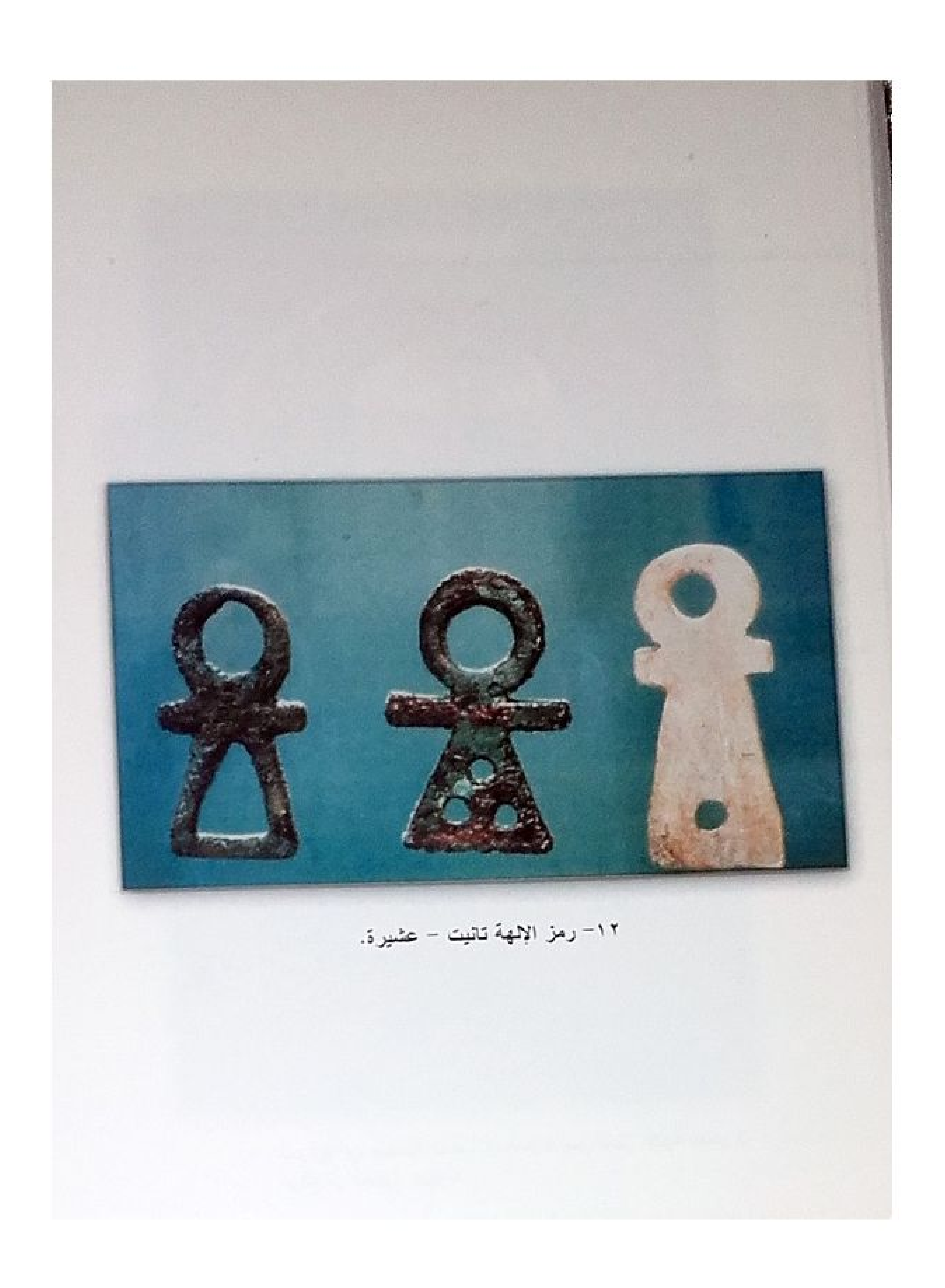
٩- دمية جذعية من موقع أشقلون في السهل الفلستي
تمثل الإلهة عشيرة - القرن الثامن قبل الميلاد.



١٠- نماذج متنوعة من الدمى الجذعية عثر عليها في يهوذا القرن السابع قبل الميلاد.

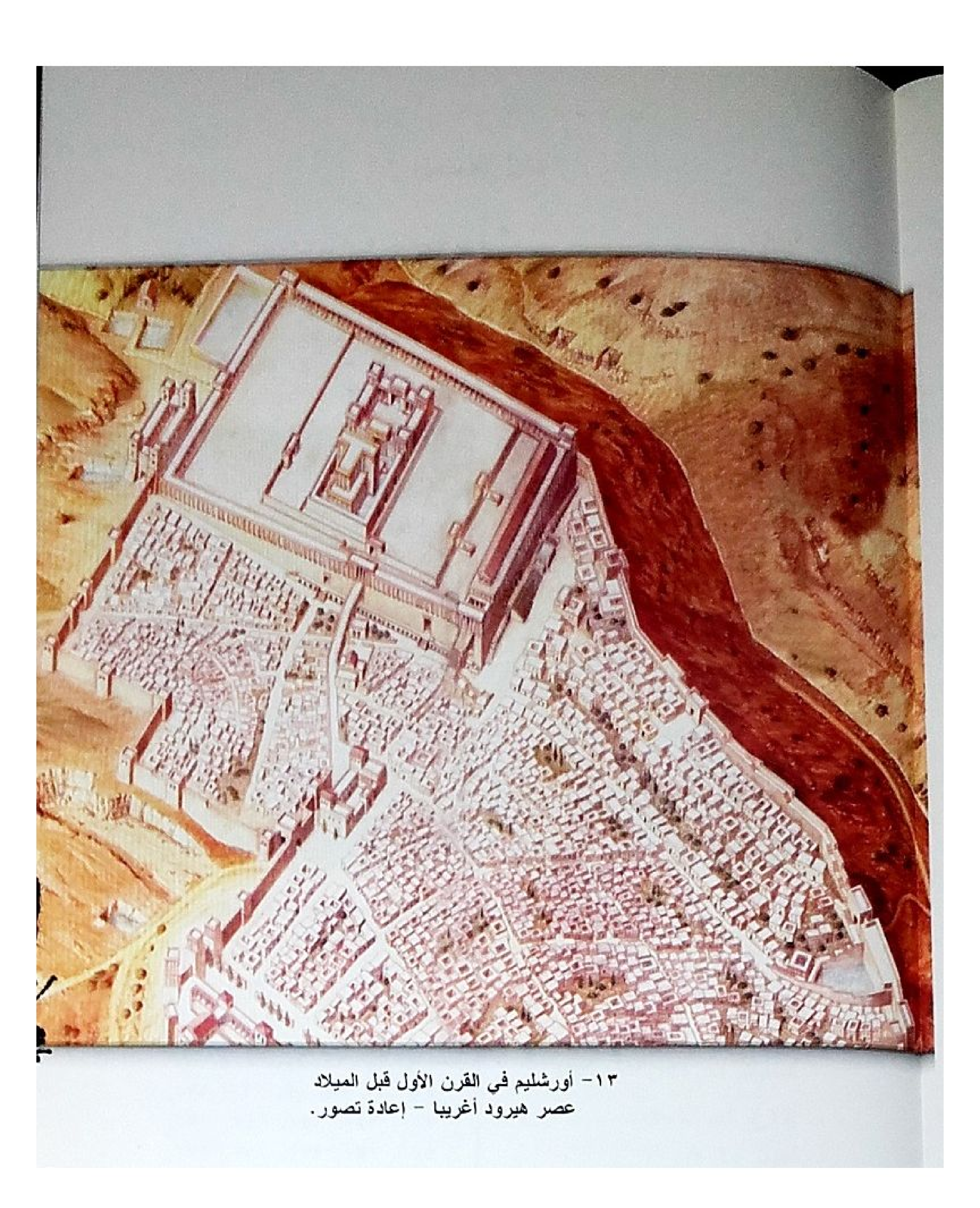


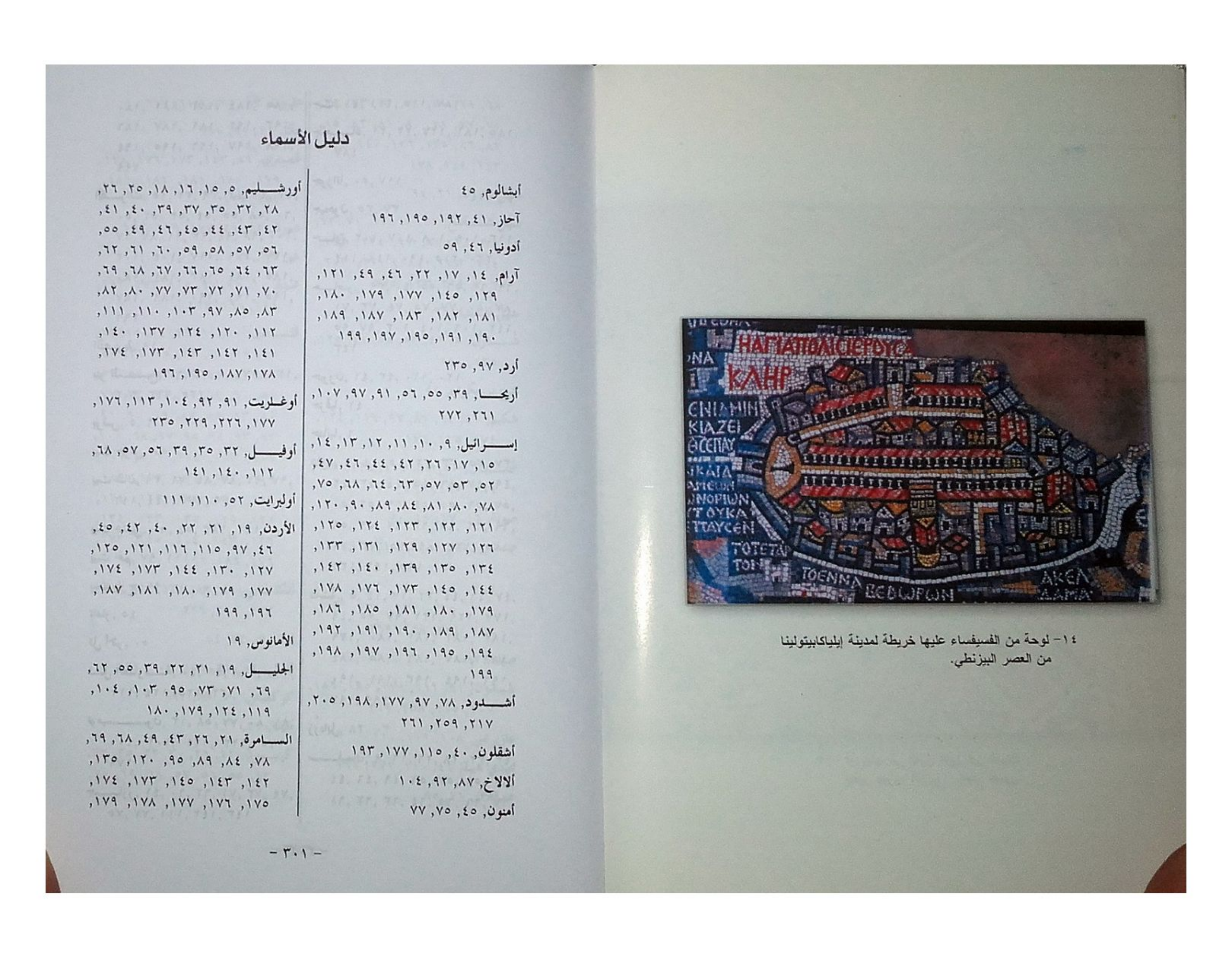
١١- نموذج عن صفائح الذهب المضغوط التي تمثل الإلهة عشيرة موقع تل العجول بيهوذا.



١٢- رمز الإلهة تانيت - عشيرة.

١٣- أورشليم في القرن الأول قبل الميلاد
عصر هيرود أغريبا - إعادة تصور.





دليل الأسماء

١٤- لوحة من الفسيفساء عليها خريطة لمدينة إيلياكابيتولينا من العصر البيزنطي.

فهرس الأشكال

المحتويات

المراجع

- Allbright, William Foxwell., Accadian letters. In: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.
- Allbright, William Foxwell., Palestinian Inscriptions in: James Pritchard, Ancient Near Eastern 'texts.
- Ben Tor, Amon., Excavating Hazor. In: Biblical Archaeology Review, March- April 1999.
- Callaway, Joseph., Settlement and Judges. In: Hershel Sahnks, Ancient Israel.
- Finklstein, Israel., The Rise of Ancient Israel. In: S.Ahituv and E.d. Oren, The Origin of Early Israel, Ben Gorion University 1998.
- Finklstein, Israel, and Silberman, N.A., The Bible Unearthed, Free Press, New York 2001.
- Finklstein, Israel, and Ussishkin, David., Back to Megido, in: Biblical Archaeology Review, Jan-Feb 1994.
- Frits, Bolmar., What Archaeology Tells us about Slolmon's Temple. In: Biblical Archaeology Review, July- August 1987.
- Gill, Dan., Archaeology solves the Mystrey of Hezkiah Tonnellers, In: Biblical Arachaeology Review, July- August 1994.
- Goetze, A., Egyptian and Hitite Treaties. In: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.
- Ginsberg,H.L., Aramaic Letter. In: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.
- Hestern Ruth., Understanding Ashirah. In: Biblical Archaeology Review, Sep. Oct. 1991.
- Horn, S.H., The Divided Monarchy, in: Hershell Shanks, Ancient Israel.
- Johnson, Paul, A History of the Jews, Phoenix, London 1995.

E.J. Brill, Leiden 1994.

- Thompson, Thomas. L., The Bible in History, Jonathan Cap, London 1999.
- Whitelam, Keith., The Invention of Ancient Israel, Rotledge, London 1997.
- Weiss, Harvey, edt, Ebla to Damascus, Smithonian Instituet, Washington D.C, *1985*.
- Zertal, Adam., Archaeology of the Land of Israel, Doubleday, London 1990.
- Zertal, Adam., Israel Inter Canaan, in: Biblical Archaeology Review, Sep- Oct 1991.
- Zertal, Adam., will Tell Rohov Save the United Monarchy? in: Biblical Archaeology Review, March-April 2000.

- أ.هـ.م جونز : مدن بلاد الشام عندما كانت ولاية رومانية – ترجمة د. إحسان عباس ، دار الشروق ، عمان ١٩٨٧ م.
- د. إحسان عباس : تاريخ دولة الأنباط ، دار الشروق ، عام١٩٨٧م .
- إدوار سعيد : الإمبريالية والثقافة – ترجمة كمال أبو ديب ، دار الآداب – بيروت ١٩٩٧ م.
- علي أبو عساف : الآراميون – دار أماني – طرطوس ١٩٨٨ م .

- Kenyon, Kathleen., Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London 1974.
- Kenyon, Kathleen., Archaeology in the Holy Land, Manthuen, London *1985*.
- Kenyon, Kathleen., Royal Cities of the Old Testament, Barrie and Jenkens, London 1971.
- Kenyon, Kathleen., The Bible and Recent Archaeology, Colonade Books, London 1978.
- Kochavi, Moshe., Tripartite Buildings, in: Biblical Archaeology Review, May-June 1999.
- Levine, Lee., The Age of Hellenism, in: Hershel Shanks, Edt. Ancient Israel.
- Mathiae, Paolo., Ebla, Hadder and Stoughton, London 1980.
- Manson, John., Ain Dara Temple- Closest Solomonic Parallel, in: Biblical Archaeology Review. May-June 2000.
- Miller. J.M, and Hayes, D.H., History of Ancient Israel, Phiadilphia, Westmenster 1986.
- Nahkai, B., What is Bamah? in: Biblical Arhcaeology Review, May-June 1994.
- Oppenheim, Leo., Assyrian and Babylonian Historical Texts, in: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.
- Pitard, W.T., Ancient Damascus, Eisenbrauns, Indiana 1987.
- Pritchard, James., Edt, Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969.
- Purvis, James., Exile and Retun,. in: Hershel Shanks, Edt, Ancient Israel.
- Shanks, Hershel., edt, Ancient Israel, Prentice Hall, New Jersey 1988.
- Steiner, margarit., David's Jerusalem, Fiction or History? in: Biblical Arahcaeology Review, July-August 1998.
- Thompson, Thomas. L., Earl History of the Israelite People,

المؤلف في سطور

❖ فراس السواح،

❖ باحث في الميثولوجيا والتاريخ وتاريخ الأديان.
من مواليد حمص/ سورية ١٩٤١.

❖ صدرت له الأعمال المطبوعة التالية:

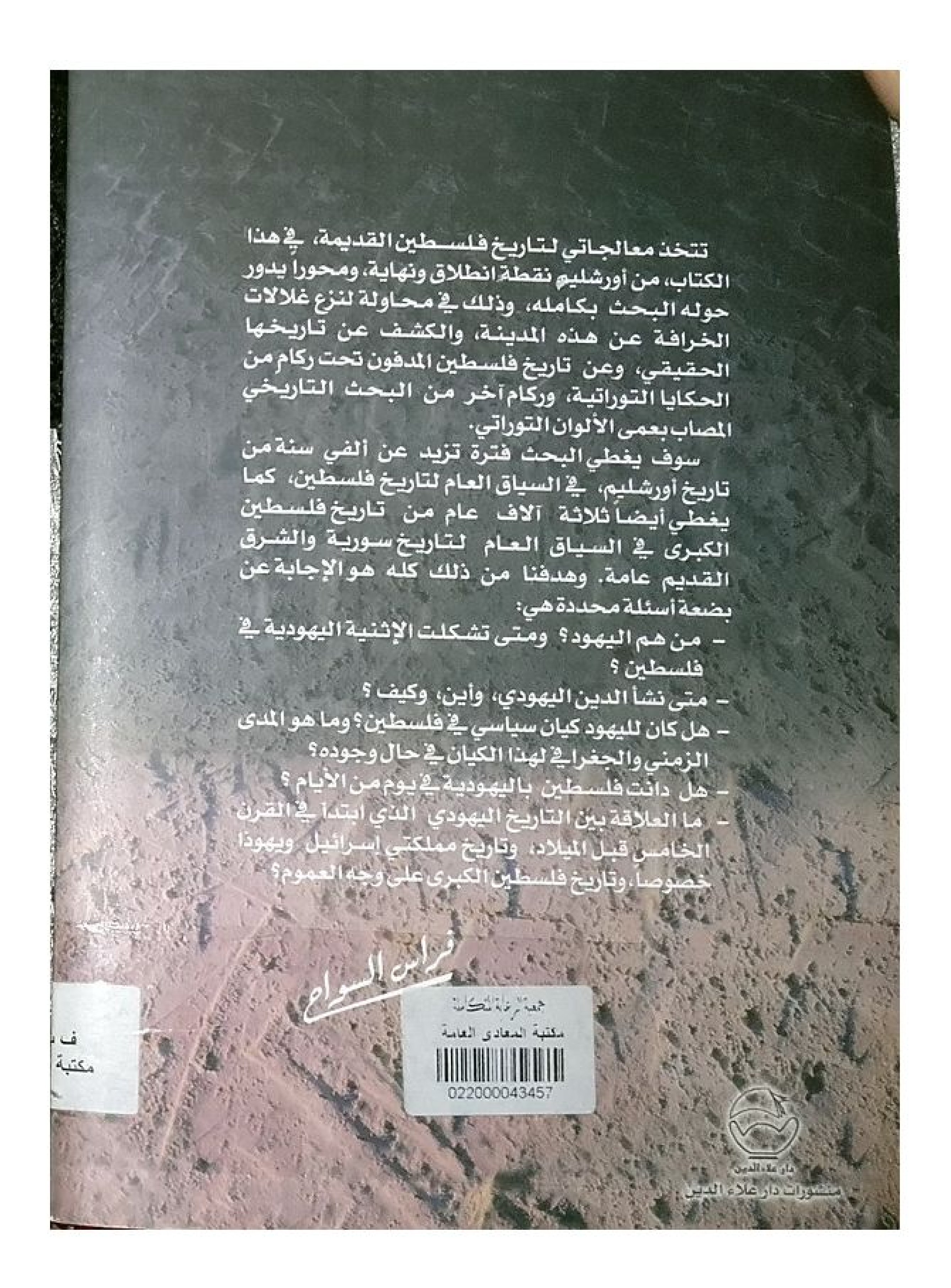
- مغامرة العقل الأولى. دراسة في الأسطورة
  الطبعة الأولى، دمشق ١٩٧٨، الطبعة الحادية عشر، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٦.
- لغز عشتار. الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة
  الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٥. الطبعة السادسة، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٦.
- كنوز الأعماق. قراءة في ملحمة جلجامش
  الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٧.
- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
  الطبعة الأولى ١٩٨٩. الطبعة الثانية ١٩٩٧، دمشق. دار علاء الدين
- دين الإنسان. بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني
  الطبعة الأولى ١٩٩٤. الطبعة الثالثة ١٩٩٨، دمشق. دار علاء الدين
- آرام دمشق وإسرائيل. في التاريخ التوراتي
  الطبعة الأولى، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٥.
- الأسطورة والمعنى. دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية
  الطبعة الأولى، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٧.
- كتاب التاو. إنجيل الحكمة التاوية في الصين
  الطبعة الأولى، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٨.
- الرحمن والشيطان. الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية
  الطبعة الأولى، دمشق. دار علاء الدين ٢٠٠٠.
- تاريخ أورشليم — والبحث عن مملكة اليهود
  الطبعة الأولى، دمشق، دار علاء الدين ٢٠٠١.

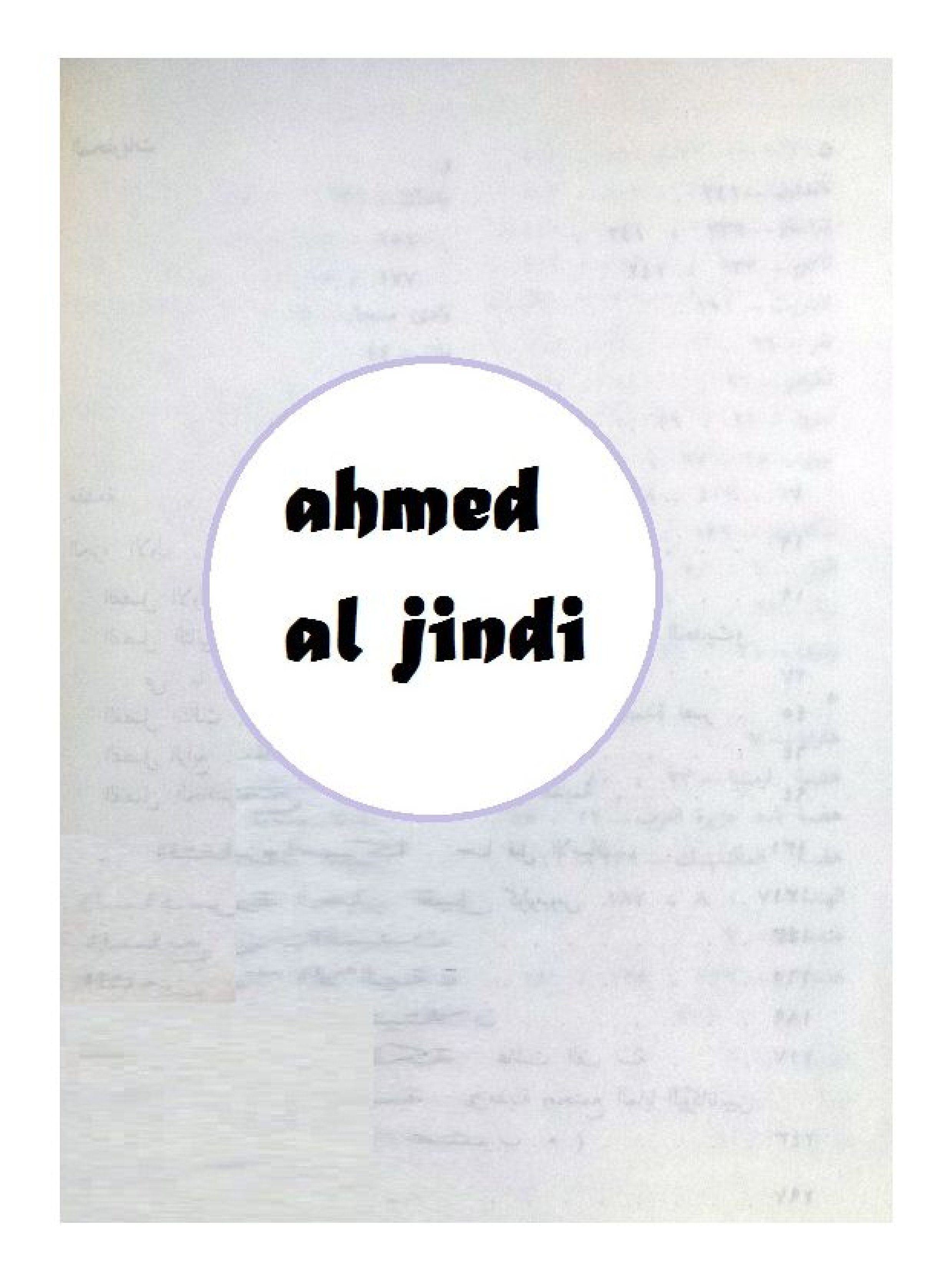
قائمة كتب التاريخ والميثولوجيا لدار علاء الدين

العادات والتقاليد في جبل العرب	عطا الله الزاقوت
الحضارات القديمة ١-٢	ف. دياكوف / س. كوفاليف
صراع بين الحرية والاستبداد	فارس الحناوي
آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ و التاريخ التوراتي	فراس السواح
الأسطورة والمعنى ـ دراسة في الميثولوجيا و الديانات المشرقية	فراس السواح
التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية	فراس السواح
الحدث التوراتي في الشرق الأدنى القديم	فراس السواح
الرحمن والشيطان الثنوية الكونية و لاهوت التاريخ في الديانات	فراس السواح
جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة	فراس السواح
دين الإنسان ـ بحث في ماهية الدين و منشأ الدافع الديني	فراس السواح
لغز عشتار ـ الألوهية المؤنثة و أصل الدين و الأسطورة	فراس السواح
مغامرة العقل الأولى ـ دراسة في الأسطورة في سوريا و بلاد	فراس السواح
تاريخ أورشليم	فراس السواح
إله الشمس الحمصي	فرانتس الهايم
الحضور اليماني	فضل عبد الله الجثام
المصادر التاريخية العربية في الأندلس	ك. بويكا
دراسات حول الأكراد	ليرخ
معجم الأساطير	ماكس شابيرو
سويداء سوريا موسوعة شاملة عن جبل العرب	مجموعة من المؤلفين
الاثنولوجيا ـ دراسة في المجتمعات البدائية	محمد الخطيب
الفكر الإغريقي	محمد الخطيب
مصر أيام الفراعنة	محمد الخطيب
موسوعة تاريخ القفقاس والجركس	محمد جمال صادق إبه زاو
صرح ومهد الحضارة السورية	مفيد عرنوق
الديانة الزرادشتية	نوري إسماعيل
الديانة الفرعونية	واليس بدج

قائمة كتب التاريخ والميثولوجيا لدار علاء الدين

تاريخ الجماعات السرية	أركول دارول
معركة المزرعة ملحمة السلاح الأبيض	إسماعيل الملحم
تاريخ اليابان	أودين أولدفادر
الجنس في العالم القديم	بول فريشاور
السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية	جان كلود مارغرون
من هم الموحدون الدروز	جميل أبو ترابي
أميرات سوريات حكمن روما	جودفري تورتون
أساطير في أصل النار	جيمس فريزر
اليوم الآخر ونهاية الزمان	خالد صناديقي
الاقتباس والجنس في التوراة	خالص مسور
المراحل التاريخية والسياسية لتطور النظام الإداري في سوريا	دنحو داوود
القاهرة وبيت المقدس ودمشق	ديفيد صموئيل مارجوليوث
هل هبط آدم في القفقاس	رحيم كاظم الهاشمي
سلسلة الأساطير السورية	رينيهن لابات
طقوس الجنس المقدس	س. كريمر
السريان المسيحيون المسلمون	سمير عبده
السريانية العربية	سمير عبده
المسيحيون السوريون خلال ألفي عام	سمير عبده
المسيحيون السوريون قديما وحديثا	سمير عبده
من أنساب العرب العاربة	صالح هواش المسلط
صفحات منسية من نضال الجزيرة السورية	صالح هواش المسلط
أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة	عبد أحمد السعدي
بدايات الحضارة	عبد الحكيم الذنون
تاريخ القانون في العراق	عبد الحكيم الذنون
الأسطورة في بلاد الرافدين	عبد الحميد محمد
أضواء على الثورة السورية الكبرى	عطا الله الزافون


تتخذ معالجاتي لتاريخ فلسطين القديمة، في هذا الكتاب، من أورشليم نقطة انطلاق ونهاية، ومحورا يدور حوله البحث بكامله، وذلك في محاولة لنزع غلالات الخرافة عن هذه المدينة، والكشف عن تاريخها الحقيقي، وعن تاريخ فلسطين المدفون تحت ركام من الحكايا التوراتية، وركام آخر من البحث التاريخي المصاب بعمى الألوان التوراتي.
سوف يغطي البحث فترة تزيد عن ألفي سنة من تاريخ أورشليم، في السياق العام لتاريخ فلسطين، كما يغطي أيضاً ثلاثة آلاف عام من تاريخ فلسطين الكبرى في السياق العام لتاريخ سورية والشرق القديم عامة. وهدفنا من ذلك كله هو الإجابة عن بضعة أسئلة محددة هي:
- من هم اليهود؟ ومتى تشكلت الإثنية اليهودية في فلسطين؟
- متى نشأ الدين اليهودي، وأين، وكيف؟
- هل كان لليهود كيان سياسي في فلسطين؟ وما هو المدى الزمني والجغرافي لهذا الكيان في حال وجوده؟
- هل دانت فلسطين باليهودية في يوم من الأيام؟
- ما العلاقة بين التاريخ اليهودي الذي ابتدأ في القرن الخامس قبل الميلاد، وتاريخ مملكتي إسرائيل ويهوذا خصوصا، وتاريخ فلسطين الكبرى على وجه العموم؟
فراس السواح
جمعية الرعاية المتكاملة
مكتبة المعادى العامة
022000043457
دار علاء الدين
منشورات دار علاء الدين


ahmed
al jindi